

المارشال رومل

أعظم عبقرية عسكرية في العصر الحديث

في معارك شمالي افريقيا ضد الحلفاء

درس في الفن العسكري والاستراتيجية الحربية

الطبعة الثانية

وصف للمعارك ونظرة للموقف، ودرس للحركات العسكرية

بقلم كبار النقاد العسكريين

https://archive.org/details/@hassan_ibrahem

المارشال رومل

محمد أبو يوسف الدريشي

المارشال رومل

أعظم عبقرية عسكرية في العصر الحديث
في معارك شمالي افريقيا ضد الحلفاء
درس في الفن العسكري والاستراتيجية الحربية

صار جمعه من مختلف المصادر
الانكليزية والالمانية والاميركية ،
وتعليقات النقاد العسكريين .

بقلم

عمر ابو النصر

(تصدر عن مكتب « عمر ابو النصر » للتأليف والترجمة والصحافة)
بناية درويش ـ شارع سورية ـ بيروت

١٩٦٩

محمد يوسف التميمي

قصة بطل

هذا الكتاب يقص عليك قصة المعارك الحربية التي خاضها (رومل) العبقرية العسكرية في الحرب العالمية الثانية ، سواء في أوروبا أم في شمال افريقيا ..

وهو كتاب يعني بالنواحي العسكرية،عنايته بالنواحي النفسية والعاطفية، ترى فيه رومل يدير معركة من اصعب المعارك وهو هادىء متمكن من نفسه ومن حسن تفهمه للارض والسلاح والخصوم ، كما تراه بين جنوده وعائلته رجلا شريفا نبيلا ، وابا وزوجا كريما ..

وهذا الكتاب كتبه اكثر من قائد عسكري وناقد حربي احطت فيه بكل ما كتب عن (رومل) منذ نشأته حتى انتحاره بأمر هتلر ..

وتبسطت فيه بالمعارك العسكرية التي دارت في شمال افريقيا تبسطا واسعا ، لما كان لهذه المعارك في ارض العرب من تأثير على تاريخ العرب بعد الحرب العالمية الثانية ..

كما زينته بالخرائط العسكرية التي تصف خطط الهجوم والدفاع ، ليفيد منه كل جندي وضابط وقاريء ومؤرخ ..

وسيجد القاريء ما ابتدأ بمطالعة هذا الكتاب كيف اني جلوت المعارك المختلفة باسلوب طري وتبويب لطيف ، وتقسيم جميل ، يجعل من المعركة قصة كاحسن ما تكون قصص الحياة التي نحياها ..

***

وهناك شيء افضت في وصفه ايضا ، وهو قصة القائد الذي تغلب على

رومل في حرب الصحراء.. وان كانت هذه الغلبة قد تمت بسبب عدة عوامل أهمها ان المارشال الالماني ، لم يكن يملك من اسباب الظفر ما يملكه خصمه ، واهم هذه الاسباب السلاح والاغذية والرجال والطيران ..

ولعلي لا اغالي اذا قلت ان المارشال مونتغمري نفسه الذي غلب رومل في معركة العلمين ، كان أول من اعلن ان انتصاره لم يكن كاملا ، وان رومـل في انسحابه كان اوكد نصرا ، واشد براعة ، وادهى كيدا من العدو الذي كان خلفـــه ..

في قصص الابطال العالميين دائما غذاء للعقول المتعطشة الـى السمـو والابداع و (رومل) ما في ذلك شك بطل من هؤلاء الابطال الذين ســـوف يخلدهم التاريخ .. خصوصا تاريخ الحرب العالمية الثانية ..

***

والواقع كما يقول الاستاذ انيس منصور ان هناك نوعان من الابطـال : ابطال صنعتهم الاحداث ، وابطال صنعوا الاحداث ..

ومن المؤكد ، بشهادة الاصدقاء والاعداء ، ان رومل هو بطل معـــارك الصحراء .

ولم يتفق المؤرخون على القيمة الحقيقيـة لمونتغموي . هـل صنعتـه الاحداث او صنع هو الاحداث .

وفي كل مرة يتحدث اي انسان عن معركة العلمين ، لا بد ان يتحدث عن القائد الالماني رومل : ثعلب الصحراء . فهو القائد الذي استطاع بذكـــاء وشرف ان ينال احترام جنوده وتقديس خصومه لدرجة انه كان خطرا عـلى الجيش الثامن البريطاني حتى صدرت التعليمات بمنع الكلام عنه . بعـد ان اصبح الكلام عنه خيانة للامانة العسكرية ، لان رومل عدو ، ويجب ان يكون عـدوا !

ومعركة العلمين من اشهر معارك التاريخ . ونقطة تحول في الحـــرب العالمية الثانية . والانتصار فيها انتصار لكل الحلفاء . وروزفلت لم يكن مبالغا عندما بعث لتشرشل يقول له : ان الانتصار في الصحراء هو انقاذ لمصر وقناة السويس وسوريا وبترول الخليج وايران والهند وعقبة ضد اتصال اليابان والمانيـا ..

***

ومعركة العلمين بدات قبل يوم ٢٣ تشرين الاول سنـة ١٩٤٢ بوقـت

طويل . فقد تقدمت القوات البريطانية بقيادة ويفل وضربت القوات الايطالية . وعرف العالم كله ان الجندي الايطالي ليس الا صورة فخمة فخمة فقط . ولكنه كمقاتل يجيء في الدرجة الثانية او الثالثة بعد اي جندي اخر في العالم ..

وكان لا بد ان يمر ويفل بمحنة قاسيةجدا ، عندما تصدى له ثعلب الصحراء رومل الذي ارسله هتلر الى الصحراء في شباط سنة ١٩٤١ . وذاق ويفل طعم الهزيمة . وارسله تشرشل الى الهند ..

***

وجاء من الهند او كنلك . وظل اوكنلك يرتب جنوده وينظم خطوطه ويستجدي المعونة المادية والعسكرية حتى كان يوم السبت الاسود واقتحم رومل مدينة طبرق . وكانت اقسى هزيمة واجهت القوات المتحالفة في الصحراء . وسقطت طبرق . وسقط معها القائد اوكنلك .

وكلما سقط قائد بريطاني ارتفع تمثال لرومل في قلب .. في الصحراء وفى العالم كله .

وجاء تشرشل الى القاهرة .. واصدر قرارا سريا بان يكون الكسندر قائدا لقوات الحلفاء في الصحراء . والكسندر هو بطل الانسحاب الشهير في دنكرك .

وتحت قيادة الكسندر جاء مونتجمري قائدا للجيش الثامن . ولم تكن مشكلة الحلفاء في هذه المعركة هي الاستيلاء على مئات الاميال من الرمال من الاسكندرية الى تونس . وانما كان الاستيلاء على البحر الابيض المتوسط . وقطع خطوط الامدادات الالمانية ايطالية . وفي هذه الفترة من الحرب استخدم المان كل وسائل الارهاب والتخويف : الجواسيس والاذاعة والمنشورات والحرب الخاطفة .. ورومل !

وكان رومل هو اخطر هذه الاسلحة فقد انتشرت اخباره ونوادره في كل الصحف المعادية وكل الاذاعات التي يستمع اليها الجنود وراء الصفوف . وقد لوحظ ان الاسرى من الفريقين كانوا يعترفون بانهم يستمعون الى الموسيقى والاغاني الايطالية !

والان يجب ان اتساءل : هل هذا الذي قلت يعتبر وصفا لمعركة العلمين؟ هل من السهل ان يصف الانسان « بالكلمة » هذه المعارك الدامية ؟ هل يمكن

ان نقول عنها انهـا تحركات هائلـة ؟ هل للكلمة « تحركات » هذه اي معنى ؟

***

ان وصف معارك القتال صعب جدا .. ولا يمكـن ان يصفها الا جندي ، وليس كل جندي قادرا على الوصف . فاذا حدثك اي جندي عن « الرمال » التي اختلطت بطعامه وشرابه ودخلت عينيه واذنيه ، وتسللت الـى رئتيـه .. وكيف انـه عاش اياما من نار كانت كلها تلسع . هل لهـذا الكلام اي معنى ؟ هل في استطاعتك ان تتصور ان معركة العلمين التاريخية هذه لـم تستمر سوى ١٢ يوما من ٢٣ تشرين الاول الى ٤ تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ . هذه المعركة التي غيرت وجه التاريخ . هل يمكنك ان تتصور هذه المعركة اذا قلت لك ان مونتغمري قد كسبها في ربع الساعة الاخيرة من المعركة ؟ هـل تستطيع ان تتصور كيف تحقق لـه هـذا النصر ؟

لقـد بدأت معركة العلمين التاريخيـة في الساعة العاشرة الا ربعا مـن ليلة قمرية . وانطلق الف مدفع على طـول الجبهة . وظلت هـذه المدافـع تضرب بعنف لا مثيل له في التاريخ . ثم سكتت مرة واحدة لمدة خمس دقائق!

وبعـد الدقائق الخمس بدأ الزحف وكان الزاحف هو الجيش الثامـن الذي تم تدريبه وتنظيمه وتجديده . ولـم يكن هـذا الجيش بريطانيا كلـه طبعا . وانما كان فيه انكليز وكـل جنود المستعمرات وقـوات مـن فرنسا وبولندا واليونان وتشيكوسلوفاكيا .. اما الدبابـات والطائرات والمصفحات فكلها اميركية . .ولم يحدث ان افلحت بريطانيـا في صنع دبابة واحـدة ذات قيمـة !

وكانت جبهة القتال ضيقـة محدودة كثيفة . انها تبدأ من البحر الابيض الى منخفض القطارة . وهي جبهة ليس لها جناحان . ومن الصعب اختراقها . وكـان مونتجمري يعلم ذلك بوضوح . وقد اعلن في مؤتمره الصحفي « ان هذه المعركـة قد دخلناها ونحـن لا نريـد ان نكسب موقعة . وانما المعركة كلهـا . الحرب كلها . فنحـن لا نريـد ان نحارب الالمان ، وانما نريـد ان نمسحهم من شمـال افريقيـا . وانا اعتقـد ان المعركـة يمكن ان نكسبهـا بالروح المعنويـة في الدرجـة الاولـى » .

ومونتجمري كرجل متديـن وابن قسيس وانسان مستقيم لا يدخن ولا يشرب ، يرى ان القيم الاخلاقية هي في الدرجة الاولـى . ومعه حق . ولكن ليس كل الحق . فالتدريب مهم . والاعداد مهم والتموين مهم . والطعام مهم

جدا جدا : فالجيوش كالثعابين تزحف على بطنها . اي تتقـــدم اذا امتلأت بطـونهـــا !

والمسافة بين مونتجمري وروميل كلها حقول الغام غريبة وعجيبة . فهـي اعجب حقول الغام في التاريخ كله . فقـد افلح المهندسون الالمان ان ينشروا الالغام في كل مكـان وفي كل شيء . تحت دبابة وكل سيارة وكل خوذة.. بل انهم ربطـوا جثث الجنود الايطاليين بالالغام .. ووضعوا الالغام علـى عتبات البيوت .. واصبح كل جندي بريطاني يخاف ان يمـد يده الى اي شيء في الارض .. حتى زجاجات النبيذ الفارغة كانت مربوطـة بالالغام . والصور المعلقـة على الجدران .. والاحبال والملابس .. الالغام في كل مكان: منتهـى الهندسـة الشريـرة !

***

وفي اول يوم لبدايـة معركـة العلمين سقط القائد الالماني شتومه بذبحة صدرية من سيارته . وظلت جثته ملقاة على الارض حتى اكتشفوهـا فـي اليوم التالي . اما روميل فكان مريضا في المستشفى . واتصل به هتلر تليفونيا وامره ان يعـود فورا الـى الصحراء . فطار الى الصحراء ومعه طبيب ومعه عقاقيـر وعصـا يستنـد اليها . وعندمـا نزل روميل وسأل عن الحالـة وبعملية حسابية بسيطـة وبذكائـه الشديـد ، وعندمـا علـم ان امدادات البترول قد نقصت وان سلاح الطيران البريطاني قد اغرق معظم السفن بين افريقيـا وايطاليا ،اعلـن روميل انه لا امل في النصر .. وقد تحسن الموقف العالمـي لصالـح الحلفاء ، بعد ان اعلنت المانيـا الحرب على روسيا قبل ذلك وبعد ان ارسلت قواتها الـى اليونان ويوغوسلافيا . وبعـد ان اصبح من الصعب على روميل ان يجـد اية امدادات جديدة . ولكنه كقائد عظيم قرر ان يقوم بعمل باهـر . لقـد قام بمعركة الانسحاب الـى الوراء . وكانت معركة بارعة وسليمـة .

وقد اختلفت الاراء العسكرية : هل روميل هو صاحب اسرع هجوم فـي التاريـخ او هو صاحب ابرع انسحاب في التاريـخ ؟

وعندمـا بلغت تشرشل انباء العلمين وما اصاب الالمان والايطاليين مـن الخسائر في الارواح والعتاد سأل القائد الكسندر ان كان من المناسب ان تدق الكنائس اجراسهـا في بريطانيا اعلانـا لاعظـم انتصار عسكـري احرزه الحلفاء . ثم عاد تشرشل فقرر انه لا داعي للاجراس الان .. فهو يتشاءم من الاجراس التـي تسبق الاحداث . وفضل ان ينتظر حتى النهاية .

***

ونزل الاميركان في الجزائر .. واصبح رومل في اصعب مواقفه التاريخية . وكل عمل قام به دفع به الى الكارثة المحققة .

واحس الجنود الالمان ان شيئا غريبا قد حدث . فالحلفاء قد ضموا قواتهم وركزوها . ثم انهم اتوا باسلحة جديدة وخصوصا دبابات شيرمان وجرانت. وقد افلح مونتجمري في اخفاء هذه الدبابات فجعلها تبدو من الجو على انها لوريات .. او ناقلات جنود . فكانت اذا اطلقت عليها الطائرات مدافعها الرشاشة لم تصبها الا اصابات سطحية .

***

والتجربة الوحيدة التي استفادها الحلفاء من معركة رومل مع ويفل هي انهم عرفوا ان رومل شديد الحساسية لجناحي قواته . فهو حريص دائما على ان يؤمن الجناحين . ولذلك جعل مونتغمري يوجه ضرباته كلها على الجناح الشمالي . حتى ارهق القوات الالمانية ثم اتجه الى القوات الايطالية في الجنوب وارهقها ايضا ومن وراء الجناح المهيض في الشمال زحفت قوات الحلفاء متفادية حقول الالغام .

وقد وصف رومل هذه الساعات في مذكراته الخاصة فقال : لقد احسست انني لم اطعن في الصحراء . وانما طعنوني في برلين . وهذا هو الفرق الوحيد بين معارك الصحراء والمعارك الاوروبية .. ان المعركة هنا صريحة ومكشوفة . ولكنها في اوروبا غامضة .. لا اعرف فيها الصديق من العدو!

وعندما كتب رومل هذه العبارة لم يكن يعرف نتيجة هذه المعركة . اما معركة الصحراء فقد خسرها . ولكنه كسب اعجاب اعدائه .. اما معركة الخيانة في القيادة العليا للجيش الالماني ، فكان من نتيجتها انه استدعى الى اوروبا ، وانه اتهم في التآمر على هتلر . ولو نجحت هذه المؤامرة لاصبح هو رئيسا لالمانيا ولتقدم بطلب الصلح او الاستسلام التام . ولم تنجح المؤامرة وانما نجح هتلر في ان يتخلص من رومل . فقد ذهب احد رجال المخابرات الى بيت رومل . وطلب اليه ان يركب سيارة والا يخبر زوجته وابنه الوحيد بشيء . ولما ابتعدت السيارة عن البيت طلب اليه ان يبتلع كمية من السم . وفي هذه اللحظة مرت طائرة واطلقت مدافعها على رومل وسيارته . وبذلك اختفت معالم الجريمة !

وحزن عليه كل الجنود الذين حاربوه في الصحراء . لانه كان قائدا شريفا نظيفا . ولانه كان بارعا . وعلى الرغم من انه لم يكن خبيرا في

معارك الصحراء ، فانه كان في غايـة المرونة .. كأنه عاش طول عمره فـي هذه المسافـة بين العلمين وطرابلس !

***

واحب ان انبه الى انني اردت ان اكتب عـن مونتجمري . وعن انتصاره الساحـق في معركـة العلمين . ولكـن من المستحيل ان يكتب اي انسان، ناقد او مؤرخ او معلقعسكري ، على مونتجمري دون ان يتحدث عن انتصاره الكبير . انتصاره على من ؟ علـى روممل ! ودون ان يشرح هل كان انتصـارا حقيقيا للقائـد الانكليزي وحـده ، او كـان انتصارا للجيش الثامـن ، او للحلفاء ضد قوات المحور التي تفرقت في كل الجبهات : في روسيـا وفـي شمـال اوروبـا وفي جزيرة كريت وفي تونس والجزائر ..

ولا يوجـد كتاب واحد في التاريخ يتحدث عن عظمة القواد الاربعة : ويفل واوكنلكوالكسندر ومونتجمري دون ان يقيس عظمتهم بقدراتهم على الصمود امام روممل . كأنه من المفروض انه هو وحده القاهر المنتصر . حتى عندمـا انسحب كان منتصرا على الفوضى المألوفة في كل انسحاب عسكري ..

***

ان معركة العلمين كانت مصيدة لم يدخلها ثعلب الصحراء ، ولكن دخلها وهدمها اربعة من القادة الانكليز ..!

ان معركة العلمين كانت اعظم انتصار حققه الحلفاء في الحرب الثانية .

ولم يكـن تشرشل مبالغـا عندمـا قال جملته المشهورة :

قبل العلمين لـم نعرف النصر . وبعد العلمين لـم نعرف الهزيمة ؟

وهي عبارة بليغـة ولكنها ـ طبعا ـ قيلت قبل هزيمة السويس . وهي هزيمة عسكرية وسياسية ايضا ! (١)

***

هذه هي القصة قصة معارك الصحراء .. قصة عرضنا لبعض ملامحها، وفي الفصول التي تلي سنعرض لهذه الملامح كلها وسنغوص علـى اسرارها وسنشرح للقارىء اعظم صراع عسكري وقع في الحرب العالمية الثانية بيـن قوة كبيرة وفئة صغيرة ...!

عمر ابوالنصر

---

١ ـ انيس منصور .

الفصـل الأول

الحرب في الصحراء

الحركات العسكرية الاولى على الحدود المصرية

الصحراء

سوف أبدأ في وصف الاعمال الحربية في صحراء أفريقيا وفي شمالها على وجه التحديد ..

وسوف أقص على القارىء حديث رومل القائد الالماني ومعاركه وخططه وانتصاراته وفشله ، كما لم يقصها عليه كاتب قبل اليوم ..

وسوف أمضي في كتابتها ووصفها حتى انتهائها ، ذلك أنها بدأت قبل صدور الامر بالهجوم على روسيا ، وان كانت المعارك في روسيا قـــد لعبت دورا عظيما في نتائجها ومصايرها .

وحرب الصحراء الى هذا لها مطالبها الخاصة وخططها المستقلة التـــي تختلف كل الاختلاف عن حروب الميدان الاخـــرى ، سواء أكانت الطريـــق مستقيمة ، او تتصعد جبالا ، او تنحدر وديانا ووهادا ..

واذا كانت الصور التي شهدها الغزاة السابقون للصحراء قد تبدلت قليلا ، خصوصا فيما يتعلق بالمواصلات وأساليب الحرب فيها ، فان طبيعة الصحراء ، والعمل فيها لم يتغير ولم يتبدل ..

فقد تمكن الانسان مثلا من تذليل بعض متاعب الصحراء بواسطة المعدات الحديثة ، والطيران ، ولكن هناك أشياء فيها ظلت على حالها لم يستطع الانسان رغم تطوره تذليلها ، ولا تمكن من تخفيف حدتها ..

فقد ذكر التاريخ مثلا اخفاق أكثر من حملة في عبور الصحراء ، وكيف كان مردئ هذا الاخفاق مرة الى صعوبة السير فيها والتقدم فوق رمالها ، وأخرى الى نفاد الماء ، وثالثة لما قد يتعرض له المرء من اضاعة طريقه فيها ، وان كان التقدم العلمي والحربي الحديث قد خففا كثيرا من هذه العقبات والمتاعب ..

ولعل من أهم العقبات التي يصادفها الجيش في الصحراء مشكلات المياه ، وعدم صلاحية الارض للحركات الحربية ، وتقدم المعدات الحديثة ، وتعذر اخفاء تحركات الجيش عن طيران العدو في هذه الارض العريانة القاحلة ..

وعلى الجيش حين يشق طريقه في الصحراء للوصول الى غاياته العسكرية أن يحافظ على خطوط مواصلاته الممتدة مئات الاميال ، وعليه ان يوزع المؤن والذخائر على طلائعه المرابطة في المواقع البعيدة ، كما يكون عليه اتخاذ الحيطة في نقل جنوده وترحيل جرحاه ، وكل هذا تحت شمس محرقة وأرض لا ماء فيها ، تكثر فيها العواصف الرملية التي قد تدفن فرقة برمتها اذا اشتدت وثارت ..

والمياه امر حيوي جدا للجنود ، وللعربات أيضا ، ويتطلب ضمان توفرها تفجير نهر صناعي يتبع الجيش في تقدمه وذلك بمد المواسير وحمايتها ..

وكذلك تجهيز عربات خاصة لنقل الماء ، مع مداومة الكشف عن موارد المياه المحلية أثناء الطريق واستغلالها ، وذلك كله يحتاج لمجهودات كبيرة ، وعناية عظيمة ..

والعقبة الثانية هي قسوة الجو على المحاربين في الصحراء ، خصوصا الجنود الذين لم يتعودوا حياتها ، بل ولم يألفوا غير حياة ملؤها الرفاهية يتمتعون فيها بالمدفئات والمرطبات والمراوح ومكيفات الهواء .. في أحوال

جوية قليلة التحول .. قلما تشتد او تقسو .

فاذا انتقلوا لمسرح الحرب في الصحراء ، وجدوا شيئا موحشا مقلقا لم يألفوه ، وطالعهم عدو شديد يتمثل في جو هذه الفيافي القاسية الحرارة، فينال من صفاء فكرهم وحسن استعدادهم ، ويؤثر في حميتهم وشهيتهم للقتال ، خصوصا بعد ان اصبح الجنود مغيبين في بطون الدبابات والعربات فيلاقون الامرين من حرارة الطبيعة وحرارة المركبات ..

وهذا طبعا فوق ما يتعرض له المشاة أثناء السير في شمس الصحراء القاسية التي تسبب الكثير من الامراض بسبب هذا الجو الرديء ، فتبرز عندئذ مشقة جديدة وهي ضرورة توفر الاستعدادات الطبية ، ووحدات العلاج ، وتنظيمات خاصة لترحيل الجرحى والمرضى الى مناطق العمران حيث المستشفيات ، لتعذر أسباب المعالجة الدقيقة في الصحراء أو وجود أماكن فيها تناسب دور النقاهة والاستشفاء ..

والى جانب الحرارة يثب عائق آخر من عوامل الفناء والاعاقة ، وهو الزوابع والتيارات الهوائية بما تحمله من ذرات دقيقة من الرمال تقذي العيون وتشتد في بعض الحالات فتفتر الهمة وتوتر الاعصاب ..

وهي الى ذلك أيضا مفسدة للعربات عند نفاذها الى الاجزاء الميكانيكية ومخازن المياه والبنزين ..

وهناك اخيرا مشكلة الاختفاء فالصحراء تكشف تجمعات الجيوش وتحركاتها مما سبيل لاخفائه أو وقايته ولا يوجد فيها ما يساعد على الاستتار الذي تعطيه الاحراج والاشجار وشوارع المدن او الارض المزروعة ويزيد الحالة اشكالا ــ وعلى المدافعين بصورة خاصة ــ نشاط السلاح الجوي لاكتشاف نشاط العدو وأوضاعه وأخذ الصور الجوية الدقيقة لمواقعه مما يساعد على وضع الخطط الهجومية الاكيدة النجاح ..

ومشكلة التموين في حرب الصحراء صعبة جدا ، لانه فضلا عن الواجبات المقررة المفروضة في الميادين الاخرى ، تتطلب الصحراء حمل مقادير عظيمة من المياه والبنزين ونقلها مئات الاميال عبر الصحراء ، وتوزيعها على مئات النقط والمراكز المبعثرة هنا وهناك ، ولهذا فالحاجة كبيرة الى البنزين لتوفير وسائل الاصلاح التي تتطلبها طبيعة الارض غير الممهدة الخالية من الطرق ، والى ضرورة وجود آلات الغيار بوفرة وكثرة ..

والجيش في الارض العادية يقاتل بمعداته ، وأما في الصحراء فانه

يقاتل بقطع الغيار وورش التصليح ، اذ ان سير هـــذه المركبات الميكانيكية المستمر في الرمل والطرق الصحراوية يؤثر في الدبابات والسيارات ، ممـا يجعل الاصلاح المستمر وتغيير الآلات وتجديدها أمرا ضروريا ، كما ان تعدد الاسلحة واختلاف السيارات ، يجعل هذه المهمة شاقة محيرة ..

ثم انها حرب الفضاء الفسيح . . فميدان الصحراء يحتاج الامر فيـه الى السرعة والعمليات الحربية الخاطفة .

وهو ما أدركه المارشال روميل واقرّه في معاركه وزحوفه ..

غير أن العامل الاساسي في حرب الصحراء ، هـــو الميـــاه وضرورة توفرها ، والبنزين وضرورة استحضار كميات منه بكثرة ..

وما لم يتأكد هذان الامران ، فمن المستحيل القيام بحملة في الصحراء .. ما لم يكن قوامها حشودا مـــن الدبابات والسيارات الحربية المصفحة والطائرات ، لان أساس الحرب في هذه الارض كما قدمنا وأكدنا ، هو السرعة والسرعة الخاطفة ..

الحدود الغربية

الحدود بين صحراء مصر الغربية وليبيا تمتد مـــن بقعة علـى ساحل البحر الابيض المتوسط بين السلوم المصرية والبردية الليبية ، وتسير هـذه الحدود الى الجنوب في خط متعرج الى ما بين سيوه وجغبوب ثـم تستقيم على خط طول ٢٥ الى العوينات ..

وقد أقام الايطاليون من أعوام قبل الحرب حاجزا من الاسلاك الشائكة على امتداد هذه الحدود ، ولكنه لم يكن شيئا مذكورا من الوجهة العسكرية.. ولا قيمة له قطعا عند اشتداد الحرب ، وتقدم المصفحات ..

واذا استثنينا عدة واحات قليلة متناثرة أمكننا القـــول بأن الصحراء الغربية أرض قاحلة تتخللها هضاب ومرتفعات متباينة .. ففيهـــا هضاب رمادية اللون غير متساوية وسهول مترامية من الحصى على الـوان مختلفة ، وتلال صغيرة مسطحة من الصخر الابيض أو الاسود ، وأرض صلبة مستوية، ومساحات من التربة اللينة وطرقات مديـــدة متفاوتة السعـــة والارتفاع ومنخفضات تملؤها أكوام الرمال ..

وقد تكون الصحراء رملا ثقيلة يصعب سير العربات عليها ، أو صخورا



من مناظر الحرب في شمالي افريقيا اثناء الحرب العالمية الثانية

صلبة يتعذر اجتيازها ، او تكـون أرضا صلبـة مستوية تسمح بمسيـر المصفحات والدبابات وعموما تندر الطرق الصالحة ، وتصعب التحركات ..

ولما كانت الحرب الحديثة تقوم على أساس القوات الميكانيكية .. فـان الصحراء لم تعد شيئا مستحيلا وان كانت تكلف غاليـا .. فطبيعة الارض وخلوها في الغالب من الطرق الصالحة تجعل الحركة بطيئة وتلـزم الافراد بالبطء والاحتراس ، وتجهد العجلات والآلات .

وقد تظهر ارض لا سبيل لاجتيازها حيث سلاسل الرمال الرخوة ، او صخور صماء ذات انحدارات شديدة ، وحيث لا توجـد هيئات طبيعية أو علامات مميزة أو أغراض يمكن التعرف بها على الطريق ..

وحين تتضارب آثار العربات ، وتختلف الدروب ، تصبح الملاحة البرية من اشقّ صور الحرب ..

وفي ارجاء هذه الصحراء الشاسعة، عدة طرق مهدت وأخرى صالحة، للاستخدام في الاغراض الحربية ، وهي تمتد من وادي النيل الى الحدود الغربية والمراكز الساحلية ..

ويوجد خط حديدي من الاسكندرية الى (مرسى مطروح) تجاوره طريق مرصوفة الى الحدود ..

ويقابله في ليبيا طريق السيارات (اوتوستراد) الذي افتتحه موسوليني في شهر آذار من سنة ١٩٣٧ . ويبتدىء من (كابوتزو) على الساحل مارا بالبردية وطبرق والغزالة ودرنة وبنغازي واجدابية والعقيلة وطرابلس حتى يبلغ حدود تونس ، وطوله نحو ١٨٠٠ كيلو مترا .

المعارك الاولى

عندما أعلنت ايطاليا الحرب على انكلترا وفرنسا ، بدا لاول وهلة أن مهمتها ستكون حجز قوات انكليزية كبيرة في كل مكان يجاور امبراطوريتها .. ووضح ان الحدود المصرية ستكون تحت الخطر الشديد ، بعد أن أخذ الايطاليون يحشدون جنودهم وطائراتهم حولها ويتأهبون ..

ولما غزت ايطاليا اليونان ، كان على الانكليز مساعدة حليفتهم ، غير أن ذلك لم يمنع تتابع وصول الامدادات الى مصر من الهند ونيوزيلندا وأستراليا في سيل متلاحق ، نظرا لسلامة المواصلات في الشرق ، فضيع هذا على الايطاليين فرصة القيام بعمليات سريعة حاسمة في صحراء مصر ، بينما تمكن الانكليز من زيادة معداتهم واستعداداتهم ..

وكانت خطة الدفاع الانكليزية قد وضعت قبل نشوب الحرب العالمية الثانية ، بسنوات تمشيا مع التيارات السياسية ، وبوادر الخصومات الدولية ، فاتخذت التدابير لتحصين (مرسى مطروح) ومناطق الحدود عامة .. وجُهِّزت بالملاجىء الحصينة وحفر الدبابات .. وأعدت حقول الالغام ونطاقات الاسلاك الشائكة وغيرها من وسائل الدفاع الحديثة مع اصلاح الطرق ومدِّ مواسير المياه ووسائل المواصلات المختلفة ..

وقد اقتصرت الاعمال الحربية من يوم اشتراك ايطاليا في الحرب على نشاط الطائرات وأعمال الدوريات .. بينما كانت القوات تحشد في الجبهتين ومسائل التموين والمواصلات تشغل مجهودات الفريقين ، حتى

صدر أول بلاغ رسمي من مركز قيادة القوات البريطانية في الشرق الاوسط باحتلال الانكليز لقلعتي (كابوتزو) و (مادليتا) .. بعـــد ضربهما بقنابـل الطائرات وأسر مائة جندي ايطالي .. كمـــا ان الطائرات الانكليزية هاجمت الاهداف العسكرية في (سيدي عزيز) وواحة (جغبوب).. وضربت أنابيب المياه الممتدة من البردية وخطوط المواصلات المرتبطة بطبرق ..

وكانت غارات الطائرات الايطالية على السلوم ومرسى مطروح تحتـل البلاغات الرسمية منذ السادس عشر من شهر حزيران سنة ١٩٤٠ ، واعتادت الاسكندرية أن تسمع صفارات الانذار غير مقترنة بعدوان ، حتى كانت ليلـة ٢٣ تموز وما تلاها من يوم عصيب .. فقد سمعت الانذارات مع دوي المدافع وضجة القذائف من المساء حتى الثالثة صباحا ، ثم استؤنفت الغارة بعد عشر دقائق حتى الخامسة والثلث ، وتبع ذلك غارة ثالثة ورابعة وخامسة فـــي النهـــار ..

وقالت الصحف تعليقا على هذه الغارات :

« ان هذه الغارات شردت نوم سكان المدينة وارتهم نموذجا من العدوان على المدن الآمنة .. »

ولعل من الطريف أن نذكر أن هذه الغارة قامت بها تسع طائرات ألقت نحو ستة عشر قذيفة ، ونتج عنها قتل شخصين ، واصابة ٢٣ شخصا ..

ولقد بدأت القوات الايطالية اعمالها الحربية فـــي شمالـي افريقيـا وصحراء مصر ، منذ أول ايلـــول سنــــة ١٩٤٠ فتقدمت الـى (السلوم) و (امساعد) وكانتا هدف الغارات الايطالية المنتظمة ومرمى القنابل والقذائف المستمرة ، واخذ المارشال غرازياني على الاثر في تعزيز دفاعه غرب الحدود ، ثم تقدمت عناصر قوية من سيارات القتال فاتصلت بالقوات الانكليزية يـوم ١٥ ايلول ، حول (بقبق) فاجلتها عنها .. واستمرت زاحفـة عـلى الطريق الساحلي ، واحتلت كتيبة من الجند (سيدي براني) .. مساء ١١ ايلـــول ١٩٤٠ ..

وكانت القوات الايطالية مؤلفة من فرقتين مدرعتين تعززهما مدفعيـة قوية ومشاة يركبون السيارات ومع هذا لم يجرؤ القائد الايطالي علـى تقليد الالمان ، فيهجم هجوما خاطفا على مصر — مخافة ان تنهك قوى جنوده حين تصل الى (مرسى مطروح) — .. فزحف حتى بلغ (سيدي براني) وهـــي على مسيرة ١٠٠ كيلو متر من الحدود واخذ يعزز مراكزه فيها متخذا مــن هذه البلدة قاعدة حربية جديدة يستند عليها في هجومه التالي .. علـى أن

يزحف في فترات متباعدة ، وفي مراحل قصيرة لا يزيد طول الواحد منها على عشرين كيلو مترا ، فينشىء في كل مرحلة معسكرا منيعا كما فعل في (المقتيلة) ..

وعمد كذلك الى تأمين جناحه الايمن بانشاء سلسلة من المعسكرات القوية التحصين في (الحلفاية) و (بئر صوفاني) و (نبيوه) و (ثمار) .. بشكل دوائر محصنة أقيمت حولها المتاريس واوكار الرشاشات وأمامها حقول الالغام ووراءها الاسلاك الشائكة وداخلها الجنود والادوات والمواد وغيرها من وسائل التحصين والتسليح والتموين ..

وكانت خطة الانكليز قد وضعت وفاقا لمبدأ الحرب الصحراوية الذي يقول :

« اذا كانت الصحراء حليفك ، فمن الصواب ان تحمل عدوك على التوغل فيها قبل ان تصوّب اليه ضربتك .. »

وذلك بأن يكون خط الدفاع الاول في (مرسى مطروح) .. فيضطر الجيش الايطالي الى ان يقطع المسافة اليها من السلوم .. وطولها ٢٣٠ كيلو مترا في صحراء مقفرة كثيرة الوعورة خالية من الماء ، فلا يبلغ هذا الخط حتى تكون قواه قد وهنت وابتعد عن قواعده فتعذر تموينه وصعب ، واستهدف لقنابل الطائرات وقذائف الاسطول على طول الطريق ..

الهجوم الانكليزي

ولما توقف الايطاليون في خطوط دفاعهم الجديدة وطال الوقت في انتظار هجومهم .. اغتنم الجنرال الانكليزي ويفل هذه الفرصة لزيادة قواته ومعداته والفراغ مما يلزم حملة كبيرة في الصحراء ..

ولما اتم استعداداته بدأ هجومه الكبير على الخطوط الايطالية في ليلة ٧ ـ ٨ ايلول من سنة ١٩٤٠ .

كانت خطة الجنرال ويفل الاستيلاء على (سيدي براني) .. والنفاذ من منطقة الدفاع الايطالية ـ التي احدثت الدوريات ثغرة فيها ـ ثم التقدم نحو (بقبق) ثم (السلوم) .. على ان يكون الهجوم بوجبات متتالية من الدبابات تعاونها المشاة ..

وكان على الاسطول الانكليزي أن يضرب (مقتيلة) في الوقت الذي تهاجمها فيه قوات معينة ..

فتحجز القوة فيها وتمنعها من التعاون مع غيرها .

ولذلك قام الاسطول بضرب (سيدي براني) والارض حولها، والاغراض العسكرية الهامة ، كما قامت الطائرات بغارات عنيفة مستمرة على مطارات العدو وقواعده ومواصلاته للسيطرة على أجواء المعركة ..

وفي ليلة ٧ ــ ٨ كانون الاول ١٩٤٠ ، قامت بعض القوات البريطانية من دبابات ومشاة تحملها السيارات في هدوء وتكتم .. فاجتازت مائة كيلو متر .. وقبل ان يبزغ ضوء الشفق كانت القوة رابضة في الارض لا تبدي حراكا وقد اتخذت جميع الوسائل لاخفاء كل مدفع وسيارة وكل جندي .. وظل الهدوء والتكتم يعمان الميدان طيلة يوم الاحد « وفي الليل استؤنفت حركة التقدم ، وبدأ الهجوم ببزوغ فجر ٩ كانون الاول » هجوما خاطفا مفاجئا اخذ الايطاليين على حين غرة .. فقد كانوا يعدون عدتهم لهجوم قريب يقومون به فيما كانت طائرات سلاح الجو لا تنقطع عن غاراتها العنيفة ووحدات الاسطول تلقي قذائفها المدمرة ..

وكان الجنرال الايطالي ماليتي .. قد اتخذ (نيبوه) قاعدة لغزو مصر فأقام معسكرا محيطه نحو اربعة أميال ، حصنه من الخارج بالالغام الارضية، ومن الداخل بمدافع ميدان من عيار ١٨ وبمدافع مضادة للدبابات واخرى مضادة للطائرات ورشاشات آلية ..

وفي الوقت الذي كانت الحامية تنصرف لاعمالها العادية دون ان تفكر في قتال قريب .. فوجىء الجميع بالحرب بين ظهرانيهم ، والدبابات على ابوابهم ، فانبعث الرعب في قلوبهم عندما دهمتهم القوات الانكليزية وارتبكت خطة الدفاع ، وكانت المفاجأة تامة وتم القضاء عليهم ..

وتحركت دبابات الجيش تتقدمها غلالة من نيران المدفعية ، ومن الدخان ، واجتازت الثغرة التي احدثتها الدوريات الامامية في دفاع العدو فكانت موقعة (سيدي براني) موقعة دبابات الجيش وقد انتهت يوم ١١ كانون الاول وبلغ عدد الاسرى في ذلك التاريخ ستة آلاف اسير ..

وكان مركز (سيدي براني) والمراكز العسكرية المختلفة في المناطق المجاورة تبدو عقبات لا سبيل الى التغلب عليها .. ولكنها ما لبثت ان سقطت مع جميع المناطق الساحلية ..

وترك الايطاليون على الاثر مثلث سيدي براني ــ مقتيلة ــ نبيوه ــ الدمونة .. وقد وقعت في أيدي الانكليز يوم ١٦ كانون الاول ، وتم الاستيلاء على (امساعد) و (سيدي عمر) و (ستيفرزن) وهي من الحصون التي أقامها العدو على الحدود ..

اسباب الهزيمة

وترجع أسباب الهزيمة الايطالية في هذه الجولة الى العوامل الآتية :

١ ـ اهمال أعمال الدبابات والاستطلاع وبذلك لم يستطع الايطاليون معرفة نوايا الانكليز ، ولا فطنوا الى تقدمهم في ظلام الليل .. حتى فوجئوا بالقتال .. كما لم يعتنوا بمكافحة الدوريات الانكليزية التي قامت باعمال اكثر من الاستطلاع ، وإحداث ثغرة في خطوط الدفاع لم يتمكن الايطاليون من سدّها في الوقت المناسب ، حتى تدفقت منها القوات الانكليزية في هجومها المظفر ..

٢ ـ فقدان السيطرة الجوية .. فاستطاع الانكليز امتلاك ناصية الجو والافادة من هذه الميزة الخطيرة ، فالتفوق الجوي مهدَّ للجيش الطريق لعمليات ناجحة ، وايده بمساعدات فعالة ..

٣ ـ انزواء الاسطول الايطالي مما جعل السيطرة البحرية في ايدي الانكليز .. ومكّن الاسطول من مساعدة الجيش مساعدة حاسمة ..

٤ ـ ضعف الاسلحة المضادة للدبابات وهي التي تتيح للمدافعين الثبات أمام القوات المدرعة ، اما الاعتماد على المواقع الصناعية فقد اخفق تماما ، وهذا ما عرفه الانكليز وتجنبوه فمدافعهم المضادة للدبابات كانت سبب نجاح دفاعهم ..

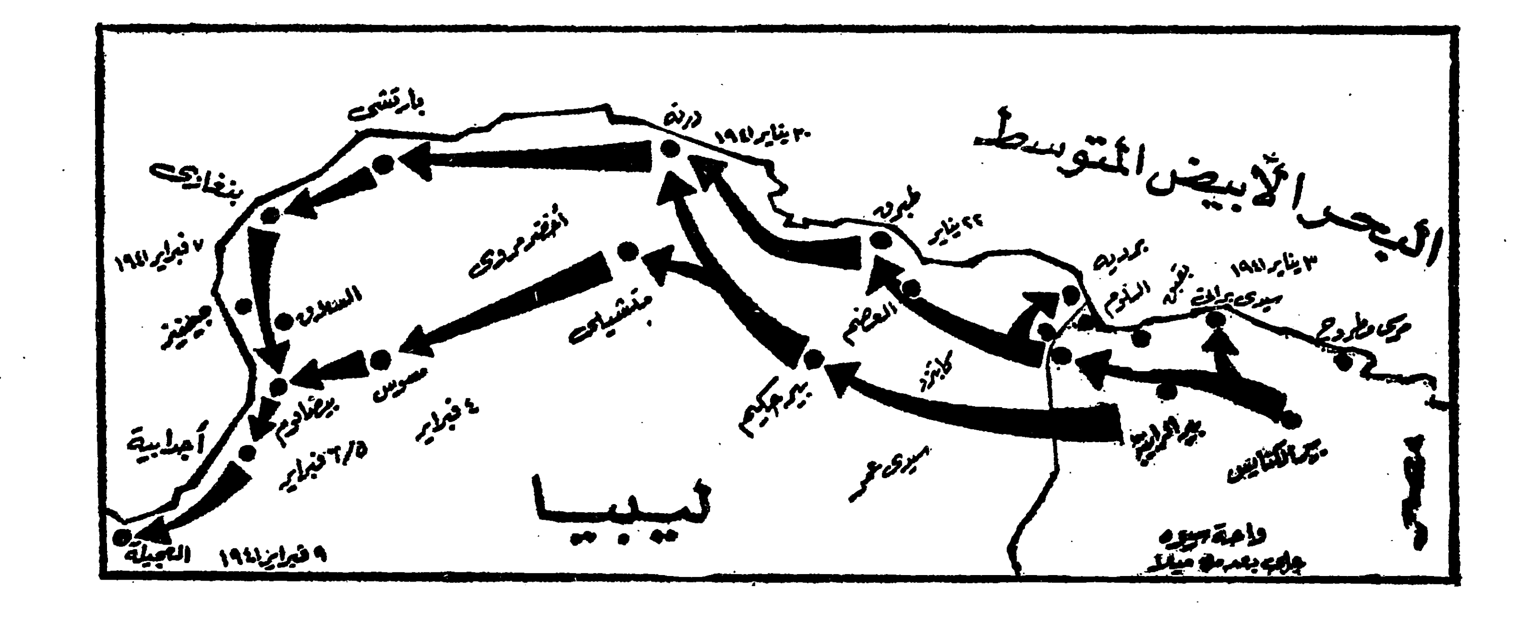
٥ ـ ارتباك الخطة الدفاعية التي تمت بهجوم القوات الانكليزية في مكان ووقت لم يفطن له العدو ..

٦ ـ انهيار الروح المعنوية وفقدان ميزة المبادرة ، وملازمة التردد للخطط الايطالية بعد ذلك ، وفي حالات كثيرة اثناء هذه العمليات .. ففي أيام قليلة انهارت قوة الإيطاليين وتم جلاؤهم عن الحدود المصرية عدا اربعين الفا قدر لهم ان يحققوا رغبة زعيمهم في الارتواء من ماء النيل .. فوقعوا اسرى ..

التقدم

تراجع الايطاليون من صحراء مصر ..

تراجعوا من مواقع محصنة كانوا يظنون أنها لا تقهر ، وأنها من المناعة والقوة بالمكان الارفع ..



خريطة توضح اتجاه الهجوم البريطاني . بدأ الهجوم من نقطة تجمع عند « بير الكنايس » الواقعة على طريق مرسى مطروح ـ سيوة ، واتجه طابور من هذه القوات لاحتلال سيدي براني بينما اتجه طابور آخر الى السلوم ليقطع طريق انسحاب القوات البريطانية واتجه طابور ثالث عبر جنوب الصحراء من « بير الرابية » الى « بير حكيم » . واستمر الزحف البريطاني على الساحل وفي الداخل حتى التقت القوتان عند « بيضافوما » ثم زحفت الى اجدابية حتى وصلت العجيلة . واستغرقت المعركة الفترة من ٣ كانون الثاني ١٩٤١ الى ٩ شباط سنة ١٩٤١ .

وتمكن الانكليز في أسبوع واحد فقط من تحطيم الجهود التـي صرفها الايطاليون مدى ثلاثة أشهر لتعزيز وسائل الدفاع هذه وتحصينها ..

ويعود نجاح الانكليز في تقدمهم الى الدقة التي تعهدوا بهـا مشاكل الادارة والتموين .. والى سيطرتهم عـلى الجو ، ومعاونـة الاسطول لهـم ، واستخدام المفاجأة في حربهم، ونشاط الدوريات ، وبراعة المهندسين فـي بث الالغام وازالة الموانع ، وقوة دبابات الجيش التـي كانت السلاح الحاسم في معركة سيدي براني ..

وقد قال الجنرال ويفل لجنوده المنتصرين وهم يتعقبون العدو :

« ستكون نتيجة القتال في الصحراء الغربية مـن الحوادث الحاسمة في الحرب ، وسيكون لانهزام العدو أثره البعيد ، ليس فـي الشرق الادنـى وفي الموقف الحربي فحسب ، بل وفي مستقبل الحرية والمدنية في العالم ..

« نحن متفوقون على العدو في كل شيء الا في العدد ..

« ونحن أحسن تدريبا وأحكم رماية ، وأقوى عدة وسلاحا ..

« وفوق هذا وذاك لنا قلوب أقوى وتقاليد أسمى .. ونقاتل دفاعا عن قضية أعلى وأجدر ، فلنضرب بشدة .. »

وكان السؤال الذي يجول بالخاطر بعـد تطهير الحدود المصرية مـن الايطاليين ـ لان الانكليز كانـوا يحاربون بقـوات نيوزيلندا ، وأوستراليا والهند ـ هل تتقدم القوات المنتصرة وتواصل الزحف الى برقه .. بعـد أن تغيرت طبيعة الارض التي امامها فأصبحت تساعد العـدو عـلى مضاعفة جهوده في المقاومة .. خصوصا وقد كان يلوح ان الجنرال ويفل ، بعيد عـن كل فكرة ترمي الى اجتياح ليبيا .. وانه يعمل فقط للدفـاع ، وان المارشال غرازياني كان لا يزال قابضا على دفة المبادرة .

وقد أجاب الجيش الثامن الانكليزي على هذا السؤال حين استمر في هجومه بغير توقف مذللا جميع العقبات التي تعرَّض لهـا في طريقه الـى (البردية) ..

وقـد لبث يحاصر هـذه البلدة عشرين يومـا دون مهاجمتها ، بعد ان احس قائده انه بحاجة بعد كل هذا الزحف الخاطف الى تنظيم قواته وتثبيت اقدامه في المواقع التي استردها ..

وكانت (البردية) تعتبر مفتاح الموقف فـي ليبيا .. وهـي حصن يشتمل على المستودعات الكبيرة للمؤونة والمهمات الحربية ، يسهِّل الاستيلاء

عليها بعض مشاكل التموين .. التي كانت أبدا من المشاكل المستعصية في حرب الصحراء .. كما ستكون في الوقت نفسه قاعدة امامية للزحف على البلاد الواقعة خلفها .. كما أن استخدام الميناء يوفّر نقل المؤن بالطريق الطويل الممتد من (مرسى مطروح) وتصبح ذات قيمة كبيرة عندما يحين وقت الزحف الى الامام .. واخراج الايطاليين من شمالي افريقيا ..

بدأت الدوريات الانكليزية تستطلع الموقف في البردية .. وتناوش استحكاماتها .. التي كانت تمتد الى خمسة أميال ، مؤلفة من اوكار المدفعية المضادة للدبابات .. ومخابىء الرشاشات ، ومن أسلاك شائكة وحفر وموانع وعراقيل .. وتجهيزات شتى قضى في اعدادها ثلاثة شهور ، كما كان الموقع الطبيعي للبردية حصينا ، فالارض صخرية تخترقها الاخاديد التي يحتمي فيها المدافعون ، ووادي الجرفان الواقع في الجهة الشمالية منها بمثابة سد طبيعي لاعاقة الدبابات ..

ولقد مهّد لاقتحام (البردية) بغارات جوية عنيفة .. بدأت في ليلة رأس سنة ١٩٤١ ، بهجوم وصفته الانباء بأنه « أعظم غارة في الحرب القيت فيها القنابل » ..

فقد بقيت الطائرات أسرابا بعد أسراب طيلة الليل ، تلقى بقنابلها كالمطر على البردية واستحكاماتها حتى اوهنت قوى دفاعها واحدثت تصدعا في الحصون والاستحكامات ..

وكان من اغراض هذه الهجمات الجوية حمل الايطاليين على الاعتقاد بأن الهجوم البريطاني سوف يبدأ صباحا ، فقضى الايطاليون ليلهم ينتظرون ذلك الهجوم على غير طائل ..

وراحت الطائرات ليلة ٢ ـ ٣ كانون الثاني تضرب البردية ضربا متواصلا حتى اذا أشرف النهار شاركتها وحدات الاسطول في ضرب الاستحكامات ، فبعث المدافعون طائراتهم من قاذفات القنابل لمهاجمة الاسطول فردتها نيرانه خاسرة ..

واخذت المدفعية الايطالية على الاثر في جنوب البردية تطلق نيرانها الشديدة على وسائل المواصلات الانكليزية ، وكان الضرب مركزا عنيفا ، ولكنه قلما كان دقيقا ، وأخذت قاذفات القنابل البريطانية تتابع أعمالها التدميرية فوق تحصينات البردية ، ومن حولها طائرات القتال تحميها ... دون مقاومة تذكر من الطيران الايطالي ..

وقد أفاد الانكليز من دورياتهم أجل الفائدة .. اذ لا يشغل بال المهاجم شيء أكثر من حصوله على المعلومات الصحيحة عن أوضاع العدو وخططه .. وهو لا يستطيع ان يضع خطة الا أن يكون أساسها قائما علــى شيء مــن المعلومات الحيوية الصحيحة .. وبهذا يستطيع ان يختــار أفضل منطقــة للهجوم وأسلم طريقة لتنفيذه ونجاحــه .. وأنسب وقت للحصول علــى المباغتة ، فعامل الوقت أساسي في الحرب ، وهو فــي حرب الصحراء شيء لا يمكن حصر ميزاته ، كما انه لا يمكن الحصول على اي نجاح قبل الاستطلاع الكافي والتحضير العام .. والبت في انسب الاوقات ليصار الــى مهاجمة العدو وتدمير خططه ..

ولا يجب ان ننسى في هذا الدور مجهود فــرق المهندسين ونهوضها في وسط الاخطار الماحقة الى موانع الاسلاك الشائكة وازالتها ، وتدمير اشراك الدبابات ، وسد الفجوات ، وتدمير المواقع المنيعة ، مما ساعد علــى احداث ثغرتين في التحصينات الخارجية .

ولقد تقدمت فرقتان بريطانيتان مــن الوحدات الميكانيكية واخترقت الاستحكامات ، واستطاعتا مع المشاة الاستراليين الدوران حــول خطــوط الدفاع الايطالية وأن تبيدا من الخلف الموانع الامامية .

وفي الوقت نفسه أخذت وحدات الفرنسيين الاحرار وفرقة ميكانيكية بريطانية تحول دون تحرك العدو من الشمال ، وقــد قاوم الايطاليــون أولا مقاومة عنيفة .. ولكنهم تراخوا بعد قليل ، ثم انهاروا ..

فاخترقت القوات البريطانية التحصينات بعــد خمس ساعات فقط ، وتم تطويق (البردية) من الشمال والغرب مما سهل الهجوم ..

وبعد ظهر كانون الثاني ١٩٤١ كفَّ العدو عــن كل مقاومة وسقطت البردية مع جميع القوات التي كانت تدافع عنهــا وجميع المــؤن والمعدات الحربية فيها .. واخذ الجنرال برجوتزولي ، قائد الحامية وعدد من ضباط اركان الحرب اسرى ..

ويرجع انتصار الاستراليين الــى الاستعدادات الميكانيكيــة ومهارة الدبابات في أعمالها الاستطلاعية وتسللها الــى التحصينات الايطاليــة .. والوقوف على اوضاع المدافعين وتجهيزاتهم بالتفصيل .

كما ان معركة البردية كانت صورة حية للتعاون الوثيق بيــن قاذفات القنابل وطائرات القتال والوحدات الميكانيكية وقوات الاسطــول .. فأمكــن بهذا التعاون تحطيم الحلقة الحديدية من التحصينات المقاتلة حــول البلــدة المنيعة في ستة وثلاثين ساعة فقط .

الزحف على طبرق

واتجه الزحف الى طبرق ..

وتقع (طبرق) على بعد ستين ميلا من (البردية) .. ولها ميناء صالح لرسو السفن والطرادات الصغيرة ، ومنذ سقطت البردية ، أخذت الدوريات الانكليزية تخرج للاستكشاف وجمع المعلومات عن الاستحكامات التي كانت تتكون من خطين ، الامامي ويبلغ ثلاثين ميلا ، والثاني ١١ ميلا .. وبهما فخاخ للدبابات وأوكار للمدافع والرشاشات وأسلاك شائكة حول الاطراف الخارجية ..

وفي فجر ٢١ كانون الثاني بدأ الهجوم الرئيسي على طبرق ، ونجحت قوات الامبراطورية تؤيدها سفن الاسطول والطائرات في اختراق الخطوط الخارجية والداخلية من الاستحكامات ..

وكانت العواصف الرملية الكثيفة تكتسح الصحراء باستمرار في هذه المرحلة ، فأعاقت التقدم ، وكان الجنود يتحركون وسط سحب صفراء من الغبار ، لا تزيد الرؤية فيها وفي بعض الحالات عن عدة امتار ..

وأخيرا هجمت القوات البريطانية والفرنسية من جميع نواحي قوس الاستحكامات التي كانت تحيط بطبرق ، والذي يبلغ طوله ٢٠ ميلا ، وقدَّم سلاح الطيران مساعدة قيمة للقوات المهاجمة ، فأسكتت قاذفات القنابل مدفعية الايطاليين كما كانت طائرات القتال تقوم بدوريات الاستكشاف ..

وقاومت قلعتا (سولاغو) و (ابريت) فأسكتتهما المدفعية قبل ان تهاجمهما القوات الاسترالية المؤيدة للدبابات ..

وكانت قوة طبرق الايطالية فرقة كاملة غير الحامية الدائمة ..

سقوط طبرق

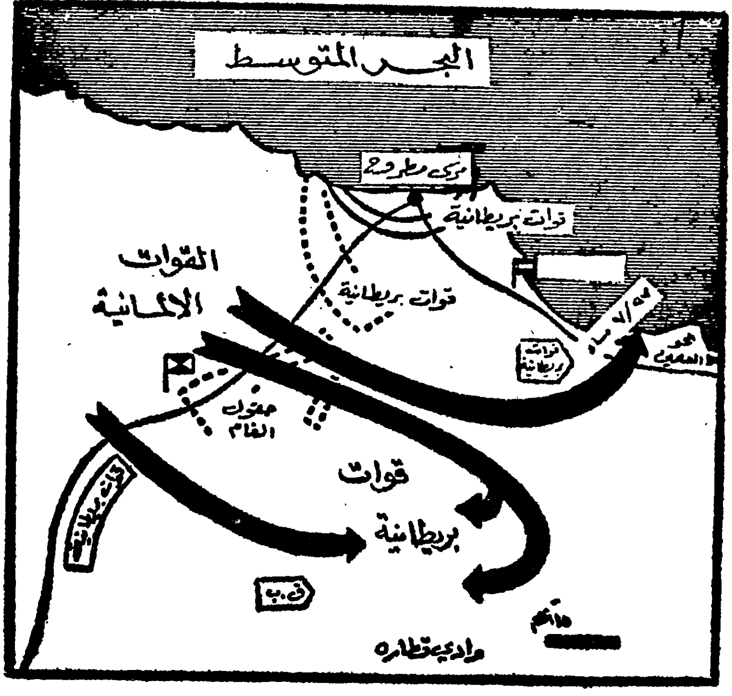
ولقد سقطت طبرق بعد مقاومة دامت ثلاثة أيام . ووقع نحو ١٤ ألف جندي مع عدد من القواد في الاسر فزاد ذلك في ارتباك الايطاليين .. وعجزوا عن الاحتفاظ بالارض والدفاع عنها ، وكان التقهقر مضطربا لا أثر فيه للفن الحربي أو عمليات التعطيل من جنود المؤخرة ، مما جعل عمليات المطاردة سريعة ميسورة فوصل الانكليز دون ما عناء الى (درنة) قبل أن تستعد لدفاع يصد عنها التيار المندفع نحوها ..

وتقع (درنة) على بعد ٩٠ ميلا من طبرق وتقوم على الساحل على حافة

واد ترتفع الجبال خلفه الى مسافة تبلغ ٨٠٠ قدم ، ولـم يكـن للمدينة خلف اسوارها القديمة غير القليل من وسائل الدفاع وقـد نصبت فيهـا بعض المدافع الساحلية والمدافع المضادة للطائرات ..

ولقد زحف المشاة الاستراليون بسرعة نحو مواقع الاسلاك الّتـي كانت تحيط بالاستحكامات الخارجية ، وتمكنوا مـن اجتيازها ، وكانت حاميـة (درنة) مكونة من عشرة آلاف جندي دافعوا دفاعا قويا لـم يشاهد مثلـه البريطانيون منذ بدأوا زحفهم ..

واخيرا سقطت درنة صباح الثلاثين من كانون الثاني سنة ١٩٣١ ، بعد زحف دام ١٧٠ ميلا ، فتم بذلك الاستيلاء على ثالث مدينة محصنة ، وكانت توجد فيها المياه العذبة بكثرة كما أمكن الافادة من مينائها ..



لما بدأت القوات الالمانيـة هجومها في فجر الواحد والثلاثين من اذار ، كان الغرض من هذا الهجوم الاستيلاء على موقع (مرسى البريفا) .. فلما أفلح رومل فـي هجومه ، اغتنـم الفرصة ، وأخذ يتأثر ويطارد القوات الانكليزية المتراجعة ..

الفصل الثاني

ستراتيجية الحرب الانكليزية
في معركة الصحراء واسباب الفوز والنجاح

بعـــد طبرق :

كانت القوات البريطانية قد نظمت في قسمين .. بعد الاستيلاء على طبرق ..

اتخذ القسم الاول طريق الساحل .. واستولى على درنه ..

وسار القسم الثاني غربا نحو (بمبه) و (المخيلي) . وكان مؤلفا مـن وحدات مصفحة ميكانيكية .. اذ كانت الخطة ان يسير الاستراليون نحـو (بنغازي) على الطريق الساحلي لمهاجمتها من الامام ..

بينما تدور القوات المدرعة حول مؤخرة العدو لقطع خط رجعتـــه والفتك بقواته المتقهقرة ، وهذا هو الواجب الاساسي للقوات المدرعة في مثل هذه العمليات .

تقدمت القوات المدرعة في طريق (المخيلي) بعــــد سقوط درنه .. وهاجمت القوات الايطالية المدرعة التي اخذت بالانسحاب وبدأ التقدم نحـو بنغازي في طريق شاقة عسيرة يبلغ طولها ١٥٠ ميلا ..

وكان الامر يتطلب تجهيزات عديدة للسير في هذه المرحلة الصعبة بعد أن طالت خطوط المواصلات طولا لم تعرفه الحملات الحربية من قبل ..

بالنسبة لتنظيم التموين والامدادات وشد أزر قوات كبيرة وسط صحراء مقفرة ، بعدما بذلت من مجهود ، ولاقت من مصاعب شداد ..

وعلى طول الطريق المديدة الموحشة .. كانت العواصف الرملية تتراقص في الصحراء والارض تزداد صعوبة ووعورة ، ولكن الجنود كانوا أحرص ما يكون على اللحاق بالعدو وافساد خطته ، فقد كانت المعركة معركة السرعة والصبر والعزيمة والروح الهجومية ..

وفي يوم ٤ شباط بدأ التقدم أو بدأت المعركة ، مع الارض ، فالمركبات تغور في الرمال ، أو تصطدم بالصخور او تدور حول بقاع لا يمكن اجتيازها ، في ساحة موحشة خالية من العلامات والحدود ..

واخيرا ظهرت قلعة (مسوس) .. وتم احتلالها دون عناء كبير ..
وفي اليوم التالي ظهرت طريق بنغازي في مكان لم يصله العدو بعد .. ووضعت خطة دقيقة لمفاجأة الايطاليين عند تقهقرهم .. فلا يعرفون بالخطر الذي يهددهم في تراجعهم ، فمنعت طائرات الاستكشاف من التحليق ، وكسب الانكليز السباق ، ووصلوا الى الطريق قبل أن يصل اليه الايطاليون المنسحبون ، وكانت المفاجأة تامة ، اذ لم يتوقع العدو ان يصل الانكليز الى هذا المكان بهذه السرعة .

ولما اقبلت القوات الايطالية المتراجعة ، قوبلت بنيران قوية من المدفعية فارتبكت خطة الانسحاب ، وتوقفت العربات والدبابات وحاملات المدافع وسيارات الجنود ..

مما كان يغطي عشرة أميال من الطريق ، واذا بالقوات الايطالية تجد نفسها بين فكي الكماشة ..

المعركة :

وعندئذ وقعت معركة رهيبة بسبب تكافؤ القوتين ووجود وحدات ميكانيكية ومدفعية قوية عند الطرفين ، وتبادل الطرفان زمام الموقف اكثر من مرة ثم دخلت قوات انكليزية جديدة الى المعركة ، فاستقرت كفة الميزان نهائيا وحاول الايطاليون كثيرا شق طريق يمرقون منه فلم يتمكنوا .. ثم

هجمت الدبابات الايطالية هجمة أخيرة فأخفقت ، وأخيرا هدأ الموقف الحربي، وصدر بلاغ انكليزي يقول :

« ان قوات العدو قد سحقت تماما » .. هده هي معركة (بيدافوم) وقد وقعت بين قوتين تعبتين غير مستعدتين لمعركة كبيرة . وكانت الكفة الايطالية راجحة من حيث العدد ، ولكن الكفة الانكليزية كانت أرجح بقوة العتاد ، ولذلك تأرجحت الكفتان طويلا ثم انتهت المعركة لصالح الانكليز بفضل الروح المعنوية والقيادة الحسنة ونشوة النصر الذي دارت كؤوسه على طول الطريق من البردية الى بنغازي ..

وأما القوى الاخرى التي تقدمت من طبرق واستولت على (درنة) .. فلم تعط العدو فرصة للراحة ، وظلت تدمر مواصلاته وتزيد تراجعه اضطرابا ، حتى منعته من الدفاع عن بنغازي ، كما كان يرجو .. ولم يأت صباح السادس من شهر شباط حتى كانت المعركة قد انتهت باستسلام المدينة ووقوع ولاية برقة بأسرها في أيدي الانكليز ..

وهكذا تم قطع ١٥٠ ميلا في اسبوع واحد .. وهو عمل من الاعمال العسكرية المجيدة ..

وكانت بنغازي الى هذا مقرا لقيادة المارشال غرازياني ، ومركز قاعدته الحربية ، وكانت حاميتها وحدها تعد ٣٠ الف جندي ..

وفي ٣١ آذار ، سلمت (جغبوب) .. وكان الانكليز قد اكتفوا بمحاصرتها بعدد قليل من الجند ، حتى تسقط من تلقاء نفسها وقد فعلت ..

وبذلك تم بأقل من شهرين ، اكتساح الجيوش الايطالية ، واستعادة الصحراء المصرية ، واجتاز الجنرال ويفل .. ما يقرب من (٤٠٠) ميل من الارض يطارد عدوا مكونا من احدى عشرة فرقة مجهزة بجميع معدات السلاح الحديث ..

وفي مواقع اعدت بعناية للدفاع والهجوم خلال شهور عديدة ، تم تحطيم أربع مواقع رئيسية بأقل الخسائر الممكنة ، وسقطت سيدي براني ، وطبرق ، والبردية ، وبنغازي ، كما تم القضاء على جيش مؤلف من مائة وخمسين الف جندي في أيسر وقت ، وأسرع حملة .

امتداد الخطوط :

ولقد كان من أثر احتلال الانكليز لاقليم برقة بأكمله ، أن امتدت خطوط

المواصلات البريطانية بينها وبين قواعدها في مصر الى مسافات بعيدة جدا ..
واصبحت تبعد مئات الاميال في أرض قاحلة غير معززة بمراكز محصنة يمكن الاعتماد عليها في العمليات الدفاعية ، كما ازدادت مشكلات التموين صعوبة وكلفة .

وفي الوقت نفسه لاحظ الانكليز حركة نشاط كبيرة للمحور في البحر المتوسط ، وعلى الرغم من وقوف الاسطول البريطاني موقف الحذر والمراقبة ، ومحاولته منع وصول الامدادات الى ليبيا وسد طريق ارسال المؤن والذخائر والجنود والمهمات الحربية من ايطاليا وصقلية الى طرابلس وبنغازي ، فقد استخدم العدو المياه الاقليمية الفرنسية وتمكن من ارسال قوات كبيرة من الجنود ..

وكان للهزائم الايطالية في ليبيا أثر خطير في ايطاليا فحدثت حركة تطهير وتبديل في القيادات العسكرية ،وعزل المارشال غرازياني ، ووصلت الى افريقيا قوات ميكانيكية المانية لتدعيم القوات الايطالية ، وتولى القيادة العامة الجنرال فون رومل ، فارس القوات المدرعة ، وبطل عمليات الاختراق في بولونيا وفرنسا ..

وذلك في الوقت الذي كانت تواجه فيه الامبراطورية البريطانية احداثا عنيفة في البلقان واليونان ، اللذين دهمهما الالمان واحتلوهما ، كما حدثت حوادث أخرى في الشرق الاوسط ، وجد الالمان فيها فرصة سانحة لمساعدة حلفائهم الايطاليين فارسلوا حملة المانية الى طرابلس ، لوقف زحف الجنرال ويفل والقضاء على قواته ..

وكان امام القيادة الانكليزية تنفيذ احد امرين :
الاستمرار في مطاردة العدو حتى تونس .. أو ارسال مساعدة فعالة لليونان تنفيذا للتعهدات التي ارتبطت بها بريطانيا ، فرجحت الضرورة الثانية ، وسحب من جيش ويفل قوة يعتد بها ، فأصبحت قواته اقل مما يحتاجه الموقف ، فقرر الثبات مكانه مكتفيا بحجز اكبر عدد من قوات العدو امامه ..

المفاجأة :

يقول الجنرال الالماني فون ايزيبيك ، وهو من الذين عملوا مع المارشال (رومل) في حرب الصحراء في كتابه عن الحرب الليبية ، انه اجتمع الى

المارشال روميل في صباح الثاني عشر من شهر نيسان سنة ١٩٤١ لاول مرة.
وكان ذلك عند الكيلومتر (٣١) قريبا من طبرق .. وقد جئت اخبره اني قمت بتنفيذ مهمة امرني بتنفيذها فقال لي عندئذ :
ـ اذا اردت ان ترى شيئا .. فما عليك الا ان تتبعني ..

وشاهدته يركب احدى المدرعات الانكليزية المسماة (ماموث) ، وقد غنمها من الانكليز في احدى معاركه .. واتخذها مقرا لقيادته ، وانعطف نحو الطريق المؤدية الى (اكروما) .. وكانت تتبعه في طريقه هذه خمس من السيارات التي نسميها السيارات الشعبية (فولزفاكن) ..

ورحنا ندرس مواقع الانطلاق للهجوم الاول على بلدة طبرق .. وفيما نحن في شأننا هذا ، ظهرت فجأة بعض المدرعات الانكليزية واخذت تقترب منا ..

لشد ما كانت دهشتي حين اصدر المارشال روميل امره بمهاجمتها ..
ولكن بأي شيء نهاجمها ؟.
أبالسيارات الشعبية نهاجم الدبابات ؟.
ولكن أحدا منا لم يكن يستطيع أن يقول شيئا .
فاتجهنا نحو دبابات العدو ، نسلك طريقا لولبيا منحرفا ونثير سحبا من الغبار حولنا .. فما ان رأتنا الدبابات الانكليزية ، حتى عادت أدراجها .. وقد ظنت ان هناك قوة كبيرة خلفنا ..

بهذه الطريقة الغريبة كان يكسب روميل معاركه .. وكان يحسن التستر دائما ، حين تكون قواته دون قوات العدو .. وكان سباقا في سرعة تفكيره وتقديره لما يريده ..

كما كان شجاعا لا يعرف قلبه الخوف ، بحيث فرض هيبته لا على جنوده فحسب ، وانما على العدو ايضا ..

ويمضي الجنرال الالماني يقول :
« لقد كان هناك صديقان عرفهما الفيلق الالماني في الصحراء .. ولا يزال ذكراهما يخطر في مخيلتنا حتى اليوم ..

هذه الزهور التي كانت تظهر في الربيع ، بعد هطول المطر ، فتجعل من الصحراء الليبية ارضا معشوشبة خضراء تشبه الجنان ، وثانيهما العرب سكان هذه الارض ، الذين عرفوا بحسن الوفادة وكرم الضيافة والذين أعانوا الجنود الالمان كثيرا ، فضمدوا جراحهم ، واطفأوا غليلهم ، وانقذوا

التائهين منهم ، حتى لا تصل اليهم يد العدو ..
لقد كانوا يحبون رومل .. ورومل يحبهم ..
وسوف يرددون اسمه واعماله ومعاركه في ارضهم .. الى آخر ما يكون من الزمن ..

العمل الشاق :

في السادس من شهر شباط سنة ١٩٤١ ، استدعى هتلر ، الجنرال ايروين رومل اليه ، وكلفه قيادة حملة عسكرية الى ليبيا ، لمساعدة الجيش الايطالي المتقهقر امام الجيش الانكليزي في ليبيا ، والذي كان من شأنه ان يعرض افريقيا للضياع ..

ولم ينشرح صدر القيادة الالمانية العليا لهذا القرار ، فقد كانت المانيا بحاجة الى كل جنودها ، وكانت ايطاليا قد برهنت منذ دخولها الحرب الى جانب الالمان ، على انها لا تطيق الحرب ، ولا تحسنها ، وانها قد أساءت الى المانيا من حيث ظنت انها تساعدها ، مما اضطر المانيا الى مساعدتها في كل خطوة تخطوها ، وكل عملية عسكرية تحاول القيام بها ..

والواقع ان الجيش الايطالي لم يكن يشكل قوة عسكرية لها خطرها ، أمام قوة تماثلها عددا وسلاحا ، واذا كان الايطاليون قد تمكنوا في الماضي من الاستيلاء على ليبيا ، فلانهم لم يكونوا يواجهون جيشا منظما ، وانما قبائل وطنية لم تكن مجهزة بالسلاح والمدافع والدبابات لتستطيع الصمود أمام آلة الحرب الحديثة . ولهذا نستطيع القول أن الايطاليين ألفوا ملاحم القبائل واستمرأوها ، ولكنهم ظلوا بعيدين عن الحياة الصحراوية التي تفرض شروطها وتقسو في عواملها ، فلم يقيموا الاستحكامات القوية والحصون المنيعة ، التي تصد عنهم قنابل المدفعية وهجمات الدبابات ، واكتفوا ببناء الملاجيء البسيطة التي تؤمن لهم الحياة الهادئة الهانئة ، وتحميهم من عواصف الرمال ولفحات الحر ، وضربات الشمس . والليالي الباردة ،كما استحضروا كل ما طاب ولذ من المأكولات والاشربة ، وتأنقوا في اختيار الاثاث البديع ، والمفروشات الجميلة ، فيما كانت الطبيعة في هذه الصحراء تتطلب قوة وشدة ، لا طراوة ولينا ، يستطيع معهما المرء مقاومة المرض وعوامل الطبيعة القاسية .

لقد حاول الجيش الايطالي ما استطاع ان ييسر الحياة في الصحراء، وان يهونها على نفسه ، فلما فرضت عليه الحرب مواجهة مصاعب الصحراء ،

وقسوة الجو انحطت معنوياته ، وتلاشت قدرته ، تحت أشعة الشمس .. وكان ما كان من تراجعه وتقهقره ..

وكان على المانيا بعد هذا أن ترسل جنودها لانقاذ الموقف ، واعادة الوضع العسكري الى نصابه ..

وكان ان كلف هتلر الجنرال رومل للقيام بهذه المهمة ..

وقد استطاع رومل بعبقريته ومهارته وقدرته وحسن تدبيره ، أن يصلح ما افسده الايطاليون ، وان يحول انكسارهم الى ظفر ، وذلهم الى عز ، وان يبعد الخطر عنهم بعض الوقت ..

رومـل :

والحرب في الصحراء تختلف عن الحرب في أي مكان آخر من ارض العالم .. والجنود الذين عليهم أن يحاربوا فيها ، عليهم ان يتعودوا على حرها المرهق ، وبردها المهلك ، وعلى قسوة الطبيعة ، وندرة الماء فان لم يستطيعوا على هذا كله صبرا هلكوا وارتدوا .

ومع ان رومل نفسه لم يعرف معارك الصحراء ، ولا كانت له دراية بالصحراء قبل نزوله الى افريقيا ، فقد واجه حربها بكثير من العبقرية والبراعة ، لم يشاهد مثلها القرن العشرين ولا القرون التي سبقته ، وقاد الملاحم والمعارك ببراعة ومهارة وحنكة ، ظفر منها باعجاب العدو والصديق معا ، حتى انه أدار بعض هذه المعارك بما يشبه المعجزات ، خالقا من الضعف قوة ومن القوة سيلا جارفا .. وكان عنيدا جبارا يفرض رأيه ويحزم أمره بسرعة مذهلة ..

لقد قاتل في بعض المعارك وقواته تقل عن قوات العدو أضعافا مضاعفة، بل ان نسبتها في بعض الاحايين كانت من واحد الى سبعة ، والى عشرة ، ومعهذا فقد استطاع تحقيق النصر الذي أراده واعتقد انه سيكون ..

وكان الى هذا من القواد الذين لا يفقدون اعصابهم مهما اشتدت المعركة، وساءت الاحوال فيها ..

كان عقله أبدا في حركة دائمة للبحث عن مخرج من كل مأزق ، وعن طريق جديد في كل عقبة ، ومعارك الصحراء قد اثبتت بما لا يقبل الشك ، انه من عباقرة قواد الحروب ، من غبر منهم او سلف ..

قبـــل الهجوم :

بدأت القوات الالمانية تصل الى افريقيا في أوائل شباط سنة ١٩٤١ ، وكانت مؤلفة من الفرقة الخامسة وقائدها (روميل) الـذي وصل الـى ميناء طرابلس الغرب مع فرقته . وما هي الا ايام بل ساعات حتى كانت هـــذه الفرقة تعدو وتسرع نحو الجبهة ..



رومـــل

قائـــد القوات الالمانية

في شمالي افريقيا

والواقع ان الغاية من ارسال القوات الالمانية كان في اول الامر ، لا يعدو وقف التقدم الانكليز ، وتثبيت القوات الايطالية في مكانها ، وبث النشـــاط والقوة فيها .

وكان أن تعرفت هذه الفرقة وقائدها (روميل) على الصحراء وحيـــاة الصحراء ، وهي حياة لم تكن قد تعودتها ولا ألفتها ، وان كان قد صــــار ارسالهم الى هذا المكان بعد معاينة طبية سريعة ، أثبتت أن أجسامهم مهيأة أو تستطيع على كل حال تحمل أثقال الصحراء ، وحياة البلاد الاستوائية ،

واعطيت لهم التعليمات اللازمة لطهي اللحوم ، كما لقنوا كيف يحافظون على صحتهم ، وكيف يجاملون العرب سكان هذه الارض ، ولما نزلت الفرقة الالمانية هذه الارض العريانة لم تجد لحما يطهى ، ولا بشرا أو شبحا ، فقـد كانت الجبهة خالية من كل هذا ، وما لبثت ملوحة الماء أن أثرت في أجسامهم ، كما تعلموا كيف يدفنون خيامهم وسلاحهم الآلي ، وعرباتهم في الرمل ، ويختفون فيها فرارا من وقدة الشمس وضراوة الحر ، وقد سرهم طبعا أن هذه الارض المكشوفة تهييء للنازل فيها مكانا يختبيء فيه ويطمر نفسه في داخله ..

وكانت مهمة الجنرال (رومل) قائد الفرقة الافريقية لا تتعدى الدفاع عن منطقة (السرت) في الصحراء ، ولكن المحادثات الاولى التي أجراهـا (رومل) في مقر القيادة الايطالية العليا بعد نزوله ، جعلته يقرر الانتقال من الدفاع الى الهجوم حالا ، وحتى قبل أن تصل بقية قواته التي كان ينتظرها ..

وكانت النجدة التي قررت القيادة العليا الالمانية ارسالها لوقف الكارثة في ليبيا ، تتألف من فرقتين ، ولكن الباقي من الفرقة الخامسة الخفيفة لم يصل الى ليبيا قبل منتصف شهر نيسان ، والفرقة المدرعة الخامسة عشر وصلت في نهاية شهر مايس ، وكانت الاوامر التي تلقاها (رومل) من القيادة العامة لهتلر ، تنص على اجتماع الوحدات الالمانية في منطقة طرابلس الغرب أولا ، وعلى أن لا تتقدم الى الجبهة ، الا بعد أن يصار الى اكتمال عددهـا وعدتها ، كما أوصت القيادة العامة الالمانية بالدفاع عن منطقة طرابلس الغرب في شرق منطقة (السرت) .. وليس في جوار العاصمة كمـا كانت تطلب القيادة الايطالية ..

وكان الغرض من هذه الخطة تأمين حركة القوات الالمانية الجوية التي لم تكن تستطيع القيام بعملياتها الحربية في طرابلس الغرب المحاصرة ، كمـا تم الحـاق القوات الايطالية بالفيلق الافريقي وأسندت قيادته الى القائـد العام الايطالي ..

وصل روممل الى طرابلس الغرب في الثاني عشر من شباط ، وبعد ستة أيام من تعيينه قائدا للقوات الالمانية في افريقيا ، وجد القوات الايطالية فـي انهيار تام ، وتفكك ذريع ، ولم تكن الاخبار التي وصلتـه ولا المعلومات التي أعطيت له ، قد اعطته مثل هذه الفكرة عن حالة الجيش الايطالي ، وكان أن سقطت (بنغازي) قبل ثلاثة أيام من وصوله ، وتمزقت الفرقة الايطاليـة المدرعة في بيفانوم ، وكان ويفل القائد الانكليزي العـام لا يزال مستمرا في تقدمه ، على طول الطريق الساحلية ، وقد اجتاز (أجدابيه) فعلا .

وكان السؤال يدور على السنة الجميع : هل من الممكن ايقاف (ويفل)؟ لقد ضاع كل شيء كان يعتمد عليه (رومل) في الصحراء .. الجنود والمعدات والدبابات والذخائر والبترول .. ضاعت جميعها في الصحراء ، أو استولى عليها العدو في أثناء تقدمه ..

ولم يقم الايطاليون بتعويض شيء مما فقدوه في أثناء انسحابهم امام القوات الانكليزية .

كل ما جمعه (غرازياني) القائد العام للجيش الايطالي ضاع او هلك او اندثر في الصحراء .

واخذ (رومل) يدرس الموقف المعقد اليائس .. ولم يلق بالا للصعوبات التي سوف تصادفه ، ولا للنقص العظيم في مهماته ومعداته .

درس الخرائط ودرس الارض ، ثم أصدر أمره فورا بأن تتقدم قواته الخفيفة التي وصلت من ألمانيا الى الجبهة ، وأن يصار الى انشاء خط دفاعي بسرعة عظيمة .

وكذلك تصرف رومل منذ نزوله الى ليبيا ، خلافا للاوامر التي صدرت له ، وأعطيت اليه .

وفي هذه الاثناء وصلت الى طرابلس الغرب قوات ايطالية جديدة مع فرقة مدرعة مؤلفة من ستين دبابة قديمة العهد .

موقف الجنرال الايطالي :

وكان همّ الجنرال الايطالي غاريبالدي تأمين الدفاع عن طرابلس الغرب فقط ، لكي يمنع ويفل من الاستيلاء عليها ، فلما عرف برغبة رومل في القيام بهجوم على القوات الانكليزية بالقوة التي كان يملكها ، أجفل فزعا وخشي أن يغامر بكل قواته في معركة صحراوية ليس يعرفها حق المعرفة ، كما يجهل كل شيء عن الصحراء ، وهو لا يعلم ان منطقة (السرت) هذه خالية من الماء .. ولهذا سأل القائد الالماني قلقا :

ـ ماذا يحدث لو افترضنا وصول ويفل الى اجدابيه ؟ واضطرارنا الى خوض معارك شديدة ، تثقلنا بالخسائر ، وكيف يكون حالنا بعدئذ ؟

وابتسم رومل ابتسامته المعروفة وقال :

ـ كل ما أريده هو ان يتقدم ويفل الى اجدابيه .. لاننا عندئذ سندحره

ونرده على أعقابه ، ونلقي به وبجيشه الكبير الى خارج المنطقة .

والواقع ان هدف رومل كان الالتقاء بويفل وقوات ويفل الانكليزية ..

وكان من غرضه ان يغتنم الفرصة الملائمة ليضرب خصمه ضربات قوية قبل أن تصله نجدات جديدة .. يدعم بها الفرق الخمس التي كانت تحت امرته ، والتي كانت بالتأكيد اكثر من القوات الالمانية الايطالية عددا وعدة ، بعد الخسائر التي لحقت بالايطاليين في الرجال والمعدات ..

ومضى رومل يقول :

ـ فاذا قبل ويفل المعركة .. وهو ما أرجوه ، فاننا سنتغلب عليه ، وان هو تراجع ولم يقبل المعركة ، نكون قد حققنا غرضنا ، وأخـــــذنا بمطاردته وملاحقته .

وكان رومل يستطلع ويدرس الموقف ، ويبحث عن النقاط الضعيفة في وضع العدو ، وفي خطوط دفاعه وهي متوفرة دائما ، فاذا تمكن من اكتشافها والوقوع عليها ، تمكن من ضرب ويفل كما كان يقدّر ويتصور ..

وكذلك بدأت سيارات الاستطلاع الامامية منذ السابع عشر من شباط ١٩٤١ ، تقوم بجولاتها ، والبحث عن نقاط الضعف عند العـــدو ، وكان ان توقف ويفل عن الهجوم ، واستقر في مكانه ..

ولعل سبب هذا ما أرسله من قوات لمساعدة اليونان في محنتها .. كما تقول المصادر الانكليزية ، وبدأ السلاح الجوي الالماني في الوقت نفســه يقصف تجمعات العدو ومراكزه ، كما قصفت ميناء بنغازي لاول مرة بنجاح كبير وأخذ العدو على الاثر يتعرض لخسائر فادحة ، لم يكن قد توقعها منــذ بدأ تقدمه وانتصاراته ..

وقرر ويفل على الاثر انه من الافضل له التريث والانتظار ريثما تصله نجدات جديدة ليواصل تقدمه ..

وفي هذه الاثناء كانت النجدات الالمانية والاسلحة والذخائر تصل الى افريقيا ، وفي نهاية شهر شباط تم الاستيلاء على آبار النوفيلية ، وهي وان كانت مالحة الا انها كانت ضرورية للحياة والجنود ايضا .. فيما مضت بعض وحدات الجيش الايطالي في بناء خط دفاعي في قطاع (السرت) ، فلمـــا استقام وتمّ ، اقترح رومل على القيادة الالمانية العليا ان يتقدم نحو (اجدابيه) بعد ان وصلت اليه بقية القوات الالمانية ، واذا أمكنه ، فانه سيتقدم أيضـــا

نحو (برقة) . . فوافقت القيادة الالمانية على اقتراحه .. وبدأ روميل يستعد لتنفيذ مشروعه ..

فلما كان الثاني والعشرين من شهر آذار قامت القوة الالمانية بهجوم على (العقيلة) ولم تكن ذات اهمية تذكر فأحسَّ الانكليز بالخطر .. وأدركوا ان الالمان في سبيلهم الى تحسين خطوطهم ، وتوطيد مراكزهم ، وبعد التحام قصير أخلى الانكليز حصن (العقيلة) واستولى عليه الفيلق الالماني ، واتخذه قاعدة هجوم وانطلاق للمستقبل ..

وقد وقع في أيدي الالمان في هذه المناوشات البسيطة بعض الاسرى ، ولكنهم لم يحصلوا منهم على كبير امر ، حتى ان بعض الاسرى لم يصدق ان الالمان قد نزلوا افريقيا وقال احدهم :

ـ وما يفعل الالمان في هذه الصحراء المهملة ، وهذا البلد الخاوي من كل متعة وحياة ؟

وفي الخامس والعشرين من آذار التقط الالمان أمرا يوميا وجهه القائد الانكليزي الى فرقته جاء فيه :

« من الواجب على كل منا الا يتأثر بالواقع الذي سنواجهه ، وهو اننا بعد قليل سوف نقاتل فرقا ألمانية مدرعة ، ولا يذهبن احد منكم الى الظن بأن الالمان اناس فوق البشر كما يدَّعون .. بل بالعكس هم جنود من الدرجة الدنيا » ..

وكان هذا الامر موقعا من الجنرال كامبيز باري ، الذي سقط أسيرا بيد الالمان بعد عشرة أيام من اصدار بيانه هذا ..

تقدم جديد :

فلما كان يوم ٣١ آذار ، انطلق رتل ألماني من الفرقة الخامسة الخفيفة نحو الجنوب في اتجاه (السويرة) .. على الطريق الساحلية المسماة طريق (بالبو) .. متقدما نحو الحدود المصرية ، وكان يضم بعض المدرعات، والمدافع المضادة للطائرات ومدافع اخرى ، فاختار منطقة (العقيلة) كمركز حيث يقوم حصن تركي قديم .

وفي الوقت نفسه كانت قناصة الدبابات تعمل على الجناح الايسر المجانب للبحر ، وبعيدا على الجناح الايمن كانت تقوم مجموعة أخرى مؤلفة من دبابات كاذبة ، كان رومل قد اخترعها من حطام السيارات الايطالية القديمة المهجورة،



استيلاء جنديين انكليزيين على دبابة المانيـــة

والتي كان من السهل الحصول على عدد كثير منها في الصحراء ، وقد صار اعدادها لايهام العدو بأن الفيلق الافريقي الالماني يفوق ما يتصورونه عـــددا وعـــدة ..

وكانت كل هذه الحركات الحربية تهدف الى احتلال مرسي (البريفا) .. الواقع على شاطيء البحر ، والذي كان عبارة عن عدة بيوت عربية تقــوم حول جامع أبيض ، وكثيرا ما كانت سيارات القوات المتقدمة تغرز في الرمل، أو تمضي متقدمة ببطء عظيم ، كما كانت الوحدات الهندسية تقوم بعـــزل حقول الالغام ، والمشاة يتقدمون نحو مرتفعات (البريفا) ..

بلغت درجة الحرارة عند الظهـــر الاربعين .. بمقياس سانتيفراد ، وبدأت القوات المتقدمة تحس بالحر الشديد اللاهب ، وفجأة بدأت المدافـع الالمانية تطلق قنابلها على المراكز الانكليزية ، ولم يغادر المشاة مواقعهم الا بعد ان بدأت الطائرات الالمانية تساعد المدفعية على قصف المواقع الانكليزيـــة وتدميرها ..

فلما كان المساء ، وأذنت الشمس بالمغيب ، تخلى الانكليز عن كـــل مراكزهم ومواقعهم ، وانطلقت القوات الالمانية تخرجهم مــن الاعشاش التـــي تحصنوا فيها واحدا بعد الآخر ، حتى تم تنظيف منطقة (البريفا) تماما ، ووقف الجيش الالماني على أثر هذه العملية الحربية ، على حدود برقة ..

المطـــاردة :

اغتنم روميل هذه الفرصة ، وقرر أن يتأثر العدو بقواتـــه القليلة .. وأصدر أمره الى قواته بالتقدم .. فتقدمت واستولت على (اجدابيه) القريبة من مرسي (البريفا) ..

والواقع أن الالمان في تقدمهم السريع ، لم يكونوا يشاهدون من آثـــار العدو ، الا آثار التراجع السريع ، مما يؤكد ان الانكليز لم يكونوا يحاولون ، أو يفكرون بهجوم جديدة ..

وكانت كل هذه الآثار تؤكد للالمان ان العدو لن يحاول الثبات والمقاومة .. حتى ان الفرقة الالمانية الخامسة الخفيفة لم تشاهد اثرا للعدو ، عندمـا اقتربت طلائعها الامامية من (اجدابيه) ..

واخيرا بدأ الالتحام مع العدو لما اقتربت الدبابات الالمانية من المـراكز الانكليزية المقامة حول القرية ..

فقد شاهدت الدبابات الالمانية بعض الدبابات الانكليزية والتحمت معها وقهرتها وردتها .. كما اخذت مدافع الفرقة الالمانية تصب مدافعها من عيـار (٨٨) على المراكز الانكليزية فتدمرها وتحرقها ..

ولم يمض كبير وقت حتى انتشرت النيران في كل جانب ، وتكاثفت سحب الدخان من جراء الانفجارات التي وقعت في مستودعات الذخـائر ، وتمكن الالمان من احتلال القرية عند الظهر تقريبا .. وأسروا عددا كبيرا مــن الجنود الانكليز ، وغنموا كميات وفيرة من الاسلحة والذخائر والمؤن والمعدات المتروكة ..

وفرَّ العدو مسرعا مستفيدا من التموجات الارضية .

وكانت القوات الالمانية تطارد العدو بسرعة عظيمة .

وكان (روميل) يقول :

ــ يجب مطاردة العدو .. دون ان نترك له فرصة للراحة او الهرب .. وعلينا ان نثير عاصفة هائلة من الغبار خلفه ، فالغبار سيستر حركتنا ، ويوفر علينا صرف الذخائر الحربية عندما لا تكون هناك حاجة ضرورية لذلك ..

ولم تتوقف قوات الاستطلاع الالمانية ، الا على مسافة ثلاثين كيلومترا شرقي (اجدابيه) .. وكان الانكليز قد أخلوا المنطقة حولها ..

وقد كان من أثر هذه المعركة ، ان اصبحت طرابلس الغرب تبعد الف ميل عن الجبهة ..

ووصل الفيلق الالماني الافريقي الى منطقة (برقة) ، وتمكن بذلك من الحصول على الماء الضروري لقواته ، بعد ان كان يستعمل مياه السرت المالحة لهذه الغاية ..

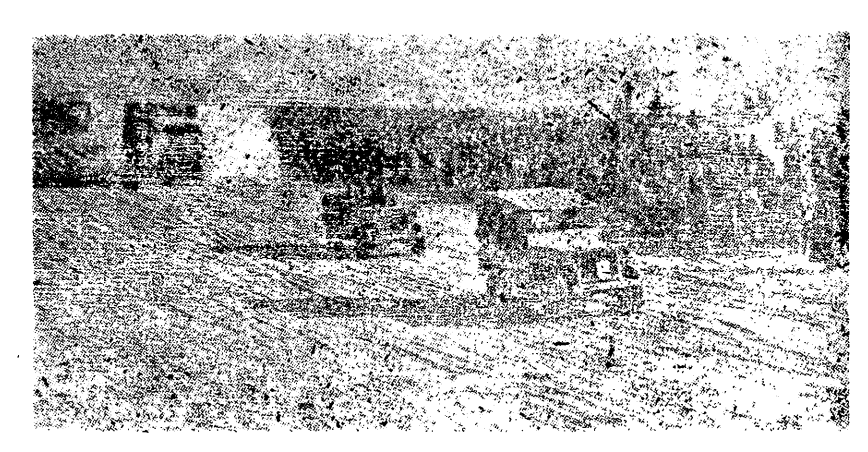
وبذلك وصل رومل الى أكثر مما كان يطلب في اول الامر ان يصل اليه، وفي ايام قليلة ..

كما ان هذا الانتصار الالماني جعل قوات (ويفل) الانكليزي تقوم بحركة انسحاب شاملة من مختلف المراكز البعيدة ، كما أكدت الاستكشافات الجوية التي كان يقوم بها الطيران الالماني ..

وهذا ما حمل (رومل) على ان يأمر قواته الاستكشافية بالتقدم في أثر العدو .. حتى أصبح لا يبعد عن بنغازي اكثر من)اربعين كيلومترا ..

وعلى الاثر ، تبدل الجو ، وتبدلت الطبيعة ، فقد انتهى السير على الارض الصحراوية المرهقة ، وبدت اشجار الزيتون من بعيد ، وحقول الحبوب والشعير ، هنا وهناك . كما تبدل الهواء ، فأصبح معطرا بأريج الربيع ، ورائحة نبات الزعتر العطري ..

وبدت بنغازي للقوات الالمانية من بعيد ..



صورة تمثل الاسرى الايطاليين وهم يسيرون في الصحراء الى المعتقلات

الفصل الثالث

معارك الصحراء

ست معارك حربية رئيسية جرت في الصحراء الغربية خلال الحرب العالمية الثانية، وعلى طول فترة امتدت من حزيران وتموز ١٩٤٠ الى تشرين٢ وكانون الاول١٩٤٢ . وفي خلال هذه المعارك وقع هجوم ايطالي على الاراضي المصرية تقدمت القوات الايطالية به حتى سيدي براني . ثم حدث هجوم بريطاني تقدمت به القوات البريطانية حتى بنغازي . ثم هجوم الماني ، فهجوم بريطاني اخر ، فهجوم الماني وصل حتى العلمين ، ثم هجوم بريطاني وصل حتى حدود تونس وفي خلال كل هذه المعارك تبادل المقاتلون المراكز البرية الرئيسية اكثر من مرة ، وخاضوا صدامات بحرية وجوية هامة ، وتحملوا الكثير من الخسائر في الارواح والعتاد . واسفرت جميع هذه المعارك عن ثروة هائلة من الخبرات العسكرية في حرب الصحراء وطبيعة هذه الحرب واساليبها .

يقول «**باري بيت**» ، محرر « تاريخ الحرب العالمية الثانية » انه على الرغم من ان المعارك الكبرى في التاريخ العسكري البريطاني ، من بنهايم الى ارنيم ، دارت فوق ارض القارة الاوربية الكثيفة المدن والسكان ، فان الحرفية العسكرية البريطانية ظلت حتى وقت قريب تستند الى الخبرة التي اكتسبتها بريطانيا في حروبها الاستعمارية . فخطة « النيران السريعة » التي قضت

على الفرق الالمانية في « مونز » هي نتاج الخبرة التي اكتسبهـا العسكريون البريطانيون في معاركهم الحربية في منطقة حدود الهند الشمالية ــ الغربية الجبلية . وتقاليد الصمود الدفاعي نشأت في حروب « المربعات » الافريقية. وربما كان تمسك البريطانيين بالملكية الخاصة وحرصهم على سلامتها هـو الذي يجعلهم يفضلون القتال في الاراضي المكشوفة .

واذا صح مثل هذا الرأي ، فلا شك ان البريطانيين قد وجدوا انفسهم في منتصف عام ١٩٤٠ مهددين في منطقة يستطيعون أن يخوضوا فيها ذلك النوع من القتال الذي يوافق تقاليدهم العسكرية كما يوافق نوعية تدريباتهم.

التطلع لغزو الشرق الاوسط :

كانت ايطاليا قد كونت امبراطورية لها في شمال افريقيا بعدما استولت على المنطقة الممتدة غربي الحدود المصرية وحتى حدود تونس ، في حربها مع الدولة العثمانية . والمنطقة التي استولت عليها ايطاليا وارادت أن تجعلها نقطة البداية في اعادة مجد الامبراطورية الرومانية القديمة تضم ليبيا وبرقـة وطرابلس . وهي منطقة قليلة السكان تتكون اساسا من الاراضي الصحراوية، وليس فيها الا القليل من الاراضي المزروعة .

وفي عام ١٩٣٥ ــ ١٩٣٦ غزت ايطاليا الفاشيستية ، بزعامة الدوتشي بنيتو موسوليني ، أراضي الحبشة في شرق أفريقيا ، واستولت عليهـا ، وقبيل الحرب العالمية الثانية عقدت اتفاقية عسكرية مع المانيا النازية بزعامة الفوهرر ادولف هتلر ، ومع اليابان بزعامة الامبراطور هيرهيتو ، واشتهرت هذه الاتفاقية باسم محور برلين ــ روما طوكيو .

وبدأت دولتا المحور ، المانيا وايطاليا ، تتطلعان الى غزو منطقة الشرق الاوسط وفي مقدمتها مصر ، التي كانت تعيش حينذاك تحت الاحتـلال البريطاني . وكان هدف دولتي المحور ، كهدف كل الدول الاستعمارية ، من وراء غزو الشرق الاوسط هو الوصول الى موارد البترول الغنية في العـراق وايران . والبترول هو مصدر القوة المحركة للصناعة ووسائل النقل في حالة السلم ، وللاساطيل البحرية والقوات الجوية ، والجيوش البرية التي يزداد اعتمادها أكثر فأكثر على الاسلحة والمعدات الميكانيكية ، في حالة الحرب . ثم كانت دولتا المحور تتطلعان الى مصر بصفة خاصة بغية الحلول محل بريطانيا. وكانت مصر في ذلك الحين قاعدة بريطانية هائلة لا مثيل لها في العالـم .

وكانت ـ ولا تزال ـ ملتقى شبكة واسعة من خطوط المواصلات البرية والبحرية والجوية مع الهند والشرق الاقصى وشرق افريقيا واستراليا ونيوزيلندا ، فيها قناة السويس التي تكفل السيطرة عليها السيطرة على حوض البحر الابيض المتوسط وعلى جزء كبير من البحر الاحمر . وكان الاسطول البريطاني في البحر الابيض المتوسط يستند الى قاعدة الاسكندرية البحرية ، بالاضافة الى قاعدة حيفا في فلسطين ، حيث يجد جميع تسهيلات الرسو والصيانة والاصلاحات والتموين .

القائد والاستعداد للمعركة :

وما ان لاحت نذر الحرب العالمية الثانية حتى ادركت حكومة نفيل تشمبرلين أهمية الشرق الاوسط الاستراتيجية ، واهمية الدفاع عنه ضد مطامع دولتي المحور وخاصة ايطاليا التي كانت ترى انها الاحق بمصر وببلاد الشرق الاوسط .

وفي ٢ اب ١٩٣٩ ، تقرر تعيينّ الجنرال سير أرشيبالد ويفيل ، قائدا عاما لجميع القوات البريطانية البرية في مصر ، والسودان ، وفلسطين، وشرق الاردن ، وقبرص . وعندما اندلعت الحرب في الشهر التالي ، تقرر توسيع قيادته لتشمل العراق وسواحل الخليج الفارسي وعدن والصومال .

وكان الجنرال ويفيل في السادسة والخمسين من عمره حينذاك . وكان يعتبر من أقدر العسكريين في الجيش البريطاني . وكان قد تولى قيادة جنوب انكلترا لاشهر قليلة بعد توليه قيادة التشكيلات العسكرية التي تصدت للثورة العربية في فلسطين عام ١٩٣٦ وكان قد خدم في هيئة اركان حرب الجنرال اللنبي في الشرق الاوسط خلال الحرب العالمية الاولى . وهو الذي كتب تاريخ حياة اللنبي بعنوان « اللنبي في مصر » كما وضع دراسة عسكرية عن حملة فلسطين عام ١٩١٧ ـ ١٩١٨ .

ويصف جون كونللي ، كاتب تاريخ حياة الجنرال ويفيل والجنرال أوكنلك ، الجنرال ويفيل بأنه رجل عسكري يتميز بقوة البنية ، وسعة الاطلاع خارج حدود مهنته العسكرية . وله نظرة عسكرية جيدة واصيلة ، وهو سريع الخاطر وحصيف ، وهو خطيب ومتحدث لبق ، ومتحفظ بقدر ما هو مفكر .

ولمدة تسعة اشهر ظلت ايطاليا بعيدة عن الحرب وقد وصفت نفسها

بأنها « دولة غير محاربة » ـ وهو الوصف الذي اتخذته الولايات المتحدة بدلا من تعبير « الحياد » مع بداية العدوان الاسرائيلي . لكن ايطاليا ، حليفة المانيا وعضو محور برلين ـ روما ـ طوكيو ظلت خلال هذه الاشهر التسعة تراقب بحسد غزو هتلر لبولندا والدنمارك والنرويج في حرب خاطفة سجلت نجاحا ساحقا .

وفي خلال هذه الاشهر التسعة ، كانت مهمة ويفيل الرسمية هي الانتظار والترقب ، لكنه بدأ منذ اللحظة الاولى التي تولى فيها قيادته يفكر ويرسم الخطط ويعمل بقدر ما يستطيع خارج حدود التوجيه الدفاعي الذي اعطته له حكومة تشمبرلين . وكان مقتنعا منذ البداية بأن الشرق سيصبح ميدانا رئيسيا من ميادين الحرب . لكن حكومة تشمبرلين ظلت ترفض جميع ارائه عن ضرورة أخذ المبادرة في أي مكان على طول خطوط منطقة قيادته الواسعة . وفي الوقت ذاته ، جمدت وزارة الخارجية البريطانية جميع جهوده التي حاول ان يبذلها لانشاء شبكة مخابرات ذات كفاءة عالية في المستعمرات الايطالية وفي البلقان . بل وعرقلت وزارة الخارجية حرية حركته داخل نطاق منطقة قيادته عندما رفضت السماح له باستخدام طائرته الخاصة .

ومع هذا ، وعلى الرغم من كل هذه المصاعب ، فان جهود ويفيل ، الذي لم يكن يعرف التعب ، أسفرت عن نتائج هامة في المجالات الاربعة الضرورية لتحقيق قيادته العسكرية الفعلية . وكانت لهذه النتائج جميعا مترتبات مجيدة في المعارك التي قادها بعد ذلك في عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ .

فأولا : تفقد ويفيل منطقة قيادته ، طولا وعرضا . وشاهد بنفسه ما يجري ، وتعرف على القواد والموظفين الذين تحت امرته . واستكشف الارض الى اقصى ما استطاع .

وثانيا : حول ويفيل ، بمساعدة الجنرال سير بلفور هاتشيسون ، ضابطه الاداري الكفء النشيط ، القاعدة البريطانية في مصر الى قاعدة تستطيع ان تزود جيشا يصل تعداده الى ٣٠٠ الف جندي بكل ما يحتاج اليه من تموين ومعدات ومهمات ومواصلات وتسهيلات ادارية مماثلة .

وثالثا : أصر ويفيل على اعادة تدريب جميع تشكيلات القتال التي تحت تصرفه ، وهي تشكيلات كانت صغيرة ورديئة المعدات . كما اصر على ان يتم تدريبها تدريبا عاليا على اساس الهجوم وفي اسرع وقت ممكن .

ورابعا : كانت أولى تعليماته العسكرية ، والتي اصدرها بعد وصوله الى مقر قيادته في القاعدة بأسابيع قليلة ، الى الجنرال ميتلاند ويلسون ، قائد عام القوات البريطانية في مصر ، أن يبدأ في اعداد الخطط لغزو ليبيا الايطالية ، على ان يضع في اعتباره الاول كيفية مواجهة مشاكل تزويد قوة متحركة تتقدم نحو الغرب عبر صحراء جرداء بكل ما تحتاج اليه من تموين ومهمات وورش صيانة .

رقعة الشطرنج الحي :

وفي الواقع ، لقد كان الاستعداد لحرب الصحراء تجربة فريدة لم يسبق لها مثيل في التاريخ العسكري الحديث. وكان الاستعداد يستلزم أول ما يستلزم تدريبات شاقة لقوات لم تتعود هذا النوع من الحرب من قبل ، ويستلزم وضع تكتيكات جديدة ، ويستلزم تعديلات في المهمات والمعدات والاسلحة بحيث تتلاءم مع الحياة الصحراوية والمناخ الصحراوي وظروف القتال والحياة للجنود بعيدا عن أية مراكز خضرية .

وكان لا بد من وضع خطط تتميز بخصوبة التخيل والاصالة ودقة الحساب لحرب فريدة من نوعها . حرب تجري في ميدان قتال خال من كل شيء تماما لكنه محدد تحديدا جيدا ، ميدان قتال اشبه ما يكون برقعة الشطرنج التي تجري عليها لعبة نظرية عسكرية حولتها مصادفات الاستراتيجية العالمية الى حرب حقيقية ، بوسائل اتصال ومواصلات ونقل حقيقية ، وبمدافع حقيقية ، وبمدرعات حقيقية ، وبجنود حقيقيين .

ولم يكن شيء مثل هذا قد حدث في التاريخ الحديث العسكري .لكن مثل هذه الحرب اصبحت بعد ذلك نموذجا كلاسيكيا لامكانية وقوع حرب محدودة وكسبها بدون تحويلها الى حرب شاملة ، وذلك باساليب القتال الحديثة وبالاسلحة الحديثة .

وكانت رقعة الشطرنج الصحراوية تمتد نحو ٥٠٠ ميل ، من العلمين على الساحل المصري وعلى بعد نحو ٧٠ ميلا غربي الاسكندرية ، الى العجيلة عند الحدود بين برقة وطرابلس . ولم تكن فيها اية مناطق مأهولة عدا تلك المناطق المتناثرة على طول الساحل . اما مواصلات الطرق والسكة الحديد فكانت تمتد بالقرب من الساحل

وخلال السنوات من ١٩٤٠ الى ١٩٤٢ ، اصبحت هذه الصحراء ميدان

قتال هائلا فريدا ، خاليا خلوا مطلقا من وجهة النظر الادارية العسكرية . وكان على المتحاربين اذا ارادوا شيئا ان يحضروه معهم ، أو أن يقوموا بالاستيلاء عليه من العدو اذا اسعدهم الحظ . واحتياجات الجيش الحديث والقوات الجوية المرافقة له عديدة ومتباينة ، لكنها يمكن تلخيصها في خمس نقاط رئيسية هي :

- الذخيرة
- الوقود
- الطعام
- الماء
- الصيانة والاصلاحات

والمدى الذي تستطيع فيه الطائرات والمدرعات القتال دون ان تحتاج الى التزود بوقود جديد والى اعمال الصيانة ، اقل بكثير مما كان عليه منذ ربع قرن . وبالاضافة الى هذه الاحتياجات هناك المزج الضروري بين الصلابة والمرونة في تكتيكات وتكنيك القتال في الصحراء

جرذان الصحراء

وفي ١٠ مايس ١٩٤٠ ، شن الالمان حربهم الخاطفة الكبرى على الاراضي الواطئة ــ هولندا وبلجيكا ــ وعلى فرنسا . واصبح ونستون تشرشل رئيسا لحكومة ائتلافية من المحافظين والعمال . وتعهدت تلك الحكومة للشعب البريطاني بتحقيق النصر النهائي مهما كان الثمن ومهما كانت التضحيات . وبدأت تخلق روحا هجومية اصرارية جديدة ضد العدو في كل مجالات النشاط في بريطانيا

وكانت هذه الروح الجديدة هي ما انتظره الجنرال ويفيل طويلا وقد كاد ينفد صبره ، وهي التي اعد نفسه منذ اشهر ليتجاوب معها فورا .

وبعد شهر واحد بالضبط ، او على وجه التحديد في ١٠ حزيران ١٩٤٠ ، اعلنت ايطاليا الحرب على بريطانيا وفرنسا ، بعد ان اختارت لحظة بدا لها فيها ان النصر السريع الشامل الذي احرزته المانيا في اوروبا الغربية قد اصبح امرا واقعا لا يقبل الهزيمة . ففرنسا قد انهارت تماما امام زحف الجيش الهتلري ، وقواتها الكبيرة في شمال افريقيا ــ في تونس والجزائر ومراكش ــ وفي الشرق الاوسط ــ في سوريا ولبنان ــ والتي لها اهمية استراتيجية هائلة خرجت من المعركة ولو لفترة طويلة . وبدا لايطاليا

ان الصدام في الشرق الاوسط وفي البحـر الابيض المتوسط هو مهمتهـا وقدرهـا ورسالتهـا التاريخيـة .

وقبل ان يدخل الجيش الايطالـي الحرب بثلاثة ايام ، صدر الامر الـى الميجـور جنرال ريتشارد اوكنور ، الذي كـان يتولى حينذاك قيادة القوات البريطانيـة في جنـوب فلسطين ويتخذ من القدس مقرا لقيادته ، بان يقدم نفسه الى اللفتننانت جنرال متيلانـد ويلسون قائد القوات البريطانية فـي مصر . وعلى الفور طـار اوكنور الـى القاهرة حيث تـم ابلاغه بان عليه ان يتولى قيادة تشكيل عسكري اسمه « جيش الصحراء الغربية » ، ومقر قيادته مرسى مطروح ، الواقعة علـى بعـد ١٢٠ ميـلا شرقي الحدود المصريـة ـ الليبية . وكانت مهمـة الميجور جنرال اوكنور ـ وكما حددها لـه اللفتننانت جنرال ويلسون ـ هي حمايـة القاعدة البريطانية في مصر من اي هجـوم ايطالـي . وتلقى اوكنور هـذا الامر بدهشة ممزوجة بالفخر .

وكان اوكنور رجلا قصير القامة نحيـلا خجولا . وكان رقيق الصـوت لا يتعب مـن العمل . وكـان كبيـر القلب هادىء الطبع . وهـو من اصل انكليزي ـ ايرلندي ، واحد من العسكريين التقليديين المتخرجين في كليتي ولنجتون وساندهرست . وكان ضابطا في قوات حملة البنادق الاسكتلنديين . وفـي الحرب العالميـة الاولى حارب مـع الايطاليين حيث منح وسـام الشجاعـة الفضي الايطالـي . وكان معلمـا في كلية اركان حرب في العقد الثاني ، وتخرج في كليـة الدفاع الملكية عام ١٩٣٥

وكقائد عسكري كان اوكنور ذا صفات عالية تختفي وراء طبعه الهادىء . واذا كان للجنرال ويفيل فضل التوجيه الاستراتيجي لمعركة الصحراء الغربية، فان ما حققه اوكنور كان هـو النصر التكتيكي . وبدون قدرات اوكنـور وقيادتـه فربمـا كان مـن غير المستطاع تحقيق النصر .

وفـور اندلاع الحرب مع ايطاليـا ،اخذ جيش الصحراء الغربية ، بقيادة اوكنور ، زمام المبادرة . وكان جيش الصحراء هذا يتكون اساسا من الفرقة السابعة المدرعة الناقصة لـواء . وكان قد تـم تدريب هـذه القوة المتحركة الاساسية في مصر عام ١٩٣٨ تحت اشراف الميجور جنرال برسي هوبارت، وبفضـل هذا التدريب اصبحت تمثل جماعـة متناسقة من قوات المدرعات والمدفعيـة والمشاة والوحدات الاداريـة

ولم يكـن رجال الفرقة المدرعة السابعة يفهمون مهمتهم العسكرية فحسب وانمـا كانـوا معتادين على افضل وجه على الحركـة في متاهات الصحراء.

كانوا يشعرون وهم في الصحراء وكأنهم في بيوتهم ، تماما كما يشعر « الجربوع » وهو الجرذ الصحراوي المشهور . ولهذا فقد كان رسم الجربوع هو شارة اكتافهم ، واطلق عليهم اسم « جرذان الصحراء » .وكانوا كما وصفهم الميجور جنرال اوكنور في خريف عام ١٩٣٩ « اعلى الجنود الذين رأيتهم في حياتي العسكرية تدريبا » .

وقد علمهم هوجارت افكارا تكتيكية جديدة سرعان ما اثبتت صحتها . ففي خلال اسبوعين من حزيران وتموز ١٩٤٠ وقعت بعض الاشتباكات على الحدود بين الفرقة السابعة المدرعة البريطانية ، ووحدات من القوات الايطالية ،فاسفرت عن وقوع خسائر ملموسة بالايطاليين ، كما اسفرت عن اسر ٢٥ ضابطا منهم ضابط مهندس برتبة جنرال وعن اسر ٥٠٠ جندي من رتب مختلفة . بينما قام زملاؤهم في القوات الجوية بتدمير اكثر من ٥٠ طائرة للعدو في عمليات القتال الجوي او في عمليات الاغارة على المطارات .

وقد ظلت قوات اوكنور الصغيرة نسبيا في موقف الهجوم بقية شهر حزيران وخلال شهر تموز . واستمرت في عمليات انهاك الايطاليين حتى اضطروا الى الاحتفاظ باربع فرق من قواتهم في حالة الاستعداد الدائم للقتال بالقرب من الحدود .

الهجوم والهجوم المضاد

وعلى رقعة الشطرنج الصحراوية كانت القوات الايطالية والبريطانية في مواجهة بعضها بعضا خلال صيف وخريف ١٩٤٠ ، لكنها كانت قوات غير متكافئة بشكل غير معقول .

فتحت قيادة المارشال جرازياني ، قائد الجيوش الايطالية في شمال افريقيا ، كان هناك ٢٥٠ الف جندي محتشدين على طول الحدود المصرية - الليبية ، وعلى امتداد العمق الاستراتيجي الذي وراء هذه الحدود غربا ، في برقة وطرابلس . اما الجنرال ويفيل فكان تحت قيادته ما لا يزيد على ٨٦ الف جندي ، منهم ٣٦ الف جندي في مصر ، يفتقرون الى المعدات والمدفعية من جميع العيارات والذخيرة والسيارات المقاتلة المصفحة ووسائل النقل . ومنهم ٣٧ الف جندي فى فلسطين مفتقرين الى المهمات والتدريب

ولو كانت الاعداد والعتاد هي العامل الحاسم في الحروب ، فما كانت

لدى ويفيل اية فرصة ، ولو ضئيلة ، للانتصار حتى ولو اتخذ موقف الدفاع . اما ان يحاول الهجوم ، فذلك معناه منازلة الكارثة . ومع هذا فالهجوم هو ما كان يريده ويفيل ، والهجوم هو ما استعد له ، لا لانه كان قائدا متهورا رومانتيكيا ، ولكن لأنه كان قائدا حسب كل شيء بهدوء تام ، وتأكد انه يستطيع الهجوم .

لماذا ؟



هجوم المشاة
في حرب الصحراء

لان القادة الذين كانوا تحت امرته وضباط اركان حربه ممن حنكتهم تجارب الحرب العالمية الاولى ، وممن اجادوا تعلم مهنة القتال . ولم يكن بينهم هواة عسكريون . وافضلهم كانوا رجالا على مستوى عال من الذكاء والثقافة ، شديدي اليقظة ، ذوي مزاج هادىء ، قادرين على الاصالة في التفكير والجرأة في العمل . كما كانوا على قدر عال من اللياقة البدنية التي يستلزمها القتال في الصحراء . اما الجنود فكانوا مدربين تدريبا جيدا .

وعندما انتصروا لم يكن انتصارهم مصادفة ، وفي اب استدعى ويفيل الى لندن للتشاور مع تشرشل ، الذي لم يكن قد قابله من قبل ومع الجنرال سيرجون ويل رئيس اركان حرب الامبراطورية ، والذي كان من اقدم واقرب اصدقائه

وكانت المؤتمرات تنعقد في لندن والعاصمة البريطانية تعيش تحت قنابل الطائرات الالمانية ليلا ونهارا . وكانت صورة الوضع العسكري تبدو قاتمة في لندن . ولم تكن بريطانيا تملك شيئا حقيقيا سوى صلابة شعبها واصراره على مواصلة القتال حتى النصر ، وتعهد الحكومة بان تحقق ذلك باي ثمن .

وطلب ويفيل قوات اضافية لتعزيز جيش الصحراء . ووصف تشرشل هذا الطلب بانه كمن يطلب نقل دم من جريح مثخن بالجراح الى رجل سليم لم يفقد نقطة واحدة من دمه ، ومع هذا ، فقد تمت الموافقة على ارسال تعزيزات من المدرعات والمدفعية . وكتب تشرشل يقول : « ان قرار نقل الدم الى جيش الصحراء الغربية في وقت كنا نواجه فيه خطرا مميتا في بريطانيا ، كان قرارا رهيبا وسليما في وقت واحد . ولم يتردد احد في اتخاذه » .

وبعد اربعة اسابيع ، وعلى وجه التحديد في ١٣ ايلول ١٩٤٠ ، عبر الجيش الايطالي بقيادة المارشال جرازياني الحدود المصرية واحتل السلوم . وقام اوكنور بتنفيذ خطة انسحاب قتالي ماهرة الى خط دفاعي كان قد اعد من قبل عند مرسى مطروح ، بينما تعرض الايطاليون المتقدمون لضرب الطائرات وقصف المدفعية وانفجارات الالغام . واحتاجوا الى اربعة ايام لم يذوقوا فيها طعم الراحة لكي يقطعوا مسافة ٦٥ ميلا الى بلدة سيدي براني ، التي لم تكن في ذلك الوقت اكثر من مجموعة من الاكواخ المبنية بالطين . وفي سيدي براني اضطر الايطاليون الى

التوقف واخذوا يحفرون لانفسهم الخنادق ، بينما صدر في روما بلاغ عسكري يعلن انباء تقدم المارشال جرازياني المظفر ، ويقول : « ان كل شيء هادىء في سيدي براني ، وقد عاد الترام الى المسير مرة اخرى »

ومن ذلك الحين ، قرر جرازياني التوقف عن الحركة رغم ان موسوليني كان يستحثه باستمرار على استئناف الهجوم . وهنا قرر ويفيل انه ما دام جرازياني لا يريد ان يتحرك فان على أوكنور ، اذن ، ان يذهب اليه في مواقعه ويضربه

وفي ٢١ ايلول اصدر ويفيل توجيها يحدد اربع مراحل للتقدم :

١ ــ استرداد سيدي براني

٢ ــ اقامة قوة كافية على طول الحدود

٣ ــ احتلال بردية وواحة جغبوب

٤ ــ الاستيلاء على طبرق .

وجاء في التوجيه انه اذا نجحت هذه المراحل الاربع ، فأن من الممكن عندئذ التقدم الى درنة في برقة

والغريب ان خطة الهجوم هذه نشأت وتطورت في عقل ويفيل واركان حربه وقواده بينما كان جرازياني يتقدم وبينما كانت قوات اوكنور تتراجع

ووصلت التعزيزات التي طلبها ويفيل الى الاسكندرية سليمة. وفي منتصف تشرين الاول وصل انطوني ايدن ، وكان وزيرا للحربية حينذاك ، الى الشرق الاوسط ليبحث مع ويفيل التطورات المختلفة التي حدثت في قيادته . وهنا اسر اليه ويفيل بخطته للقيام بهجوم في الصحراء الغربية ، وهي خطة لم يكن يعرفها سوى عدد قليل من كبار القواد . وابتهج ايدن ابتهاجا شديدا .

وفي الوقت ذاته كان الجنرالان ويلسون واوكنور عاكفين على اعداد مخططات العمليات التي يريدها ويفيل . وبهذه المناسبة ، فقد كان التسلسل القيادي يبدأ من ويفيل ، القائد العام الذي يصدر اوامره الى ويلسون الذي يصدرها بدوره الى اوكنور . ومع صعوبة مثل هذا التسلسل وتعقيداته فانه كان عمليا لان الثلاثة كانوا يعرفون ويحبون ويفهمون بعضهم بعضا

وفي ٢ تشرين الثاني كتب ويفيل الى ويلسون رسالة من سبع فقرات يبلغه فيها انه قد قرر القيام بعملية هجومية ضد القوات الايطالية باسرع ما يمكن وانه يدرك الاخطار الجسيمة الكامنة في مثل هذه العملية ، لكنه يعتقد ان

مزايـا العمليـة تبرر تمامـا مواجهـة مثل تلك الاخطار . لكنه في الوقت ذاته يوضح في تلـك الرسالة انه يعتمـد في خطته على عوامل فعلية تجعل قواته ، رغم قلتها العددية ، قادرة على التغلب على العدو . ومن هذه العوامل:

- التدريب الافضل للقوات البريطانية بالمقارنة بالقوات الايطالية
- المعدات الاحسن التي حصل عليها جيش الصحراء الغربيـة
- معرفة القوات بطبيعـة الارض التي سيحاربون فيها
- تميزهم بالشجاعة وبالتقاليـد العسكرية السليمة
- ان قوات جيش الصحراء تحارب في سبيل قضية عادلة

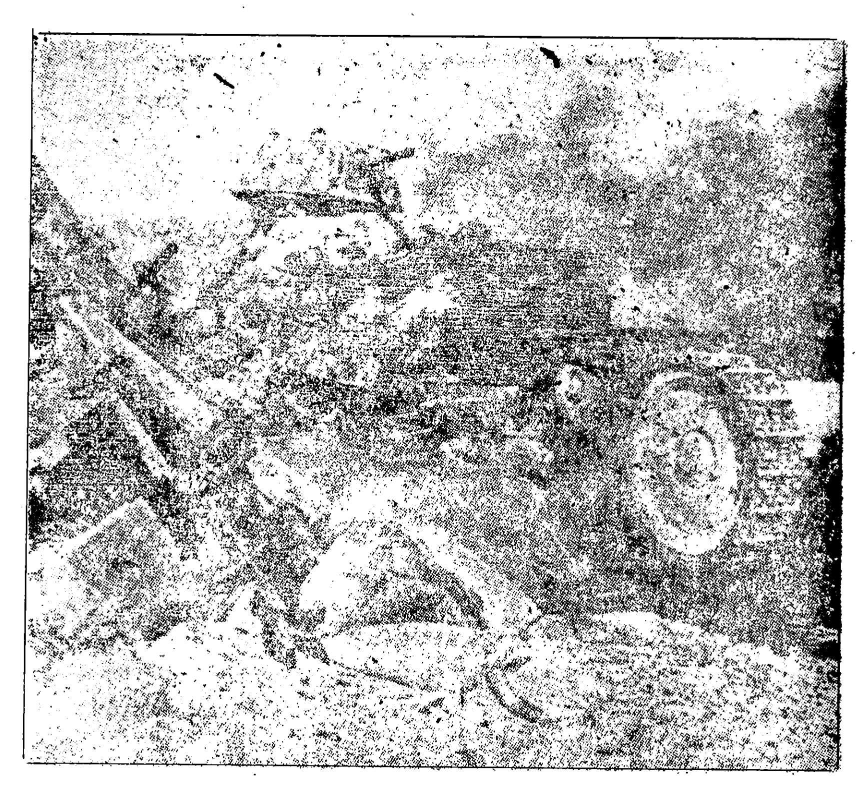
عملية « البوصلة »

واطلق على عمليـة الهجوم المعدة هذه اسم « عملية البوصلة » .

وكانت العملية تبدووكأنها غارة واسعة النطاق لمدة خمسة ايام ، او كأنها مجرد عملية استكشـاف قوية . وقد اعد ويفيل العملية بهذا الشكل المحدود ليحتفـظ بالقدرة على المناورة الاستراتيجية . فاذا نجحت العملية فانـه يستطيع استغلالهـا الى اقصى حد ويتقدم الـى برقة . امـا اذا ثبـت ان المقاومة الايطاليـة شديدة ، فانه يمكـن ان يكتفي بما وصل اليـه وان يبدا الاستعداد لعمليـة اخـرى .

واعد ويلسون واوكنور ، وقائدا الفرقتيـن المدرعتين ، او ــ مور كريج ، دبرسفورد بايرز ، خططهما التكتيكية . وكانت تقوم على مزيج مـن الاندفاع والخديعـة والجراة والفش . وقد سبقتهـا تدريبات كاملـة عند تبةبالقرب من مرسى مطروح وسميت تلك التدريبات « التجربة رقم واحد ». ولم تكن القوات تعرف شيئا عن الفرض مـن هذه التدريبات اكثر مـن انه قـد قيل لها انه سيكون هناك تدريب ثان ذات يوم في الاسبوع الثاني من كانون الاول بل وعندما تحركت القوات في ٦ كانون الاول لم تعرف الفرض من تحركها ، وان عرفته في ٧ كانون الاول بعد ان قضت الليلة الاولى مخيمة في الصحراء

وعلى الورق كانت لدى جرازياني قوات هائلـة ، بينمـا لم تكن قـوات الاوكنور تزيد علـى ٣٠ الف جندي . وكان مقـر قيادة اوكنور فـي مكان يبعـد نحـو ٢٥ ميـلا شرقي مرسى مطروح . وجاء ويلسون من القاهـرة الي مقر القيادة هذا في الاسبوع الاول مـن كانون الاول ، بينما كان اوكنور ومعه ضابط اركان حربه البريجاديـر جون هاردنج ــ الذي اصبح بعد ذلك



السيارات والدبابات المحطمة في الطريق

المارشال لورد هاردنج .. مع قواته في الخطوط الامامية يوم ٦ كانون الاول.
وتنفيذا لعملية « البوصلة » تقدمت القوات فقطعت في اليومين الاولين نحو ٦٠ ميلا عبر اراض مكشوفة ليس فيها شجرة واحدة . لكن الايطاليين لم يشعروا بذلك على الاطلاق . وعسكرت هذه القوات لمدةليلتين متتاليتين في الصحراء على بعد نحو ١٠ اميال غربي « بير الكنايس » الواقع على طريق مطروح ـ سيوة ، ولكن الايطالين لم يشعروا بما حدث

واخيرا ، وفي عصر يوم الاحد ، ٨ كانون الاول ، واصلت القوات التقدم تحت سماء ملبدة بالغيوم المنخفضة مما جعل استكشاف الطائرات لها امرا صعبا او مستحيلا . وفي الساعة الخامسة تجمعت القوات عند نقطة اطلقوا عليها اسم « بيكاديللي » ، وهو ميدان مشهور في لندن . وكانت نقطة

التجمع هذه تقع على بعد ٥٠ ميلا غربي طريق مطروح – سيوه . وبدأ الاستعداد للقفزة الكبرى الى الامام على ضوء القمر

وبدأت معركة سيدي براني ، بحرا وجوا وبرا . وفي ٩ كانون الاول عزلت القوات البريطانية قوات جيش جرازياني في سيدي براني . وفي ١١ كانون الاول تم احتلال البلدة .

وفي ١٧ كانون الاول احتل البريطانيون السلوم .

وعندئذ اصدر جرازياني ، بموافقة موسوليني امرا بالدفاع عن بردية وطبرق مهما كان الثمن . وكان قائد بردية ضابطا انيقا ذا لحية مسترسلة، يدعى الجنرال برجنزولي ، وكانوا يطلقون عليه اسم « ذو اللحية الكهربائية » بعد ان تلقى رسالة شخصية من الدوتشي يقول له فيها : « انني متأكد ان ذا اللحية الكهربائية وجنوده البواسل سيصمدون مهما كان الثمن اخلاصا منهم للماضي » .

وقد أعجب البريطانيون بهذا اللقب وبصاحبه حتى لقد اختاروه ليكون في مقدمة طوابير الاسرى الايطاليين عند استعراضهم في لندن وسيدني عقب انتهاء المعركة

ورغم رسالة الدوتشي واللحية الكهربائية فان الانكليز والاستراليين احتلوا بردية في ٥ كانون الثاني ١٩٤١ ، فاعلن جرازياني انه لا بد من الدفاع عن طبرق باي ثمن ، فتم الاستيلاء على طبرق في ٢٢ كانون الثاني . وفي ٣٠ منه احتلت القوات الاسترالية « درنة » . وفي ٣ شباط دخلها البريطانيون وواصلوا تقدمهم نحو بنغازي فدخلوها في ٦ منه ١٩٤٠ .

وعرف على اثر ذلك اغرب حدث في التاريخ العسكري ، لقد بلغ عدد الاسرى الايطاليين ١٣٠ الف جندي ، بينما الذين اسروهم لم يزيدوا على ٣٠ الف جندي

وفي ٦ شباط ١٩٤١ هذا ، بعث هتلر رسالة الى موسوليني يعرب له فيها عن استيائه الشديد لمسار الحرب في شمال افريقيا ، ويقترح ارسال فرقة مدرعة كاملة بشرط ان يصمد الايطاليون والا ينسحبوا الى طرابلس .

وبعد ذلك بخمسة ايام وافق موسوليني على الاقتراح

وفي ١١ شباط وصل اللفتنانت جنرال اروين روميل الى روما ، ودخل عامل جديد في حرب الصحراء .

الفصل الرابع

العبقرية العسكرية العظيمة عند رومل

رومل يهاجم الانكليز بفرقة المانية واحدة
فيهـدم كل مـا بنوه في شهور في أيام قليلة ..

الكتب الثلاثة :

بين الكتب التي اعتمدت عليها في كتابة قصة الحرب في شمال افريقيا ثلاثة كتب أولها : للمارشال ايرل الكسندر القائد الاعلى لقوات الحلفاء فـي معارك الصحراء العربية وشمال افريقيا وايطاليا ١٩٤٠ ــ ١٩٤٥ .

وكتاب بول كاريل الصحفي الالماني عن جيش افريقيا ..

والثالث كتاب عن (رومـل) وضعه الكاتب الانكليزي دسموند يونـغ ، وقدّم له الفيلد مارشال السير كلود اوكلند .. الذي قاد حرب الصحراء هذه بعد ان تخلى عنها الجنرال ويفل ..

ولعل من أطرف ما جاء في مقدمة الكتاب قوله أن في الكتاب رسالة أو تقريرا ارسله الى قواده في ساحة الحرب بعد أن لمع اسم (رومل) بينهم فأثار اهتمامهم وهزّ مشاعرهم ، واخافهم وازعجهم ، حتى لبدا عندهم وكأنه رجل من الجن يفعل الاعاجيب لا فردا من بني الانسان .

« ومن المفروض أن قائدا عدوا لا يمكن أن يظفر بمثل هـــذه الشهرة والاهمية الا ان يكون فوق المستوى المعروف عند القواد من امثاله ، وقد كان (رومل) كذلك ، وكان الى هذا عبقريا في خططه وحركاته العسكرية ..

« واذا كان رجالنا مع تقدم الحرب وتطورها قد اخذوا يماثلون الجنود الالمان وضباطهم في الاخذ بالحركات العسكرية وتطبيقها ، فان هذا لم يتحقق بين جمهرة القواد الكبار وظل (رومل) فريدا لا يجارى ، وعبقريا لا يماثـــل ولا يداني .. ولهذا فان هناك كثيرا مما نستطيع الافادة منه لو درسنا تاريخه وخططه العسكرية ، وقيادته لفرقته على الوجه الاكمل والافضل .

« لم اجتمع اليه ، ولا رأيتـــه ، وكان اتصالي به محصورا بالمعارك التي كانت تدور بين جيشنا بين سنة ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ ، وليست تختلف نظريتي فيه عن النظرية التي وصل اليها المؤلف في كتابه ، وان كنت في بعض الحالات قد تصورته كأحد هؤلاء الضباط الكبار الذين اخرجتهم المدرسة العســكرية البروسية ، ثم أدركت مع الايام انه على خلاف ذلك ، وانــه كان انسانيا الى ابعد درجات الانسانية ، وقائدا استطاع أن يكسب احترام جنوده وحبهم ، حتى اطاعوه وحاربوا معه حتى الموت ..

« واني لاعترف الان بأن (رومل) قد تولاني في أثناء قيادتي ، بكثير من القلق والتوجس كخصم عنيد ، لا يطلب رحمة ، ولا يريد رحمة من احد ..

« واني لاقدره الان بعد موته ، رغم أسفي للمباديء التي كان يحارب في سبيلها وانكاري لها .. وتقديري هذا يرتسم ويتعلق بالمؤهلات والمواهب التي كان يملكها والتي يتمنى كل شخص منا خصوصا خصومه في ساحات القتال لو نعموا بمثلها ..

« كما أرجو لو يعامل فيما اذا تولاه الفشل في خططه ، كما يعامل كل منا لو كان له مثل مصيره .. »

لقد جرى (بول كاريل) في كتابه مجرى القصة التاريخية ، ولكنه فـــي الواقع لم يخرج على التاريخ في كثير ولا قليل . فقد كان الانكليز في الواحد والثلاثين من شهر آذار ســـنة ١٩٤١ ، يرسلون دائما بعض ضباطهـــم للاستكشاف على مراكز الايطاليين وما يدبرونه في ليلهم أو يحاولونه فـــي نهارهم ، ولهذا فلا غرابة في خروج سيارة بريطانية صغيرة من مركز القيادة العامة الانكليزية في مثل هذه الليلة تقل الضابطين فريد ميللر وجامس كلارك، وعامل الراديو (فار كارت) .. ووقوفها عند نهاية الحدود القريبة لولايـــة

برقة ، وفي تجويف تل صغير من الرمال ، ومغادرة الضابطين لها للقيـــام بالاستكشاف فوق التل . .

ولكنهما ما لبثا ان اقتنعا بأن الايطاليين كما يبدو يغطون في نومهم ، في مراكزهم البعيدة عنهما ، بعد ان تأكدوا من الهدوء الشامل والصمت المخيف . .

وان الايطاليين لا يحاولون حركة ولا يقومون باستعداد لمعركة جديدة ، أو تقدم ولو كان صغيرا . . ولهذا عادا الى السيارة حيث تناولا طعامهمـــا المتواضع ، وحيث ارسل كلارك برقيته الى مركز القيادة الانكليزية يقول فيها ان لا جديد في « العجيلة » ، وان الهدوء يخيم على الارض كلها . . ثم تمـدد الجميع على الارض ليأخذوا حظهم من الراحة . .

من هو رومـل :

يقول (كاريل) في كتابه عن الفيلق الافريقي ما يلي :

« وفي نفس الوقت ، وفي غرفة صغيرة مظلمة من غرف فندق (ايطاليا) ببنغازي ، وقف الجنرال (نيم) قائد منطقة برقة ، والى جانبـــه الجنرال (غامبيه باري) قائد الفرقة الثانية القادم حديثا من انكلترا ، امام خريطـــة حربية ، يدرسان الموقف بعد أن وصلتهما برقية الملازم كلارك ، بأن لا جـديد في (العجيلة) .

كان (نيم) اول من تكلم فقال :

ـ كان علينا ان لا نتوقف عند العجيلة . . كان من الواجب أن نندفـع مسافة ٨٠٠ كيلو مترا الى الامام حتى طرابلس . . ان الايطاليين تعبـون . . ولا يستطيعون المقاومة .

فرد عليه غامبيه باري :

ـ انها مسافة كبيرة . . ودباباتنا ليست في وضع يمكنها من القيام بهذه الرحلة خصوصا بعد ارسال ثلاث فرق الى اليونان وجزيرة كريت . . ولا تنسى ان الالمان قد استقدموا معهم أسراب الطائرات من جنوبي ايطاليا لدعم القوات البرية . وما يستطيع عمله طيارو الفرقة العاشرة نلمسه هنا في بنغازي كل يوم حيث لا نستطيع تفريغ أية باخرة عبر الطريق الساحلي . .

« ان هتلر لا يريد ولا يرضى بأن يطرد صديقه موسوليني من افريقيـا

فتنكشف واجهة اوروبا ، ومجرد وصول الجيش الخامس المدرع الى طرابلس دليل على استعداده لبذل التضحيات . وهذا الجيش يدعى « دويتش افريكا كوربس » .. انه اسم يعبر عن التفاخر والاعتزاز وهم لا يخفون سرورهم باحتلال احدى طلائعهم الاستكشافية لمركز العجيلة . »

وهز الجنرال نيم راسه وقال :

ـ لو أننا تابعنا سيرنا المظفر نحو طرابلس لما تمكن الالمان من انزال جيشهم الافريقي . ثم قال مدافعا عن فكرته : ان رومل رجل مخادع ولا نعرف عنه الا القليل ولكن لا بد أن يكون لدى ضابط الاستعلامات التابع لكم ملف خاص به .

وعلى الاثر استدعى الجنرال غامبيه ـ باري رئيس مكتب الاستعلامات، وهو كولونيل متقدم في السن وسأله عما لديه من معلومات عن رومل .. فأحضر ملفا ذا غلاف أحمر ففتحه واخذ يقرأ :

« رومل ايرفين ، ولد في تشرين الثاني عام ١٨٩١ في هايندنهايم ، بمقاطعة ورتمبرغ ، انخرط في السلك عام ١٩١٠ برتبة مرشح ضابط في احدى فرق المشاة . وعين ضابطا عام ١٩١٢ بعد دورة تدريبية قضاها في الكلية الحربية في دانتنزيغ ، اشترك في الحرب العالمية الاولى في الارغون ، ونقل بعد ذلك الى رومانيا ثم ايطاليا ، جرح مرتين ، نال وسام الصليب الحديدي من الدرجة الاولى ، رقي الى رتبة كولونيل في فترة ما بين الحربين، ثم عين مديرا لاحدى المدارس الحربية .

« وعند اعلان الحرب العالمية الثانية كان قائدا لاركان حرب هتلر في بولونيا ثم عين قائدا للفرقة السابعة المدرعة » .

وهنا قاطع الجنرال « نيم » ضابط الاستعلامات قائلا :

ـ انها الفرقة التي اخترقت جبهة الموز في فرنسا ، انني أعرفها جيدا .. وتابع الكولونيل قراءته :

« في الواحد والعشرين من أيار ١٩٤٠ أثناء اندفاعنا نحو آراس ، كان رومل على وشك السقوط اسيرا بين أيدينا .. ولكنه انحرف بفرقته الى مدينة ليل . ونال وسام الصليب الحديدي من رتبة فارس ، ولا بد ان يكون قد نال مؤخرا وسام أوراق السنديان ، وهو موجود غالبا على رأس أركان حربه في طرابلس منذ الثاني عشر من شباط » .

وأغلق الكولونيل الملف منتظرا الاوامر ..

قال الجنرال نيم : معلومات قليلة .. ولكن هناك حقيقة راهنة وهي أن رومل ورجاله ليسوا هنا والا لدعم الايطاليين من الخلف . يؤكد ذلك المعلومات الواردة من عملائنا في برلين . ولهذا لا يخشى والحالة هذه من هجوم ألماني في افريقيا . كما لا يخفي أيضا أن فرقة واحدة لا تكفي لذلك خصوصا اذا كانت مؤلفة من رجال لا يعرفون شيئا عن الصحراء . ان مصلحة الاستعلامات البريطانية في ايطاليا ليستعلى مستوى رفيع ولكنها تؤكد أنالفرقة الخامسة وحدها هي التي وصلت الىليبيا . وهذا ما نعلمه نحن أيضا ، ونعرف أيضا أن وجود الفرقة المذكورة هو لغرض معنوي بسبب تدهور معنويات الايطاليين . وقد أكد لي اوكنور وويفل منذ ثلاثة أيام عندما كنت في القاهرة، ان التقارير الواردة من لندن لا تتوقع أي عمل عسكري معين قبل آخر أيار . كما انه لا بد لهتلر من أن يرسل فرقتين اخريين اذا كان يعتزم القيام بأي عمل جدي .

وأنهى الجنرال نيم كلامه قائلا :

ــ ولا أستطيعالا أن أؤكد المعلومات التي يبعث بها الينا رجال المخابرات. وغدا سأقابل شخصيا الجنرال ويفل في القاهرة وسأتحدث اليه بهذا الشأن.

والواقع أن تقديرات الجنرال نيم وزميله باري حتى الواحدة والثلاثين من آذار كانت تستند الى معلومات موثوقة .. والجنرال ويفل القائد الاعلى لجبهة المتوسط كان يملك تقارير من برلين تفيد أن أوامر هتلر كانت تمنع رومل من القيام بأي هجوم على نطاق واسع ، وحتى ولو لم يكن الانكليز على علم تام بأوامر هتلر فان المعلومات التي تلقوها من عملائهم في برلين وروما تمكنهم من استخلاص الاتجاه السائد في القيادة العامة الالمانية .

ولكن غالبا ما يؤدي أصدق التقارير السرية عن نشاط العدو وخططه الى أخطاء مميتة ..

وهذا ما حدث مرتين للانكليز في افريقيا ..

لقد كانت تقارير رجال الاستخبارات صحيحة مئة بالمئة .. لان الفوهرر أصدر أمرين تحت رقم ١٨ و ٢٢ وعلى أساسهما وضع الانكليز الخطة المعاكسة ولكن الذي حصل أن القائد الذي كان قابعا في افريقيا لم يمتثل لاوامر الفوهرر ، وهذا هو السبب الذي أدى الى تسجيل انتصار رائع للقوات الالمانية كاد ينقلب الى انتصار نهائي على بريطانيا .

وأوامر هتلر السرية ومناقشاته داخل هيئة أركان حربه تظهر بوضوح كيف كان الفوهرر وقادة القوات الالمانية ينظرون الى جبهة افريقيا ضمن خريطة الحرب .

ففي ١٢ تشرين الثاني وقبل انهيار القوات الايطالية في افريقيا كان هتلر يقول في الامر اليومي رقم ١٨ ما يلي:

« ان اشتراك القوات الالمانية في العمليات الحربية ليس موضوع بحث الا عندما تصل القوات الايطالية الى مرسي مطروح . أما القوات الجوية فان اشتراكها في المعارك منتظر حالما تـ ضع تحت تصرفنا المطارات والقواعد الجوية اللازمة .

« وأن استعدادات القوات المسلحة للعمل على هذه الجبهة أو تلك في افريقيا يجب أن تتم في الاطار التالي :

« استنفار فرقة مدرعة وايفادها الى شمال افريقيا .

اعداد البواخر الالمانية الموجودة في الموانيء الايطالية التي يمكن استخدامها لنقل اكبر عدد ممكن من القوات الى ليبيا أو القسم الغربي من شمال افريقيا .

« القيام بالاستعدادات اللازمة لشن غارات على الاسكندرية وقناة السويس لاقفالهما في وجه القيادة البريطانية .. »

والواضح أن تقديرات هتلر كانت ترتكز على امكانية نجاح الايطاليين في خرق الجبهة المصرية ، وكان يعتقد أن الايطاليين ليسوا بحاجة الا لمساندة المصفحات في البر والطائرات في الجو حتى يتمكنوا من احتلال قناة السويس.

ولكن تقديرات الفوهرر كانت خاطئة !

وبعد ثلاثة أسابيع على هذا الامر السري انقلب الوضع رأسا على عقب..

لم يعد الهجوم الايطالي موضع بحث ، بل بالعكس أخذ الانكليز يزحفون منذ الثامن من كانون الاول نحو الغرب ويتقدمون بسرعة ..

وفي ١٠ كانون الاول اضطر هتلر الى ادخال تغيير على خططه فأمر القوات الجوية قائلا : « يجب على الوحدات المتمركزة في جنوبي ايطاليا أن تبدأ العمل بأقصى سرعة ممكنة فتغير على القطع البحرية البريطانية الموجودة في مرفأ الاسكندرية وقناة السويس وفي مضيق صقلية وعلى شاطيء شمالي افريقيا » ..

وفي نفس الوقت أمر هتلر بنقل الفرقة المدرعة الى ليبيا فورا ..

ولكنه ظل على اعتقاده بأنه لا يمكن الحصول على انتصارات حاسمة في هذه الجبهة . كما لم يكن في نفس الوقت يخشى قيام اخطار كبيرة فيها لان الجبهة الروسية كانت الجبهة الرئيسية بالنسبة اليه ..

وكانت أوامر هتلر هذه لا تعني أكثر من اتخاذ تدابير دفاعية في شمال

افريقيا ، وكان واضحا انه يعتقد بأنه لا يمكن الاعتماد على جبهة المتوسط للحصول على انتصارات حاسمة . فالرجل الذي كان يؤمن بتحطيم الاتحاد السوفياتي خلال ستة أشهر لم يكن يؤمن بامكانية تحقيق انتصار سريع في افريقيا ..

وكان هتلر يرجو حتى ذلك التاريخ اخضاع الاتحاد السوفياتي ، وكان امله هذا راسخا بشكل جعله يصرح في شباط بأن خسارة افريقيا من الناحية العسكرية يمكن تحملها ... لولا انها تخلق نتائج نفسانية خطيرة بالنسبة لايطاليا . وهذا ما دفع به الى اصدار امره بضرورة الحيلولة دون هذه النتائج السيئة وذلك باشراك قوات السلاح الجوي وفرقة دفاعية برية . والفرقة الدفاعية كانت « جيش افريقيا » المؤلف من فرقة واحدة مدرعة . ولم يكن هناك اي تفكير بارسال فرقة ثانية الى جانب الفرقة الخامسة الا بعد ان وصل البريطانيون في زحفهم السريع الى بنغازي يوم ٦ شباط ١٩٤١ . عند ذلك قرر هتلر ايفاد الفرقة الثانية المدرعة . وعين أرفين رومل قائدا أعلى لجيش افريقيا ، وقام الفيلدمارشال فون بروخيتش بتسليمه القيادة العامة يوم ٦ شباط سنة ١٩٤١ .

وهكذا برز « ثعلب الصحراء » على مسرح التاريخ .

ولم ينس هتلر ان يحذره وهو يرفع اصبعه : اياك ان تقوم بأية عمليات واسعة النطاق قبل خريف ١٩٤١ .

وبقي رومل في مقر قيادة الفوهرر حتى التاسع عشر من آذار عندما افهم مجددا بأن القيادة العليا لا تفكر حاليا بتوجيه ضربة قاضية للانكليز في افريقيا ، ولكن من الممكن بعد وصول الفرقة ١٥ في منتصف ايار ، القيام بهجوم محدود في منطقة اجدابيه على أن ترفع خطة الهجوم الى القيادة العليا قبل ٢٠ نيسان .

هذا هو مجمل الخطة التي رسمها هتلر في مخيلته لجيش افريقيا . أما رئيس الاركان هولدر فكان يعتبر الجيش المذكور وسيلة سياسية الابقاء على الايطاليين في المعركة ضد الحلفاء .

كان رومل جنديا ممتازا يعرف ان الاوامر يجب ان تنفذ .. ويعرف ايضا ان السادة الجالسين وراء مكاتبهم في برلين ليسوا في قلب المعركة .. ورومل لم يكن ذلك الرجل الذي يدع فرصة النصر تفلت من يديه .

كان يعلم ان قوة الانكليز القابعين وراء تلال العجيلة قد ضعفت كثيرا



اسرى من الايطاليين في طريقهم الــى المعتقل

بسبب ارسال النجدات الى اليونان .. وكان تشرشل الواثق جدا من الفوز قد اجبر الجنرال ويفل على احتلال المراكز الاستراتيجية في برقة بقواته الضعيفة . يضاف الى ذلك طول خطوط التموين من القاهرة الى البردية فطبرق ومنها الى العجيلة ثم رداءة وسائل النقل ..

كل ذلك كان رومل يعرفه ويعرف ايضا ان الانكليز يقيمون اجهزة دفاعية في منطقة مرسي البريجة الهامة لتقوية مراكزهم الضعيفة ... كل هذا والاوامر التي لديه تفرض عليه البقاء حيث هو . ولكن هل يجوز الانتظار وافساح المجال امام العدو حتى يتم تحصيناته فيصبح الاستيلاء عليها مستحيلا الا بثمن باهظ ، كل ذلك لان لدى هتلر وقيادته العليا في برلين فكرة خاطئة عن حرب الصحراء ، أو لان موسوليني وقادته خائفون ؟ لا ! يجب على الاقل الاستيلاء على مرسي البريجة وربما على اجدابيه . يجب احتلالهما الان وليس في اواخر أيار ..

ان حرب الصحراء تختلف تماما عن الحرب في الاراضي التقليدية . ان الصحراء اشبه شيء بالبحر كلاهما مساحات شاسعة صالحة للقيام بهجمات سريعة مباغتة على مراكز حساسة يؤدي سقوطها الى انهيار جبهة واسعة بكاملها ..

وقد خبر الايطاليون صدق هذه النظرية عندما تقهقروا خلال شهرين مسافة ١٢٠٠ كيلومتر امام ثلاث فرق مؤلفة من ٣١ الف جندي بريطاني و١٢٠ مدفعا و ٢٧٥ دبابة . هذه القوة الصغيرة استطاعت ان تهزم اكثر من مئتي الف جندي وكان هذا مدعاة لاعتزاز بريطانيا وتفاخرها بحيث استعادت شجاعتها وآمالها ..

والواقع ان الايطاليين حاربوا في بعض الاماكن ببسالة ولكن تجهيزاتهم كانت رديئة يقابلها من الناحية الاخرى معدات حديثة مدرعة ..

وكان البريطانيون في أول الامر يستهدفون شن هجوم محدود لمدة خمسة أيام . ولكن الصحراء كالبحر عندما تسقط نقطة ارتكاز سرعان ما تتفتح بوجه المهاجمين الطريق الى منطقة أوسع . والمهزوم الذي يضطر للانكفاء لا يجد أي متسع للراحة . وهذا ما حدث فعلا للايطاليين ..

ويلاحظ ان القادة البريطانيين في بنغازي والقاهرة لم يفطنوا الى انه من الممكن لقائد الماني ان يستخدم نفس الخطة لمصلحته ..

كان لدى الجنرال ويفل تقارير سرية عن خطط هتلر وموسوليني تؤكد

انه لا يجب على رومـــل القيام بأي عمل هجومي في اواخر آذار ١٩٤١ . هذا من ناحية .. اما من ناحية ثانية فان الاوامر الصادرة عن القيادة الايطالية التي كان رومل تابعا لها ، كانت تشير صراحة الى انه لم يكن على القائد الالماني ان يقوم بأي عمل هجومي ..

وعلى هذا ولما كان الجنرال ويفل يعتمد على نظامية رومل فقد أوى الى فراشه في القاهرة مساء الثلاثين من آذار ١٩٤١ مطمئن البال ..

وكذلك الامر بالنسبة الى القائدين البريطانيين نيم وغامبيه ـ بـــاري اللذين استلقيا على فراشهما في مركز القيادة في بنغازي لا يقلقهما أي شيء .

اما الملازم ميللر فقد كان مسترسلا في احلامه قرب العجيلة في سكون الليل ، يسمع شخير رفاقه وهم يغطون في نوم عميق .

المفـــاجاة :

وفجأة سمع هدير الدبابات .. فانطلقت من فمه لعنة وانبطح على الارض وما لبث زميله كلارك ان نهض من السيارة وانبطح بجانبه وأخذ يتطلعان الى حيث تظهر أشباح الدبابات تتنقل هنا وهناك وهي تزأر مهددة .. وأرهفنا السمع .. وسمعنا نداءات فهمس ميللر : « دبابات المانية .. انها تمر على بعد ٣٠ مترا منا وتتجه نحو الجنوب .. هذه واحدة .. وثانية... وثالثة ورابعة .. وخامسة » .

وتوقف كلارك عن العد .. لان الدبابة اتجهت صوبهم وقد ظهر قائدها من أعلى البرج ..

وهتف كلارك برفاقه : «لنهرب بسرعة ..» ولم تمض لحظات حتى كانت السيارة تشق الرمال على غرار الاشباح الصاخبة في طريقها الى أقرب نقطة بريطانية .

لقد انقلب سكون الصحراء الى ضجيج صاخب وانبعثت فيها الحيـــاة فجأة ..

وصلت سيارة الدورية البريطانية الى طريق مرسى البريجـــة واتجهت بسرعة نحو الحي العربي المرتفع حيث ينتصب المسجد الابيض .. لقد طلـــع النهار .. ويا له من نهار تاريخي !

واسرع كلارك يبلغ النبأ الخطير الى رئيس مفرزة الاستكشاف التابعة للفرقة الثانية المدرعة المتمركزة امام مرسى البريجة :

ـ الالمان يهاجمون على جبهة عريضة . دباباتهم منتشرة الى الجنوب وعلى الطريق الساحلي .

الهجوم الالماني

ساد الوجوم أفراد المفرزة دقائق معدودات .. انطلقوا بعدها بدباباتهم من طراز « برن كاريرز » ولكنهم لم يسيروا طويلا .. ففي تمام الساعة ٩،٤٤ التقت بهم مفرزة ستاندهورف الاستكشافية .. وبعد ٦ دقائق انفجرت القنابل الاولى معلنة بدء الزحف الظافر نحو طبرق .

واستمر العراك بين وحدتي الاستكشاف البريطانية والالمانية الى ما بعد الظهر وانتهى بهزيمة البريطانيين . وعندما انتقل الفيلق الخامس المدرع تحت قيادة الكولونيل اولبريخ الى مهاجمة موقع مرسى البريجة ، وجد نفسه مجبرا على التوقف أمام حصون البريطانيين المنيعة .

وفي الخامسة والنصف قامت طائرات الشتوكا بغارات عنيفة على المواقع البريطانية ، وأخذت مدافع « فلاك » الثقيلة تدك الحصون لاسكات مدفعية الانكليز .

ولم تدم المعركة طويلا حتى سقطت مرسى البريجة مفتاح صحراء برقة فتم بذلك الوصول الى الهدف المحدد بموافقة القيادة العليا الايطالية ..

وفطن رومل عندئذ الى ضعف الانكليز ، فترك قواته تتابع زحفها دون قيد ولا شرط ..

واندفعت مصفحاته وسياراته تشق طريقها في الرمال الزرقاء الرمادية عند صحراء (السنحة) التي يتألف سطحها منذ أقدم العصور من المواد الصلصالية فلو هطلت الامطار في هذا الوقت من الربيع ، وهو ما يقع دائما ، لاستحالت الارض الى مستنقعات من الوحول ففارت الدبابات والمصفحات في جوفها ..

واستمرت المطاردة للقوات البريطانية التي كانت تتراجع باستمرار .. وأمر رومل رجاله باحتلال (اجدابية) حيث المياه العذبة وفعلوا ..

وحار الجنرال ويفل الانكليزي في أمره ..

كيف يقوم (رومل) بهذا الهجوم الكبير وهو لم يرسل الى افريقيا لمثل هذا .. ولا كانت قواته من المناعة والقـــوة بحيث تستطيع القيـــام بعمليات الهجوم هذه ؟

وأرسل الجنرال (اوكنور) والجنرال (كومب) الى الجبهة للاستطلاع وبحث الموقف ..

وقال اوكنور للجنرال نيم :

ـ يا للشيطان .. ماذا حدث ؟

« لم يكن من واجب رومل حسب معلوماتنا أن يقـــوم بأي هجوم . ولا كان باستطاعته ولا من حقه ا نيفعل . »

وقدَّم له الجنرال نيم التقارير الآتية من الجبهة والتي تقول بأن الالمان حطموا الفرقة الثالثة المدرعة واحدثوا ثغرة واسعة في الجبهة ..

وفي تلك الاثناء كانت أوامر رومل لا تتغير :

ـ الى الامام ! الى الامام !

ولكن الى جانب التقارير الواردة اليه عـــن تقهقر البريطانيين المتواصل .. كانت تقارير أخرى ترد اليه باستمرار من القوات المدرعة وكلها تشير الى قرب نفاد المحروقات وبالتالي الى حتمية توقف الزحف ..

وقام الرجال المسؤولون عن المؤن في جيش افريقية بعملية حسابية .. فتبين لهم أنه لا بد من فترة أربعة أيام حتى يمكن تزويد جميع القطع المدرعة بالمحروقات اللازمة . ولكن رومل هزأ بتلك الحسابات .. فأمر بتفريغ جميع الشاحنات ووجهها في قوافل متلاحقة نحو المؤخرة لتنقل المحروقات والمؤن! وحدَّد رومل فترة ٢٤ ساعة لاتمام العملية . وكانت هذه الساعات من أخطر الاوقات التي مرت بجيش افريقيا الذي بقـــي مشلولا لا يستطيع القيام بأيـــة حركـــة ..

وكان المفروض ان ينتهز الجنرال نيم هذه الفرصة ليضرب ضربته ولكن اضاع الفرصة ..

وبانقضاء المهلة المحددة كان الفيلق الخامس المدرع يتزوَّد بما يلزمه من محروقات ومؤن ليندفع من جديد في طريق النصر ..

وبينما كانت تتجلى لـــدى الالمان دقـــة التنظيم ، كانت الفوضى تعيث فسادا في صفوف البريطانيين وكان الانقسام بين أركان حرب القيادة يدفع

بالقادة الى شفير اليأس ..

وبينما كانت فيالق البريطانيين تسحق واحدا بعد الآخر ، كانت القيادة العليا في القاهرة تعلن بواسطة الاذاعة انها لا تعتقد بأن رومل يقدم على شن هجوم بفرقة واحدة ، وكان الجنرال ويفل يعطي أوامر متضاربة مع الاوامر التي يصدرها قائد ولاية برقة .. وكان السير ريتشارد اوكنور يتجاوز سلطات الجنرال نيم قائد منطقة برقة . فيتصل رأسا بقائدي الفرق غامبيه ـ باري ومورشيد ..

ولما عجز ويفل عن تكوين فكرة صحيحة عن الوضع بسبب تضارب الانباء الواردة اليه .. قرر أخيرا الذهاب بنفسه فركب طائرة عسكرية ووصل الى برقة ..

جاء ويفل وهو متأثر بما قاله قبل أيام لوزير الخارجية أنطوني ايدن ورئيس الاركان العامة السير جون ديل مقنعا اياهما بأن الالمان لا يمكن ان يشنوا هجوما قبل منتصف أيار .

وفور وصوله ارتكب خطأ جديدا .. فقد اعتقد أن الالمان لن يتوغلوا عبر الصحراء . وقال ان رومل « العديم الخبرة » سوف يسلك الطريق الساحلي المعبد المسمى « فيالبيا » ..

وقال لقواد الجبهة :

ـ حاولوا أن تشنوا هجوما على جناح قوات رومل وهي مندفعة نحو بنغازي . ان المدينة لا يمكن الدفاع عنها .. ولكن بامكاننا أن نفعل ذلك بالنسبة للهضبة ..

ورفع ويفل يده وأشار الى موقع « الرجينه » وقال :

ـ هذا الحصن يجب ان نحتفظ به .

وردّ عليه القادة :

ـ يجب علينا الاحتفاظ به ؟ ماذا تعني أيها الجنرال بذلك ؟ أنت لست على علم بحقيقة الاوضاع . ويبدو ان لديك فكرة مغلوطة عن رومل ورجاله ... انك تخطىء مرة أخرى وهذا سيكلفنا كثيرا ..

واخذ ضباط أركان الحرب يطلعون الجنرال ويفل على لائحة المستودعات الموجودة في الصحراء وهي مستودعات مليئة بالمحروقات والمؤن وتعتبر قلاع الحرب المدرعة الحديثة ..

غير أن ويفل أخطأ في حساباته ..

اولا : لان رومل اتجه بقواته عبر الصحراء نحو (مشيلي) ولـم يسلك الطريق الساحلي ..

ثانيا : لان رومل اتبع خطة جديدة لان المشكلة الاساسية فـي حـرب الصحراء هي في تأمين المحروقات . وقد اوعز الـــى طائرات سلاح الجـو الالماني بتدمير قوافل التموين الانكليزية وان يجعل الطيارون منهـا هدفهـم الرئيسي . وهكذا اصبحت طريقة الانكليز فـي التموين مـــن المستودعات الموجودة في الصحراء طريقة بالية تعود عليهم بنتائج معكوسة ..

خطـا فظيـع

وفي الرابع من نيسان ورد نبأ على بلدة « مسوس » يقول : بـأن الالمان يتجهون صوب المنطقة ، فأسرعت الحاميـــة بنسف مستـودع المحروقـات الكبيـر ..

وتبين فيما بعد ان الدبابات التي كانت مختفية وراء الغبار الكثيف لـم تكن سوى دبابات الفرقة الثانية البريطانية القادمة الـــى « مسوس » لاملاء خزاناتها .. ولكنها بدلا من أن تجد المحروقات قابلها ، منظر هائل من الدخان الاسود الذي انتشر في سماء البلدة وأحال نهارها ليلا . وهكذا بقيت معظم دبابات الفرقة الثانية المدرعة الانكليزية مجمدة فـــي مكانهـا بانتظار المصير المحتـوم .

سار رومل على رأس مدرعات فيلق الاستكشاف الثالث بقيادة الكولونيل « فريهر فون ويخمار » نحو بنغازي . وعنـد فجر الرابع من نيسان وصل الى مرفأها الذي لم يجد الانكليز الوقت الكافـي لتدميـر جميـع منشآتـه تدميرا كاملا ..

ولم يجد رومل من ناحيته الوقت الكافي لزيارة المرفأ والمدينة وأسواقها الجميلة حيث كان السكان في ذلك اليوم يصطفون علـــى الارصفة يحيـون الفاتحين بحرارة ... ولم يلاحظ رومل بائعي الليمون والفستق الذين كانوا ينادون على منتوجاتهم غير عابئين بالحرب .. ولكنـه ابتسم فقط لبائعـي عصير الليمون الذين أحاطوا بسيارته يقدمون له أقداح الشراب المبرد ، كان همه الوحيد ان يتابع الزحف .

وعكف فورا على تأليف مجموعات مسلحة من قواته ودفع بها الى اعالي

برقة ابتداء من اجدابية ووجهها لتطويق موقع مشيلي الهام .
وبينما كان الجنرال سترايخ على رأس الفيلق الثامن بقيادة الكولونيل « بونات » ومجموعة الكولونيل « غراف شفارين » المؤلفة من قوات ايطالية ، يتجه نحو (مشيلي) كان الكولونيل اولبريخ يتجه بفرقة الدبابات الخامسة والفيلق الثاني مع أربعين دبابة من الفرقة الايطالية « أريتا » نحو مسوس ومشيلي ..

أما الجنرال كيرشهايم فقد اتجه من بنغازي على طريق « فيابالبيا » نحو (درنه) ، وتحت امرته الفرقة الايطالية « براسكيا » كما وجه في نفس الوقت قوة هامة نحو مشيلي رأسا .

ورجال « جيش افريقيا » لا ينسون زحفهم على مشيلي عبر صحراء من الرمال والبحص المحرق .

ولم يتمكن أحد من القادة البريطانيين من فهم خطة رومل سوى الجنرال اوكنور الايرلندي الصغير الجسم . كان أوكنور يعتبر خبير الصحراء رقم واحد في الجيش البريطاني والدماغ المفكر في معركة افريقيا . وقد أرسله ويفل في ٢ نيسان الى الجبهة ليبقى الى جانب الجنرال نيم علّه ينجح في انقاذ برقة .

وفي مساء ٦ نيسان ركب نيم واوكنور سيارتهما وغادرا « ميروه » باتجاه بلدة تميمي مركز قيادتهما الجديد .. ولكنهما تاها في الطريق واتجها نحو درنه . ولم تلبث بعض القوات الالمانية ان تجاوزت سيارتهما المصفحة دون ان يفطن لذلك أحد غير السائق الذي أسرع يحمل رشاشه. ويطلق النار على أحد الجنود الالمان فيسقط للحال .

وقبل أن يوجه ناره الى جندي آخر كان رفيق الجندي الالماني الصريع يعاجله بطلقات سريعة من رشاشه فيخر صريعا . ولم يلبث اوكنور ونيم أن رأيا فوهات البنادق والرشاشات مصوبة نحوهما فرفعا أيديهما مستسلمين للقوات الالمانية ، وبذلك خسر البريطانيون قائدين من خيرة قواد شمالي افريقيا .

وفي السابع من نيسان احاطت قوات الجنرال سترايخ والجنرال شفارين بموقع مشيلي ، وتلقت الحامية انذارين على التوالي للاستسلام ولكن البريطانيين رفضوا باصرار ، وفي المساء حاولت القوات المطوقة أن تجد منفذا من الحصار المضروب حولها ، ولكنها اخفقت وسقط الجنرال غامبيه —

باري والبريفادير فوغون في الاسر . وسقط معهما في الاسر فيلق كامل تقريبا من دبابات القوات الهندية وفرقة من رماة « راجبوت » المشهورين وحوالي الفي رجل .

وفي نفس اليوم سقطت (مشيلي) ودخلت طلائع قوات الكولونيل بونات مدينة درنه ، في الوقت الذي كانت فيه مجموعة من طير السنونو تستعد للرحيل نحو الشمال الى موطن جيش افريقيا . ولكن رومل لم يدع لقواته فرصة النظر الى تلك الطيور البديعة .. فقد أطلقها قبل ان تأخذ قسطا وافيا من الراحة ، نحو بلدة « تميمي » حيث استولت على المؤن والمحروقات وينابيع المياه العذبة .. قبل أن تشن هجومها على طبرق جوهرة شمالي افريقيا بمرفأها ومستودعاتها وما فيها من خيرات .

الى الامام

كان تشرشل يعرف قيمة طبرق حق المعرفة ويعرف انها نقطة دفاعية لا مثيل لها ويعرف أن سقوطها يفتح الطريق أمام جحافل رومل حتى قلب وادي النيل . لذلك أبرق يوم ٧ نيسان الى الجنرال ويفل يقول :

« طبرق التي أحسن الايطاليون تحصينها يجب أن تدافع عنها الى ان يستقدم العدو مدفعيته الثقيلة ، وهذا لن يتسنى له قبل بضعة أسابيع ، فاذا ترك المدينة عند جناحه ليتابع زحفه نحو مصر فانه سيتعرض لاخطار عظيمة . وسيقع تحت خطر قيامنا بانزال نجدات عن طريق البحر وقطع مواصلاته . هذا فضلا عن أن طبرق قلعة حصينة يجب ان ندافع عنها حتى آخر رجل . أرجو اطلاعي على نواياك » .

وأجاب الجنرال ويفل في اليوم التالي يقول : « ان طبرق ليست موقعا صالحا للدفاع لان طرق مواصلاتنا طويلة وهي مجردة من كل حماية ، وتفتقر الى المنشئات الضرورية » .

كان واضحا أن برقية ويفل تحمل الشيء الكثير من التشاؤم ! ..

وفهم تشرشل أن ويفل يعتزم اخلاء المدينة فاستشاط غضبا ، وأرسل الى ويفل أمرا بالدفاع عن طبرق ، لانها شيء حيوي وحاسم بالنسبة للمعركة ..

وبسبب هذا الامر فشل رومل في الاستيلاء على المرفأ الهام بهجوم

صاعق .. فقد اصطدم بمقاومة لا تقهر .. وفي العاشر من نيسان عند الكيلو متر ١٦ قرب طبرق ، سقط الجنرال « بريتويتز » قائد الفرقة ١٥ المدرعة . وفي اليوم التالي ، يوم الجمعة الحزينة ، وطوال يوم السبت حاول رومل خرق حصون طبرق ولكنه ارتد تحت وطأة نيران مدفعية الفرقة الاوسترالية العشرين ..

وقال رومل في نفسه : « الحظ غير موآت اليوم » وأمر في ١٣ و ١٤ نيسان بشن هجوم جديد وتمكن الكولونيل بونات على رأس الفيلق الرشاش الثامن أن يخترق الحصون ويجتاز الخنادق ببسالة فائقة . وتبعه الفيلق الخامس المدرع .. ولكنه اضطر للتوقف امام نيران قلعة (بيلا سترينو) الحامية التي مزقت الفرقة الثامنة الالمانية . واضطرت القوات الباقية للتراجع ..

وأظهرت الفرقة الايطالية « اريتا » فتوراً وهي التي اعتادت القتال ببسالة . فسحق الكولونيل بونات ورجاله في معركة ضارية بالسلاح الابيض ضد الاوستراليين ..

وهكذا فشلت خطة رومل في الاستيلاء على طبرق بهجوم صاعق ..
ولكن رومل كان رجلا لا يعرف اليأس سبيلا الى قلبه ولا تعرف الوهن عزيمته ..

لم يكن يعتقد أن البريطانيين الذين قاتلوا حتى الآن بفتور ورخاوة سيتحولون بهذه السرعة الى محاربين أقوياء كالفولاذ . وهو لا يريد ان توقفه طبرق عن متابعة زحفه الصاعق . لذلك أصدر أمره الى مجموعتين مسلحتين هما فرقة الاستكشاف الثالثة بقيادة الكولونيل فويهرفون ويخمان ، والسرية الاولى من الفيلق السيار الخامس عشر ـ السريتان الباقيتان كانتا تنتظران في ايطاليا ـ معززتين بالفرقة الـ ٣٣ المدرعة والمزودة ببطارية عيار ٨٨ بقيادة الكولونيل كناب ، أمرهما بأن تتابعا زحفهما نحو الشرق ..

وفي ذلك الوقت كانت السريتان من الفيلق الخامس عشر السيار تنقلان بحرا من نابولي الى طرابلس وترسلان فورا الى طبرق ، ولكن ما أن وصلتا الى بنغازي حتى علمتا أن طبرق تركت جانبا وان الكولونيل تلقى امرا بالاستيلاء على قلعة كابوتزو وبلدة السلوم ..

ثم سقطت البردية يوم ١١ نيسان واتى دور كابوتزو .
وفي الطريق الى الموقعين المحصنين قاسى رجال الكولونيل كناب

الامرين .. كان لا بد من التوقف بعد كل عشرة كيلو مترات لتبريد محركات الموتوسيكلات في جو بلغت درجة حرارته ٥٠ في الظل حيث لا ظل . لقد فشلت هذه الدراجات في الصحراء لانها لم تصنع لتسير في الرمال المحرقة وتحت شمس لاهبة . لقد اعطت نتائج باهرة في أوروبا أما هنا في أفريقيا فقد ظهرت مساوئها باجلى مظاهرها كانت القوات الزاحفة لا تزال على بعد خمسين كيلو مترا من قلعة كابوتزو عندما هبط الظلام فجأة . واتجه ضابطان نحو مواقع العدو للاستكشاف وهما مزودان بآلات الراديو . ولكنهما لم يرجعا الا عام ١٩٤٧ .. من الاسر ! ..

وفي اليوم التالي وصل الالمان الى مشارف القلعة الحصينة وثكنة الحدود التي كانت منسقة بشكل بديع وهي اليوم عبارة عن كتل من الباطون المسلح تلفحها اشعة الشمس المحرقة ..

وقابلتهم نيران الانكليز الحامية ولكنهم ظلوا يتابعون زحفهم نحو الخرائب حيث يستطيعون اتقاء القذائف ..

ولم يلبث البريطانيون أن دفعوا بمدرعاتهم ومدافعهم التي تجرها العربات الى خارج القلعة حيث فتحت النيران على المهاجمين .

وهنا لاحت الفرصة للسيارات المدرعة الالمانية من طراز كامف ، المزودة بمدافع ضد الدبابات من عيار ٥٠ لتثبت جدارتها .. فما ان أطلقت أولى القذائف حتى تعطلت الدبابة الانكليزية الاولى وكذلك الثانية بينما انقلبت الثالثة على جانبها . أما الدبابات الباقية فقد ارتدت عائدة الى القلعة ..

وحوالي الظهر سقطت كابوتزو .. بعد أن تحولت الى خرائب . وكان الجنود يحلمون بمقهى عربي أو بعين من المياه ، ولكن تلاشت الاحلام وسقط الذين كانوا يحلمون وانتشرت جثثهم هنا وهناك ..

بطولات

قال لي الماجور ايهل الذي كان يقود الفرقة التي احتلت كابوتزو ، بعد ان روى لي القصة قال : « اجل هذا ما حدث .. » ثم تطلع الى مكتبي ولاحظ كتب تاريخ الحرب فاقترب منها وأخذ يقرأ العناوين ثم صمت .

وكنت أعرف ماذا كان يدور في خاطره ...

كان يريد أن يقول : « كتب كثيرة .. تحوي كل شيء ولكنها في الواقع

لا تتضمن شيئا ..

« لا شيء مثلا عن الكابورال غونتر وآخر أقواله وأحلامه عندما قتل أمام كابوتزو .

« لا شيء عن صراخ الاستغاثة الذي كان يتردد طويلا من الجرحى ..

« لا شيء عن العريف مانكيافيتش ولا شيء عن الجاويش « يروم » مدرس بلدة « هاغبن » الذي جاء الى ضابطه ، يحمل رصاصة في جوفه ليقول له : « الجاويش يروم ، جريح ، الرشاش والذخيرة في مكانها .. » كان من واجبه أن يفعل ذلك وقد أدّاه حتى النفس الاخير .

من الواجب أن تتحدث عنه كتب التاريخ لانه هو وغيره من الجنود الابطال جديرون بأن يصنعوا التاريخ !.. هذا التاريخ الذي نخطه في الكتب بحرارة أو فتور ، للاجيال المقبلة يصنعونه هم بآلامهم وشجاعتهم وكذلك بدمائهم ..

ولكن ما هو مصير الحرب وما هو مصير الانتصارات اذا توقف الاحياء عند مناقشة الاموات ؟

هذا ما يحدث دائما في جميع المعارك ، ومعركة كابوتزو لم تشذ عن القاعـدة .

أما المنتصرون الذين لا يزالون على قيد الحياة فقد استقروا في القلعة يضحكون ويمرحون ويستعدون للاحتفال بعيد الفصح . لقد عاد الجاويش « أيمك » وهو يلهث من التعب ليفاجىء رجاله باكتشافه مستودعا للاغذية مليء بعلب الكونسروه والشراب واللحم المعلب .

ولم يكن هؤلاء الجنود يتصورون وهم يحتفلون بالعيد يوم ١٣ نيسان سنة ١٩٤١ ، ان هذه القلعة التي سحقتها القنابل ستنتقل اربع مرات من يد الى يد .. وستبنى فيها مقابر تحمل اسماء وارقام معظم القوات الالمانية والايطالية والبريطانية في افريقيا .

سقوط السلوم

وخلال المعركة ظهرت فعالية المدفع المضاد للطائرات ٨٨ الذي استخدمه الالمان للميدان فكان عدوا مخيفا للدبابات البريطانية .. وفي جميع التقارير التي وضعها الانكليز عن حرب افريقيا كان يذكر هذا المدفع بشيء كثير من الاحترام والخوف .

وشيء آخر اظهر جدواه أيضا .. هو مناعة الاستحكامات التي بناها الايطاليون في السلوم عام ١٩٤٠ بدقة ومهارة ، ولكن مع الاسف لم يتمكن الطليان من المحافظة على مواقعهم ولا شك ان الالمان قد ثاروا عليهم ، ولكن يجب أن لا يجبر الاطفال على الاستحمام بالماء البارد . ان الايطاليين اذا أحسنت قيادتهم حاربوا بشجاعة وقوة .



رومل يدفع سيارته مع ضباطه حين غرزت فوق الرمال وهو في طلعة استكشافية

دافع البريطانيون عن قطاع السلوم بضراوة . ولم يتراجعوا الا قسرا . وعندما اخلوا المدينة انسحبوا الى المرتفعات القريبة . وكمنوا في كل منعطف على الطرقات المؤدية الى الجبل الاخضر ، وسلطوا رشاشاتهم بانتظار أقل حركة ..

أما في طبرق بعيدا وراء خط السلوم ـ كابوتزو .. فقد اجبرت مقاومة البريطانيين العنيفة ، رومل على تقسيم جيشه الى قسمين ، وكان الثمن باهظا .. لذلك قرر الاستيلاء على طبرق بأي ثمن حتى يحرر القوات المجمدة حولها ويدفعها الى الامام نحو مصر .

أما الانكليز فكانوا يريدون الدفاع عن طبرق حتى آخر رجل من حاميتها الاسترالية كما امر تشرشل .

خدعة

في العاشر من نيسان ، وبينما كان رومل يهاجم طبرق لاول مرة .. كانت السريتان التابعتان للفيلق الخامس عشر تنزلان الى اليابسة في مرفأ طرابلس . وقد وجهتا راسا الى طبرق . وتلقى الكابتن بوش قائد الفرقة الخامسة الذي كان يتقدم الفرقة الامر مباشرة من رومل لدى وصوله الى أكرومة .. بأن يجعل العدو يعتقد بأنه على راس فيلق كامل ..

هذه الخطة كانت الخدعة الكبرى التي لجأ اليها رومل في معركة طبرق .. كان هناك بصورة مستمرة قوة صغيرة تقطع الطريق بين طبرق والسلوم جيئة وذهابا ، ومهمتها الاساسية هي اثارة الغبار على اوسع نطاق ممكن حتى يعتقد الانكليز بوجود تحركات هامة . وقد اوقعت هذه الخدعة الانكليز في أخطاء كثيرة !

وفي التاسع عشر من نيسان قامت السريتان تحت قيادة الماجور « شرابلر » مساعد رومل بالهجوم على مواقع العدو . وكان رومل نفسه يراقب سير المعركة من برج دبابته . وفشل الهجوم وتكبد المهاجمون خسائر فادحة في المعدات الثقيلة ومدافع الميدان والمدافع المضادة للدبابات وكان هدف الهجوم فتح ثغرة في صفوف المدافعين عن طبرق .

واخيرا في الثلاثين من نيسان تمكنت بعض وحدات من الفيلقين ١١٥ و ٣٣ من احداث ثغرة عميقة بعض الشيء وتم احتلال موقع راس المدوي ،

ووصل المشاة الى اول خندق مضاد للدبابات ولكن الثمن كان باهظا جدا ..
ودخلت المعركة في اليوم التالي قوات جديدة بغية توسيع الثغرة التي أحدثتها قوات الفيلق ١١٥ .. وهي مؤلفة من رماة الفيلق ١٠٤ الذين غادروا معسكرات التدريب في ألمانيا وأرسلوا رأسا الى أفريقيا . وانتقلوا فجأة من جو قارس شديد البرودة الى جو حار لاهب بواسطة طائرات من طراز يونكر ٥٢ أقلتهم من نابولي الى طرابلس . وكانت الرحلة فوق المتوسط محفوفة بالمخاطر كما يعرف ذلك عشرات الالوف بل مئات الالوف من الجنود الذين قاموا بنفس الرحلة عبر المتوسط .

وما أن وصلوا الى المطار حتى كانت بانتظارهم الشاحنات التي حملتهم في طريق طويل الى مصير غير معروف .. الى الجبهة .

وعندما وصلت قافلة السيارات الى كومة من الخرائب قيل لهم هذه أكرومه ، وهي « غرفة الانتظار » بالنسبة لطبرق .. وتتخذها القيادة العليا نقطة تجمع .

جدار من الغبار

كان دوي المدافع ينطلق من كل صوب عندما عاد الكابتن « ديستل » وقال ان الاوامر الصادرة من القيادة تقضي بأن تستعد سرية الهندسة للتوجه الى الخطوط الامامية .. وبدأ الزحف مشيا على الاقدام وسلاح الجنود الوحيد الرشاشات والقنابل اليدوية .

كانت الصحراء منبسطة اشبه شيء بالصحن ، ولم يكن أمام الزاحفين تلة أو منزل ولا حتى شجرة يمكن التستر وراءها ، لا شيء سوى الرمال والحجارة ..

وكلما اقترب الجنود في زحفهم كلما قويت أصوات المدافع وأحسوا انهم يتجهون الى قلب المعركة ..

وتراءى لهم الغبار المتصاعد عند كل انفجار وأخيرا وقفوا وجها لوجه أمام خط النار .. وهو عبارة عن جدار من الغبار يجب اختراقه ..
على هذه الصورة عرف جنود الفيلق ١٠٤ أفريقيا وحربها القاسية ..
لقد رأوا جثث الجنود البريطانيين الاولى في ساحة المعركة ، وقد تورمت وجوههم بسبب الحر . حتى لم يعد يتبين المرء منها شيئا .. أما

اجسادهم فقد انتفخت حتى كادت تمزق البزات العسكرية . هنـــا سقط بضعة اوستراليين وهم متلاصقون وكأنهم قتلوا بنفس الرشاش وفـي نفس اللحظة .. وهناك في كل مكان من الساحة تتناثر اشلاء الجنود ..

وها هم الجنود الالمان الاول يعودون من الخطوط الاولى وقد علا الغبار وجوههم وبينهم عريف يمشي متثاقلا والدم ينزف من كتفه ..

ثم ها هي القنبلة الاولى تنفجر قريبا من الزاحفين فـــلا يلبثـون ان ينبطحوا على الارض وانوفهم تكاد تتمرغ في التراب .. ثـم اخذوا ينطلقون كل بمفرده وهم يتساءلون ! ترى أين الخنادق ؟

وهل يوجد خنادق ؟ أين التحصينات ؟ وهـل هـي كمـا فـي خطى سيغفريد وماجينو ؟..

الواقع انها كانت من طراز آخر اشد خطرا واشد فتكا لانها محجوبة عن الانظار ..

وفجأة هبط الليل وكان ذلك في اول ايار ١٩٤١ . لقـد وصل الجنود الى النقطة التي سيبدأون منها هجومهم في الصباح الباكر . اذ كان عليهم ان يعاونوا الفيلق ١١٥ الذي اصيب بخسائـــر فادحة ، لتوسيع راس الجسر قرب قلعة « بيلاسترينو » ..

وعند الفجر انطلقت الإوامر : قيام ! والى الامام ! ..
وكانت المفاجأة الاولى عندما تبين أن المدفعية الألمانيـة تقـذف الجنود الالمان أحيانا .. وتقذف أحيانا اخرى سرية من الفرقة الايطالية ..

وكانت النجدات والتحذيرات تذهب سدى ..
واخذ الجنود يزحفون شيئا فشيئا ويكسبون مساحات جديدة مـــن الاراضي ..

الساعة الآن التاسعة وقد مر على بـــدء الهجوم أربع ساعات طوال . واستبد العطش القاتل بالجنود .. وهناك ما هو أشد .. كان نصف الجنود تقريبا مصابا بالديزنتيريا .. وقليلا الى الامام كان الملازم بوشر ومرافقه على اسوأ حال فخلعا سرواليهما ونظفاهما بما لديهما من ماء ثم نشراهما عند حافة الخندق ليجفا سريعا تحت أشعة الشمس .. ولكـن انفجار احـدى القنابل مزقهما اربا اربا فكان على الملازم ومرافقه ان يحاربا طوال يومين وهما بـــلا سروال ! ..

ظل رومل حتى الرابع من ايار يحاول ان يخترق تحصينات طبرق ولكن قواته كانت ضعيفة بينما كان دفاع العدو ، وعلى الاخص بطارياته ، قويا جدا . هذا فضلا عن أن الرماة الالمان من راكبي الدراجات النارية كانوا يحاربون وكأنهم من الجن .. كانوا ينطلقون الى الخطوط الانكليزية لجلب المؤن وغيرها مما يحتاجونه ..

ثم كان لا بد أخيرا من سحب هؤلاء الجنود وتوجيههم الى جبهة كابوتزو . أما جنود الفيلق ١٠٤ فقد انسحبوا هم أيضا الى مواقع أفضل .
ولم يكن باستطاعتهم الخروج من مخابئهم الا في الليل فكانوا يضعون الحجارة حولها تفاديا لشظايا القنابل ..

أما « المخابىء العدوة » الرهيبة فقد كانت عبارة عن آبار متباعدة تتصل ببعضها البعض تحت الارض بواسطة انفاق مبنية بالاسمنت ..
وخطورة هذه « الآبار » انه لا يمكن للمرء ان يراها قبل ان يسقط فيها ! ..

وكثيرا ما كان الجنود الزاحفون يتجاوزونها على غير انتباه .. فلا يشعرون الا والرصاص ينهمر عليهم من الخلف .

هذه الخطة أوقعت في صفوف الالمان خسائر فادحة في الارواح ..
كان الالمان يطلقون على هذه التحصينات ارقاما معينة .. وكان بينها موقعان ر ٥ ، ر ٤ عند جناح الفيلق ١٠٤ يعرقلان تحركات الجنود ويسببان كثيرا من الازعاج فكان لا بد من القضاء عليهما ..

ولكن كيف السبيل الى ذلك ؟..
وصدرت الاوامر الى سريتين من فيلق الهندسة ١٠٤ أن ينفذا المهمة..

واثناء الليل تجمعت القوتان حول التحصينات ر ٦ وعند الفجر استؤنف الهجوم من جديد وكان على المهاجمين ان يطلقوا صواريخ بيضاء حالما يصلون اليها على مرمى قذف القنابل اليدوية . وكان هذا بمثابة اشارة الى المدفعية حتى تبدأ القذف عاموديا وهي الطريقة الوحيدة لنسف

هذه هي الخطة التي كانت معدة للتنفيذ وهي خطة رائعة ولكن ...
القنابل اليدوية داخل الخنادق يتبع ذلك هجوم عام ثم يتوقف الجنود عند التحصينات . ثم يستطيل القذف وعندها يتقدم الجنود ويقذفون برزم من هذا الحد الى الليلة المقبلة .

فشل الخطة

بدأ الجنود بالزحف ، وانطلقت الصواريخ المضيئة في الفضاء ولبثه الجنود ينتظرون قذف المدافع ولكن دون جدوى ..

أما في الجبهة المقابلة فقد تنبه البريطانيون للخطر المحدق بهم فوجهوا نيرانا حامية مزقت القوات المهاجمة بلا شفقة ولا رحمة ..

لقد فشلت خطة الالمان . ولم يعلم أحد لماذا أطلقت المدافع قذائفها الى أبعد من الهدف المعين ! ولم يترك رومل المسألة تمر دون حساب .. لقد وجه للمسؤولين تأنيبا اذ قال : « ان الشيء الذي يجازف به الانكليز نهارا .. تعجزون انتم عن القيام به ليلا ! » ..

ظل جنود الفيلق ١٠٤ طوال النهار وهم في أوكارهم لا يجرأون على الخروج منها . فالاستراليون القابعون امامهم في خط الجبهة المقابل ماهرون في الرماية ، وليتصور المرء كيف كان على الالمان ان يبقوا اثني عشر ساعة دون حراك . فيستغنون حتى عن قضاء اكثر الحاجات الحاحا ! ولكن من حسن حظهم أن العواصف الرملية كانت تهب من وقت لآخر فتحجبهم عن أعين أعدائهم المتربصين بهم شرا ، والذين كانوا يضطرون للاختباء وعدم تعريض بنادقهم ومدافعهم للرمال .

بقي جنود الفيلق ١٠٤ حتى أواسط أيار في جحيم طبرق ثم سحبوا منها وهم سعداء فرحون .. ولكن مأساة أشد هولا كانت بانتظارهم .

وكما أرسل رفاقهم رجال الفيلق ١١٥ الى القطاع الآخر الدامي من افريقيا الشمالية كذلك أرسلوا هم الى قطاع السلوم – كابوتزو – حلفايا .. ذلك ان المعركة هناك كان يشتد أوارها يوما بعد يوم .

احتلال ممر حلفايا

خلال شهر نيسان ١٩٤١ تمكنت عناصر متقدمة من « جيش افريقيا » من احتلال ممر حلفايا بقوات قليلة ، وبذلك ضمنت القوات الالمانية مركزا استراتيجيا دفاعيا امينا امام جبهة السلوم . واصبح لزاما على الانكليز اذا ما أرادوا القيام بأي عمل للاتصال بطبرق وفك الحصار عنها ، أن يحتلوا أولا

ممر حلفايا . وهذا ما فعله الجنرال ويفل بين الخامس عشر والسابع عشر من أيار عندما شن هجوما على مراكز العدو في الممر وتمكن من طرد القوات الالمانية ، واستطاعت القوات البريطانية أسر الحامية الالمانية ما عدا اثني عشر رجلا تقريبا . الا ان جميع الاهداف الهامة الاخرى لم تقع في ايديهم .. واستعادت القوات الالمانية السلوم وكابوتزو اللتين احتلتهما القوات البريطانية لفترة قصيرة بعد هجوم وحشي .

وقرر رومل استعادة حلفايا لان وجود الانكليز فيها يهدد بصورة دائمة خط كابوتزو – بردية ..

وحدد يومي ٢٦ و ٢٧ ايار لبدء الهجوم . والصحراء تنتهي عند قطاع السلوم – كابوتزو .. بهضبة عالية عند الشاطىء . وتشكل الصحراء مع السهل الساحلي عند السلوم والى مسافة ٣٥ كلم الى الجنوب الشرقي ، منحدرا شديدا . والطريق التي تصل السهل الساحلي بالهضبة المرتفعة هي ممر حلفايا . وتخترق جوانب الهضبة اودية لانهار جافة ليس فيه سوى الحجارة والصخور . وفي هذه الاودية العميقة تستعر الحرب .. حرب لا هوادة فيها . فالجنود الالمان قابعون عند منحدرات الاودية وكأنهم طيور معلقة بينما كان البريطانيون يكمنون في اعلى الهضبة ..

والامر الذي صدر يوم ٢٦ هو التالي : « ان مجموعة « هرف » ستحتل ممر « حلفايا » وهو أول أمر من نوعه ..

وبدأت المعركة حامية منذ الساعات الاولى ، فقد اتجه اللواء الثامن المدرع نحو الجنوب بقيادة الكولونيل كرامر قادما من السلوم ثم انحرف نحو الشمال ملتفا حول المدافعين . تسانده في ذلك مدفعية اللواء الثالث والثلاثين والفيلق الخامس عشر السيار وفرقة الاستكشاف ٣٣ ..

وفي نفس الوقت كانت وحدات من مشاة اللواء ١٠٤ تهاجم الممر من الامام ..

ولكي يصرف الانكليز عن الهجوم المبيت ضد مواقعهم في الممر .. عمد لواء الدبابات الخامس مع بطارية وخمسة مدافع عيار ٨٨ بالاضافة الى وحدات من المدفعية الايطالية الى شن هجوم في قطاع كابوتزو يمتد من الجنوب الى الجنوب الشرقي ..

الكاهن الشجاع

كانت السرية الاولى من اللواء ١٠٤ قد فقدت قائدها فـي اليوم الثاني من اشتراكها في العمليات الحربية . وقد عين بدلا عنه الكابتن « ولهلم باخ » وهو راعي احدى الكنائس في مانهايم . وكان وقع النبأ غريبا علـى الجنود وصغار الضباط .. فماذا عسى هذا الكاهن أن يفعل في هذه الورطة ؟

والواقع أن الكابتن ولهلم باخ ، كان ضابطا احتياطيا وفي نفس الوقت يؤدي مهمته الدينية ..

عندما جاءه الملازم فريدل شميدت دهش للجو الودي الذي قوبل به ، فقد وجده رجلا بشوشا طوله ٧٠ ، م فـي العقـد الخامس لـه شاربان صغيران يحمل بيده اليسرى سيجارا عندما بادره قائلا :

« هل قطعت مسافة كبيرة يا عزيزي ؟ .. »

قبل أن يقدم نفسه ويبلغه أنه أصبح تحت أمرته كمـا تعلم أن يقول عندما كان طالبا في الكلية الحربية .. ثم تابع الكابتن بـاخ : « هل تدخن سيجارا » فرد قائلا :

ـ شكرا يا سيدي فأنا لا ادخن سوى السجاير، لان السيجار يضر بي. فرد عليه الكابتن : ان السيجار أخف ضررا .. ولكن بامكانك أن تدخن سيجارة ..

وكان شعور الملازم شميدت انـه امـام رب عائلـة يغمرها الهدوء والسعادة ..

وختم الكابتن حديثه قائلا : « آمل يا عزيزي أن تكون سعيدا بيننا .. »

ولم يسمع الملازم شميدت في حياته العسكرية كلها قولا كهذا .. لـم يسبق لاي قائد ان تمنى له أياما سعيدة تحت قيادته ! وهل يمكن ان يجري هذا في الحرب وفي ممر حلفايا ؟

هذا هو الكاهن باخ !

والواقع ان هذا الكاهن دخل في تاريخ الحرب الافريقية وكأنه وجه من المع وجوه النبوغ العسكري .

لم يعط امرا قط دون أن يكون على استعداد لتنفيذه بنفسه ، وقـد أحبه جنوده حبا قلما حظي به قائد . وعندما أدى واجبه كاملا رفـع الانكليز

أيديهم الى خوذاتهم بالتحية « لبطل ممـــر حلفايا » كمـــا لقبته الصحف البريطانيـة ..

كان جنود الكابتن باخ مختبئين في أعماق وادي قلاله حيث الحـرارة في الظل تبلغ ٥٦ درجة مئوية ، لا يستطيع أي جندي المجازفة والخروج من الوادي ، واذا رفع أحدهم رأسه فوق الحشائش سمع أزيز الرصاص حـول خوذته هذا الى جانب مدفعية البريطانيين من عيار ٧٥ الخطرة .

كان الكابورال « جونغ » عامل الراديو يحاول عبثا معرفة مكان المدفعية الانكليزية .. فناداه الكابتن « باخ » وأمره بأن ينسحب الى الخلف ليعـــود بمدفع مضاد للدبابات عيار ٣٧ . ولم يلبث جونغ أن نفـذ الامـر ... ولكن بشق النفس بسبب شدة الحرارة . وكان عليه ان يركزه في مكان مـــا عند جناح القوات الالمانية .

وبدأت القذائف تنطلق من المدفع الصغير .. ولكن البريطانيين لـــم يتأثروا بها فقد كانت القذائف تنفجر بعيدا عنهم ذلك أن رجال المدفعية لـم يكونوا مستعدين لرفع رؤوسهم للاستطلاع والتأكد من مراكز العدو .

وأمام هذا الوضع فكر الكابتن باخ في نفسه : « كـل هـــذا لن يفيدنا شيئا ، يجب الخروج من هذا المأزق » وفي الحال خرج من مكمنه وانتصب واقفا ووضع منظاريه على عينيه ولكنه ما لبث ان انبطح على الارض وفـــي نفس اللحظة كانت مئات الرصاصات تمر فوق رأسه . ولكنه كان قـد حدّد مكان المدفعية الانكليزية ..

عاد باخ الى الوراء وأعطى تعليماته لرجال المدفع ٣٧ ، وما هي الا دقائق حتى كانت مدفعية العدو قد أسكتت الى الابد ..

وهتف الجنود معجبين بشجاعـــة قائدهم ومهارته .. وعندما رفـع ذراعه .. انطلقوا الى الامام ..

كانت تواجههم السرية الثالثة مـــن جنود (كوستريم غاروز) المشهورة ببسالة أفرادها ، وقد ظلت تدافع عن مراكزها طوال الليـل ، ولكنها انهارت في صباح اليوم التالي عندما وجدت نفسها فجأة مطوقة من الخلف . وسقط عندئذ الممر مرة اخرى في أيدي الالمان .

وشعر الجنود بعد انتصارهم الرائع بحاجة الى الراحة فارتموا علـــى الرمال واغمضوا عيونهم ..

امــام بنغازي

تقول المصادر الالمانية :

بدت بنغازي أمام القوات الالمانية .. وبدت أمامهم مــن بعيد .. غارقة في الخضرة والاشجار والارض المعشوشبة ، فكان منظرا أبهج هــذه القوات التي قاست معارك الصحراء ، وعاشت الايام المديدة فــي الارض الجرداء ، والرمال المحرقة ..

وكانت فرق الاستطلاع الالمانية ، التي لم تتمكن حتى الآن مــن الاتصال بالعدو ، او الالتحام معه قد وصلت ليلا الى مطــار المدينة ، حيث شاهدت بقايا الطائرات المحطمة ، وسحب الدخان الكثيفة التــي كانت تتصاعد مــن الحرائق والانفجارات ومستودعات الذخائر والتي كانت تضيء وتخبو بيــن وقت وآخر ..

وكانت بنغازي قد أخليت من سكانها ، وقد تبدلت تبدلا عظيما عمــا كانت عليه قبلا ..

فقد نزلها ما يقارب العشرين الفا من الايطاليين لما استولت ايطاليا على ليبيا ، وقاموا بتعميرها واصلاحها ، حتى اصبحت مدينـــة تزينها الشوارع الجميلة الواسعة ، وتحيط بها البساتين والحدائق الغناء ، والعمارات الجميلة والمباني الرسمية ، التي جعلت منها مدينة عصرية حلوة جميلة ..

ولكن حوادث الحرب ما لبثت ان تناولت هذه المدينة الصغيرة الجميلة بصروفها المدمّرة ، فتراجع عنها غرازياني بجيوشه وقواته ، هربا من وجــه (ويفل) لما بدأ هذا تقدمه ، وجاء فــي إثــره الاوستراليون والنيوزيلانديون والهنود والبولونيون والانكليز ، فأخذت المدينـــة تستبدل سيدا بسيـــد ومستعمرا بمستعمر ، فيما كانت الجراح تدميها والدمار يصيبها، والطائرات تقذفها بوابل من قنابلها بين وقت وآخر ، فتدمر مرفأها وأرصفتها ، وتغرق كل ما تقع عليه من سفن تجارية وحربية ..

وما كاد يعود الايطاليون الى المدينة ، حتى تولى الذهول سكانها لهــذه المفاجأة ، فلم يكونوا يتوقعون ان يتراجع الانكليز عنها بمثل هذه السرعة ، ولا كانوا يظنون ان الايطاليين سيعودون .. ولكنهم لما علموا ان الالمان هم الذين أعادوا الايطاليين الى بنغازي ، زالت الدهشة ، وانحسرت الحيرة ، وخيــم على المدينة ذهول وأخذ أهلها يسألون أنفسهم عما يخبأه لهم الغد من أحداث

جديدة ، ومفاجآت مرعبة ..

وأما (رومل) فلم يتقدم الى بنغازي .. وترك قواته تحتلها بعد ان اخلاها الانكليز وانسحبوا منها ..

واستقر في (اجدابيه) يدرس الموقف ويتهيأ ليضرب ضربة جديدة في أرض الصحراء ..

وكان يقول دائما :

– ان طرد الانكليز امامنا لا يجدينا نفعا كبيرا ، المهم هو القضاء على قواتهم نهائيا ..

وعمد الى درس الخريطة العسكرية التي كانت امامه ..

ووجد في هذه الخريطة طريقا ينطلق من (اجدابيه) عبر الصحراء مارا بمروس والمخيلي ثم يصل الى الطريق الساحلي على خليج (بامبا) الواقع على الجانب الآخر من مدينة درنه ، فقرر سلوكه ليصل قبل الانكليز الى هذا الطريق ، وليقطع عليهم طريق الهرب والانسحاب .

وطار عقل القيادة الايطالية في ليبيا لهذا القرار ..

وأخبروا (رومل) انه ليس من الحكمة التقدم في وسط الصحراء الا اذا تهيأت الاسباب اللازمة لمثل ذلك ، وان هذه الحملة تعتبر مخاطرة عظيمة ، لان الوحدات الكبرى سوف تتوزع وتتقسم ، وفي المنطقة الجبلية التي سيصار الى المرور بها مواضع يصعب عبورها كما أن الجيوش الالمانية لم تألف حرب الصحراء ولا الحياة فيها ، ولا تفهمت أسرارها على الوجه الاكمل .

رومل لا يبالي

وهزّ (رومل) رأسه ، ودفع جانبا كل هذه الاعتراضات التي اعتبرها واهية لا قيمة لها ، رغم أن الجنرال غاريبالدي لم يوافق على خطة رومل وعارضها وحضر الى مقره ليصارحه برأيه هذا ، وطلب منه عدم القيام بأي حركة قبل استشارة (روميه) ..

ولكن (رومل) ردّ كل هذه الاعتراضات ، واعلن تصميمه على الزحف فورا لان الحالة الحربية الراهنة تستدعي ذلك ، وتضطره الى سلوك هذا المسلك ، وان طلب الموافقة من (روميه) قد يتأخر ، والظروف قد تتبدل ..

وقد تنقلب الامور الى صالح العدو .. ولهذا فلا بد من تنفيذ الخطة فورا ..

ولما عرف بأن هناك قوة انكليزية لا تزال متمركزة في (المخيلي) ــ وهي قرية في الطريق الى درنة ــ أمر قواته بالتقدم نحو (درنة) واهمال المخيلي ، وكانت هذه القوة تتألف من رتلين تدعمهما بعض العناصر الايطالية ، ومضت هذه القوة لتنفيذ الامر الذي صدر لها ، فلم يتناول جنودها طوال الايام الخمسة الا بعض الماء والبسكويت واللحم المعلب المحفوظ ، وكان ما معهما من الوقود لا يتجاوز الخمسة والثلاثين صفيحة من البنزين ..

وكانت السيارات تسير الواحدة بعيدة عن الاخرى ، في طريق معبد مزفت باتجاه (السلوش) .. في ريح سموم تحد الرؤيا وتمنع النظر ، ثم تحولت نحو الشرق على زاوية قائمة ، وبدأت مسيرها في قلب الصحراء ..

والدرب هنا ككل الدروب الصحراوية ، درب قديم كانت تسلكه القوافل العابرة ، وقد تحول قاعه مع الزمن الى طبقات من الرمال تغطي سطحه الى عمق كثيف ..

ولكي تتحاشى ارتال السيارات الغبار اضطرت الى ان تعرج فيه يمينا وشمالا ، بحيث اصبحت الطريق واسعة فسيحة بعد ايام قليلة ..

كان الزحف مرهقا خطرا صعبا في الصحراء ، لان الخرائط كلها تصبح مشوهة مغلوطة لا يعتمد عليها .. وسبب الخطأ جهل المرء بقراءتها ، فخرائط الصحراء لها طريقة خاصة في القراءة ، والاسماء المدونة فيها تغيب آثارها مع الزمن ، ويتطلب الكشف عنها الكثير من الذكاء والبراعة والمران ، وغالبا ما تظهر بئر معطلة مهجورة غمرتها الرمال اطلق عليها العرب اسما يتفق وحالتها ومعناها ..

ومرة اخرى تشاهد اكواما من الحجارة ، تؤكد ان القوافل كانت تفيد منها ، أو تجمعها لربط جمالها .. وأما ما عدا هذا فلا شيء ..

لا انسان ولا شجرة ولا حيوان .. كل ما يجده المرء في الصحراء عواصف رملية تغمر الصحراء وتغطيها .. وأما اجتياز الجبال فكان من أشق الاعمال .. ومن الصعوبة بمكان ، ارتال السيارات تسير وئيدا لا تعرف سبيلها ، تربط الليل بالنهار ثم تعود من جديد لتجد نفسها في وسط الصحراء ..

يقول الذين يؤرخون لرومل بعد نجاح قواته في عبور الصحراء ،

واجتياز الجبال ، انه كان من أصحاب الحظوظ ، وانه لـــو قام غيره بهـــذا العمل لفشل وارتد من حيث أتى ..

والواقع اني لست اؤمن بالحظوظ كما يصفها بعض المؤرخين ، وليس الحظ بالتأكيد سوى فرص تمر بجميع الناس ، فيفطن لهـــا بعض الناس ، ويعمى عنها الآخرون وهذا هو شأن (روميل) في حملته هذه ، التي انتقدتها القيادة الإيطالية كما قلنا سابقا ، ولكن (روميل) كان مؤمنا بهـــا ، واثقـــا بنجاحها ، فمضى في تحقيقها رغم الاعتراضات ، ورغم كل الاخطار ، ولو انه كان من الفاشلين فيها لما ترجم عليه أحد من العالمين ، ولا ذكره بالخير انسان من المؤرخين ، ولكنه نجح وظفر بل وتمكن من الانكليز ، ونـــزل عليهـــم نزول القضاء وهم لا يشعرون فاعتبروا عمله هـــذا أعجوبة مـــن أعاجيب القيادة العسكرية البارعة ، وفلتة من فلتات الخطط الحربية ..

نجـاح الخطــة

وكذلك نجحت القوات الالمانية في اجتياز هـــذا الطريق الصحراوي الخطر المخيف .. وفي اليوم التالي انصبت على الطرف الآخر بسرعة عجيبة، وهي الصفة التي اخذت تلازمها في كل معاركها التالية .. والتي كانت تذهل العدو وتدهشه ، لانها كانت تقع عليه من حيث لم يكن ينتظر ويتوقع ..

وكان ان هبطت طائرتان صغيرتان المانيتان في هذه الاثناء فـــي مطار (المخيلي) بأمر (روميل) .. حيث اوعز لهما بالاتصال بكافـــة الارتال الالمانية الموزعة المبعثرة في طريق الصحراء ، لتتجه نحـــو قرية (المخيلي) التـــي استطاع الكشافة الالمان ان يتبينوا فيها معظم الفرقة الهندية التابعة للجيش الانكليزي ..

والواقع أنه لم يكن من الممكن ان تسير قوة فـــي الصحراء صفوفا أو فرقا قريب بعضها من بعض ، بسبب الغبار الذي لا يطاق ، والذي يفسد كل شيء .. ولهذا فقد كانت الضرورة الملحة تقضي بأن تسير هذه الارتال موزعة هنا وهناك بعيدا من بعضها ، ولو ان الانكليز عرفوا بهـــا ، وفطنوا لحركاتها واغراضها ، وانها سوف تتجمع بعد هذا في مناطق معينة ، لتأهبوا لانتظارها في هذه النقاط وقضوا عليها .. ولكن الانكليز لم يعرفوا شيئا عـــن هـــذه الحركات العسكرية التي كانت تقع في الصحراء ، والتي كانت تتقدم وئيدا ، حتى رومل نفسه ضاق بها ذرعا ، فركب احدى الطائرات الصغيرة وانطلـــق



من صور المعارك والمقاومة في الصحراء

يبحث عن قواته الهائمة في الصحراء الواسعة ، ليطلب منهـا الاسراع الـى مكان القتال ، حتى لقد أوشك ان يقع أسيرا في قبضة الانكليز وهو علـى ارتفاع قليل في منطقة معادية ، ولكن الطائرة ما عتمت ان ارتفعت بـه ثانية وغابت في الفضاء ..

وتم اجتماع القوات المتناثرة مساء .. وانطلق بعضها نحـو (درنه) و (تميمي) وهدات على الاثر رياح السموم .. وعادت الرطوبة الـى الجو اللاهب .. وعندئذ بوغت الالمان بمنظر لم يكونوا يتوقعونه ، لما داروا حـول (المخيلي) .. حين برزت لهم كتلة كبيرة من الجيش الانكليزي قابعين فـي وسط سياراتهم المعطلة بسبب نفاد الوقود ..

طلب رومل منهم الاستسلام فورا ..

رفضوا الاستسلام ، وان كانت المباغتة التي أصابتهم لما شاهدوا القوات الالمانية تطوقهم ، مما اذهلهم وهزهم .

وفي فجر اليوم التالي ٨ نيسان ١٩٤١ بدات القوات الالمانية المدرعـة تهاجم القرية .

وبعد معركة سريعة ماحقة احتلت القوات الالمانية القريـة .. وأسرت الف جندي ، وأصيب الانكليز بخسائر عظيمة ..

وفي الوقت نفسه كانت قوات (بونات) قد تمكنت من حصار (درنة) .. وأسر مئات من الاسرى الانكليز بينهم الجنرال (نيم) .. القائد العـام للجيش في مصر وشرقي الاردن ، وكان يقـوم بزيارة الـى الجبهة الليبية ، والجنرال (ويارد) الذي قاد القوات الانكليزية فـي النروج .. والجنرال اوكنور ، وكامبييه آمر الفرقة المدرعة الثانية ..

واما الغنائم فكانت لا تعد ولا تحصى مـن العتاد الحربي والذخائر ، والمؤن والوقود ، وبذلك قطعت الطريق الساحلية ، وتمكن الالمان من السيطرة على مدخل برقه الغربية التي أصبحت مفتوحة الاطراف .

وفي التاسع من شهر نيسان ١٩٤١ ، أصدر (رومل) أمره الى قواته بمطاردة العدو ، نحو (تميمي) و (الغزالة) وطبرق ..

وكان النجاح الذي أحرزه رومل يؤكد بما لا يقبل الشك براعته النادرة في فنون التعبئة ، وتفهمه الرائع لطبيعة الحرب فـي الاراضي الصحراوية ، التي تفرض على القيادات العسكرية ، فنونا مـن الحرب ، لا تفرضها مناطق اخـرى ..

وكان ميدان (ليبيا) .. منذ أن نزله (رومل) عبارة عن حرب مباغتات ومفاجآت ، والقائد الذي يحسن هذا النوع من الحرب ، هــو أبـدا القائد الظافر الناجح ..

وقد اعترف (رومل) نفسه بعد انتصاره العظيم هذا ، بأنه لمــا بـدأ المعركة لم يكن يعتمد على شيء ، ولا يملك شيئا لا يملك العدو أضعافه ، من حيث السلاح والذخائر والمؤن طبعا ، ولكن العدو لم يكن يملك ما يملكه رومل من سرعة الحركة ، وقوة المباغتة وبراعة المكيدة فــي ادارة الحرب وتسيير دفتهــا ..



هكذا كانوا يتوسدون الصحراء ويطلقون النــار

الفصل الخامس

القائد البارع في المعركة

تصوير رائع للفن العسكري عند رومل

كما يصفـــه ديسموند يونغ الكاتب الانكليزي العسكري ..

المقـــارنة :

كنت أفكر في وقت خلا . وفي أثناء دراستي لكتاب صدر عن معارك (رومل في الصحراء) ... ان هناك تقاربا عظيما بين خططه العسكرية فـــي الحرب الماضية ، وبين الخطط التي اتبعها خالد بن الوليد في فتوحاتـــه وزحوفه، سواء أكان ذلك في العراق أم في سورية.. عبر المفاوز والصحاري المرعبة .. التي لم تتبدل طبيعتها منذ الاف الاعوام .

وعادت بي الذاكرة الى حديث الفتوح الاولى ، والى ذلك الحدث الضخم الذي كان بعيد المدى عظيم الخطر في مصايره ونتائجه ، شديد الاثر فـــي مستقبل الانسانية وحضارتها ..

وفطنت في الوقت نفسه الى ما أجمع عليه المؤرخون من انه لم تكـــن هناك أمارات ــ وحتى بعد انتقال سيد العرب الى مآبه ــ تدعو الى انتظـار هذا الحدث والتهيؤ له ...

وفجأة وفي صباح يوم من الايام لمئات خلت من الاعوام .. اقتحم امصار الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية .. فرسان من الصحراء .. ما سمع عنهم سكان الامبراطوريتين شيئا مذكورا ، الا ما كان يتناقله المسافرون من أنهم يؤلفون قبائل تضرب في الارض طلبا للماء والكلأ ، وانهم من البدو الرحل الذين لا خطر من غزواتهم ولا امل من استقرارهم في مكان معين .

ولكن هؤلاء الفرسان ما لبثوا أن اكتسحوا بين ليلة وضحاها ، كل ما لم يكن موجودا عندهم من أرض خصبة ومدن قائمة وأنهر جارية ، وعروش قوية، ونظم حكومية ثابتة ..

اما عددهم فكان قليلا أول الامر .. لم يصلوا في وقت من الاوقات لان يكونوا اكثر من خصومهم عددا أو عدة .. ولكنهم في مقابل هذا كانوا أقوياء في ايمانهم يبيعون أنفسا تموت غدا بأنفس لا تموت ابدا ..

القائد العجيب :

كان الجنرال رومل في التاسعة والاربعين من عمره ، لما أصبح في شهر مارس من سنة ١٩٤٠ ملء السمع ملء البصر .. وكان في هذا الحين ، يقود الفرقة السابعة المصفحة في معركة فرنسا ..

وبعد سنة واشهر من هذا التاريخ ، وحين كان يقود الفيلق الالماني في أفريقيا ، لم تكن هناك بقعة في العالم لا تتحدث عن رومل وافعاله وحركاته العسكرية وفي هذه السنة نفسها أنعم عليه هتلر برتبة المارشالية ، بينما كان خصومه الانكليز يعترفون بأنه من أمهر قواد المانيا الحديثة ..

وللدلالة على ما ناله هذا القائد البارع من شهرة تفوق شهرة اي قائد آخر في الحرب المنصرمة .. نقول ان الجنود الانكليز التابعين للجيش الثامن الانكليزي كانوا حين يتحدثون الى بعضهم بعضا ، أو حين يطلب منهم قوادهم عملا خارقا يقولون لهم يجب أن تعملوا كما يعمل رومل ..

والواقع ان هذا القائد كان ينعم ببراعة قلّ نظيرها عند غيره من القواد وذكاء واسع مكّنه من استباق الحوادث وتهيئة الجو الملائم اللازم للمعركة . مع استعمال الخدعة والحيلة في حركاته العسكرية .. والتفوق على خصومه .. مع أنه كان أقل منهم عددا وسلاحا ، وآلة وغذاء ..

ولقد حدث يوما ان قام الانكليز بهجوم شديد على فرقة من فرقه ..

وكانوا اوفر عددا ، وامضى سلاحا ولم يبق لرومل الا التراجع أو الاستسلام وكلاهما شر .. فما كان منه ـ وكان يعلم أن الطائرات الانكليزيـــة تراقب جيوشه مراقبة شديدة في الليل والنهار وأنها تأخذ صور هـــذه الجيوش وحركاتها وتنقلاتها ـ ما كان منه الا أن أمر جميع السيارات التي لديه بالدوران حول المعسكر وفي الصحراء يومين متواليين .. ليوهم خصومه أنه أقوى مما يظنون ، ونجحت الخدعة ، وتوقف الانكليز عن هجومهم حين ظنوا أن رومل يملك قوة كبيرة ..

وحدث في يوم آخر أن أمر (رومل) جنوده بالهجوم ، فأخبره اركان حربه بانهم لا يملكون من الدبابات الا سبعا فقط ، فأمر عندئذ بأن يستبـــق هجوم الدبابات السبع هجوم قوامه غبار يسد السماء ويملأ المنافس .. ومـــا هي الا دقائق حتى كانت سيارات النقل العديدة التي يملكها جيشـه ، وهي تعد بالمئات .. تجري حول المعسكر وفي الارض الحرام التي تفصل بيـــن الجيشين المتحاربين في مساحة لا تقل عن عدة كيلومترات .. فأثارت عاصفة عظيمة من الغبار ، وظهرت بعدها الدبابات السبع تتقدم نحو المعركة ، فظن الانكليز انهم يواجهون فرقة مصفحة كاملة ، فارتدوا على أعقابهم وأخـــلوا مراكزهم ، اذ لم يكن عندهم ما يقابل هذه القوة .

وكان منظره وهو يشرف على معركة من المعارك واقفا في سيارته والنار تتساقط من حوله يبعث على الدهشة .. وكان كثير الايمان بمناعته مـــن الخطر ، حتى كان كثيرا ما يقول الى اركان حربه : تعالوا اليّ فلن يصيبكـم خطر ما دمت بينكم ..

والواقع أن جراته كانت فوق التصور .. وكان الى هذا بارعا في تنظيم المعارك الحربية وادارتها على الوجه الذي يرضيه .. وكان سريعا في اغتنام الفرصة المناسبة ، ومن المغامرين في خوض معركة يعتقد أن المغامرة وحـدها تقلبها الى نصر محتوم ..

ويضيف الكاتب الانكليزي (ديسموند يونغ) فـــي كتابـــه عنـــه بانه رجل نشيط الى ابعد حدود النشاط ، لا يعرف الهزيمة ولا الفشل .. ان تعب أو سهر لا يلبث أن يستعيد ما فقده في سهره وتعبه بعـــد ساعات قليلة .. وان مرض أو جرح لا يلبث ان يبلّ من مرضه وتندمل جراحه ، وان وقع أو سقط .. انتصب بعد قليل .. وكأنه لم يلق شيئا .

سريع الحكم حاضر البديهة ، يحسن استغلال الفرص الى ابعـــد الحدود ، ويسبر بعين الغيب أسرار العدو ، وقد جمع الى هذا كله خلقـــا

كريما ونبلا ملحوظا ، وأوتي من حب رجاله وتعلقهم به ، ما لم يصل اليه قائد قبله الا أقلهم ، كما شغل عدوه واهمه وأخافه وأقض مضجعه، حتى اعترف له بالفضل والكفاءة والمهارة والعبقرية العسكرية ، وان كان بعض هؤلاء الاعضاء قد اعتبروه في معاركه وحروبه مغامرا من الطراز الاول .

وكان له رأي في الحرب يختلف عن رأي القيادة الالمانية العليا ، وقد اتفق مع البحرية الالمانية ، حول خطر جبهة الشرق الاوسط وأهميتها ، وكان على حق في رأيه هذا وهو رأي أقرّته الحكومة الانكليزية واعتمدته ، وحاربت في سبيله .

وكان (رومل) قبلا يرى أن فتح مصر والاستيلاء على القناة والامتداد منها الى سورية والعراق والوصول الى ايران ، سوف يقطع الامدادات الاميركية عن روسيا ، ويضمن للالمان السيطرة على منطقة عالمية خطيرة غنية بالمواد الغذائية والوقود ، ويقطع طريق الامبراطورية البريطانية وينقل الحرب من الجو الروسي البارد .. الى جو دافيء معتدل ، يمكن الالمان من النصر والسيطرة على كنوز لا حصر لها .. ولا يكلف الالمان غير عدد قليل من القوى العسكرية .. ولكن القيادة الالمانية العليا وهتلر على رأسها ، أضاعوا الفرصة ، وجعلوا همهم روسيا ، فكان أن فشلوا في معركتهم وخسروا كل شيء ..

تعليق المارشال اوكينلك :

ويقول الفيلدمارشال سر كلود اوكينلك ، في المقدمة التي كتبها لكتاب (ديسموند يونغ) عن رومل ما يلي بالحرف الواحد ولا بأس من ترديدها :

« لقد ضمّ هذا الكتاب رسالة كنت أرى ضرورة تعميمها على قادة جيشنا في الصحراء الغربية ، لما لمست الخطر الذي يتهدد قواتنا ، بعد ان سحرها رومل ، فكادت تخرّ له صعقة ، وقد استهوى بجلاله الافئدة وادهش بعبقريته الالباب ، وهل بوسع قائد عدو أن يحتل هذه المكانة السامية في القلوب ، وهذه الشهرة الذائعة ، ان لم يكن من الافذاذ الذين لا تجود الطبيعة بامثالهم الا نادرا ؟

« لقد كان رومل من هؤلاء . خلقت المانيا كثيرا من القادة العسكريين القساة المهرة ، فامتاز رومل منهم بتغلبه على تلك القسوة والصلابة التي اتسمت بها العقلية العسكرية البروسية ، وكان الى جانب هذا استاذا في

فن المبادهة والارتجال منقطع النظير .

« ولقد كان يتبين لي دوما أن الضباط الالمان المستجدين ، في الفيلق الافريقي ، كانوا أكثر الماما بالاصول التعبوية من ضباطنا .. ولا يسعنا أن نلقي تبعة هذا النقص على هؤلاء اذ يعزي السبب الى المهام الخاصة التي كانت تسند الى جيشنا أيام السلم ، والى النقص الظاهر في التدريب الذي لا يقوم على اسس فنية متينة .. وما أن اشتدت الحرب وامتدت وطالت.. حتى وقف رجالنا امام الالمان موقف الند للند ، ثم ما لبثوا أن تفوقوا عليهم لما ذاقوا طعم الحرب ، واصطلوا بنارها ، فتحركت في أعماقهم تلك الغريزة التعبوية الفطرية ، اما رومل ، فقد بقي صاحب القدح المعلى بين الضباط ذوي الرتب العليا ، لا ينازعه تفوقه في ساحة القتال منازع ..

كان ذا فكر مرن الى أبعد حد ، وعقلية مبدعة ملهمة ، خصبة في ابتكار الخطط المدهشة ، التي تحار لها العقول ، فهو أسرع من البرق أو ارتداد الطرف اذا ما حزبه أمر والتمس من مأزقه مخرجا . وانني أشير لهذه العبقرية كمثل يحتذى به ، وسفر يدرس ، ما دامت ارادة البقاء تقضي بأن يدرّب أبناؤنا على حمل السلاح ، وضباطنا على قيادة المعارك .

« ولا يتعدى احتكاكي برومل عدة مبارزات معه ومع فيلقه الافريقي ، في معارك الصحراء الغربية خلال ١٩٤١ – ١٩٤٢ . وسرعان ما ألفيت ، لدى قراءتي لتاريخ حياته في سنيه الاولى والاخيرة ، أن الفكرة التي كونتها عنه لنفسي ، في تلك الايام العصيبة ايام كانت الحرب تروح وتغدو سجالا بين بنغازي والاسكندرية ، سرعان ما ألفيت أن فكرتي عنه لا تختلف كثيرا عن فكرة المؤلف ، وتقديره الصائب . ولقد دهشت حين علمت كم كان رومل بسيطا ووديعا ، زاهدا ومتقشفا ، وكم أخطأنا اذ صورناه حين كنا نقاتله ، بصورة بروسي فظ غليظ القلب ، ولعل ما اتسم به من وداعة وبساطة ، جعلتنا منه قائدا ساحرا يمتلك نواصي القلوب ، وتشخص اليه الابصار ..

« ولقد كان رومل لي ولمن معي مصدر قلق وحيرة لا تنقضي .. واذا كان ثمة قائد لا همّ له سوى تحطيم عدوه فقد كان هذا رومل . لم يكن يرحم عدوه ، أو يلتمس لنفسه الرحمة قط . ومع هذا فلا يسعني بحال أن أحيل كرهي العميق للنظام النازي الذي حارب رومل من أجله ، الى كره لشخصه كخصم لي ، وأن من الحق أن أحترم خصما شجاعا كفئا ، وهو ما يجب أن يعامل الابطال مثله ..

الاجتماع :

وكتب ضابط انكليزي أسره الالمان يقول :

« كنا نسير بخطى متثاقلة في صباح يوم من أيام حزيران .. وقد اجتزنا حقول الالغام غربي (بير حامات) في ليبيا ..

« وكانت الدبابات الالمانية قد داهمتنا في مساء اليوم الخامس ، في منطقة قيادة لواء المشاة الهندي العاشر في (بير حامات) وأسرتنا ، وبتنا ليلتنا في العراء نفترش الارض ونلتحف السماء ، وكان القوم كمن يرتدي الاسمال فكنت ترى مزيجا من الانكليز والهنود ، وقد أخذ البعض ممن يرتدون قمصانا ذات أكمام قصيرة ، يرتجفون في قشعريرة الصباح البارد ، كما ادثر البعض بالمعاطف والاغطية ، ولفوا بها رؤوسهم ، ولم يعد يظهر منهم سوى عيونهم ، ولم يكن بيننا من حلق ذقنه ، أو غسل وجهه ؛ وقد رانت علائم التعب والاعياء على وجوهنا ، وعضّنا الجوع بنابه ..

« وكان رجال الحرس الالمان ينظرون الينا من آن لآخر بازدراء ، شأنهم في ذلك شأننا حين كنا نسوق أمامنا الاسرى الايطاليين .. وقد كنت أنقل خطاي مذعورا على حافة الالغام ، وقد تنحيت جانبا ابتغاء السهولة ، اذ كان الرتل أشبه بالقطيع المتهافت . غير أن جنديا ألمانيا انتهرني لاعود الى مكاني من الرتل ، فنظرت الى موطيء قدمي ، وان كنت غير عابيء بالالغام المحدقة بي ..

« لقد لاح لنا على الجانب الاخر من حقل الالغام بطارية مدفعية ميدان ألمانية ، تصب حممها على قطعاتنا ، وكانت بعض مدفعيتنا ودباباتنا تبحث عن هذه البطارية اذ أن القذائف والشهب كانت تتساقط حولنا ، وقد أطارت شظية ساق أحد الضباط الالمان ، وكان يمشي بالقرب مني ، وتعالى الصراخ من الامام ، وأخذ كل منا يميل ذات اليمين وذات الشمال ، وهو يترصد القذائف المجلجلة من حولنا .. ركضت بضع خطوات كمافعل الباقون ، ثم ذكرت ان من يفر من الموت فانه لا شك مدركه ، ولو كان في برج مشيد ، فطفقت امشي وئيدا والفيتني بجانب جندي شاب أشقر من الفيلق الافريقي كان يحرس مؤخرة الرتل ، أومأ اليَّ بأن أسرع ، فرفعت قبعتي لاريه بياض شعري ، فوقف هنيهة مترددا ثم ما لبث أن حثّ خطاه خلف الرتل ، مشيرا الي بأن أتبعه ، ونظرت حولي فرايت بطارية المدفعية الالمانية منهمكة في عملها ، لا تعيرني اهتماما ، والفيتني فريدا فخطوت بضع خطوات الى جانب

الطريق ، وما أن قطعت ما يقارب الاربعين مترا ، حتى عثرت على خندق ضيق طويل ، فانزلقت فيه وأهلت الانقاض على نفسي . فالمرء لا ييأس من الهرب اذا ما أسر في الصحراء ، ومن يدري فلعل السعد يسعفني فأبقى مستلقيا هنا الى أن يخيم الظلام ، فأتلمس طريق النجاة في حقل الالغام وألتحق باخواني ، ولكنهم ما لبثوا أن ردوني الى مكاني ، فقد رآني ضابط الماني كان يقف في سيارته حين مرت بالقرب مني ، وانتشلوني من الحفرة ، وأرسلوني الى مقدمة رتل الاسرى وقذائف المدفعية كانت لا تزال تتساقط علينا الواحدة تلو الاخرى وقبل ان أحاول الاختلاط بالقوم ، صاح بي رئيس الماني بالانكليزية قائلا :

« أظن انك أكبر الضباط هنا .. ولهذا فستذهب في سيارة الاركان مع ضابطين ألمانيين ، يظللكم علم الهدنة ، لتطلبوا الى بطارياتكم الكف عن اطلاق النار اذ انهم يعرضون للخطر رجالكم من الاسرى . »

كان على حق فيما يقوله ، غير أن غريزة أسير الحرب تحدوه ألا ينصاع الى ما يطلب منه ، فأجبته بأنني لا أستطيع أن أفعل ما يأمرني به .

ــ اذن بوسعك أن تطلب الى احد ضباطكم القيام بهذا العمل .

فأجبته : لا أخالني أستطيع ان أصدر مثل هذا الامر لاحد .

واقتربت منا في هذه اللحظة سيارة ، قفز منها ضابط ، قصير القامة، قوي البنية ، حسن الهندام ، وقد لاحظت عينيه الزرقاوين البراقتين ، وفكه الثابت وأمارات القيادة تشع من وجهه ، ولا حاجة للمرء أن يفهم الالمانية ليعلم أنه كان يسأل « ماذا يدور هنا ؟ » وبعد أن دار الحديث بينه وبينهم قليلا . أقبل عليّ الضابط الذي يتكلم الانكليزية وقال بحرارة :

« ان القواعد العامة لا ترغمك على تنفيذ ما أمرت به اذا كنت لا تستحسنه . وهذا ما يأمر به المارشال رومل ..

« فنظرت الى رومل وقد لمعت على محياه ابتسامة خفيفة .. وبدا لي أن تدخله في الامر يستحق تحية مني فحييته ... وقفلت راجعا الى مكاني في الصف بين الاسرى .

« كذلك كان مصيرنا لما أقبل (رومل) على ليبيا .. وكنا قبل أشهر من هذا التاريخ قد ملأنا الدنيا بانتصاراتنا على الايطاليين .. »

« ولكن ما أن مضى شهران حتى استحوذ الهلع على الجميع وخيم الذعر على القاهرة من جديد ، وعادت الاسهم البريطانية الى الهبوط بمثل

السرعة التي ارتفعت فيها قبلا ، ثم أخذت تفاصيل الكارثة تتسرب الى الناس والعالم ..

« لقد أخليت بنغازي اسوء الحظ ، وان كان هذا بالطبع وفاقا لخطة مرسومة .. كما كنا نقول نحن الانكليز ، وأبيدت الفرقة المدرعة الثانية التي وصلت من انكلترا أخيرا ، وأسر قائدها مع مقر قيادته ، واجتيح اللواء الهندي الثالث من الجولة الاولى ، كما ضرب الحصار حول الفرقة الاسترالية التاسعة في طبرق ووضع الجنرال اوكونور مع قادة آخرين في الاسر ، وضاعت (البردية) و (السلوم) و (كابوتزو) .. ووقف العدو الالماني يطل علينا من المرتفعات واحدق الخطر بمصر اكثر من ذي قبل ..

تلك هي الكارثة التي عصفت بالجيش الانكليزي بعد نزول (رومل) لافريقيا على رأس الفيلق الالماني الافريقي ، ولو أن أحدا استوقف أي انسان في مستهل صيف سنة ١٩٤١ ، في أحد شوارع القاهرة ، وسأله عن السبب في هذا الفشل العظيم ، لاجابه بكلمة واحدة :

ـ رومل ..

لعبة القدر :

والواقع أن (رومل) بدأ أعماله في أفريقيا بارتفاع سريع ، وانتصار بارع ، منذ أخذ يكتب اسمه في تاريخ الحركات الحربية في أفريقيا .. في شهر نيسان من سنة ١٩٤١ .

وكان عليه بعد أن ضرب ضربته الاولى وأباد القوات التي كانت تقف في وجهه ، وأجبر الانكليز على الارتداد امامه .. كان عليه أن يستولي على طبرق ، وقد أرسل قسما من قواته لهذا الغرض ..

ولكن الانكليز كانوا قد اقاموا في (طبرق) قوة من الاستراليين لبثت في المدينة ، وتحصنت في اطرافها ، وأقامت المراكز الحصينة حولها ، بحيث وجد الالمان صعوبة عظيمة في الاستيلاء عيها رغم ما حاولوه في هذا السبيل .. كما استطاع الانكليز في الوقت نفسه تموين (طبرق) من البحر ، وكان هذا الامر سهلا عليهم ، لقرب مصر منهم ، وسيطرتهم التامة على البحر المتوسط فيما كان على (رومل) أن ينتظر امداداته وذخائره عبر الصحراء ، أو من البحر ، وأمام عقبات كثيرة ، ومتاعب جمة ..

ولكن رومل عوّض عن فشله في احتلال (طبرق) برده كل الهجمات

الصغيرة التي قام بها الجنرال ويفل في شهري أيار وحزيران ..

ثم تعاقبت الحوادث والمعارك بعد ذلك في صعود وهبوط ، حتى انتهت في أواخر تشرين الثاني وأوائل كانون الاول ، بارتداد رومل أمام القوات الانكليزية بقيادة اوكلنك وريتشي ، ثم يعود (رومل) فيقوم بجهوم معاكس في كانون الثاني وشباط من سنة ١٩٤٢ ، ويرد الانكليز على أعقابهم الى الفزالة ..

ثم تتابعت انتصارات رومل بعد ذلك حتى يصل الى الحدود المصرية ، ويقف على أبواب الاسكندرية .. وأخيرا تقع معركة العلمين ، وتتم الغلبة



هجوم المشاة مع الدبابات في حرب الصحراء .

للحلفاء وقواهم التي لم تكن تنضب ، والتي كانوا يعملون لارسال الامدادات والذخائر لها من سائر الجهات وأطراف العالم ..

وقد ذكرنا قبلا أن الجنرال ويفل ، أو هيئة أركان حربه ، قد أخطأت كل الخطأ في تقديرها لرومل ، وظنها انه يستحيل عليه القيام بهجوم في ربيع سنة ١٩٤١ ، أو بعد نزوله الى أفريقيا بقليل ..

ولكن هذا ما حدث فعلا .. و (رومل) لا يجب أن يقاس بالقواد العاديين ، وعلى المرء أن يقدّر أنه أمام أعجوبة عسكرية ، وقد نلتمس العذر لمصلحة استخباراتنا — الانكليزية — اذا عرفنا أن رومل لم يباغتهم وحدهم فحسب ، باغت بهجومه رؤساءه في برلين أيضا ..

لقد شن هجومه في ٣١ آذار ، في حين ان قيادة الجيش الالماني طلبت اليه في ٢١ آذار أن يعد الخطة لاعادة الاستيلاء على برقة ، وأن يعرض هذه الخطة قبل ٢٠ نيسان على القيادة العامة لدراستها ، لتصبح محكمة حازمة .. كما أوصي بأن لا يغامر بتخطي (اجدابيا) أمام القوات البريطانية الكبيرة قبل وصول فرقة البانزر الخامسة عشرة ، ولا ريب في أن (هولدر) وأركانه (القيادة الالمانية العليا) سيمضون أسبوعا أو أسبوعين في تفحص خطة رومل بعين ناقدة تتسقط الهفوات ..

ولكنه لم يتح لهم ذلك ، وقبل تسعة أيام من التاريخ الذي حدد لتقديم الخطة للقيادة العليا ، كان رومل قد أعاد الاستيلاء على برقة ، باستثناء طبرق ، ووصل الى الحدود المصرية . ولم يكن ليقوم بما يستطيع القيام به فيما لو أنه انتظر صدور الاذن له ، وقام بما قام به متجاهلا وجود هتلر نفسه . فأبرق له الفوهرر في الثالث من نيسان يطلب اليه أن يكون يقظا وحذرا .. وأن لا يقذف بهجوم واسع النطاق الا حين وصول فرقة البانزو الخامسة عشرة ... وعليه على الاخص أن لا يعرض جناحه للعدو حين يأتي الى بنغازي ..

كان بوسع رومل أن يغفل الفقرة الاخيرة من البرقية لان بنغازي أخليت في اليوم الذي ارسلت فيه البرقية ، وكانت فرقة البانزر الخامسة عشرة قد نزلت في طرابلس .

تعليـــق الانكليز :

كتب ضابط قدير جدا في هيئة الاستخبارات البريطانية بالقاهرة في ذلك الحين ما يلي :

« أعتقد ان الوضع قد قدر تقديرا عسكريا صحيحا ، وأخذت بعين الاعتبار قوة الطرفين ، الزمان والمكان وباقي العوامل الاخرى العادية . فمن الوجهة المنطقية كان التقدير صحيحا من أن هجوم رومل سيفشل ، ولكنه مع مزيد أسفنا الشديد قامر فهاجم فربح » ..

وقد قال اللواء ويليامس ، وكان حينئذ آمر كتيبة الاستطلاع التابعة للفرقة المدرعة الثانية ، ثم أصبح رئيس استخبارات الجنرال مونتغمري ، قال ما يلي :

« أعتقد شخصيا أن رومل اقترب من العجيلة في عملية استطلاعية ولما وجد امرها هينا هاجمها واستولى عليها ، ـ وأنا أذكر هذا جيدا ، اذ كنت

حينئذ في العجيلة لدى سقوطها ، وكان عليَّ أن أهرب منها بسرعة قبل أن أقع اسيرا — .. ثم تحولت عملية الاستطلاع هذه الى هجوم موفق .. ولولا هذا لما استطاع رومل ان يبكر في مهاجمتنا كما فعل .. »

هكذا ظهر رومل للمرة الاولى على مسرح الصحراء . وقد أدهشت السرعة التي اجتاح بها برقة الجميع ، حتى كبار الضباط المحترفين ، كما كانت شديدة الوطأة على العامة التي تقيس النجاح على الخريطة ، ولكن الارض في الصحراء لا تعني شيئا ، فمعارك الصحراء يجب تصورها كما نتصور المعارك البحرية ، اذ ليست من المعارك البرية في شيء ، فلا تكاد تتعطل دبابات الخصم عن العمل ، حتى يمخر أسطول الدبابات الظافر عباب الصحراء طاويا مسافات شاسعة بقدر ما يسمح له وقوده وسلاسله » ..

وقد كانت جودة الدبابات الالمانية التي تمتاز عن دباباتنا كثيرا ، مثار كثير من القلق والذعر . وبقي هذا التفوق حليف الالمان الى ان وصلت دبابات شرمان قبل معركة العلمين .. فلم تقدر هيئة الاركان العامة ولا مجلس الوزراء اهمية التفوق بالجودة حق قدرها ، اذ كانوا تعتقدون أن زيادة الكمية يمكن أن تعوض عن النقص في الكيفية ..

ولكن هذه النظرية لم تطبق في الصحراء ، وقد أدار رومل قوته الصغيرة بجراة ودهاء مدهشين .. وترجع هذه المهارة الى تجاربه العظيمة، فقد سبق أن قاد فرقة مدرعة في عمليات حربية ، ورب أسبوع يقضيه المرء في الحرب ،أفيد من ستة أشهر في المناورات ..

وكان أمام رومل جنود لا خبرة لهم ، وقادة لم يسبق لهم أن رأوا مناورات على مقياس كاف ، فكيف بالحرب ، وما ذلك الا لقلة ما كان عندنا من مدرعات . وبكلمة واحدة لقد كان رومل أخبر من خصومه بهذا النقص ، وكان رجال مدرعاته يعرفون ذلك أيضا ..

وقد قال الجنرال ويليامس ما يلي :

« انهم لا محالة سيهزموننا ، ما دامت أسلحتهم أفضل من أسلحتنا ، ولا اعتقد أنه كان من السهل علينا أن نصدهم ، بما كان لدينا من مدافع مضادة للدبابات صغيرة حتى ولو أن دباباتنا كانت جديدة ، فهي ليست من طراز البانزو الالمانية .

أما في الحقل السوقي ، فقد لاقى رومل نظيره في الجنرال ويفل . وكان اصراره على الاحتفاظ بطبرق محاولة جريئة في تلك الظروف ، « لان

دفاع حاميتها الفعال كان يهدد باستمرار خطوط مواصلات الخصم ، بحيث يحول دون تقدمه » .

وهذا ما حدث فعلا ، ومن المحتمل أن يكون هو الذي أنقذ مصر . وحين كان رومل يتحدث الى ولده مانفرد عن ويفل كان يقول : أنه قائد من الطراز العالي ، وقد عثرت في مكتبته بعد ذلك ـ بين عدد كبير من الكتب عن شمال أفريقيا للمؤلف فروبينيوس وغيره ـ عثرت على نسخة مترجمة للالمانية عن كتاب ويفل في فن قيادة الجيوش، وكانت آثار أنامل رومل تظهر على الكتاب مما يدل على أنه كان يقرؤه بعناية وشغف زائدين .

وقد قدر رومل أهمية طبرق حق قدرها ، فما كاد يعزّز بفرقة البانزو الخامسة عشرة حتى شن علينا هجوما كاسحا في ١ مايس . وقد قال الرئيس الدنجر : « ان الايطاليين أنكروا وجود خطط الدفاع التامة التي أقاموها رغم أنها كانت لديهم ، وأبوا تسليمها لرومل . ومهما يكن من أمر ، فان الفرقة الاسترالية التاسعة لم تكن تحسب حسابا لرومل أو سواه . فهذا الاسلوب في القتال الذي يبرز فيه العناد والثبات والمبادهة التي يقوم بها الافراد والجماعات ، هو ما يجيده الاستراليون وقد ردوا الالمان وكبدوهم خسائر فادحة بالرجال والمدرعات . وقد افادت القيادة العليا من هذه النكسة وذكّرت رومل ان الاستيلاء على برقة مع طبرق والسلوم والبردية.. هو الهدف الرئيسي للفيلق الافريقي . وان استمرار التقدم لدخول مصر هو ذو اهمية ثانوية .

وفي منتصف مايس ، وقبل ان تفرغ شحنة الدبابات التي وصلت مؤخرا من بريطانيا ، رأى الجنرال ويفل فرصة سانحة لمهاجمة قطعات العدو الالمانية على الحدود المصرية قرب السلوم ، وكانت الظروف مواتية .

فقام بعملية محدودة يساعده عدد صغير من دبابات الكروزر ، والدبابات « أ » ، واستولى على السلوم وكابوتزو .. ولكن رومل أقبل في اليوم التالي بقوة كبيرة مدرعة وأرغم البريطانيين على الانسحاب ، ثم ارغمنا أيضا في ٢٨ مايس على النزوح عن ممر (الحلفاء) وهو المكان الوحيد ، بعد السلوم ، الذي تستطيع منه الدبابات تسلق المرتفع الوعر الذي يبلغ ارتفاعه ٢٠٠ قدم ، والذي يمتد على مسافة ٥٠ ميلا في الصحراء الى الجنوب الشرقي .

وكان الجنرال ويفل مصرا على استرجاع برقة ، أو طبرق على الاقل.. زد على هذا أنه كان هناك من يستحثه على القيام بالهجوم بأسرع وقت ممكن،

وليس من الصعب أن نعرف من كان يدفعه من لندن للقيام بهجومه . ولديه الان ما يكفي من الدبابات لتجهيز الفرقة المدرعة السابعة ٤ التي لم تشترك في القتال كفرقةمنذ انتصارها على غرازياني.اذ لم يكن لدى الفرقة تجهيزات كافية ، فلا دبابات ولا أجهزة لاسلكي للمضي في التدريب .. وكانت بعض الدبابات الجديدة من طراز لم يشهده الشرق الاوسط قط .. وكان أكثرها يتطلب فحصا تاما ، كما ان أكثرها بحاجة الى مصافي للرمل وتمويه يتلاءم مع الصحراء .

لقد قدّر ما لدى الالمان من الدبابات بـ ٢٢٠ دبابة متوسطة و ٧٠ دبابة خفيفة يقابلها عندنا مجموع تقريبي قدره ٢٠٠ . فكان عزمنا على مهاجمتهم جريئا ، وأقل ما يقال عنه أنه يتصف الى جانب الجراة بالتهور ..

وكان على الجنرال ويفل أن يحاول مزج لوائين مدرعين ، أحدهما مجهز بدبابات الكروز وسرعتها من ٢٥ ـ ٣٠ كيلومترا في الساعة ، ومجال عملها من ١٢٠ ـ ١٦٠ كيلومترا . والثاني مجهز بدبابات ـ آي ـ وسرعتها ثمانية كيلومترات في الساعة ، ومجال عملها دون أن تزوّد بالوقود مرة اخرى هو ٦٠ كيلومترا فقط . ومثله في ذلك كمثل الذي يربط رجل طفل الى رجل شاب ، ثم يطلب اليهما ان ينطلقا في سباق المائة متر ..

وفوق هذا كله كان لدىالالمان سلاح هائل وهو مدفع ٨٨ مم ، ذو العمل الثنائي . فهو مضاد للطائرات ذو سرعة عظيمة ، ويستخدم ضد الدبابات اذا موّن بعتاد ثاقب للدرع ، وكان ينفذ في دباباتنا كما لو كانت قطعا من الزبدة ، وقد ورد في يوميات رومل عن الفرقة الشبح .. أن هذا المدفع استخدم ضد الدبابات البريطانية قرب آراس في فرنسا . ولكن دائرة المعلومات البريطانية تنفي ذلك وتقول اننا لم نفاجأ به الا في ١٦ حزيران ١٩٤١ في الصحراء الغربية ، ومهما يكن فلقد كان هذا المدفع سلاحا خطرا ألقى الرعب في قلوب آمري المدرعات ومن عداهم ، وبقي كذلك حتى نهاية الحرب .

كانت عملية « هجوم البلطة العريضة » التي استهلت بنجاح ، فشلا ذريعا ، خسرنا فيه مائة دبابة .. وكان فرنسيو فيشي في سوريا يطاردون بدباباتهم وطائراتهم الجنود البريطانيين الذين لا يملكون دبابات قط ، ولا ستارا جويا يحميهم ، وكان من الطبيعي أن نغضب حين سمعنا أن ستة أسراب من المقاتلات ، وأربعة أسراب أخرى ومائتي دبابة استخدمت جميعا في تلك العملية التافهة ، التي بدت لا طائل تحتها .. وكان من المفيد ان

يخبرنا الجنرال فون ايزبك ، والجنرال فون رافنشتاين ، والدنجر ، كل على حدة .. أن رومل نظر الى هجومنا هذا نظرة جادة صارمة ، واعتبره خطيرا للغاية . ويعتقد الجنرال فون رافنشتاين : أننا ارتكبنا غلطة بمحاولتنا مهاجمة تلك النقطة القوية وهي ممر الحلفاء بالدبابات،وان حركة التفافنا حول النهاية الجنوبية لسلسلة المرتفعات الوعرة كان يجب أن تكون أوسع بكثير . ولـو ترامى الى علمنا ان المدافع ٨٨ مم مرابطة هناك ، اذن لكنا تركنا ممر الحلفاء وشأنه ، ولكن مزيج دباباتنا المتنافر ، جعل من الضروري أن تدور دبابـات ـ ١ ي ـ التابعة للواء الدبابات الرابع، ذات المدى المحدود، منحرفة شمالا الى كابوتزو ، بينما اصطف باقي الفرقة المدرعة السابعة بعيدا بموازاة جنـاح الاولى .



رومل

ومعـه مساعدوه

الفصل السادس

وصف المعارك العنيفة في ليبيا

خطط رومل العسكرية وخطرها وأثرها

معركة المدرعات كما تصفها المصادر الحربية الالمانية

المعارك :

بدأ (رومل) عملياته الحربية ضد طبرق في الثلاثين من شهر نيسان ، وبعد وصول المدفعية الثقيلة التي كان بحاجة اليها لدك حصون طبرق ومراكزها القوية ..

وبدأت الغارات بعاصفة من نيران المدفعية التي انصبت على المراكز الانكليزية وبطارياتها بعيدا عن (رأس المدور) ..

وكانت الدبابات المحترقة تنير ظلام الليل ، ونافثات اللهب تبث حممها ونيرانها ، والمدفعية تطلق نيرانها بشدة وقوة ، وأخيرا انطلقت وحدات المشاة تتقدم الى أهدافها ، وتمكنت من الاستيلاء على النقاط الامامية حوالي منتصف الليل ..

وفي صباح أول مايس .. سقط قسم كبير من راس المدور في أيدي القوات الالمانية ، ولكن هذه القوات لم تستطع الوصول الى حصن بلاسترينو .. الذي كان هدفها الاول ..

وكان النيوزيلانديون والاستراليون والانكليز يقاتلون بشجاعة فائقة للاحتفاظ بمواقعهم .. ولكن القوات الالمانية استطاعت الاستيلاء على استحكامات المدور ـ القائمة حول طبرق ـ فاضطر الانكليز على الاثر للرد على هذه الاستحكامات التي سقطت في أيدي الالمان ، بالنار الحامية التي دامت أكثر من ثلاثين ساعة .. ثم قاموا بهجوم معاكس ، لعلهم يردون الالمان

عنها ، فلم يوفقوا ..

وكان الحر شديدا مذيبا ، والسراب والاشعاع يملآن أرض المعركة وما حولها ، وكانت ملايين الذباب تحوّل الحياة الى عذاب أليم ، حتى لقد وصلت درجة الحرارة الى ما فوق الخمسين (ميزان سنتيفراد) ، وكان الطعام عبارة عن اللحم والسمك المعلب .. وروميل نفسه لا يكاد يهدأ يجوب أرض المعركة ليلا ونهارا ، يظهر بغتة في خطوط الاستحكامات الامامية ، وتارة تراه عند قوات التموين ، وفي لحظة أخرى بين المدرعات ، أو عاملا على بناء مراكز جديدة ، أو ما يشابه استحكامات القلعة المحاصرة بانشائه نقاط استناد متقابلة ، مستقلة الواحدة عن الاخرى ، ومرتبة ومتكاملة فيما بينها بصورة تثير الاعجاب من حيث نظام التوزيع الدفاعي ..

وقد أعطيت هذه المراقبة والاستطلاعات نتائج طيبة،وبفضل الارتباطات والاتصالات الدائمة مع القوات المتقدمة استطاع روميل أن يتفهم تماما ، وبصورة بينة واضحة امكانياتها الهجومية والدفاعية ، والمعنوية التي ساعدته على تحاشي كثير من المفاجآت غير المنتظرة ..

وكان دائما على أهبة الاستعداد لاتخاذ القرار الفوري الملائم لاية وضعية قائمة دون أن يضطر لارسالها وابلاغها عن طريق التسلسل البطيء .. وما انفك يحقق هذا التفوق الذي جعل منه عنوانا للحذر والرهبة في معسكر العدو ، وقبلة أنظار ومحط آمال قواده وضباطه وجنوده ، ودعامة ثقة لا تتزعزع بمقدرة قائدهم الفذ ، وأدرك روميل بثاقب بصره وفكره ونقاوة تفكيره وحسن استدراكه أن الحرب فوق هذه الارض المجهولة لا يمكن أن تصل الى قرار الا بمعونة العمليات الهجومية ، والعمليات التي جرت حتى الان .. والعمليات التي هي قيد الاجراء أو التي ستجري فيما بعد كانت تجري كلها بحكم الحال والواقع ..

فالعمليات الجارية في الصحراء لا تشبه العمليات التي يشاهدها المحاربون في الميادين والساحات الاخرى ،فمعركة الصحراء تشبه في نظامها وشكلها وخاصتها المعركة البحرية . فالوحدات الكبرى والمتوسطة والخفيفة يجب ان تتحرك كلها حسب خطة مرسومة ، ولا يمكن تحقيق التفوق الا اذا ظلت هذه الوحدات مجتمعة تحت قيادة مباشرة حرة ، وعلى هذا الاساس يمكن أن تصعد الى ميدان المعركة ، لان الصحراء كالبحر ليس لها حدود، ولا تشتمل على مقاطع أرضية ومجال الرؤية فيها فسيح يتسع للمراقبة البعيدة المدى . وحرب المواضع التي جرت أمام طبرق لم تغير شيئا من هذه الحقيقة ..

وفي منتصف شهر مايس حدث ما كان يخشى رومل ويتوقع حدوثه على الجبهة الشرقية ، فقد هاجم الجنرال ويفل السلوم وحصن كابوتزو مباغتة بمائة مدرعة كان اكثرها من الطراز الحديث الثقيل فطردت قوات (هرف) من مواضعها ، وأصبحت (البردية) مهددة بصورة مباشرة ، وقد تنبه رومل لهذه الحركة ولم تفته بادرة هذا الانذار الخطر ..

بدأ الوضع لاول وهلة عظيم الخطورة . واضطر جناح (هرف) الى التراجع بقوات لم تتعرض لشر على خط سيدي عزيز ، وعلى الطريق الواقعة جنوب البردية ، وأسرت قوة إيطالية كانت تؤلف المخافر الامامية وحوصرت قوة أخرى على الحدود ..

كان مصير طبرق مرتبطا ارتباطا وثيقا بمصير الحدود الشرقية ، وبعد أن درس رومل الحالة الراهنة رأى وجوب التخلي موقتا عن احتلال طبرق.. وكان يعتزم القيام بتراجع عام ليشكل جبهة جديدة على طول مرتفعات عين الغزالة ، ولكن فقدان الوقود جعله يفكر فيما اذا كان في امكان قواته الانسحاب الى الخط الجديد في الوقت المعين ، ولكنه عدل عن هذا القرار لصعوبة تنفيذه وسحب بعضا من وحداته من دائرة حصار طبرق وساقها بطريق العظم ، وكانت مؤلفة من كتيبة المدرعات من الفرقة الخامسة عشرة المدرعة ، التي وصلت حديثا تدعمها بطارية مدفعية من عيار ٨٨ مم ، وأمرها ان تنطلق حتى منطقة سيدي عزيز–كابوتزو لتساعد وتعاون قوات هرف ..

وفي هذه الاثناء تصدت القوات الالمانية لفوج مدرعات انكليزي وطردته خارج حصن كابوتزو ، ولكن ويفل استعاد الحصن بقوات جديدة أنزلت في مرسى مطروح ، مهمتها تدعيم موضع سيدي عزيز، وفي هذه اللحظة اقتنص رومل برقية انكليزية تفيد بأن هذه الحركة الناجحة لم تحقق الا بثمن باهظ وخسائر جسيمة وأن الجيوش الانكليزية تواجه مصاعب في التموين ...

توقفت الكتيبة المدرعة الثانية عن استرجاع سيدي عزيز وكابوتزو دون ان تتمكن من تأمين الارتباط مع قوة (هرف) ، وتلقى قائد الفرقة الخامسة عشرة المدرعة أمرا بارسال قوة أخرى من فرقته نحو الشرق واستلام القيادة، ولكنه جرح أمام طبرق قبل تنفيذ المهمة التي اسندت اليه ، بيد ان هذه النجدة لم تعد ضرورية بعد أن وطد الزعيم (هرف) وضعيته وأطلق هجوما معاكسا عنيفا مكنه من الاستيلاء على السلوم الاعلى ، ورد العدو على أعقابه على طول الخط . عندما هدأت المعركة وفشلت المحاولة التي ترمي الى رفع الحصار عن طبرق .

وكانت الفرقتان الايطاليتان مونتي موروس وفرنجيا تحاربان بعناد ولحقت بهما خسائر هامة ، ومنعهما فقدان الوقود من ملاحقة العدو ، ولم تتمكن القوات الالمانية من احتلال ممر حلفايا الذي كانت له أهمية فاصلة لسلامة الحركات الحربية في منطقة الحدود الا بعد مضي عشرة أيام ، حيث شرع على الفور في اقامة التحصينات وانشاء نقاط الاستناد اللازمة للحؤول دون مفاجآت جديدة . وكانت الهجمات والغارات أمام طبرق تتوالى يوميا من قبل المشاة ، فمرة تحطمت بعض الهجمات الانكليزية امام الفرقة الايطالية « ارتيا » ومرة أخرى ردت فرقة « ترانتو » قوات الصدام الاسترالية المهاجمة .. كما احرقت مدرعات انكليزية وصلت الى مسافة ٥٠ مترا .. ومرة ثالثة محت القوات الالمانية مجموعة من المغامرين البريطانيين الذين حاولوا النزول الى اليابسة في (البردية) وابيدوا عن آخرهم ، وكانت مؤلفة من قوات فوج الصحراء .. وفي نهاية شهر مايس بدا الخطر يهدد الشرق الاوسط وطبرق تهديدا مطلقا ، بسبب سقوط جزيرة كريت في أيدي الالمان التي أصبحت تبعد حوالي ٣٦٠ كيلومترا عن طبرق .

وكان بامكان هذه الحادثة الخطيرة أن تشكل نقطة حاسمة في سياق هذه العمليات بالنسبة الى الفيلق الافريقي ، اذ أصبح من المؤكد امكان تعديل خطط التموين الموضوعة ، ومسألة النقل عن طريق طرابلس الغرب التي تبعد (١٧٥٠) كيلومترا عن الجبهة ، لان سقوط جزيرة كريت يساعد الطيران الالماني على مراقبة البحر المتوسط مراقبة جدية فعالة ، ويمنع أسطول العدو من تموين قواته في أفريقيا الشمالية أو التجول بحرية تامة ، ولكن هذا النصر لم يغير من أوضاع الحالة الراهنة شيئا ، ولم يؤثر على مستقبل الحركات أو العمليات الحربية القادمة ، وكانت عملية الاستيلاء على جزيرة كريت في الواقع عملية غير مجدية كلفت كثيرا من الدماء والارواح ، ولم تحقق أي تطور في الوضعية القائمة سوى تأمين نصر عسكري بسيط كان الغرض منه تعزيز سمعة الجيش الالماني لا كسب انتصار حاسم ..

معركة المدرعات :

وكان حصن كابوتزو النقطة الايطالية الاخيرة الواقعة على صعيد ليبيا ، وهو حصن صحراوي أقيم على أقصى نقطة من خط الحدود . وكان عبارة عن بناء ضخم مربع الشكل يشتمل على مساكن للضباط والجنود ومخازن ومستودعات للذخائر والاعاشة ، ثم أصبح فيما بعد كالخرائب وقد

تصدعت جدرانه وأطرافه وتحطمت نوافذه وأبوابه ، وتمزقت سقوفه وسطوحه ، وكان أقرب مبنى اليه السلوم الاعلى الواقع على الارض المصرية الذي يشبه في منظره حصن كابوتزو ، عدا المعسكرات الانكليزية التي كانت أكثر اتساعا وترتيبا وكانت مكلفة بحماية الحدود .

وكانت الارض المحاذية للحصن تنحدر تباعا نحو البحر ، والمناظر التي يشرف عليها المرتفع خلابة رائعة وعلى سفح جبل السلوم الادنى ترتفع بيوت العرب التي تتبسط الخليج الواسع بمياهه الزرقاء العميقة البراقة تحت اشعة الشمس اللامعة . ويمتد الساحل الرملي الناصع بلون الثلج الى الافق البعيد . وتخطط جوانب الجبل المرتفع منحدرات الاودية المنخفضة التي احدثتها الطبيعة ابان العصور السحيقة ، وتصل الطريق الجبلية الواسعة المعبدة بمنعطفاتها الصاعدة التي تربط السلوم الاعلى بالسلوم الادنى .. وتقود رأسا الى الميناء ، ثم تبتعد عن الساحل حيث تصعد السهل الداخلي المرتفع مارة بمضيق حلفايا . والسهل المذكور صحراوي بكليته ومنذ الصباح الباكر ترتفع فيه درجة الحرارة الى ٥٠ ــ ٦٠ سانتيغراد .

ارتسمت الحدود وتخططت في هذه النقطة وتحددت بشبكة من الاسلاك الشائكة التي ترمز الى خط الحديد الذي بناه الجنرال غرازياني في مدة ستة أشهر ، ممتدا من البحر على خليج السلوم وآبار الرملة الى مسافة ٢٧٠ كيلومترا نحو الجنوب حيث واحة جغبوب . والذي أصبح اليوم يفصل بين القوات الانكليزية والالمانية المتحاربة ..

وفي تاريخ ١٤ــ١٥ حزيران علمنا من استخباراتنا الجوية بوجود قوات آلية كثيفة تقترب على طول الساحل وتنساب في جوف الصحراء نحو الجنوب ..

وكان الجنرال ويفل يقوم بحركته هذه في منتهى السرية ، بمساندة الفرقة السابعة المدرعة التي كانت احدى الوحدات الممتازة المدربة والممرنة ، وبعض فرق المشاة الآلية وأفواج المدفعية القوية ، وظهر انه كان يعتمد على شروط ثلاثة لاحراز الغلبة وهي :

أولا ــ مباغتة القوات الالمانية والايطالية ، واحداث ثغرة واسعة في القطاع الايطالي ، ثم الالتفاف على الفرقة الالمانية في قطاع السلوم ، والتي كانت بالفعل ترزح تحت صعوبات ثقيلة بسبب التموين ، وكان من المتعذر عليها الحركة والانطلاق . وكان (ويفل) غافلا عن وضعيتها ، وقد تمركزت منذ الايام الاولى في هذه الخطوط ونقص عددها نقصا محسوسا .

ثانيا ــ حصوله على عدد وافر من المدرعات الجديدة من طراز مارك ٢، وكان مصمما على زجها في الموقعة في كتلة متراصة . وكانت حديثة الصنع بنيت في المصانع الانكليزية وجهزت وأعدّت لرد أية قوة تتصدى لها حسب تخمين وتقدير الخبراء الفنيين الانكليز .

وكانت الخطة الانكليزية كما يلي :
أ ــ الجناح البريطاني الايمن : سار على محاذاة الطريق الساحلي باتجاه مضيق حلفايا ، وكان المفروض عليه الاستيلاء على المضيق المذكور لفتح الطريق تماما وتسهيل وصول النجدات المتلاحقة والتموين باضطراد .

ب ــ جمهرة الصدام : تتألف أغلبها من وحدات مدرعة كلفت باجراء التفاف حول موضع حلفايا لمهاجمة حصن كابوتزو مباشرة ، والتوغل حتى السلوم لتطويق المضيق من الخلف عند الضرورة .

ج ــ جمهرة اليسار : وكانت مندفعة باستقامة داخل الصحراء ، مهمتها الاحاطة بالجبهة الالمانية بقوات مصفحة ، ثم قطع وتدمير القوات الباقية في منطقة كابوتزو وفي جنوب البردية ، وبسقوط هذه المراكز تصبح الطريق حرة الى طبرق ، مما يساعد حاميتها على الاشتراك في الهجوم المنطلق على جوانب الفيلق الافريقي الذي تحدد مصيره ونهايته في نظر القادة الانكليز .

رتب ويفل خطته بعناية ودقة ، ولم يفته حتى تعيين نقاط اجتماع الاسرى والغنائم .. ومخافر المساعدة الطبية والصحية وغير ذلك .

الاستعداد الالماني :

ولكن (ويفل) لم يفاجيء رومل باستعداداته هذه .. فمنذ ١١ حزيران كان الطيران الالماني يراقب القوات البريطانية وزحوفها السائرة ، كما عرف بوصول نجدات العدو وتحركاته وكافة الحركات السائرة على الخطوط الخلفية . وعلى أثر هذه المعلومات سحبت الفرقة الخامسة الخلفية بكاملها من جبهة طبرق كي تشترك في بناء الطريق الموصلة الى القلعة ، لان صعوبات التموين أظهرت الحاجة الماسة الى انشاء مثل هذه الطريق ، وأصبحت هذه الفرقة في وضع الاحتياط المشترك ومستعدة للدخول فورا في المعركة ..
وفي تاريخ ١٥ حزيران وصلت أيضا معلومات جديدة من الفرقة

الخامسة عشر المدرعة عن سعة ونظام حملة العدو ، فتجمعت الفرقة المذكورة جنوب غامبوت تحت قيادة الجنرال شترايخ ، وتلقت امرا بالاستعداد للعمل، وأنذرت الفرقة المصفحة (أريتي) أيضا .. ولكن تبين أن مجموعة (سانتاماريا) الايطالية كانت بدون وقود وبدون تموين ، وكانت في حالة لا تمكنها من الحركة والانطلاق .

وكان الامر الذي أرسل الى الفرقة الخامسة عشرة المدرعة بسيطا جدا .. وخلاصته المحافظة على مضيق حلفايا وصد العدو حتى اشعار آخر . وعهد لهذه الفرقة بقيادة المعركة الدفاعية وجدها . وفي الساعة العاشرة صباحا فهم من المعلومات الواردة ، أن هدف ويفل الاساسي هو فك الحصار عن طبرق ، فدعمت الفرقة الخامسة بفوج مدفعية اضافي وأوعز اليها بانتظار الحوادث القادمة .



جريح الماني يسنده ويساعده جنديان انكليزيان

وفي هذه الاثناء بدأ القتال يدور حول كابوتزو .. وتمكنت المصفحات البريطانية من احتلال نقطة الاستناد (٢٠٦) من جهة الغرب ، وفي سيدي عمر كانت القوات الالمانية تدافع عن مواضعها بعناء وصعوبة ، ولكنها ردت كافة الهجمات المنطلقة على مضيق حلفايا بصورة دموية .

وفي هذا اليوم الاحد كان الهواء كتلة رمادية اللون يملأ العجاج رحابه، وكانت الصحراء تشبه صفحة براقة تموج حول حصن كابوتزو القائم كالجبل الرمادي ينقبض وينفرج .. وكأن الحياة تدب في أعطافه من شدة الحر وكان النظر لا يتعدى عدة مئات من الامتار . وكانت الارض في قطاعات الحدود تهتز تحت وابل القنابل المتفجرة وانفجارات الالغام المتوالية .. وطلقات مدفعية المدرعات تتابع بانتظام ، وكانت سحب الغبار والرمال المتطايرة تمر فوق الحصن وتلتصق بالاحجار وبشواهد القبور المقامة على أجداث البريطانيين والالمان .

هاجمت مدرعات مارك ٢ مرتفع ٢٠٨ .. تصحبها قوات الهوسار الخيالة الخفيفة ، والتي تعرفت عليها فرق الفيلق الالماني الافريقي في منطقة برقة .. وجرت بينهما أكثر من مصادمة ، فلم تعط هذه الحركات نتيجة حاسمة بسبب نقص الاسلحة الثقيلة ، وكانت قوات الانكليز والالمان تدور حول بعضها وهي تثير عجاجا هائلا من الغبار حتى وصول فوج مدرع من الفرقة الخامسة عشرة المدرعة ودخوله المعركة مجبرا قوات الهوسار على التراجع .

تناوب حصن كابوتزو الاحتلال والاسترداد أكثر من مرة . وعندما احتلت القوات الانكليزية الحصن للمرة الاخيرة ، تمكن أحد الضباط الالمان الشباب بشجاعة وجرأة لا نظير لهما من احراق ثماني مدرعات انكليزية (مارك ٢) بمدفعه المضاد للمدرعات على مسافة قريبة جدا ، وكانت المعارك تجري على نسق المعارك الافريقية الخاصة .. فلا قوات ويفل ولا قوات رومل ، كانت تعرف بالتأكيد أين هو الخصم ، ولا من أين يظهر ولا من هو العدو أو الصديق ؟ ..

وفي سعة المسافات حيث يسعى المتحاربون الى تحقيق النصر كانوا كثيرا ما يضيعون الفرص المؤاتية لكسبه . فالقوات المحاربة كلها كانت تستعمل السيارات المتشابهة واحيانا مثلها ، والجنود يلبسون القميص الخاكي والبنطلون القصير (الشورت) والخوذ المسطحة ، وكانت خوذات جنود التومي الانكليزية ، تشبه كثيرا خوذ جنود المستعمرات الالمانية ..

وقد تناسى المحاربون كافة الاسس والقواعد التي تلقوها أثناء الدراسة والتدريب ، وظهر في المعسكرين المتحاربين شعور جديد ، شعور الرفق فيما بينهما والحس الودي الطبيعي . وكانت أفريقيا هذه جرداء كأرضها لا بشر فيها حتى ولا أشباح ولا قرى ودساكر هادئة ، يجرفها هذا الصراع العاتي في طريقه ، وقد سبق ان أخليت الاماكن المأهولة القائمة في هذه الربوع من سكانها العرب تماما ، ودمرت قبل ان تصل القوات الالمانية الى افريقيـــا ، ولم يبق في هذه الاصقاع سوى الجنود الذين تعرضوا جميعا دون استثناء لقانون وشروط الحياة القاسية في الصحراء .

وكانوا يتعاركون لا لكسب قطعة من الارض واحتلال مدينة أو قرية.. اذ ليست كل هذه الاهداف ذات أهمية أو شـــأن بالنسبة الى الحركات الدائرة .. أو بالنسبة الى غاية المعسكرين المتحاربين ، لان الهدف الاوحـد كان الحصول على النصر بواسطة السلاح وبفعل السلاح فقط في موقعـــة دائمة الحركة والتبدل ..

كما أن شعور العداء المشحون بالنقمة والانتقام الذي يتولد عادة بين قوات المشاة المتحاربة ، العداء الدموي العنيف الذي كان يبدو من الطرفين في بعض الاوقات لم يظهر أبدا ولم يكن له أثر ظاهر في معارك الصحراء . كانت هذه المعارك محكومة باعتبارات متبادلة .. وكانت تجري في جو شبه ودي تقريبا ، ووفقا لقواعد معنوية خفية يتقلبها ويتبناها الطرفان عن غير قصد . فالشجاع لا يحتقر الاخر لارتدائه كسوة اخرى .. بل يقدّر بطولته ورجولته بالرغم من العداء ، وكان رجال المعسكرين يتفاخرون ويتبارون بهذه الروح الرياضية وهذه النزعة من الفروسية ..

ولم تلاحظ عوامل القسوة والعنف الجائر في أثناء معركة ١٥ حزيران .. وكان العدوّان يقتربان الى مسافة ٥٠٠ متر .. وظهر لاول مرة في هذه الموقعة ان مدفع عيار ٨٨ مم الالماني ضد الطائرات سلاح فتاك حاسم .. فقد استطاعت ثلاثة مدافع منها كانت تتقدم الكتيبة المدرعة الثامنة من تدميـر ثماني عشر مدرعة مارك ٢ أثناء هجوم معاكس شن على حصن كابوتزو ..

ولما اقبل المساء أعلن الزعيم نويمان سيلكو قائد الفرقة الخامسة عشرة المدرعة بأنه استعاد حصن كابوتزو .. وما زال يهاجم العدو بقوة على جانبي الحصن ، وبعد ساعتين أرسل يؤكد أن القوات الالمانية لا تزال تحتل الحصن، ولكنها امست مطوقة ..

وفي هذه الاثناء كان العدو يتقدم نحو الشمال باتجاه (البرديـــة) ،

ولكن لسبب مجهول لم يستمر في هجومه المباشر على المدينـــــة ، وكانت الخسائر الالمانية تبدو ثقيلة . وقد فقد الالمان عدة بطاريات من المدفعية .. ولم يعرف حتى الان عدد المدرعات التي دمرت من الجانب الالماني ، وقد فهم بأن عدد المدرعات الانكليزية منطراز مارك٢ التي دمرت بصورة نهائية تجاوزت الستين ، وعندها تحقق ويفل بالتأكيد انه لم يصل الى هدفه الاول ، ولـم يستطع حتى ذلك الحين اجتياز خط كابوتزو (٢٠٦) ..

وفي السادس عشر من شهر حزيران استأنفت مدرعات الفرقـــة الخامسة المدرعة انطلاقها ضد حصن كابوتزو ، ولكنها قوبلت بنار محرقة من مدافع مدرعات مارك ٢ ، والمدافع ضد المدرعات المتربصة في الخرابات التي تطلق حممها ونيرانها على الارض المكشوفة ، ولمـا بدأت مدرعات الفرقـة الانكليزية السابعة المدرعة هجومها المعاكس اضطرت المدرعات الالمانيـــة للتراجع وقد أصيبت كافة الجرارات والمدافع من عيار ٨٨ اصابات مباشرة، ولم يبق سوى ٣٥ مدرعة بامكانها مواصلة القتال ..

أما في منطقة طبرق فالهدوء ما زال مخيما على خطوط حصـــــار المدينة . وأخيرا قامت الفرقة الخامسة الخفيفة الالمانية بهجوم على العـدو في شمالي غربي سيدي عمر . وكانت خطة رومـــــل في منتهى البساطة : « اذا حاول العدو القيام بحركة تطويق لقواتنا ، فمن واجب القوات الالمانية أن تتقدم حتى تصل الى اطراف قوات ويفل للعمل على تفكيك عرى الفرق البريطانية وتشتيتها .. »

النهـــــاية :

والواقع ان نهاية المعركة ، أو المواقع الحاسمة فيها كانت معلقة فـي ميزان القـــدر ..

كان المهم فيها مضيق حلفايا .. والهجوم المعاكس لا يمكن أن يتحقق الا بعد احتلال هذا المضيق .. ولو أن (ويفل) تمكن من احتلاله ، لاستطاع أن يمضي بقواته الى طريق (البردية) وتمكن من رفع الحصار القائم حول طبرق ..

ولكن موقع حلفايا صمد الى النهاية صمودا عظيما ، وكان يدافع عنه الرئيس باخ الرجل الفولاذي كما يسمونه ، وتحطمت كل الهجمات الانكليزية حوله ، وتحطمت فوق جنباته سيارات ودبابات كثيرة ، ومات في الطريـق اليه كثيرون ..

ولم يشتد الموقف ويصبح خطرا الا حينما أحس الالمان المدافعون عن المضيق بأن ذخيرتهم توشك ان تنفذ ..

ولم يبق عندهم أكثر من ستمائة طلقة ، ثم يتوقفون عن اطلاق النار.. فيما كان الانكليز يمطرونهم بالحمم المتتابعة من القنابل المحرقة والمتفجرات..

وقرر (روملى) على الاثر ارسال امدادات جديدة الى المدافعين عن حلفايا .. وهو يقول :

ـ اذا استطاعت حلفايا أن تقاوم حتى اليوم الثالث .. فمن المؤكد ان (ويفل) سيكون مهددا بفاجعة كاملة ولا يعود بامكانه سوى أن يهاجم بقوات جديدة ليمنع عن وحداته الحصار في منطقة السلوم ـ كابوتزو ، ولكنه لا يملك هذه القوات الان » ..

وليس من يعلم اذا كان روملى يعرف أو لا يعرف مبلغ التعاسة التي كان يتقلب فيها ويفل ، وأي نجاح رائع كان يهيئه له الرئيس باخ ..

ولو كان لدى روملى قوات احتياطية جديدة جاهزة لدخول الموقعة لانتهى الامر مع ويفل على الفور ، ولذا طلب أثناء المعركة الى القيادة الايطالية في ليبيا ارسال فرقتين ، فرقة مساعدة لمنطقة السلوم ، وفرقة أخرى لاشغال البردية ، كما فكر في جلب فرقة ثالثة لمنطقة سيدي عزيز ، وذلك لسحب الفرق الالمانية حالا ليؤلف منها أحتياطا لتسهيل عمليات التموين وانهاء الطريق الجديدة حول طبرق بأسرع ما يمكن ، والتي تحتاج الى ٨٠٠ عامل ..

ولقد أرسلت القيادة الايطالية في ليبيا فرقة (بافيا) فورا .. وفهم بالتالي ان ويفل أحيط علما بأن الفرقة المدرعة السابعة الانكليزية فقدت ما يزيد عن مائة مدرعة حتى اليوم الثالث من الموقعة ، وأنها في حاجة ماسة للذخيرة والوقود ، وقد اقتنصت البرقية هذه من قبل الفيلق الالماني الافريقي ، كما علم أن خسارة القوات الانكليزية جسيمة جدا وخاصة في المدرعات التي تعوزها الوقود والذخيرة مما زاد في خطورة وضعيتها الراهنة ..

وانطلقت على الاثر الكتائب الالمانية تقوم بهجماتها ، وكان رجال الدبابات اذا أحرقت دباباتهم يغادرونها ويحاربون كأفراد مشاة ..

وقد أبدى الخصمان ضروبا عظيمة من البسالة والصبر والحرمان ..

وفي مساء اليوم السابع عشر من شهر مايس ١٩٤١ قام الرئيس باخ،

بهجومه المعاكس الاخير ، مع مدرعات الفرقة الخامسة عشرة ، فتم تنظيف كافة الاودية المحيطة بالمضيق من العـــدو ، وكان أن حاولت بعض عناصر الفرقة المدرعة السابعةالانكليزية المندحرة أن تشق طريقها هاربة من الجبهة، فلم توفق واضطرت الى الاستسلام ، وفرَّ أفراد الفرق الاخرى التي نفذت ذخائرها الى الصحراء ..

وبدأ الالمان صباح اليوم الثامن عشر من مايس بتنظيف كافة قطاعات السلوم وحصن كابوتزو ، وسيدي عمر ، وسيدي سليمان والبردية من كل جنود العدو ..

وكذلك تم لرومل بقواته المحدودة كسب المعركة التي دامت ثلاثـــة أيام بلياليها ، وكانت أكبر معركة للدبابات ، خسر فيها الانكليز اضعـــاف اضعاف ما خسره الالمان ، فقــد خسروا كل ما كانوا يملكون من الدبابات والمدرعات تقريبا ، وتركوا على ارض المعركة آلاف القتلى والجرحى ..



رومل مع القائد الايطالي باستيكو ويشاهد وهـو يسير يمينا

الفصل السابع

الموقف في شمال افريقيا بعد الهجوم الالماني على روسيا !

تعليقات المصادر الانكليزية على الموقف

بقلم : دسموند يونغ

الموقف :

قلب هجوم الالمان على روسيا ، الموقف في الصحراء راسا على عقب..
وأصبح اهتمام القيادة الالمانية موجها لروسيا دون الصحراء ودون شمالي أفريقيا ..

لم تكن طبعا تنكر أنه قد تدعو الحاجة في النهاية الى القيام بهجوم على قناة السويس ، وايران ، ولكن هذه العمليات يجب انتنتظر الى أن ينهزم الروس . عندئذ يشرع بهذه العمليات من الاناضول والقوقاز ، ويقوم الجيش الالماني في ليبيا بدور المساندة فقط ، ولا حاجة الى توقع ارسال فرق جديدة لتعزيزه .. وفي هذه الفترة الحالية ، ما دام من الصعب تموين رومل قبل القيام بعملية حربية ضد مالطة . فعليه أن يبذل قصارى جهده في وضع الخطط للاستيلاء على طبرق ، واذا سقطت طبرق ، فليس له أن يتقدم نحو مصر ، بل عليه أن يقف عند السلوم .. واذا اخفق في هجومه على طبرق ، فعليه أن يستعد للانسحاب الى الغزالة ..

كان الخبراء الانكليز والالمان يعدون رومل من الناحية العسكرية

مجرد انتهازي فقط .. فهو واضع خطط تعبوية ، ولكنه ليس أهـــلا لان يعرف شيئا عن سوق الجيوش ..

ولعلنا نكون مصيبين اذا قلنا أن رومـــل كان استاذا في « الخطط التعبوية الكبرى » اكثر منه استاذا في سوق الجيوش .. ولـــو أنه كان عاجزا عن ادراك المباديء الكبرى لسوق الجيوش ، لكان من الغرابة بمكان أن يستخدم كمدرس في بوتسدام .. والادهش من هذا أن لا يكون رومل قد أفاد شيئا من هذا العلم في تلك السنوات التي قضاها هناك ..

وفي الحالة التي نحن بصددها ، أظهر رومل تقديرا أشد وضوحا من أغلب الرجال السوقيين المحترفين .. لقد سبق أن ذكرنا أنه وضع خطـة مفصلة في تموز ١٩٤١ ، للاستيلاء على قناة السويس،وقد ذكر لي الجنرال فون رافنشتاين أن أفكار رومل كانت تذهب الى حد أبعد بكثير من هـذه الخطة ، فهذا التقدم نحو قناة السويس انما هو فاتحة لتقدم آخر نحـــو البصرة .. يكون هدفه ايقاف تدفق الامدادات الاميركية لروسيا عبـــر الخليج العربي ، وبعـد أن تنفذ المرحلة الاولى مـن العملية ، يؤمـن رومـل امداداته من سوريا ، وان كان يعتقد أنهم سيحملون تركيا على الانحيـاز لجانب المانيا فيما لو سارت الامور على وجه مرض في روسيا وشمـــالي أفريقيا ، والا فانهم سيهاجمونها ولا بد أنها ستنهار ..

قبل ان يستعيد المرء هذا المشروع ويعده خياليا كما فعلت قيـــادة الجيش الالماني ، التي لم تدرك سوى القسم الاول منه .. يجدر به أن يقرأ تقرير الجنرال اوكينلك ، الذي يدرس حوادث الشرق الاوسط ، مـــن ١ تشرين الثاني ١٩٤١ الى ١٥ آب ١٩٤٢ .. اذن لرأى كم كان لدينا مـــن القوى للاحتفاظ بسوريا ، بعد أن استسلمت قوات فيشي ، وكم كان لدينا في العراق وايران ، فكان من السهل جدا استيلاء الالمـــان على قبرص بواسطة القوات المحمولة جوا ، في أي وقت قبل أواخـــر صيف ١٩٤٢ ، وكم كان اوكينلك في قلق دائم على جناحه الايسر . لقد كان يخشى هجوما من القوقاز ، اذ كنا أضعف من ان نقاوم ، من اي جهة أتى الهجوم شريطة ان يكون هذا الهجوم قويا . ومن المفيد ان نتذكر اهمية الامدادات الاميركيـة وارقامها ، التي وصلت فعلا لروسيا من خلال الخليج العربي ..

أما مالطة فكانن رومل لايفتأ يقول لهيئة اركانه : « انه لا يفهم ما معنى عدم محاولة القيادة العليا الاستيلاء عليها ، وأنه لا يرى مبررا لهذا التقصير، فقد رأى انه كان من السهل جدا الاستيلاء عليها في اي وقت اثناء صيف

١٩٤١ ، باستخدام الدخان والغيوم الاصطناعية مع القوات المحمولة جوا ، وكان يهتم شخصيا بهذا الامر ، ما دام ٣٥ بالمائة من امداداته قد أغرقت في شهر آب ، و ٦٣ بالمائة في تشرين الاول .. ولكن القيادة العليا لم تفق من نومها الا في نهاية ١٩٤١، حين بلغت نسبة ما اغرقه البريطانيون من امدادات رومل ٧٥ بالمائة ، عندئذ ادركوا أهمية مالطة في السيطرة على البحر الابيض المتوسط ، فأرسلوا اليه غواصات وسفنا خفيفة وعزّزوا سلاح الطيران في صقلية ، وكانت نتيجة ذلك أن اخذ رومل يعد خططه لشن الهجوم في مستهل ١٩٤٢ ، بعد أن أصبح الالمان يسيطرون عمليا على القسم المركزي من البحر الابيض المتوسط ، ويعود بعض الفضل في هذا الى الشباب الايطاليين الذين وصلوا بطوربيداتهم البشرية الى ميناء الاسكندرية .. فأغرقوا السفينتين الحربيتين هناك ، وهما (الملكة اليزابيت) ، و (الباسلة) ، وكانتا ترسوان فيها .

مالطة :

لم تشأ القيادة العليا أن تعزز رومل بالفرق الالمانية الاضافية التي كان يطلبها ، ولم يبد قط أنهم كانوا يفكرون بذلك ، ورغم أنهم عزلوا مالطة « وأخرجوها من الحساب كقاعدة بحرية » .. على حد قول كيسلرينغ ، فهم لم يفكروا قط بالاستيلاء عليها ، ولم يأذن هتلر بالقيام بهجوم مباغت على الجزيرة بواسطة المظليين الالمان والايطاليين في أول حزيران ، إلا بضغط من الاميرال ريدر ، وبعد أن ناقش القضية مع موسوليني .

وقد كتب الممثل الالماني البحري في الاجتماع يقول :

« رغم أن تأخير عملية مالطة كان بادرة سيئة ، فمن دواعي السرور أن أخذ اهتمام الفوهرر يزداد بهذه المنطقة المهمة .. لقد برزت أهمية القضية للعيان بعد أن كان ينظر اليها حتى الان كمسألة ثانوية تعتبر الانتصارات فيها كهبة من السماء ، فلا حاجة لان يجشّم المرء نفسه عناء القيام بشيء جدي في سبيل « المسرح الايطالي للحرب » .

لقد ارجيء الهجوم مرتين . ففي اللحظة الاخيرة من الساعة الحادية عشرة ، في مستهل تموز ، أرجأ هتلر نهائيا « عملية الجبابرة » الى ما بعد فتح مصر ، ولم يستشر في ذلك الايطاليين ولا قيادة البحرية الالمانية ، ومن الممكن ان يكون استشار كيتل وجودل في ذلك .

وحتى في مستهل صيف ١٩٤١ ، فقد شعر كبار ضباط الفيلق الافريقي ، وكانوا في نشوة من ظفرهم الاول ،شعروا أن القيادة العليا تعتبر شمالي افريقيا مسرحا ثانويا مغمورا ، القصد منه « أن نلتقط الكستناء من النار لنقدمها للايطاليين » ..

وهناك قضية المساندة الجوية مثلا ، فلماذا لم يرسلوا بعض أسراب المقاتلات الاضافية الى شمالي افريقيا ؟ لقد قال الجنرال فون اوزبك مايلي

« أذكر أن الفيلد مارشال ميلخ من سلاح الجو الالماني أتى مرة ليفتش في ايار ١٩٤١ ، وقد دعونا الله مخلصين أن يوحي لسلاح الجو الملكي البريطاني ، بأن يجود علينا بغارة شديدة أثناء وجود المارشال ميلخ ، فاستجيب دعاؤنا « واقبل سلاح الجو الملكي يمطرنا بقنابله الثقيلة ، وكان المارشال ميلخ يرتدي بزة بيضاء جميلة ، وكم كنت مسرورا ... حين رأيته يلقي بنفسه في خندق ضيق قذر ، وقد بلغ سروري أقصاه حين علمت أنه قد القى بنفسه في الحفرة التي اعتاد الخدم ان يلقوا فيها الاقذار وفضلات المطابخ .. »

لقد كان رومل مصراً على الهجوم ، سواء أشجعته القيادة العليا أم لم تشجعه .. وكان من الواضح أن هدفه الاول هو طبرق .

وقد كتب الجنرال أوكلينك يقول :

« يعود الفضل في تحريرنا من الارتباك والمصاعب ، في منطقة الحدود طيلة اربعة أشهر ونصف ، الى حامية طبرق . فقد كان سلوكهم حميداً بما ابدوا من قوة وحمية وشجاعة ، فكانوا دوما على استعداد لشن الهجوم ، وقد كبحوا بذلك جماح قوة تعادل ضعفي قوتهم ، وابقوا العدو في توتر شديد ووقفوا حائلا منيعا أمام اربع فرق ايطالية وثلاثة أفواج المانية ، ابقوها خارج منطقة الحدود من نيسان الى تشرين الثاني » . كما أن القرار الذي اتخذه الجنرال ويفل اثناء الفوضى التي سادت معركة سريعة خاسرة ، قد اتى ثماره ، فما دامت طبرق بالمرصاد ، فلا أمل للعدو بالتقدم نحو مصر .

طبـرق :

لم يحصل رومل بسهولة على اذن بمهاجمة طبرق ، وقد اراد رومل اذلال طبرق في تشرين الاول وتشرين الثاني ، ولكن هتلر وجودل وكيتل

كانوا ضد أية محاولة يقوم بها قبل كانون الثاني ١٩٤٢ ، فكانوا لا يريدون اثارة الاضطراب في شمال أفريقيا ما دامت أيديهم مغلولة في روسيا .

وقد كان الايطاليون يعلمون كثيرا عن هجوم اوكينلك المقبل ، اذ كان لهم عملاء في القاهرة والاسكندرية بعكس الالمان ، وقد عارضوا رغبة روميل في شن الهجوم ، وكان هذا اسميا تحت امرتهم ، ثم قدم سلاح الجو الالماني للجيش صورا جوية اخذت للبريطانيين اثناء تمديدهم الخط الحديدي غربي مرسي مطروح ..

وكان الجنرال فون رافنشتاين حاضرا حين القى روميل الصور الى الارض مغضبا وهو يصيح :

« لا أريد ان أنظر الى هذه الصور » .

ثم أتى بعد ذلك تقرير من الاميرال كاناري مفاده أن جنديا بريطانيا أخبر راهبة ممرضة في مستشفى بالقدس ، وكانت عملية المانية ، أخبرها أن البريطانيين سيشنون قريبا هجوما كبيرا على روميل ، واستنادا الى هذا التقرير طلب هتلر وجودل من روميل أن يحتفظ بالسكون وأن يدع طبرق وشأنها ، وأن يستعد لمقابلة هجوم اوكينلك الذي سيكون صعبا ما دامت طبرق بيد البريطانيين . »

لقد كان روميل مصرا على أخذ طبرق ، ولم يذعن للامر بل طار مع فون رافنشتاين الى روما ليجادلهم فيه ..

وكان فون رافنشتاين في مكتب فون ريتلم ضابط الارتباط الالماني عند الايطاليين ، حين كان روميل يغلي كالمرجل ، وقد نعت المسكين فون رينتلم بالجبان وهو « صديق الايطاليين » ثم تناول جهاز الهاتف واتصل بجودل نفسه ، وقال له :

« لقد سمعت انك تريد ان أعرض عن مهاجمتي لطبرق ، انني مشمئز تماما من هذا الوضع » .

فذكر له جودل هجوم اوكينلك المرتقب ، فاجابه روميل : انه سوف يعهد الى فرقة البانزر الحادية والعشرين ، وقائدها الى جانبه في المكتب ، أن تقف في وجه (اوكينلك) أثناء متابعة الهجوم على طبرق ..

فسأله جودل قائلا :

« هل يمكنك ان تضمن النتائج ؟ »

عندئذ صاح ومل قائلا :

« سأعطيك ضمانتي الشخصية » !

فما كان من جودل بعد أن أزاح عن نفسه عبء المسؤولية الا أن أذعن للامر الواقع ..

لقد عيّن موعد الهجوم في ٢٣ تشرين الثاني ، وكانت الترتيبات قد اتخذت له من قبل ، ثم لما لحقت الكونتس فون رافنشتاين وفرو رومل بهما في روما قبل سفرهما ، قرر رومل البقاء في روما ليحتفل بعيد ملاده في ١٥ تشرين الثاني .. ثم خرجت السيدتان للتجول في المدينة ومشاهدة آثارها ومناظرها الجميلة ، ولا يزال فون رافنشتاين يذكر ان السيدتين عادتا الى فندق عدن لتناول طعام الفطور ، وقد بهرت انظارهما عجائب كنيسة القديس بطرس ، وكان رومل يصغي الى الحديث بصمت ، ثم أقبل على فون رافنشتاين قائلا :

« هل تعرف انني كنت افكر فيما عسى ان نصنع مع أفواج المشاة تلك .. »

لم يشهد رومل مناظر روما ، ولكن القيادة الايطالية دعته يوم عيد ميلاده ، ليشهد عرض فيلم « الهجوم على بنغازي » الذي جرى في نيسان الماضي . وقد ظهر الايطاليون المنتصرون أثناء هجومهم بحرابهم ، كما ان الايطاليين مثلوا في هذا الفيلم دور الضابط الانكليزي وهو يهرب مذعورا امامهم ، ولكن الفيلم لم يظهر أي جندي الماني اثناء العمل .. وعندها التفت رومل الى من حوله من الايطاليين قائلا :

« انه لمفيد جدا ومثير للاهتمام ، فلقد كنت أسائل نفسي مدهوشا عما جرى في تلك المعركة ! » ..

شاعت في تلك الآونة قصة مفادها ان غياب رومل عن مقر قيادته في بيدا ليتوريا ، قرب سيرين ، انقذه من الموت او الاسر .. وذلك ان جماعة من الفدائيين البريطانيين بامرة المقدم جوفري كييس ، نزلوا الى اليابسة من غواصة ، فلقيهم ضابط باسل اسمه جون هيزلدون ، قتل فيما بعد ، وكان يعيش في خطوط العدو الخلفية متنكرا بلباس اعرابي ، وقادهم ليدلهم على بيت رومل ، وقد تحدث المقدم كينيدي شو عن ذلك بقوله :

« كانت أول بناية على اليمين لدى دخول القرية من سيرين ، عنبر

حبوب .. ثم يأتي بعده صف من البيوت المؤلفة من طابق واحد ، ثم تلمح وراءها بين اشجار السرو بناية من طابقين ، قاتمة موحشة .. وفي هذا البيت كان يعيش رومل سنة ١٩٤١ .. ولقد وصل كييس وكامبل وتيري عند منتصف الليل الى البيت ، ووقفوا امام بابه الامامي ثم طلبوا بصوت عال ان يؤذن لهم بالدخول ، وكانوا يتحدثون بالالمانية ففتح لهم الخفير الباب ، ولكنه شك فيهم حين دخلوا فأراد منعهم فأردوه قتيلا ، ثم استيقظ على الضوضاء ضابطان وظهرا على الدرج فصرعا بنار المتسللين ، عندئذ اطفئت الانوار في البيت وخيّم السكون ، فبدأ (كييس) بتفتيش غرف الطابق الارضي وكانت الاولى فارغة ، ولكن النار اطلقت عليه من الثانية فسقط على الارض يتخبط بدمه ، ثم أصيب ايضا كامبل وأسر ، وفر تيري ، ودفن المقدم كييس على تل جنوب القرية مع اربعة من الالمان ، ثم منح بعد موته صليب فيكتوريا » ..

كان رومل أثناء ذلك في روما ، ولم يكن هذا مقر قيادته كما ظنوا بل مقر اركانه بقيادة العقيد اونو ..

وكان مقر قيادته في الصحراء غرب درنة ، وكان يأتي من حين لآخر الى (بيدا لتوريا) ولكنه لم يقض هناك ليلة قط . فكانت معلومات جون هيزلدون خاطئة . وربما رأى البدو رومل هناك أثناء النهار ، أو شبّه لهم انه رومل ..

قلنا ان جوفري سقط مصابا بجرح بليغ ، ولكنهم عثروا على جثته على بعد ميل من البيت ، وقد قطعت احدى رجليه واصيبت الثانية بجرح بليغ ، ولا شك انه حاول الزحف وخرج من البيت أثناء الليل . وقد قال (الدنجر) عنه انه « رجل شجاع حقا » . وروى لي القصة ..

عملية كروزيدر :

واذا كنا لم نباغت رومل في مقر قيادته ، فلقد اخذه الجنرال اوكينلك هو وجنوده على حين غرة ، فحين انسابت الويتنا المدرعة يتقدمها ستار من المصفحات التي انتشرت بعيدا الى الامام وتخطت هذه الالوية اسلاك الحدود فجر ١٨ تشرين الثاني ١٩٤١ انطلقت في المهمة المكلفة بها الى موقعها على طريق العبد ..

كانت « عملية كروزيدر » اول معركة يقوم بها الجيش الثامن ، وكانت

في بدايتها مثار آمال كبرى ، حتى أن المستر تشرشل توقع ظفرا من طراز بلنهايم او واترلو ، ولكن هذه الآمال لم تتحقق تماما ، ثم ما لبثت ان اختفت في ضباب الاخفاق الذي اعقب ذلك ، وقليل من عرفوا باستثناء الجيش الثامن ، كيف أوشكت ان تدرك النجاح التام ،ولان الامور انما تقدر بنتائجها النهائية فقد ندر ان كلف احد نفسه عناء مقارنة ارقام هذه المعركة بأرقام معركة العلمين ..

كان مجموع قوات العدو مائة ألف خسر منها فيعملية كروزيدر ستين الفابين قتيل وجريح واسير ، وكان بين هذه الخسائر ٢١٠٠٠ من الالمان..

وكان قوام الجيش الثامن ١١٨٠٠٠ ، بلغت خسائره ١٨٠٠٠ بين ضابط وجندي . اما في العلمين فقد كان مجموع الجيش الثامن ١٥٠٠٠٠ يقابلهم ٩٦٠٠٠ من الالمان والايطاليين ، وقد بلغت خسائر هؤلاء ٥٩٠٠٠ بين قتيل وجريح واسير ، بينهم ٣٤٠٠٠ من الالمان ، وكانت خسائر الجيش الثامن ١٢٥٠٠ ..

ولقد دخلنا المعارك في تشرين الثاني ١٩٤١ ... ولدينا ٤٥٥ دبابة يقابلها ٤١٢ دبابة لدى رومل، وفي العلمين بلغت دبابات مونتغومري ١١١٤، يقابلها بين ٥٠٠ ــ ٦٠٠ دبابة عند الالمان ، وكان ما يربو على النصف ايطاليا، على ان الارقام لا تروي القصة بكاملها فمن دبابات مونتغومري الـ ١١١٤ ، كانت (١٢٨) من طراز غرانت ، و ٢٦٧ دبابة شرمان جديدة مسلحة بمدفع ٧٥ مم في ابراج تدور دورة كاملة ..

اما في تشرين الثاني ١٩٤١ فلم يكن لدينا دبابة واحدة تستطيع مجابهة الدبابات الالمانية مارك (٣) ومارك (٤) ..

وكان على دباباتنا ــ وكانت غير موثوق بها من الوجهة الميكانيكية ، ومسلحة بمدفع صغير ضعيف النتائج ــ كان عليها ان تقترب من الدبابات مسافة ٧٠٠ متر ، لتكون نارها قوية فعالة ، فكانت اثناء ذلك عرضة لنيران مدافع ٥٠ مم و٧٥ مم ، وكانت دروعها غير منيعة امام قذائف هذه المدافع. كما لم يكن لدينا مدافع مضادة للدبابات ..

واذن لماذا قام الجنرال اوكينلك بهجومه بفرقة مدرعة ونصف الفرقة، بدلا من ثلاث فرق كان يعتبرها ضرورية لهذا الهجوم ؟

أولا : ما دام ثمة قوات محورية مهمة في برقة ، فهناك خطر دائم على مصر ، كما انه لم يكن يتوقع حماية جناحه الايسر من غزو الماني ممكن عبر القوقاز ..

ثانيا : ان حكومة جلالته رات من اللازم القيـــام بالهجوم في شمالي افريقيا في اسرع وقت ممكن ، وكلمة « ممكن » هي كلمة مطاطة ، ولا سيما في لندن ..

ولقد لاقى قرار اوكينلك قبولا فليس ثمة غبار على الخطة العامة ، وقد استبعدت الفكرة القائلة بتركيز القوة الرئيسية عــــلى جغبوب ، وبالانقضاض في الصحراء عبر « جيالو » لقطع مواصلات روممل ، وازعاجه .. ذلك ان الصعوبات الادارية ستكون جسيمة للغاية . زد على ذلك ان جناح القوة سيتعرض في هذه الحالة اثناء تقدمها .. الــى غارات جوية لا تنقطع من مطارات الساحل الشمالي ، كما في وسعهم ان يوسعوا نطـاق هذه العمليات الجوية ، بتعزيزها بسلاح الجو الالماني ، الذي يأتي حينئذ من اليونان وشبه جزيرة كريت ..

وهكذا ترغم قواتنا بما فيها سلاح الجو الملكي على أن تتوزع كما تدعـو الحاجة الملحة الى ترك قوة كبيرة لتغطي منطقةالحدود وتحتفظ بها، والا القانا روممل في موقف حرج . كأن يلف من حول سلسلة الهضاب ، ويتخذ طريقه راسا الى الاسكندرية ..

وهذا ما كان ينويه روممل فعلا ، لو اننا هاجمنـــــاه من الجنوب . فاندفاع مجموعة اللواء باتجاه جيالو ، لـــم يكن سوى خدعة ، وقــد نجحت هذه الخدعة ..

وقد اخبرني الجنرال بايرلين فيما بعد انهم إعتقدوا ان الهجـــــوم الرئيسي سيكون بهذا الاتجاه ..

وكانت الخطة المقررة هي الانقضاض على طبرق ، ومخادعتهم فـــي الوسط والجنوب ، وكان الهدف الاول هو تحطيم قوة روممل المدرعة اذ ان فرقتي البانزر الخامسة عشرة والحادية والعشرين كانتا بمثابة العمـــود الفقري لقوة العدو . واذن فما هي الطريقة التي يمكننا بها استدراجهـم للقتال في الارض التي نختارها ؟ رأى الجنرال اوكينلك ان هذا يكون برفـع الحصار عن طبرق ، اذ ان اغاثة طبرق كانت في الحقيقة ، عارضا ثانويـا بالنسبة للهدف الاوسع ، وهو طرد روممل من برقة ومن ثم اخراجه مـــن طرابلس .. وهذه الخطة تتيح أيضا لحامية طبرق أن تشترك بالهجوم .. وما دامت دباباتنا هي دباباته ، من حيث الجودة والتأثير .. فكان علينـا ان نحاول الهجوم عليها بأعداد متفوقة ، والا نسمح بحال من الاحـــوال لفرقتي البانزر معا بمهاجمة فرقتنا المدرعة الوحيدة بآن واحد .. فالمباغتـة

من حيث الزمان واتجاه الهجوم ، كانت أمرا جوهريا بالنسبة لنا .

ولهذا كله ، كان الهجوم الرئيسي بالفيلق ٣٠ الذي يقوده الفريق نوري ويحتوي هذا على القسم الاكبر من المدرعات (الفرقة المدرعة السابعة واللواء المدرع الرابع) ، ولوائين من فرقة جنوبي أفريقيا الاولى (مشاة) ، ولواء الحرس الثاني والعشرين الآلي ..

وكان على هذه القوة أن تتمركز حول قبر صالح ، وتسدد ضربتها منقضة الى الشمال الشرقي أو الشمال الغربي ، وبعد أن تهزم دبابات العدو ، تسعى الى اغاثة طبرق وفك الحصار عنها .

وكان على حامية طبرق المؤلفة من فرقة المشاة السبعين ولواء المدرعات ولواء بولوني ، أن تكرّ على العدو من منطقتها المحاصرة بها ، عندما يرى الجنرال نوري أن الوقت أضحى مناسبا .

وفي الوقت نفسه كان على الفيلق الثالث عشر بقيادة الفريق أوستن - ويتألف هذا الفيلق من الفرقة النيوزيلاندية ، والفرقة الهندية الرابعة ، ولواء الجيش المدرع الاول - أن يثبّت أقدامه ، ويفصل قطعات العدو المرابطة في المواقع الدفاعية على الحدود ، بعضها عن بعض ، وبعد ذلك يتقدم هذا الفيلق (١٣) ... باتجاه الغرب لمساعدة الفيلق (٣٠) ..

وكان على اللواء المدرع الرابع ، التابع للفيلق وعلى لواء المشاة الهنود الحادي عشر والخامس ، أن يصمد أمام العدو ، الاول تحت هضاب السلوم، والثاني فوقها ويغطيا في الوقت المناسب قاعدتنا وراس السكة الحديدية .

الاستعداد :

وكان ثلث قوة رومل يتألف من الالمان، وثلثاها الآخران من الايطاليين. وهي عبارة عن ثلاث فرق مدرعة ، وفرقتين اليتين ، وخمس فرق مشاة .

وكانت فرقتا البانزر الـ ١٥ والـ ٢١ ترابط على مسافة اثني عشر ميلا جنوبي جغبوب ، في طريق كابوتزو كما تمركزت فرقة البانزر الـ ١٥ مع الفرقة الخفيفة الـ ٩٠ حول العضم ، والدودة ، وسيدي رزق .

وكان الفيلق الـ ٢١ المؤلف من اربع فرق مشاة ايطالية ، يشد أزرها ثلاثة افواج مشاة المانية ، تحاصر طبرق ..

وكانت الفرقة المدرعة الايطالية (آرييت) في القبة ، وقد تبثّتت مدافعها هناك ، كما كانت الفرقة الآلية الايطالية (تريبست) في بير حكيم ، وكان يقوم على المواقع الدفاعية في الحدود عند الحلفايا والسلوم وكابوتزو افواج مشاة المان .

وكانت فرقة سافونا ترابط في سيدي عمر ، ومعها بعض المدافع الالمانية ، كما كانت حامية البردية خليطا من الالمان والايطاليين .

كانت الاستعدادات للهجوم محكمة ومنظمة ، فقد دفع خط السكة الحديدية ١٢٠ كيلو مترا الى الغرب من مرسي مطروح ، كما مُدَّ خط انابيب مياه من الاسكندرية ..

وفتحت عين ماء على مسافة ١٥ كم خلف راس السكة الحديدية ، وقد خزن ما يقارب الـ ٣٠٠٠٠ طن من الذخيرة والمحروقات والمؤن في



رومل في طائرته الخاصة في مدار من المعركة

المنطقة الامامية قبل أن تبدأ المعركة . – وكانت هذه الكمية المدخرة ترمي الى تغطية الفرق بين نسبة ما يصل يوميـــا من الامداد ، وما يستهلك منه خلال أسبوع على الاكثر – .

وقد قام سلاح البحرية وسلاح الجو الملكي ، بمهاجمة خطوط تموين العدو ، خلال اسابيع عديدة باستمرار من البحر والجو . وتجمع لـــدى الجنرال كانيفهام قائد الجيش الثامن ، بفضل سلاح الجو الملكي ، والوحدة البريطانية ، التي تعمل سرا خلف خطوط العدو ، معلومات ، دقيقة عــن ترتيبات العدو ، وتنظيمات قواته أثناء القتال ، كمـــا لم يتسرب الى العدو شيء من ترتيباتنا بفضل سلاح الجو الملكي ، والادارة الممتازة ، ومصالح التموين والامن الممتازين ..

لقد تمت لنا الاسباب الجوهرية للمباغتة على خير ما يرام .

وقد قاتل الطرفان قتال اليائس المستميت في المعركة التي تلت ذلك، وكان الفرح والغبطة وارادة الظفر تغمر رجالنا ، ولم أر لهذه الظاهرة مثيلا منذ المعارك الاخيرة ، في نهاية الحرب العالمية الاولى .

وأذكر أنني رأيت عريفا سكوتلانديا جريحا ، وقد انحى من دبابته وهو يشير بيده الى فوهة مدفعه ، وقد انحنت وذوت من جراء قذيفة أتتها من الامام ، وأصبحت كالغصن المدقوق .. وكان يصرخ : « أعطني دبابة غيرها، قمنا بما أردنا خير قيام ، وسنذيق هذا العدو طعم الجحيم .. »

وكان هذا المنظر على بعد مائة متر من سيارة الجنرال نوري ، آمـــر الفيلق ال ٣٠ الذي ضلـَّل عن مقر قيادته ، ثم لاحظ أنه من الممكن ادارة المعركة مع المرافق العسكري فقط ، وهذا يقيض للمرء أن يتخلص مـــن ركام الاوراق الكثيرة . وكانت الفرقة النيوزيلاندية قد أسرت مقر قيـــادة الفيلق الافريقي بكامله . –

لقد كانت معركة جنود أشداء أو « معركة كلاب عقر » .. وما أشبهها بتلك المعامع الجوية ، التي كانت تدور فوق خطوط النار في ١٩١٨ ..

لقد كانت معركة سريعة عنيفة ، وكان الحظ فيها يتقلب بأسرع من لمح البصر .. وقد انعقدت سحب الدخان المتصاعدة من القذائف المتفجرة، ومن الدبابات التي تلتهمها النيران كما انتصبت عمد الغبار خلف سيارات التموين كالزوابع ، وتضاربت التقارير متناقضة في تلك الفوضى الضاربة الاطناب ، فكأنها يوم الساعة ..

ولم يكن يعرف احد وهو في مكانه ما كان يجري على بعد كيلومتر منه، ومن الصعب جدا أن يفهم المرء الخرائط في يومنا هذا ، ويتتبع تطورات الموقع في الميدان ساعة بعد ساعة .

كانت سيدي رزق قلب المعركة النابض ، وهي مفتاح طبرق ، هنا كان يدور أعنف قتال عرفته الصحراء .. فكان العراك دبابة لدبابة ، ورجلا لرجل وقد بلغت هذه المعركة أوجها حين انقض رومل بمدرعاته مقتحما الحدود وأسلاكها الشائكة في بير شفرزين ، وذلك بعد ظهر ٢٤ تشرين الثاني ، وقد وصف (آلان مورهيد) هذه الغارة وصفا حيا في كتابه (معركة سنة) .. وكيف أنها ألقت الفزع والهلع في المناطق الخلفية البريطانية ، وكيف فرّت آلاف السيارات الخفيفة مولية الادبار في الصحراء لا تلوي على شيء .. كسرب من الاسماك الصغيرة داهمها كلب البحر .

خطة رومل :

لم تخلّى رومل فجأة عن المعركة الرئيسية واندفع الى الشرق بمدرعاته؟ اكانت حركته هذه ضربة محكمة أم كانت مقامرة يائسة ؟

لقد درس هذا الامر الفريق فوللر والجنرال سرجيفورد مارتل ، وكثيرون غيرهما ، ولكن نتائج الدراسة كانت مختلفة متفاوتة .

والجواب على هذا ضروري وذو أهمية جوهرية اذا أريد تقدير كفاية روسل قائداً .

ثم لم لم تحرق دباباته مستودعات التموين الرئيسية ولم تكن تبعد عنها سوى ثلاثة كيلو مترات أو أربعة ؟ ـ يقع أحد هذين المستودعين الرئيسيين ، على بعد ٢٠ كم جنوب شرقي قبر صالح . ـ ولولا هذان المستودعان لاستحال على الفرقة النيوزيلاندية الصمود في موقعها ، ولارغم الفيلق الثلاثين على الانسحاب من سيدي رزق ، اذ لم يكن يحمي هذين المستودعين سوى لواء الحرس .

الفصل الثامن

الساعات المثيرة الحاسمة في معارك افريقيا

الالمان والانكليز يصفون المعارك الدائرة في الصحراء
بقلم القواد الانكليز والالمان

مستودعات البنزين :

تقول المصادر الانكليزية ان الالمان لم يفطنوا وهم في زحفهم في شمال افريقيا ، الى مستودعي الوقود الانكليزيين ، ولا كانوا يعلمون بوجودهما ..

لقد مروا بهما دون ان يفطنوا الى الفوائد العظيمة التي يمكن أن يحصلوا عليها لو استولوا على المستودعين ..

ولو عرفوا بسرهما لاستطاعوا ربح المعركة .

وكانت قوة رومل تكمن في فرقتيه المدرعتين ، فهل هناك طريقة لاستخدامهما .. لا للخروج من مأزق حرج ومتابعة معركة غير حاسمة فحسب .. بل لاستعادة زمام المبادرة وقلب الهزيمة الى انتصار ..

« بوسعك ان تنهي المعركة هذه الليلة .. »

هذا ما قاله رومل للجنرال فون رافنشتاين ، الذي كان عليه أن يقود هجوم فرقة « البانزر » الحادية والعشرين .. وقد أمره أن يندفع الى

الامام متخطيا الاسلاك الشائكة على الحدود المصرية ، دون ان يلتفت يمنة أو يسرة ثم يدور شمالا الى البحر باتجاه السلوم ، وفي أثناء ذلك تقوم قوة مؤلفة من فوج آلي واحد وسرية دبابات ، بمهاجمة مقر قيـــادة الجنرال كننفهام في (المضالنة) ..

كما تقوم قوة أخرى بالالتفاف حول سلسلة الهضاب للاستيلاء عـلى راس السكة الحديدية في بير حباتا ، حيث توجد مقادير كثيرة من البنزين .

وفي حالة وجود مقاومة ضعيفة بين سلاسل الهضاب والاسكندرية ... رأى روميل ان على فرقة البانزر الحادية والعشرين ان تلحق بالقوات هذه ، للقيام بغارة سريعة نحو مصر .. الامر الذي يضطر الجيش الثـامن وسط الذعر والفوضى الضاربة أطنابها ، الى الانسحاب بسرعة الـــى مواقعه الاصلية ..

ولم يكن يوجد في الواقع في سفح سلسلة الهضاب ، خلف حقـــل ألغام كبير ،سوى لواء واحد من الفرقة الهندية الرابعة ، وما عداها لا يوجد سوى فرقة جنوبي افريقيا الثانية ، الضعيفة التدريب ، والناقصـــــــة التجهيزات والتي لم يسبق لها ان رأت النار ، وكان اقرب الويتها فـــي مرسي مطروح .

لا يستطيع احد ان يقول انها لم تكن خطة جريئة ، تلك الخطة التي استنبطها روميل وسط معركة حامية الوطيس . فلمَ أخفقت خطته اذن ؟

الجواب أنها نجحت تماما الى حد ما ، فقد أراد الجنرال كننفهـــام وقف القتال فعلا في ٢٣ تشرين الثاني ولا شك انه كان سيفعل في مساء اليوم التالي ، لو لم يطر الجنرال اوكنيلك من القاهرة ليحظر عليه ذلك ..

وقد ورد في كتاب خطّه الجنرال اوكنيلك ، في مقر القيادة الامامية للجيش الثامن ، بعد تفحص الاخطار التي تنجم عن متابعة الهجوم ، ورد ما يلي :

« علينا ان نتابع هجومنا ضاغطين على العدو بكل ما أوتينا من قوة.. ولا شك ان هذا هو الصواب .. ويجب أن نتقبّل المجازفة التي تنجم عـن ذلك ، فعليكم اذن بالاستمرار في مهاجمة العدو دون هوادة ، مستخدمين كل ما لديكم من موارد حتى آخر دبابة .. »

وبالعكس .. منع روميل من العمل احد الضباط الاعوان .. لقد كان كعادته في المنطقة الامامية ، وعند الظهيرة من يوم ٢٥ تشرين الثـــاني ..

كان الجنرال فون رافنشتاين خلف الحلفايا مع ٢٠ أو ٣٠ دبابة من أصل . كانت لديه ، وقد تلقى في تلك الاثناء أوامر من رومل بالاستعداد لشن الهجوم على مصر ..

وفي الساعة الثانية بعد الظهر ، تلقى رسالة لاسلكية تقول :

« تلغى كل الاوامر التي تلقيتها حتى الان وعلى فرقة البارنزر الـ ٢١ ان تخترق خطوط الفرقة الهندية باتجاه البردية . »

وبعد ان قام بهجومين غير موفقين في الصباح وبعد الظهر على اللواء الهندي السابع ، ومقر قيادة الفرقة الهندية الرابعة ، خلف حقول الالغام في سيدي عمر ، أصبح يشك في مقدرته على اختراق هذه الخطوط ، ولكنه ارسل ضابطا مع رتل من سيارات الشحن الثقيلة ، آملا أن يظنها الهنود في الليل دبابات ، لشق طريق بين السلوم وكابوتزو ، ثم سار بقوته في أعقاب هذا الرتل ، فوصل البردية في صباح اليوم التالي ، ٢٦ تشرين الثاني ، ووجد رومل نائما هناك في سيارته ، فقال له :

ـ يسرني ان اخبرك أيها الجنرال انني هنا مع فرقتي .. فثارت ثائرة رومل وصاح به :

« ماذا تعني أنك هنا ، ماذا تصنع هنا الم آمرك بالاستعداد لشن هجوم من الحلفايا باتجاه مصر ؟ »

عندئذ اخرج له فون رافنشتاين صورة الرسالة اللاسلكية التي الغت أوامر رومل السابقة ، فصاح رومل قائلا : « انها مزورة هذا امر صادر عن البريطانيين فلعلهم اطلعوا على رموزنا ! »

ولكن الرسالة أتت في الواقع من العقيد ويستفال الالماني ، الذي اصبح فيما بعد جنرالا ورئيس اركان الفيلدمارشال روندشتدت .. وكان حينئذ ضابطا ركنا في الشعبة الثالثة (شعبة العمليات) ، وكان في الخلف ، اذ أسندت اليه قيادة مقر المؤخرة قرب طبرق ؛ لقد اطلع العقيد ويستفال على جميع التقارير الجوية ، ورأى استحالة القيام بهجوم على مصر ، وفقا للخطة التي رسمها رومل فألغى الامر على مسؤوليته الخاصة ..

ولقد كان رومل رجلا عظيما اذ هنأه فيما بعد قائلا :

« لقد كنت على حق ، وانا معترف لك بجميلك هذا . »

انتهاء الجولة :

وكانت الاستغاثة تتعالى من الفرقة الخفيفة الـ ٩٠ ، التي كانت تقاتل قتال اليائس المستميت لصد النيوزيلانديين في سيدى رزق ، وقد سقطت سيدي رزق في ليل ٢٦ ـ ٢٧ تشرين الثاني في يدي البريطانيين .كما استولت الفرقة ٧٠ على الدودا بعد ظهر ذلك اليوم ولاول مرة اتصل الجيش الثامن بحامية طبرق .

وفي ٢٧ تشرين الثاني ، وقعت في قبضة البريطانيين مخابرة لاسلكية .. علم منها الجنرال ريتشي ـ الذي حل محل الجنرال كننفهام ـ ان فرقتي البانزر الالمانيتين تسرعان الى الوراء .

وهكذا انتهت جولة رومل نحو الشرق،باحداث بعض الاضرار الطفيفة بالاضافة الى الذعر والوهن الذي أحدثته في المناطق الخلفية ..

فقد قيل أن بعض سائقي سيارات الشحن لم يرفعوا أرجلهم عن « مدعس السيارة » الى أن وصلوا القاهرة ، وقد يكون هذا مبالغا فيه ، على أن الكيثرين كانوا ما يزالون يركضون لائذين بالفرار من مرسي مطروح .

لقد فشل رومل في استعادة زمام المبادرة العامة ، وخسر الكثير من مدرعاته ، خصوصا أمام مدفعية الفرقة الهندية الرابعة في سيدي عمر ، وأصبح أسوأ حالا مما كان عليه قبلا ، ومع ذلك فقد اعترف الجنرال اوكينلك بأن « هجوم رومل المباغت كان بمثابة هزة عنيفة » . ولو انه تكلل بالنجاح لعده المؤرخون العسكريون تحفة فنية رائعة .

دروس عسكرية :

قد يجد المرء متعة في استعادة بعض حوادث اختراق الخطوط الدفاعية ، تلك المتعة التي لا يجدها في أثناء تلك الحوادث ، وهذا صحيح بالنسبة للالمان كما هو صحيح بالنسبة لنا أيضا . ففي مساء ٢٤ تشرين الثاني ، اجتاز رومل اسلاك الحدود ، يرافقه بايرلين والجنرال كروويل ، وكلهم من قادة الفيلق الافريقي ، وكان رومل يسوق « الماموث » وهي سيارة القيادة المصفحة الانكليزية .. وكانت تذكارا لمعركة سابقة ، وكانت محببة الى قلب رومل ..

ولما حاولوا العودة كان الليل قد أرخى سدوله ، فلم يتبينوا الثغرة الوحيدة التي تنفذ من خلال حقل الالغام المحيط بالاسلاك ..

واني لاذكر شخصيا انني حاولت عبثا ان اعثر على هذه الثغرة مرة ، ونمت بامان في سيارتي .. ولشد ما كانت دهشتي حين استيقظت في الصباح ، فوجدت دواليب سيارتي الامامية في حقل الالغام .. وهكذا نام رومل ورفيقاه ، وربما كانوا أقل طمأنينة مني حين نمت هناك ، اذ كانوا ينامون وسط القطعات الهندية ، ولكنهم استطاعوا التسلل عند الفجر دون أن يصيبهم مكروه ..

وكان رومل بعد ظهر اليوم السابق قد زار مستشفى في الميدان ، فيه خليط من جرحى الالمان والانكليز .. وفيما هو يمشي بين الاسرة ، لاحظ أن المستشفى ما زال في أيدي البريطانيين ، وان الجنود البريطانيين كانوا يحدقون به ، وكان الضابط البريطاني الذي كان يجول برومل المستشفى قد ظنه جنرالا بولونيا ، أو هكذا خيّل الى رومل ، وشخصت أبصار الجرحى الالمان الى رومل ، وقد عرتهم الدهشة ، فجلسوا في أسرتهم واحتبست انفاسهم ..

عندئذ تمتم رومل قائلا : « اعتقد أن من الانسب لنا مغادرة هذا المكان » ..

ثم قفز الى سيارته « الماموث » والواقفون هناك يحيونه .

...

لقد استؤنفت معركة الكلاب العقر حول سيدي رزق . وكان كل شيء يتوقف على ما اذا كان اللواء الاول من فرقة جنوبي افريقيا الاولى ، سيهب الى شد ازر النيوزيلانديين في الوقت المناسب ...

ولم تكن هذه الفرقة تعرف شيئا عن حرب الصحراء ، وقد اكتسح الالمان اللواء الخامس فيها وأبادوه بصورة تامة تقريبا ... وذلك قبل اسبوع في هجوم وضع له الالمان خططا محكمة ، ونفذوها بصورة مدهشة.

وكان آمر الفرقة القائد (دان بينار) ثعلبا داهية .. ومن جنود الحرب العالمية الاولى المحنكين ، فكان حذرا في التنقل عبر الصحراء ، خوفا من أن تداهمه مدرعات العدو في العراء .

لهذا كان تقدمه بطيئا ومطبوعا بالتردد . ولما وصلت فرقتا البانزر الـ ١٥ والـ ٢١ ، بعد أن قاتلتا في طريق عودتهما قوة مركزة من الدبابات

التابعة للفرقة المدرعة السابعة ، تعذر على الجنرال فريبورغ أن يصمد لهما ، فطرد النيوزيلانديون من سيدي رزق ، وعزلت طبزق في ١ كانون الاول مرة أخرى ..

ولكن الجنرال ريتشي ، والجنرال أوكينلك ، الذي لحق به في (المضالنة) ، حزرا بحق أن رومل قد القى آخر سهم في جعبته ، فقررا أن يقضا مضجعه ...

وحاول رومل بذل مجهودين آخرين ، فأرسل رتلين مدرعين قويين شرقا ، في محاولة للوصول الى مواقع حاميته على الحدود، فسلك أحدهما طريق الساحل ، وسلك الرتل الثاني طريق كابوزو ... ولكنهما هزما ... الاول امام اللواء النيوزيلاندي الخامس ، والثاني أمام اللواء الهندي الخامس ..

وفي صباح اليوم التالي ، ٤ كانون الاول ، قذف رومل بهجوم عنيف



القائد العجيب : كان من اغرب نزوات (رومل) ظهوره من حيث لا ينتظره احد بين جنوده وضباطه في اية ساعة واي يوم ..
يتحدث اليهم ويتعرف على اخبارهم وما يقاسون وكيف يعيشون

على المواقع الامامية من خطوط طبرق ، وقد دعم الهجوم بمدافع ٨٨ مم التي كانت ترمي على مدى قريب جدا ، وكاد الهجوم يكلل بالظفر ، ولو أنه استؤنف في اليوم التالي ، لما كان في نجاحه شك ، اذ أن الالمان اخترقوا مواقعنا بعمق ، ولكن روميل في تلك الليلة عرف أن الجيش الثامن كان على وشك مهاجمته مرة أخرى ، لذا بدأ بالانسحاب .

لم يكن انسحاب روميل هزيمة شديدة ابدا . فقد ساعدت روميل تلك البسالة المدهشة التي أبداها الايطاليون في الدفاع عند القبة ... فانقلب الانسحاب الى تراجع اثناء القتال ، وقد أديرت الدبابات الالمانية بمهارة فائقة خلف حاجز من المدافع المضادة للدبابات .. فقاومت بذلك كل محاولاتنا للالتفاف حولها ، ودك قوتها الرئيسية في القلب ، وكانت تكيل لنا ضرباتها كلما سنحت لها الفرصة ..

ولكن روميل أكره على التخلي عن كل موقع كان يحاول الصمود فيه بعد أن تفوقنا عليه بعدد دباباتنا الكبيرة ، ولم يعد لديه البنزين الكافي ..

وبعد أن دمرت كتيبة السيارات المصفحة الرابعة لجنوبي أفريقيا ، مستودعات البنزين الرئيسية قرب القبة ، لم يعد يقاتل الا لتأخير تقدمنا...

وقد اعتصم روميل في ١١ كانون الثاني ١٩٤ بالمواقع الدفاعية الشديدة التحصين حول العقيلة ، حيث تمتد الكثبان الرملية والصخور الوعرة الى الجنوب ، على مسافة ٩٠ كيلو مترا ، وقد ركن جناحه الايمن في ذلك المنبسط الفسيح من الرمال المائجة « في بحر ليبيا الرملي » .. ولم يكن لدى الجيش الثامن أي وسيلة لاخراجه من هناك .

أزفت الساعة :

يقول الجنرال فون ايزيبك الالماني يصف المعركة :

« علينا أن نأتي الان على ذكر كثير من الحقائق في حرب الصحراء التي أثار غمارها (روميل) ضد القوات الانكليزية ..

« لقد كان روميل قليل الاعتماد على القوات الايطالية في معاركه وكان من أثر هذا أن تحمل الفيلق الالماني وحده تسعين في المائة من اعباء المعارك التي خاضتها ..

وكان في كثير من الاحايين يكلف القوات الايطالية بحراسة المواقع

الدفاعية ، فيما يبعث بقواته الى المعركة ..

ولكي يواصل الحصار على طبرق ، ويقوم في الوقت نفسه بالهجوم والدفاع ، والثبات أمام القوات الانكليزية التي كانت تفوقه عددا وعدة ، وكان عليه أيضا أن يحافظ على جبهة السلوم حتى النهاية ..

ولكي يظل (رومل) محاصرا لطبرق ، ومحافظا على وضعيته العسكرية ، كان من المفروض أن تصله الامدادات من الذخائر والمؤن والوقود باستمرار ، ولكن التموين كان صعبا ، وارسال الذخائر في البحر مع السفن الايطالية كان يعرضها في كثير من الاحيان لهجمات الاسطول الانكليزي ..

ونحن نعلم الان أن الفيلق الإفريقي لم يكن يحصل على الوقود اللازمة للعمليات الحربية في أوائل شهر ايار من سنة ١٩٤١ ، وان هيئة أركان حرب الفيلق اضطرب بسبب ذلك الى التوقف عن ارسال السيارات للاستطلاع والاستكشاف كما كان من الضروري أن تفعل .

وكان الفيلق الى هذا في حاجة ماسة الى مواد التموين والاعاشة التي وصلت حديثا ، وأنزلت في ميناء طرابلس وظلت عدة أسابيع وهي مكدسة في الميناء تنتظر من ينقلها الى الجيش المحارب الذي كان بحاجة اليها .. وكان السبب في تأخرها نقص السيارات ، ونقص الوقود اللازم لسير السيارات .

وكانت البحرية الايطالية تمثل الورقة الاساسية الرابحة أو الخاسرة التي يرتبط بها عامل الحياة والموت في هذا الجزء من البحر .. وكان عليها ان تؤمن طرق المواصلات وسبل الامدادات من ايطاليا والمانيا الى القوات التي كانت تعمل في ليبيا ، ولكنها كانت مصدر متاعب ومصاعب لرومل وفيلقه ، فلم تستطع أن تؤمن له الذخائر ولا الامدادات ، وفشلت فشلا مريعا أمام الاسطول الانكليزي ، ولم يكن في أول الامر يفوقها عددا وعدة ، ولكنه كان يتخذ خطة الهجوم والانقضاض فيما كانت البحرية الايطالية تفضل التريث والدفاع ..

وكذلك كان الحال فيما يتعلق بالقوات الايطالية ، فقد كانت لا تستطيع الصمود في معركة الا لماما ، وفي حالات نادرة ، وكان العمال كسالى والخفراء ينامون في خطوط طبرق .. كما لم يكن (رومل) يجد معاونة جدية من القيادة الايطالية ، واذا وجد هذه المعاونة يوما ، فان (روما) كانت تتدخل بأوامرها لافسادها في أكثر الاحيان ..

وكان الجنرال غاريبالدي الايطالي أكثر من (روميل) اهتماما بحالة التموين والذخيرة ، وضرورة الاسراع في ارسالها وتأمينها ، حتى لقد هدد اكثر من مرة بالاستقالة اذا تأخر الارسال ..

ولكنه لم يلبث ان عزل من القيادة وأرسل الجنرال باستيكو مكانه ..

ولكن هذا لم يستطع شيئا يذكر لان القوافل التي كانت تحمل الذخائر والمؤن عبر البحر ، كانت معرضة لهجمات الاسطول الانكليزي الذي كان يغرق منها نصفها في أكثر الاحيان ..

فأعجب بعد هذا .. لحالة هذا القائد العام (روميل) الذي كان عليه أن يحارب الصحراء ، ومسائل التموين والذخائر ، والعدو ، والسابوتاج الايطالي ، وتردد القيادة الالمانية العليا في امداده بما يطلبه ، وفي عدم وفائها بالوعود التي كانت تقطعها على نفسها بارسال ما يريده بين وقت وآخر .. في الوقت الذي كان هتلر يطلب منه مهاجمة طبرق ، واقتحامها ، ويحدد له وقتا لذلك ، ثم لا يمدونه بالذخيرة اللازمة ، ولا بالمؤن المطلوبة ، ولا بالطائرات الضرورية ..

ورغم هذه العقبات ، فقد قرر روميل القيام بهجوم على طبرق ، وفي منتصف شهر تشرين الثاني .. بلغ عدد المدافع المركزة أمام طبرق ٤٦١ مدفعا ، واعتبرت هذه القوة من المدفعية ، كافية لاختراق التحصينات الامامية للمدينة وتدميرها ، ثم يبدأ هجوم المشاة بعد ذلك ..

ولكن الغيوم المظلمة في هذه الايام من شهر تشرين الثاني كانت تغمر سماء الصحراء ، والامطار تهطل ، وزوابع الرمال تتحرك لتحجب السماء ..

وفي هذه اللحظات الحاسمة التي كان يتهيأ فيها روميل لمهاجمة طبرق ، كان الانكليز قد اتموا استعداداتهم لمهاجمة (روميل) والقضاء على قواته ، فقد كان غرض (روميل) أن يستولي على (طبرق) قبل أن يبدأ الانكليز هجومهم ، ولكنهم سبقوه ، وأعلن تشرشل في مجلس العموم البريطاني ان الغاية من الهجوم هي تدمير قوات العدو المسلحة وبصورة خاصة قواته المدرعة ..

وفي مساء اليوم السابع عشر من تشرين الثاني أصدر الجنرال أوكنليك القائد العام الجديد الانكليزي للشرق الاوسط ، أمرا يوميا الى قواته هذا نصه :

« ازفت الساعة لنضرب ضربتنا الجبارة من أجل الوطن والحرية ، وللحصول على النصر النهائي ، وأن جيش الصحراء ليستطيع أن يسجل

في كتاب التاريخ صفحة مظفرة لن تقل عن انتصارات واترلو وسواها » ..

ولاحظ رومل ازدياد القصف الجوي الانكليزي على طرق مواصلاته وقواته ، فعلم بقرب الهجوم ، وفي الثامن عشر من شهر تشرين الثاني ، أخبروه بارتفاع سحب الغبار الهائلة القادمة من الشرق ، والتي تنذر باقتراب جيش عظيم عبر الصحراء الشرقية .

الاستعداد للهجوم :

أخذ الانكليز بعد أن نقلوا ويفل من قيادة جيش الصحراء ، وعينوا مكانه الجنرال اوكنليك ، بالاستعداد لقهر رومل وتبديد قواته ، فقاموا بارسال الامدادات العظيمة لقواتهم على حدود مصر بشكل لا مثيل له ، مما أعاد الثقة الى النفوس التي هدّتها انتصارات رومل وبراعته في ميادين الحرب والقتال ..

وفي المصادر الانكليزية أن الانكليز أعدوا لهذه المعركة التي وصفناها من وجهة النظر الانكليزية قبلا ، ما يزيد عن ألف دبابة ، وحشدوا ما يزيد عن ألف طائرة لم يكن عند الالمان منها شيئا مذكورا بالتأكيد ..

ولم يكن عند رومل لما أخبر بالهجوم الكبير وقت يضيعه .. كان عليه أن يتوقف عن حصار طبرق ، ليستطيع الوقوف بقواته كلها أمام الهجوم المقبل ..

وكان عليه أن ينتظر أيضا تنفيذ الوعود التي قطعتها برلين وروما له ، بارسال الذخائر والاعتدة اللازمة ، وكان عليه أيضا أن يجاهد من أجل كل طن من المؤن ..

لقد تأخر روترا جع في الماضي بسبب النقص الذي انتاب قواته في ذخائرها ووقودها ، وفشل بسبب القيادة العسكرية العليا في برلين ونظام الروتين في الدوائر العليا ، وكان ما يصله من المؤن والذخائر ، يصل الى الجبهة في شريان ضعيف ، وليس كالموج الداخر كما هو الحال عند الانكليز .

وكانت الدوائر الالمانية والايطالية لا تعرف الشيء الكثير عن الجنرال كونينغهام ، ولا عن القائد الجديد للشرق الاوسط الجنرال اوكنليك ..

لقد كانا من الجنود المحترفين .. وكان من الخطأ اساءة تقدير قدرتهما الحربية . وكانت التجارب المتعاقبة قد أفهمت الفيلق الافريقي بأن الاعداء

قدوا من نسيج خشن ، وأن جيوش الامبراطورية البريطانية تتميز في مجموعها بقوة المقاومة والصلابة وليدة الخلق الانكليزي المشهور بالعناد الموروث . وكانت القوات الانكليزية المحاصرة في طبرق تحت قيادة الجنرال مورهيد تقدم في كل يوم البرهان الثابت على هذه الصفات ..

وقد اثبتت موقعة السلوم بأن هؤلاء الجنود لا يرهبون الموت ولا يخشون الشيطان .. وكان الشيء الوحيد الاكيد في هذه الحرب هو أن غرضها لم يكن قتل الرجال .. وكان الاسرى والجرحى يعاملون في كل من المعسكرين نفس المعاملة الشريفة التي يعاملها الجندي للجندي الاخر ، وكانت الغاية من هذا النضال تدمير المعدات الحربية الالية والفنية فقط ، فالجندي الذي لم يبق لديه غذاء ولا ماء ولا وسائط نقل ولا وسائل حماية ولا مدرعات ولا وقود ليس بعدو ، فهو رجل أعزل سلمه القدر الى هذه الصحراء الغربية وأصبح في حاجة الى مساعدة الرجال الآخرين ..

وكان المفروض ان تساق الجيوش بمقتضى أفضل وضعية تعبوية .. والاقتصاد مهما أمكن بالمعدات والوسائل الفنية ، وكانت القيادة تقوم بدورها بصورة متقنة حاسمة أكثر منها في أي ساحة من ساحات القتال الاخرى .. وكان عليها أن تدرك في أي نقطة يجب تركيز الجهود .. أو سوق المناورة السريعة الخاطفة ، أو اعتماد التصميم الجريء الذي من شأنه ان يقرر الموقف الحاسم ، وفي هذا المضمار كان الجنرال رومل نفسه سيدا عظيم التدبير والترتيب .

ولسنا نكر بأن ويفل الذكي الاكيد الكفؤ بدأ يستنير من الدروس التي تلقاها المرة بعد المرة ، فهل في وسع (كونينغهام) أن يستخلص لنفسه شيئا من خبرة سلفه ؟

والواقع الذي لا ينكر أن الانكليز كانت تعوزهم المرونة التعبوية ، كانوا لا يحوّرون بمحض اختبارهم خططهم عندما تدور الدائرة فتأتي على عكس ما كانوا يتوقعون .. وكانوا لا يعرفون فن قيادة الوحدات الكبرى المدرعة ، وكانت طرقهم في القتال غير مستقيمة ولا ماهرة . ولذا كانت الهجمات الالمانية المعاكسة تنجح في غالب الاحيان .

والحقيقة ان طريقة قيادة رومل الفذة وأسسه التعبوية الصحيحة ، لم تنج من النقد ، والمعروف بأن مكان القائد في الحرب ليس في نقطة من نقاط الجيش الموزعة ، وليس له أن ينساق انسياق الفارس الجامح .. ان مكانه

في مقر قيادته حيث تقوم هيئة أركان حربه .. ولكن ماذا يعرف هـؤلاء العلماء العسكريون عن الحرب الافريقية ، بالرغم من دراساتهم العسكرية الواسعة التي تلقوها وتلقنوها في معاهد الحرب الاوروبية ؟

لم يكن رومل طيلة هذه الحرب يملك أكثر من أربع فرق ألمانية يقودها غالبا بنفسه .. وكان (اوكنليك) يتخذ مقرراته وهو في القاهرة .. و (كونينفهام) يعطي أوامره من مقر القيادة .. بينما كان رومل يعمل في الجبهة مباشرة ، ويتخذ قراراته وينفذها حالا .. قبل أن يأخذ الانكليز أية فكرة واضحة عن الوضع القائم ..

دفع كونينفهام فيالقه في منطقة جغبوب وسيوا ، ووزع في الصحراء قواته البالغة ٧٥،٠٠٠ جنديا مع المصالح الخلفية الملحقة بها ، والتي تغيبت في عرض الصحراء الواسعة دون أن تختفي عن أنظار قوات المحور .. وكان في الخطوط الامامية حوالي مئة ألف جندي بما فيها قوات سلاح الطيران والبحرية ..

ووضع (كونينفهام) في الخط الاول ٤٥٥ مدرعة مجهزة بمدافع من قياس ٢٥ مم .. وكانت أقصر مرمى من مدافع مدرعات الفيلق الالماني .

وظن رومل أنه سيواجه في هذه المرة ما لا يقل عن خمس عشرة فرقة .. ولكن هذا الظن تبدل في الواقع الى درجة ما ، لان قوات الجيش الثامن كانت تفوق قواته تفوقا هائلا في العدد والعدة ..

وكان الفيلق الافريقي لا يملك سوى ٢٤٩ مدرعة ..

بيد أن حالة هذه الفرق تحسنت نوعا ما ، بعد فترة راحة قصيرة ، بالرغم من انها كانت باستمرار في حالة إلتحام مع العدو منذ شهر آذار ، أي منذ نزولها الى افريقيا .. وقد ذاقت أنواع العذاب والامتحانات القاسية من جراء صيف قاتل .. اذ كانت تعيش على المعلبات والمحفوظات ، وتعمل على ترميم عجلاتها بمختلف الوسائل . وعانت الجوع والعطش ، وتحملت مختلف الامراض الطارئة ، وكانت تعبة منهوكة .. ولكنها كانت تشبه خيول فرسان الجيش التي تهتاج وتتراقص ، حال سماعها ايقاع أنغام أبواق الجند تدعوها للانطلاق الى الموقعة ..

واذا أخذنا بعين الاعتبار الفرق الايطالية ، فالفيلق المدرع بما فيه احتياط الجيش الموضوع تحت أمرة (غامبارا) كان يعادل في عدده قوات كونينفهام القائمة في الخط الاول ، فقيادة العدو تعرف جيدا كالقيادة الالمانية بأن القوى لا تقاس ولا توزن بعدد الجنود فقط ، بل ترتبط بعوامل شتى

اخرى تدخل في قائمة الحساب والقيد ، فالوحدات الايطالية تؤلف عنصرا غامضا ، لا يمكن استعمالها والاعتماد عليها تماما في مجال الحركات والعمليات الحربية العتيدة .

والحقيقة أن الجندي الايطالي كان جنديا وسطا ، ينتسب الى شعب مسالم ، لا صلة له بالرومان القدماء ، أصحاب الفتوحات العظيمة ، كما أنه لم يعرف الراحة منذ سنوات عديدة ، فهو ابدا في معركة ، وهو دائما في حرب ، واخيرا واجهته هذه الحرب الجديدة في الصحراء ، وهي حرب جديدة عليه بكل ما في الكلمة من معنى ..

ولهذا كانت القوات الايطالية في واقعها وحالتها هذه عبئا ثقيلا على الفيلق الالماني .. لا يمكن اخذها بعين الاعتبار ، وكم من مرة كانت هذه الفرق سببا في افساد الخطط المقررة ، وفشل الهجمات التي كان يقوم بها الفيلق الافريقي اعتمادا على مساندة الايطاليين له ، فاذا هم لا يفعلون ولا يصمدون ، واذا هو يضطر الى وقف هجماته ، وتبديل خططه .

ابتـــداء الهجوم :

يؤكد الالمان أن الجنرال اوكنليك ابتدأ بهجومه في ١٧ — ١٨ تشرين الثاني ١٩٤١ بارسال بعض الجنود المغامرين للقبض على (روميل) وهو في مقره ، ولم يكن (روميل) هناك في هذا المكان ..

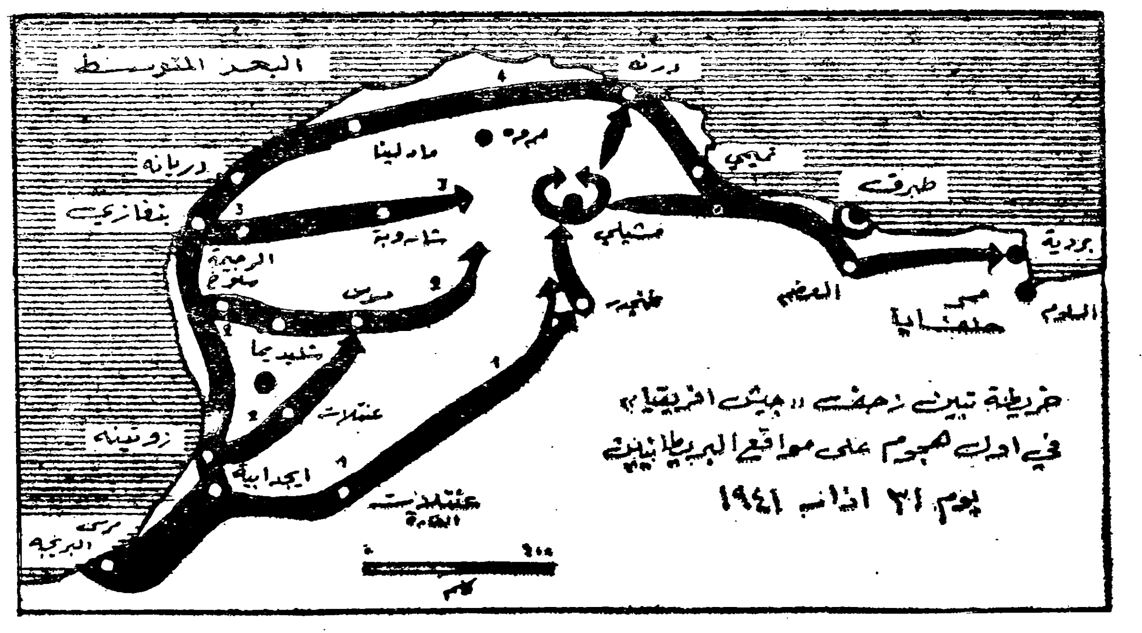
ويبدو ان الانكليز كانوا يعتقدون أن الحرب سوف تنتهي بالتأكيد اذا تمكنوا من (روميل) ، فلما لم يوفقوا لم يبق امامهم الا الهجوم .. لصد هذا العدو الماكر البارع ..

ولقد بدأ الهجوم الانكليزي في الثامن عشر من تشرين الثاني بغارات جوية عظيمة قامت بها عشرات الطائرات ، وكان الانكليز كما قدمنا يملكون أضعاف اضعاف ما عند (روميل) منها ..

ثم اجتازت طلائع الفرق المدرعة الانكليزية اسلاك الحدود الشائكة في جنوب (سيدي عمر) .. فلما وصلت الى الاراضي الليبية ، رسمت دائرة واسعة للاتجاه نحو طبرق ، وتطويق قوات المحور المرابطة في القسم الشرقي من ساحة القتال ..

وكانت الفرق الآلية تتبع الفرق المدرعة ، وكانت مهمتهم خرق جبهة

خريطة شمالي افريقيا عند ابتداء المعارك بين الالمان وجنود الامبراطورية البريطانية ..



الهجوم الذي بدأته القوات الالمانية فجر الواحـــد والثلاثين من آذار ١٩٤١ لم يكن هدفه الاستيلاء على اكثر من موقع مرسى البريجه ولكن رومل لم يدع الفرصة الذهبية التي لاحت ..

سيدي عمر ، وفتح مضيق حلفايا والطريق الساحلية الهامة ، ثم الوصـول الى الطريق الساحلية شرقي طبرق ..

وقد استطاع الجنرال كونينغهام الانكليزي الافادة مـن سعة الارض ورحابة الارجاء ، لنشر قواته وتوزيعها ، وجرى حشد الجيش بطريقة بارعة ويقظة كاملة ، كما تقدمت قوات اخرى من جغبوب للاستطلاع ..

ولم تتمكن القوات الالمانية في اول الامر من معرفة الاماكن التي توزعت فيها القوات الانكليزية الزاحفة ، فلما كان المساء ، وصلت الدبابات الى الخط الواصل بين (سيدي عمر) و (بير القوبي) على طريق الساحل ، وهـذه الاسماء في الصحراء لا تعني شيئا ، وكثيرا ما تدل على مرتفـع او بئر أو صهريج ماء مجموع ، أو كومة من الحجارة ..

وفي التاسع عشر من شهر تشرين الثاني ، التقت فرقة اريتيا الايطالية المدرعة ، التي كانت مؤلفة من مدرعات قديمة ليس لها قدرة على القتـال ، بالقوات الانكليزية التي وصلت الى (سيدي رزق) القريبة من البحـر في جنوب طبرق ..

ولم يحتدم القتال الا في اليوم الثالث حين أعلنت (روتر) بأن المدرعات الالمانية فصلت الى شطرين .. وأن الشطر الهام منها يتربص في قطاعـات (كابوتزو) و (غامبوث) .. والشطر الاخر في جنوب طبرق .

وعلقت الصحف الانكليزية قائلة بأن ٤٠،٠٠٠ جندي حوصروا نهائيا .

وتعددت التصريحات والاعلانات والبيانات الرسمية وغير الرسمية ، الكاذبة الواهية عن وضعية قوات الدفاع الالمانية الحقيقية .. وكانت هـذه الدعاية ترمي الى اضعاف معنويات قوات المحور في الخارج والداخل .معلنة حدوث انتصار انكليزي عظيم الاهمية .

واعتبرت الاوساط العالمية السياسية والعسكرية بأن قوات رومـل دحرت ودمرت نهائيا ، بينما الواقع كان بعيدا عن هذه الحقيقة كل البعد .. وقد قدَّر العدو خسائر المدرعات الالمانية بعدد لم يسبق أن كان عندها مثله مطلقا ، وكانت الوضعية حرجة صعبة ، ولكن رومل لم ينظر اليها نظـرة اليائس القانط ..

وقد فصل (كونينغهام) قواته المدرعة الى ثلاث مجموعات متفرقة ، وكان عليه أن يذرع الصحراء باحثا عن قوات المحور لتدميرها بهذه القوات الكاسحة المتكتلة .

وقد وصل الجنرال كامبيل الى سيدي رزق ، ولكنه توقف عن التقدم بسبب نفاد الوقود .. كما وقفت جمهرة الجنرال كيتهوس المؤلفة من مدرعات جديدة مصنوعة حديثا في المصانع الاميركية طراز (هنيتنك) ، واصطدمت بمقدمة مدرعات الفيلق الافريقي التي دحرتها على الفور ، بسبب ضعف مرمى مدافعها التي قصرت عن مدى أهدافها .. وأحرقت كثيرا منها بفعل المدافع الالمانية من عيار ٨٨ مم .. وبالرغم من مهارة رماتها لم تتمكن دروعها من مقاومة القذائف الالمانية ، وكانت قذائف مدافعها من عيار ٣٧ مم لا تصل الى الاهداف المطلوبة ، وكان الالمان يرفقون قواتهم المدرعة بعدد من الميكانيكيين مع معداتهم للقيام بالتصليحات العاجلة حالا ..

وقد تبين بأن هذه التشكيلات كانت ذات أهمية عظيمة لصيانة القوات المدرعة ومضيها في عملها ، بينما الانكليز كانوا يهجرون مدرعاتهم وسياراتهم المعطلة ، ولو جزئيا لعدم امكانهم اصلاحها في الحال .

وكانت التشكيلات المذكورة لا تقتصر على تصليح المدرعات والسيارات الالمانية المعطلة فحسب .. بل على اصلاح واستعمال وتجديد قسم كبير من آليات العدو المخربة أيضا .

وفي الواحد والعشرين من تشرين الثاني ، ساد الهدوء منطقة السلوم والبردية ، وكانت الموقعة تبدو أكثر احتداما وتمركزا في المربع الواقع بين حصن كابوتزو وسيدي عمر وبئر الغوبي وسيدي رزق ..

وكان رومل يستعجل أبدا خصمه . وقاد بنفسه أكثر من مرة هجوما معاكسا مع جمهرة الاستطلاع التابعة للفرقة الحادية والعشرين المدرعة . وكان يعمل جاهدا للحصول على فكرة واضحة عن وضع المعركة لان اغلب وسائل المواصلات والمخابرات أصيب وتدمرت اثناء القتال .

وفي الثاني والعشرين من تشرين الثاني هاجمت الفرقة المدرعة الاحدى والعشرين حصن كابوتزو فجأة ، والحقت خسائر جسيمة بالعدو الذي ما تزال مجموعة من قواته تعمل على أطراف سيدي رزق ، فقرر رومل مهاجمتها ، وكان قصده الظاهر عدم الوقوف موقف الدفاع .. بل العمل على انهاك العدو ومعالجته بضربات متوالية مرهقة .

هاجمت الفرقة الخامسة عشرة والفرقة الحادية والعشرين المدرعتان ، الوحدات الانكليزية في سيدي رزق ، بعد ظهيرة اليوم الثالث والعشرين ، ودمرت فرقة كامبل المدرعة التي كانت تدافع دفاعا مستميتا جبارا .. وهذه

المعركة التي تقابل فيها خصمان عنيدان كانت نهايتها حاسمة مطلقة .. وعقب الازمة الشديدة التي عانتها قوات المحور ، تحولت هذه الازمات الى جانب الانكليزي المهاجم .

وعلى أثر ذلك ، استبدل الجنرال كامبل الذي عمل جهده لكسب المعركة .. بالجنرال ريتشي الذي لم يتمكن بدوره من تعديل الحالة الراهنة، وأصبح التراجع أمرا لا مفر منه .. وتوجب على « ريتشي » أن يتخذ نفس القرارات التي أراد اتخاذها كونينغهام ، والتي بسببها رفع من قيادته .

بيد أن هجوم جمهرة المدرعات الالمانية المعاكس توالى تباعا ، واستمر احتدام القتال في كابوتزو ، ثم تجدد في سيدي عمر وبير الغوبي والعظم ..
ونجحت جمهرة المانية خفيفة سريعة من اجتياز الحدود المصرية ، والتوغل وراء قطاعات الخطوط البريطانية ، وراحت تزرع الرعب والهلع في هذه الخطوط ..

في هذا اليوم السعيد بدا مصير الجيش البريطاني وكأنه معلق في خيط واه يكاد ينقطع .. وكان يكفي أن تقوم الفرقة الاحدى والعشرين بهجومها الاخير لتحل الفاجعة بالجيش البريطاني ..

وفي هذه اللحظة جرت حادثة مفاجئة غير منتظرة ، بدلت الموقف رأسا على عقب .. لقد بدت هذه الحادثة الفجائية لما قامت الفرقة الحادية والعشرين بهجومها على سيدي رزق ، في الثالث والعشرين والرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني ، اذ رسمت الوحدات الانكليزية في أثنائها حركة واسعة ، وتظاهرت أمام سيدي عمر وحصن كابوتزو ، وفي جنوب سيدي عمر المعقل الصحراوي المتقدم بعيدا في الصحراء ..

فقد لمحت مجموعة الجنرال (فون رفنشتين) على جانبها بعض المدرعات المعادية ، ولم يكن لديها الوقت الكافي لتشغل نفسها بهذه القوة المؤلفة من عناصر ضعيفة قليلة كهذه .. وليس لديها لحظة واحدة تضيعها معها ، بالنسبة الى مهمتها الاساسية المقررة ، فتركتها وشأنها واستمرت في اتجاهها ..

وهنا في هذه الساحة التي لا تتعدى عشرة كيلومترات فقط ، كان بتمركز مستودعان كبيران لتموين الجيش البريطاني الثامن ، وكانا يحتويان على كميات هائلة من الوقود والذخيرة والماء والمؤن ، وكانا خاليين من الحماية ومعرضان للهجمات الالمانية ، وموزعان ومموهان بصورة متقنة ، لان

المدرعات التي شوهدت لم تكن سوى اشباح تمويه واحفاء وكانت المستودعات غير محروسة بتاتا .

ومرت الفرقة الحادية والعشرين من أمامهما دون أن تفطن لوجودهما ، ولو انها فطنت اليهما في ذلك الحين ، واستولت عليهما ، لشلت حركة الجيش البريطاني الثامن في أقل من ساعة من الزمن ، وكان في احتلال أو تدمير هذه المستودعات تدمير الفرق البريطانية تدميرا محققا ، كما لم تفطن القيادة البريطانية في باديء الامر الى هذا الخطر الهائل ، ولم تشك مطلقا في الامر ، لانه لم يكن لديها أية نظرية عامة عن سير ادوار الموقعة ووجوهها المختلفة .

وامتلأت القلوب الإنكليزية جزعاً ورعبا عندما عرفت بالامر وخطورته ولكن الخطر مرَّ سريعا ونجت هذه المستودعات من استيلاء الالمان عليها ..

رومل في الميدان :

كان الجنرال رومل يريد تمزيق وتدمير الجيش البريطاني بمعارك عديدة خاصة ، وقد تهيأ له هذا بفعل نظام توزيع القوات الذي اعتمده القائد الانكليزي وفرضه على وحداته ومدرعاته ، وكانت جبهة السلوم تدافع بقوة فائقة وكانت استحكاماتها القوية الثابتة لا تتزعزع ، وظل مضيق حلفايا قويا في حوزة الالمان ..

وكان الرئيس باخ ينصب حاجزا من الفولاذ على الطريق الساحلية . مما كان يسَّهل عمل المجموعات الالمانية المحاربة .. ويزيد في مصاعب العدو الذي اضطر ان يسوق تموينه عبر الصحراء ..

وفي أواخر تشرين الثاني ، تمكن الانكليز من فتح ثغرة في حصار طبرق ، ولكن الثغرة اغلقت فورا ، وامتنع الاتصال بقيام هجوم معاكس من قبل الالمان ، واعيدت دائرة الحصار على المدينة بصورة محكمة . ولم يعتر الوضعية في البردية أي تعديل يذكر ، ولم تتأرجح الموقعة الا في جنوب غرب طبرق ..

وكان رومل يُرى دوما في مدرعته يجول ويتنقل في الميدان .. وكثيرا ما احاطت به بعض مدرعات العدو ، ولكنه لم يفقد مرة واحدة هدفه المعين ، وكان ينسحب بقواته في أية لحظة ، وحسب مقتضيات الظروف ، بالرغم

من الانتصارات العديدة التي حققها أثناء هذه الموقعة .. وكان يرى بصورة واقعية واضحة الوضعية العامة بكاملها. وما كان ليجزم بربحه الموقعة مطلقا، لعلمه أن قواته كانت أضعف بكثير من قوات العدو الذي كان يبعث الى الساحة بقوات جديدة في كل لحظة ..

وفي الرابع من شهر كانون الاول ، صدرت الاوامر الاولى لتثبيت جبهة طبرق ، وبعد يومين قررت القيادة اجراء انسحاب معين ، تقرر منذ أشهر الى موضع عين الغزالة ، ففكت وحملت المدفعية الآلية فورا ، كما تلقت حاميات البردية ومضيق حلفايا أمرا بالمثابرة على الدفاع ، والمقاومة حتى اشعار آخر.

ولقد ضعفت قوات الجنرال ريتشي ، ولكنها لم تفقد شيئا من عنادها، ولم تنهك تماما ، وقد جرت معارك عديدة خاصة في هذه الاثناء ، وكانت المدرعات الالمانية تهاجم العدو ثم تنسحب وتختفي بسرعة ، وأصبحت الوضعية غامضة ... لدرجة اختلط معها على المحاربين التمييز بين العدو والصديق ..

وشوهدت مجموعة من مدرعات ريتشي تحيي في طريقها المشاة الالمان دون أن تفطن الى انها قوات معادية ..وهل بوسع هذه القوات سوق الاسرى وهي عطشى ليس لديها الماء للشرب ولا السيارات للنقل ؟..

وكانت مخافر العون الصحية تستبدل على التوالي راية براية . وكان الاطباء الالمان والانكليز يعملون جنبا الى جنب ، دون أن يدركوا أيهم الاسير، وكانت الغيوم السوداء القاتمة تسوقها الرياح الباردة ، والامطار المتدفقة أشد ويلا من حمأة الصيف المحرقة ، وقد بدا البرد اكثر تأثيرا مما سبق ..

وفي السابع من كانون الاول ، ظهر أن الجيش الثامن كان يستعد لاطلاق غارة جديدة بكامل قواته المجتمعة ، فقرر رومل انتظاره ثم استئناف الهجوم من جديد ، لطرد العدو بعيدا عن (بير الغوبي) ، فاذا بدا له أن العدو ما يزال في قوته وبأسه ، فان المدرعات الالمانية ترتد منسحبة تحت ستار الليل ..

حاولت المدرعات الانكليزية في البداية ، نسف الارتباط القائم بين الفرقة الخامسة عشرة والفرقة الاحدى والعشرين المدرعة .. ولكن بدون جدوى ..

تراجع رومـــل :

وكان غرض رومل لما امر قواته بالتراجع الاحتفاظ بواحة (جالوا) التي تمكنه من المحافظة على برقة الغربية ..

وكان أن اخذ الانكليز يعلنون للعالم انتصارهم،لما شاهدوا رومل يتراجع بقواته .. ولكن هذا العقل العسكري الجبار لم يكن يهمه كسب قطعة مـــن الارض في معارك الصحراء .. وقد تحدث (رومـــل) نفسه في هـــذا الموضوع فقال :

« ليس الامر مسألة احتلال برقة البيضاء أو برقة الشرقية أو هـــذه المنطقة أو تلك الصحراء .. فالقتال لا ينتهي الا بتدمير احد الخصمين .. وليس بكسب أو خسارة قطعة من الارض ، فاغتنام الارض ليس معنـــاه الغلبة ويحتمل أن ينتج عن هذا الكسب مساويء خطيرة ، ولن يطول الامر على اوكنليك حتى يلمس هذه البادرة وخاصة بعد أن أبتعد الجيش الثامن عن قواعده وخطوط تموينه ومواصلاته التي استطالت ، وبقـــاء الطريـــق الساحلية مغلقة أمامه بسبب مقاومة مضيق حلفايا والبردية ..

ولهذا فقد عظمت مسئوليات القيادة الانكليزية ، وعليها أن تواجه الان حلا جديدا لها ..

ولقد اهتاج الايطاليون لانسحاب رومل هذا ، وطلبوا منه الثبات فـــي مكانه ولكنه رفض ، وأصرّ على الانسحاب ، لان هذا يمكنـــه من النجاة بقواته المدرعة ، التي سوف يستعين بها في الوقت المناسب ، على استرجاع مـــا فقده من أرض ..

وقد صح ما توقعه رومل ، لانه ما كاد الجنرال ريتشي الانكليزي يتقدم نحو الخطوط الالمانية بعد انسحابها حتى أصيب بصدمة مرعبة ، فارتد عنها بعد ان فقد مائة مدرعة من مدرعاته ، وعندئذ أحس الانكليز بالخطـــر الـــذي يتعرضون له لو مضوا يطاردون القوات الالمانية المنسحبة ، فاضطروا الـــى التوقف في مكانهم ، وثبت خط القتال في شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٢ ، في مراده ، وماتن جفر ، ومرسي البريقا ..

الفصل التاسع

رومل يهاجم من جديد

ويصل الى حدود مصر ... بحركة عسكرية بارعة

ماخوذة من مصادر القيادة الالمانية

اغراض رومل :

كان الجنرال اوكنليك الانكليزي يريد احتلال طرابلس الفرب ، ووضع حد للحرب الدائرة في افريقيا فلم يوفق واضطر الى الوقوف أمام (مرسي البريفا) كما فرض عليه رومل أن يفعل ..

وكان الجيش الانكليزي الثامن يقف منهوكا بعد المعارك المثيرة التي خاضها امام هذا الخصم العنيد ، وهو وان كان قد ظفر بعض الظفر ، الا ان مضيق حلفايا بقيادة القائد الالماني (باخ) ظل ثابتا ، مكبدا العدو خسائر عديدة ، دون أن يتمكنوا من التغلب عليه ، كما اضطر الجيش الى تموين قواته عبر الصحراء سالكا دروبا طويلة متعرجة ، تضيّع كثيرا من وقته ، وتتلف الكثير من معداته وآلياته .. ولكن هذه الحامية ما لبثت أن استسلمت بعد أن نفدت ذخيرتها ، ولم يبق معها رصاصة واحدة تقاتل بها ..

وكان الشعور بين جنود الجيش الثامن الانكليزي أنهم لم يوفقوا الى شيء ملموس محسوس في كل المعارك التي خاضوها ، فالعدو لا يزال يقف

أمامهم ، وهم لا يستطيعون مهاجمته ، بعد ان تحصّن في مراكزه الجديدة ..
وكان (روмل) على علم تام بحالة العدو التعبة القلقة ، وكان ينتظر الفرصة المناسبة للانتقال الى هجوم جديد ، يرد به الانكليز الى حدود مصر ، ويستعيد الاراضي التي خسرها في المعارك الاخيرة .

وراح يقضي الاسبوع الاول من شهر كانون الثاني يدرس خططه سرا ، وفي اليوم الثالث عشر من هذا الشهر عين لاحدى وحداته الالمانية موقعا ليكون بداية الهجوم المنتظر ، واعتمد أن يكون بين الساحل وقرية السويرة ، دون أن يلقي بالا لغارة انكليزية مقابلة .. ذلك انه كان من الذين يؤمنون بأن كل خطة دفاعية نهايتها الفشل والاندحار ، مهما طال أمدها ، واذا كان لا بد من الوقوف موقف الدفاع فيجب أن يكون لهذا الدفاع خطة هجومية غرضها انهاك قوات العدو المهاجمة بانتظار الفرصة المناسبة للانتقال الى الهجوم .

ولقد تحسنت حالة التموين شيئا قليلا .. ولكن القوات الالمانية لم تستكمل العدد اللازم لها .. ولم يصل الى (رومل) من القوات المنتظرة غير قوة محدودة من فوج المظليين .. كما اثبتت الاستكشافات أن العدو كان في مثل حالة القوات الالمانية نقصا في العدد ، بعد الخسائر التي نزلت به ، واذن فقد كان بالامكان القيام بهجوم جديد ، وتدمير قوات الجنرال ريتشي المتقدمة نحو الخطوط الالمانية .

ولقد أصدر رومل أمر الهجوم المقرر في ١٨ كانون ثاني ، وفي ١٨ منه تقدم الفيلق الالماني حتى شرق العقيلة في عاصفة رملية هائلة ، وفي الواحد والعشرين صباحا انطلق الجنرال الالماني على رأس قوات الزعيم مارك .. ليقودها عبر حقول الالغام المزروعة في شرق مرسى البريقا ، بينما سلك الفيلق الافريقي طريق فيابالبيا .. والى الجنوب من « أجدابيا » نجح في احتلال قرية « أنتيلات » ..

لم يكن العدو ينتظر مثل هذه المفاجئة .. ولم يكن يتوقع مثل هذه الخطوة بالرغم من الغارات الاستطلاعية التي قام بها في منتصف كانون الثاني لمعرفة حركات قوات المحور ، ومنذ اللحظة التي ظهرت فيها المدرعات الالمانية في ساحات القتال انهارت الجبهة البريطانية على الفور ..

وفي أقل من ثلاثة أيام تحوّل التقدم البريطاني الى انسحاب ، ثم الى اندحار .. ثم تطور فيما بعد الى هزيمة مطلقة .. بسبب نقص الوقود وفقدان شخصية القيادة التام ، وسيطرتها على الوضع مما يدل على أنها كانت

عديمة التوجيه والاتجاه ..

ولم يباغت الجنرال ريتشي وحده بهذا الهجوم .. بل شملت المباغتة كلا من معسكر العدو والمعسكر الايطالي ، ومقر القيادة الالمانية العليا والعالم أيضا ، لقد ظل رومل صامتا ، وترك الجميع في غيبوبة عميقة وجهل تام بمقاصده ونواياه .

ومما قاله في عرض الحوادث أخيرا ما نصه :

« لقد أثبتت التجارب أن الايطاليين لا يحفظون سرا ، وكل ما أبرق به الى روما كان يصل الى علم العدو بسهولة وسرعة ، وقد اهتممت بابلاغ القيادة العامة أمر الهجوم الصادر في ٢١ كانون الثاني ، وأحيط الجنرال باستيكو ، وهو في (الخمس) ، علما بالهجوم ولكن متأخرا ، ولم يغضب للامر لعدم وصوله في حينه ، ولم يتمكن من اعلام روما الا بعد أن سار كل شيء في مجراه المقرر .. ولم استغرب قدوم الجنرال كافاليرو بعد عدة



دبابات في المعركة : رتل من الدبابات في أرض الصحراء تتحرك لارض المعركة

أيام من الهجوم ليتصل بي شخصيا في مرسي البريغا » .

وجلب كافاليرو معه توجيهات من الدوتشي يوصي بها بوجوب استئناف القتال وملاحقة العدو بواسطة القوات الآلية وحدها .. ولزوم بقاء قوات المشاة في أماكنها ..

ولاحظ رومل أن هجومه لم يكن موضع موافقة روما مطلقا ، وأنه ينتظر بين اللحظة والاخرى تلقي الامر بايقافه بالسرعة الممكنة ، حتى أن الجنرال كافاليرو صرح قائلا :

« ان العملية في نظري لا تتعدى هجوما من الخطوط للعودة اليها حالا .. »

ولكن رومل لم يصرح برأيه ، وأجاب بأنه سيلاحق الجيش البريطاني الثامن ليصفي معه حسابه تصفية عادلة عاجلة ، بقدر ما تساعده قواته وتسمح به وسائل تموينه .. »

واستمر الجيش المدرع في انطلاقه من جديد ، وكانت الضربات الاولى التي أنزلها بالعدو مؤثرة ساحقة ، وكان رومل يعلم أن قوات العدو قد تولاها اليأس ووهنت عزيمتها وانه لا يبعد أن تخضع وتستسلم .. كل هذه العوامل التي تحققها كشفت له عن النتيجة المتوقعة ، وهي أن العدو قهر حتما وغلب على أمره واندحر نهائيا ..

وقد وعد رومل بأنه على استعداد للعودة الى خطوط البريغا الدفاعية اذا لزم الامر ، ولكنه في الواقع كان يهدف الى غاية كبيرة بعيدة المدى .. ولما أقسم عليه الجنرال الايطالي بأن يتنازل عن مشاريعه ومقاصده الخطيرة .

اكتفى رومل بالاجابة على هذا الالحاح ، بأن هتلر وحده يستطيع تعديل أوامره ، وأضاف مؤكدا بأن القوات الالمانية وحدها هي التي ستقود المعارك الجارية ، واكتفى كافاليرو أخيرا بالانسحاب معلنا عدم اقتناعه بأقوال رومل ، ولم يتأخر عن الانتقام من محدثه ، بأن أوعز الى الفيلق الايطالي بالبقاء والتربص في موضع البريغا ومنطقة أجدابيا .. وقد تم له انتزاعه واخراجه من قيادة الجيش المدرع الالماني .

وبالرغم من هذا التصرف الشائن الذي قام به القائد الايطالي ، لم تعجز القوات الالمانية وحدها عن استعادة برقة واحتلالها مرة ثانية ..

وفي الثالث والعشرين من شهر تشرين الثاني عند الظهر تقدمت

الوحدات الالمانية بعيدا نحو الشرق ، مما ساعد الاسراب الجوية الالمانية على الهبوط في مطار اجدابية ، بعد أن تنظف من الالغام التي وضعت من قبل القوات الانكليزية قبل انسحابها ، وكانت هذه الاسراب مؤلفة من طائرات شتوكا ، ومن المقاتلات الحديثة المعدة لمساندة القوات الالمانية الزاحفة .

خطة رومل :

وفي الرابع والعشرين من شهر كانون الثاني بدأ رومل اندفاعه الجديد. واثناء هذه الحركة نجحت بعض القوات الانكليزية في الافلات والنجاة هاربة باتجاه مزوس ، ولم يتأمن الارتباط بين الفرقة المدرعة الحادية والعشرين وقوة مارك سريعا ، ولكن كتلة من القوات الانكليزية حوصرت كلها ودمرت تدميرا كاملا ، واستولت القوات الالمانية في جنوب ساتو على ١١٧ مدرعة انكليزية ، و ٣٣ مدفعا وسيارات عديدة وما يزيد على ألف أسير ..

وفي ٢٤ الجاري عند الظهر ، خلت كافة المنطقة الجنوبية الشرقية لاجدابية من العدو الذي فرَّ في اتجاه الشمال ، وعادت الوحدات الالمانية فورا الى اجدابية وانطلقت في الغد للهجوم على (مزوس) التي سقطت دون مقاومة .. كما وقع في قبضتها ورشة تصليح آلية ومعها ٥٠ مدرعة متروكة كانت تؤلف غنيمة عظيمة القيمة والاهمية .

وكانت (مزوس) أهم مركز تموين لقوات ريتشي المتقدمة .. وبالرغم من الوقود التي أحرقت والمؤن التي أتلفت قبل الانسحاب ، فقد وقع في يد رومل كميات هائلة منها ، كانت بمثابة عون كبير للقوات الالمانية في مثل هذه الظروف .

وفي هذه الايام القليلة ، اقتنصت القوات الالمانية ما يزيد على ٦٠٠ سيارة ، و ١٢٧ مدفعا و ٢٨٠ مدرعة ، وكانت هذه الموقعة رائعة جدا ، والغنائم القيمة تبهر الانظار ، في حين أن الموقعة ما تزال في البداية .

وقرر رومل تشكيل أربعة قوات تعبوية ، فالثلاثة الاولى طردت العدو في كل مكان تلاقت معه ، ودمرت وحداته التي كانت تقاتل بدون ارتباط ، أو تطلب النجاة بالفرار ، وكان يسير مع قواته باتجاه المخيلي العام ، لا لقصد تجديد المناورة التي قام بها في السنة الماضية .. بل لمحاولة خداع العدو فقط .

وسقطت بنغازي اثر غارة مفاجئة ثم تبعها احتلال المناطق الاخـــرى من أرجاء برقة الغربية ، والمناطق القائمة عبر الصحراء ، وعلى طول المنطقة الساحلية ، وبعد استراحة الفيلق الافريقي يوم ٢٥ كانون الثاني في منطقة (مزوس ـ انتيلات) استمرت قوات الاستطلاع في تأمين الاتصال مع العدو الهارب ،وبدت ضرورة الاعتماد على السرية والمرونة اللتين بوسعهما فقط تحقيق النجاح والظفر ، وكان هذا الاستطلاع المسلح الجاري تقوم به كتيبة الرماة المدرعة .. (١١٥) بأمرة الجنرال غايزلر وفصائل استطلاع اخرى..

وقد تسلم رومل بالذات قيادة قوات الزعيم مارك مع قوات القتـال الخاصة .. وبعد سير ليلي مرهق في ليلة ظلماء ممطرة .. وصـــل في الساعات الاولى من فجر يوم ٢٧ كانون الثاني الى جنوب الرجيماء ، وفـي الساعة السادسة عشرة الى (بنينا) ، أي أنه وصل الى ارض مطار بنغازي، حيث احتلت الطلائع الامامية حدود المدينة الشرقية ، ولكن قوات المشـاة استمرت في سبيلها على طريق فيابابيا ، ومهمتها التربص في (كويفيا) لقطع طريق درنة على العدو الذي ما يزال في بنغازي ..

وفي المساء تصاعدت النيران من أرجاء المدينة التي جدّدت للمـرة الرابعة فاتحين بفاتحين ، بعد أن قصفت ليلا نهاراً .. وكان مشهدا يثيـر الوحشة امام أنظار الجيوش الزاحفة ، التي لم تألف طيلة هذه الحملة رؤية المدن والقرى وهي تعج بالحرائق ، وكانت أصوات النساء الهلعة ، ومنظـر الاطفال الهاربين ، وشقاء شعب مدني لم تسمح ضرورات القتال بتوفيره ، ورؤية رجال عزل بدون حماية أو دفاع ، وقد امتلأت عيونهم بالخـوف والرعب ، كل هذه المناظر لم تشاهد في الصحراء حتى الان .. ولكنهـا صارت اليوم حقيقة ماثلة للعيان ..

وانتهى احتلال بنغازي وسقوطها باستسلام لواء هندي .. حوصر بين المدينة وقرية الكويفا .. وبالرغم من التدمير والحرائق اللذين كانت تقـوم بهما القوات المنسحبة فقد وجد الجيش الالماني غنائم لا تحصى ولا تعد .. من الوقود والاسلحة والمعدات المتنوعة ، والمؤن والاغـذية والسيارات ، والشاحنات ، والجرارات ، وسفن التجريم البحرية القادمة من الاسكندرية، والتي لم تكف لحظة واحدة عن انزال النجدات والاحتياطات ، حتى يـوم الهجوم ..

وبلغ عدد سيارات الشحن التي وقعت في يد الالمان ١٣٠٠ سيارة ..

كلها في حالة جيدة للاستعمال والسير .. وقد ساعدت كثيرا على حـــل أزمة النقل الالماني دفعة واحدة ..

العدو القلق :

في الثامن عشر من شهر كانون الثاني .. تنبـــأ تشرشل في مجلس العموم بتدمير قوات رومل في الصحراء نهائيا .. وأخذ يتكلم عن انهيـــار قواته ، وتدمير مدرعاته وكيف ربحت انكلترا المعارك الاخيرة .

وفي الثاني عشر من تشرين الثاني ، أعلنت التايمس ما نصه :

« لقد قهرت قوات رومل وغلبت نهائيا على أمرها بصورة حاســمة ، وتحاول بقايا الجيش الالماني الايطالي النجاة من التدمير الكامل .. وقـــد انتهى رومل البارحة بصورة مباغتة » ..

وفي اليوم التالي أذاعت محطة الراديو معلنة بأن الهـــدف الهجومي بتدمير مجموعة قوات المحور ، يمكن اعتباره من اليوم امرا محققا .. لقـــد قام الفيلق الافريقي بدفاع مجيد ، وأن رومل ليستحق من جميع وجهـــات النظر أن يوسد جثمانه الجدث الذي هيأه لرفاقه في الجيش البريطاني ..

وكتب ليدل هارت في صحيفة الدايلي ميل قائلا :

« كم مرة قالوا لنا بأن وحدات رومل المدرعة وصلت الى أقصى حدود المقاومة .. ولكن يبدو أنها لم تهن ولم تضعف بعد .. »

وذكر المذيع الاميركي في ٢٨ كانون الثاني بأن كافة الاخبار الجديـدة الواردة ، تؤلف برهانا جديدا على أن الجنرال أيروين رومل الطفل المقلـــق المزعج بين القادة الاحداث .. بدأ يخرج من جعبته دورا جديدا لقصـــة جديدة ..

واما المستر تشرشل الذي طالما تنبأ بنهاية رومل المفجعة فانه قـــال أمام مجلس الشيوخ في واشنطن في الخامس والعشرين من كانون الثاني.. وعلى وجهه علائم التعجب وأمارات الخيبة والذهول :

« أنه لعسير علي ان أبسط لكم بوضوح الوضعية الراهنة في منطقة برقة ، اننا نجابه عدوا جريئا للغاية .. ماهرا في منتهى المهارة .. ولا أتردد في القول بأننا أمام قائد كبير » .

الي الامـــام :

وفي الثاني من شهر شباط وصلت القوات الالمانية الى (مرطوبة) .. حيث ردت لواء هنديا ، وانطلق (رومل) بنفسه في سيارة استطلاع متوجها نحو (درنة) فوجد العدو قد أخلاها ، فأمر قواته بالتقدم نحو (تميمي) .. كما أرسل فوجا الى (المخيلي) للوصول الى الساحل ..

وبدأ رومل في تحصين مواقعه الجديدة وبث الالغام فيها ، وعـــاد الايطاليون بعد أن شاهدوا انتصاراته الى التعاون معه .. وتحسن الوضـــع على الاثر بصورة عامة شاملة ، واصبح من الصعب على الجيش الانكليزي القيام بهجوم جديد لمدة طويلة ..

وأخذ رومل على الاثر يفكر جديا بمهاجمة مصر ، ولكن القوات الالمانية جميعها كانت بحاجة الى الراحة ، بعد أن صرفت شهرا كاملا وهي تحارب أو تدافع ، ورضي رومل أخيرا بأن ينصرف هو وجنوده الى الراحة ، وامـــر قواده بالافادة من الاسابيع القادمة التي سوف يقضيها الجيش في راحته ، باعادة النظر في أمور التموين ، والقيام بأعمال التدريب ، ثم سافر الى برلين عن طريق (رومية) ليقدم تقريره الى هتلر ..

والواقع أن موقعة الشتاء هذه قد أصابت الفريقين بخسائر عظيمة ، وان كانت الخسائر الانكليزية اكبر وأعظم فقد خسروا ما يقارب ١٦٢٣ دبابة وسيارة مصفحة ، و ٢٥٠٠ سيارة ، وأسقط الالمان لهم ٣٢٩ طائرة ..

ولكن الجيش الثامن الانكليزي كان لا يزال يملك قوة كبيرة ، وكـــان بالتأكيد يوازي الان القوات الالمانية والايطالية عددا وسلاحا بعد الخسائر التي لحقت به ، والتي كان قبلها يفوق الالمان عددا وعدة ..

وكانت مسألة التموين لا تزال تشغل (رومل) .. فمن الستين الف طن من الوقود التي كان يجب أن تصل اليه في شهر اذار من ســـنة ١٩٤٢ ، وصله فقط ١٣٥٠٠ طنا ، وكذلك كانت تنقصه الطائرات والرجال ، التـــي كانت برلين تعده بها ، ثم لا تفي بوعدها .. كما ظل العدو يملك من الدبابات والطائرات أضعاف ما عند (رومل) ..

وكانت قواته الى هذا ترتكز على طريق مواصلات وتموين أطول مـــن طريق العدو ، وبالرغم من أهمية ليبيا فان القيادة الالمانية العليا كانت تعتبرها ساحة ثانوية ، ولكن رومل أفاد من دبابات العدو التـــي استولى عليها ومن

سياراته ومدرعاته ، كما أفاد أيضا من سفن التجريم التي اقتنصها لتموين منطقة درنة ، وان كان الجيش ظل في حاجة ماسة الى الوقود والذخائر ..

ومع ذلك .. ومع كل هذه الصعوبات التي كان يتعرض لها (روميل) وجيشه ، فقد قرر أن يتحرك ويتقدم ..

تقدم جديد

وفي ليلة ٢٥ — ٢٦ ايار ، بدأ تقدم القوات الالمانية ، وتوزعها ..

وفي الشمال من جبهة الفيلق الواحد والعشرين ، نفذت حركة التفاف قوامها الدبابات المقتنصة من العدو .. وسيارات شحن مهمتها احداث ضجيج كبير فقط .. واجراء مظاهرة حربية يقصد منها اثارة ظنون العدو عن احتمال اقتراب هجوم مدرع الماني واسع المدى ، ونصبت ورتبت مختلف أنواع التمويهات والخداع على الجبهة ترتيبا منظما .. دبابات كاذبة وآلات نافثات للدخان واللهب ، وآلات مثيرات للغبار والعجاج ، وسيارات خاصة بمراوح كبرى ، هيئت لهذا الغرض وقد اعتمد فيها تجارب العمليات الصحراوية القائلة بأن سحب العجاج والغبار ، تخفي الحركات والعمليات السائرة ، وتوفّر على القوات مصروف الذخائر ..

لم تفاجىء هذه التدابير التمويهية وحدها فقط قوات العدو .. بل ان الهجوم كان أشد مباغتة على الجنرال ريتشي .. بالرغم من ان الجبهتين المعاديتين كانتا تنتظران منذ أسابيع الطوارىء والاحتمالات المرتقبة . وكانت كل منهما ترقب في حالة تشبه الحمى انطلاق الحوادث القادمة ..

وبعد يوم طغى الجو طغيانا هائلا ، وتخللته عواصف رملية خانقة ، فتقدم الفيلق الالماني الافريقي على يمين الفيلق الايطالي العشرين ليلا .. باتجاه الجنوب الشرقي للاطباق على جناح العدو ، وتقرر الوصول الى المنطقة الواقعة جنوب بير حكيم ..

كانت ليلة مقمرة رائعة من ليالي الصحراء الافريقية .. التي تمنحها الصحراء وحدها دون غيرها عندما يطيب لها العطاء ، ليلة تنسي المرء المتاعب والآلام ووطأة الحر القاتلة ، وعواصف الرمال الجافة المحرقة ، وعادية الذباب المنهكة ، والحرمان من الظل الوارف ، وفي الافق كانت الاضواء تبدو منعشة تثير أعمق الاحاسيس والشعور ، اضواء تبعث في النفس اليقظة

الروحية الكامنة .. وكان يسمع من آن لآن في اجواء الفضاء الصافي البراق .. هدير القاصفات البعيدة ... ثم يتلو هذا كله الهدوء الصامت ..

وكانت آلاف القوات تتقدم في سبيلها .. وآلاف أخرى في خنادقها وملاجئها واستحكاماتها تستمع الى الصيحة الصارخة (قف ـ من أنت ؟) ..

وكانت ترى وحدات المشاة والهندسة ، والدبابات والمدرعات ، ينتظرون جميعهم الامر ، وفوق هذه الساحة المربعة من الارض الصحراوية المنفردة الميتة .. كان يقف الجيشان على أهبة الانتظار للهجوم والقتال ، تعززهم جميعا فكرة واحدة هي تدمير الآخر ..

وعند طلوع الفجر اجتازت الوحدات السائرة لتقوية خط دفاع بير الحكيم ـ الفزالة . وكان يتوجب عليها الوقوف والتريث مدة ساعتين من الزمن لرفع الالغام المزروعة ..

وفي الساعة العاشرة وصلت الفرقة الخفيفة التسعون الى (العضم) وكانت بقايا الطائرات الساقطة تنام على الارض مشيرة الى آثار الهجوم السابق .

وقد وقعت معركة الدبابات الاولى الضارية في جنوب شرقي بير الخرمات ، وكانت المدرعات الالمانية غير مدعومة بمدفعيتها ، خصوصا مدافع الفيلق من عيار ٨٨ مم التي كانت تصحبها عادة .. فهوجمت وأصيبت بخسائر باهظة .. بفعل مدافع الدبابات الانكليزية الجديدة .. التي كانت ترمي قذائفها بعيدا .. ولكنها مع ذلك استطاعت ان ترغم العدو على الانسحاب ..

وكان رومل ، مع اركان حربه في طريقه للاتصال بالفيلق الالماني فالتقى ببطارية انكليزية متوجهة نحو طبرق ، فهاجمها وأسرها على الفور .

وانطلقت موقعة الدبابات وتأججت نارها بعد الظهيرة ، وهاجمت وحدات من العدو في الشمال الشرقي ، حيث الحقت خسائر في القوات المدرعة الالمانية وارتال الفيلق ، وما اسدل الليل استاره .. حتى رد الفيلق المذكور نحو الجنوب وجنوب غربي اكروما .. وسجلت قوات الجنرال غوت نجاحا ملحوظا .. واستطاعت قطع ارتال التموين والذخيرة والوقود ، وقسما من المشاة والاقسام المنعزلة من الفرقة المدرعة الالمانية .. فأحدثت بذلك وضعا شديد الخطورة للقوات الالمانية .

ومن جراء ذلك توقفت أعمال التموين قرب بير الخرمات ، ولكن الفرقة الخفيفة التسعين استطاعت في هذا اليوم تسجيل أعمال رائعة في جوار العضم ، كما وصل الفيلق العشرون الى هدفه دون أن يلقى أية مقاومة ، وكانت كتلته متجمعة جنوب بير الخرمات .

وفي صبيحة اليوم التالي نجح الفيلق الالماني في تشكيل جبهة دفاعية لحماية ارتاله المبعثرة بين بير حكيم وبير الخرمات واستدعيت الفرقة الخفيفة التسعين ، والفيلق العشرين ، اللذين تمكنا من احتلال سلسلة المرتفعات الواقعة شمال بير الخرمات ، واستأنف الفيلق الالماني سيره نحو الشمال يصد العدو المهاجم في الشرق والغرب ويرده ..

ووصل قسم من وحداته الى طبرق على طريق (فيابالبيا) التي سيطرت بنيرانها على طريق طبرق ـ الغزالة ..

وفي المساء هاجم الانكليز الفيلق العشرين بمدرعاته فأحدث أضرارا في الفيلق الالماني ، ولم يكن في المستطاع اعادة النظام الا اثناء الليل .. بصورة اضطر معها رومل ان يتسلم بذاته في ٢٩ أيار .. قيادة وتوجيه الفيلق الذي أجبر من جديد على خوض معارك دفاعية عاتية شديدة اضطر الى القيام بها بفعل قحط الوقود والذخيرة ..

وظل هذا النقص بارزا مستحكما بشدة بالرغم من وصول مواد التموين، فحان أن اضطر للتوقف عن المضي نحو الشمال لاحتلال مرتفعات اكروما ، واكتفى بالدفاع مستندا الى حقول ألغام العدو في بير الخرمات ، كما أسقطت طيارة الجنرال كرومل قائد الفيلق الافريقي ، وهبط منها أسيرا في أيدي العدو .. كما جرح قائد الفرقة المدرعة جرحا خطيرا أثناء العمليات الدائرة..

وانطلق الجنرات ريتشي في هذه الاثناء محاولا مهاجمة الجبهة الجديدة في الشمال والجنوب .. كي يدفع بالالمان عبر حقول الالغام ، ولكن رومل كان مستعدا لمجابهة أي احتمال يبدو من جانب العدو ، وكان الشرط الاساسي الوحيد يقضي بتأمين خط تموين جديد بالسرعة الممكنة ، لان طريق بير حكيم قطعت أثناء القتال ..

وبعد تأمين الارتباط مع فيلق الجنرال جيودا ، في الثلاثين من شهر أيار .. نظمت فورا طريق تموين جديدة تتجه نحو الغرب ، وردت كافة هجمات العدو المنطلقة من الشرق والشمال الشرقي .. كما طوقت قوات معادية تقدمت نحو الفيلق الالماني .. حيث هوجمت في اليوم التالي من قبل

فصائل الفيلق المذكور والفرقة التسعين وفرقة تريستا ، دون أن يتمكن العدو من مساعدتها ، فاستسلمت في أول حزيران عند الظهر بعد مقاومة عنيفة وبلغت خسارتها ۳٬۰۰۰ اسير و ۱۰۰ سيارة مدرعة و ١٢٤ مدفعا ، ومكنت هذه العملية الناجحة من احتلال نقطة استناد الجنرال غوث ، وأعطت الالمان الشروط اللازمة لاستئناف القتال وملاحقة العدو ..

لاحظ ريتشي تأخر حركات رومل ، فظن بأن قواته كسبت نصرا محققا والحقيقة أن خطته فشلت لانها كانت تعتبر أن مجموعة قوات العدو ستدمر حتما في الايام الاولى من محاولة احتلال طبرق .. على عكس ما هو مقرر لها .. كما أن مشروعات رومل لم تفشل الى حد كبير ، فكل العسكريين يدركون بأن أية موقعة . . لا بد أن ترتبط وتتعلق بعدد من الاحداث والاغراض، فالخسائر التي أصابت الفيلق الافريقي لم تكن من الخطورة بحيث تشل قدرته الهجومية نهائيا ، كما وان انسحاب الفرق الالمانية وانتقالها الى حالة الدفاع ، واخفاق كافة الهجمات الانكليزية المنطلقة كانت تؤكد ضرورة التوقف قبل استئناف الهجوم من جديد ..

وكان يتوجب في مثل هذه الحالة اعادة النظام في مسألة التموين التي عبثت بها مدرعات الجنرال غوث .. وكان السلاح الجوي الالماني آنئذ على أتم استعداد للتدخل من جديد بقوات هامة ، وكان ينتظر الاشارة فقط لاستئناف الاعمال المقررة .

وفي ١ و ٢ حزيران بدأت فرقة تريستا والفرقة الخفيفة التسعون تقدمهما نحو بير حكيم ، الذي يؤلف العماد الجنوبي للجبهة الانكليزية ..

وأثناء هذه الحركة ، وبينما كان القتال يسير بقسوة وضراوة ضد خصم شجاع ، جرت سلسلة من الهجمات المستقلة .. ومنذ الصباح شرع الفيلق الالماني بحركة التفاف نحو الشرق ، مشتتا عددا من قوات العدو الزاحفة ،كما دمر بطارية دبابات .

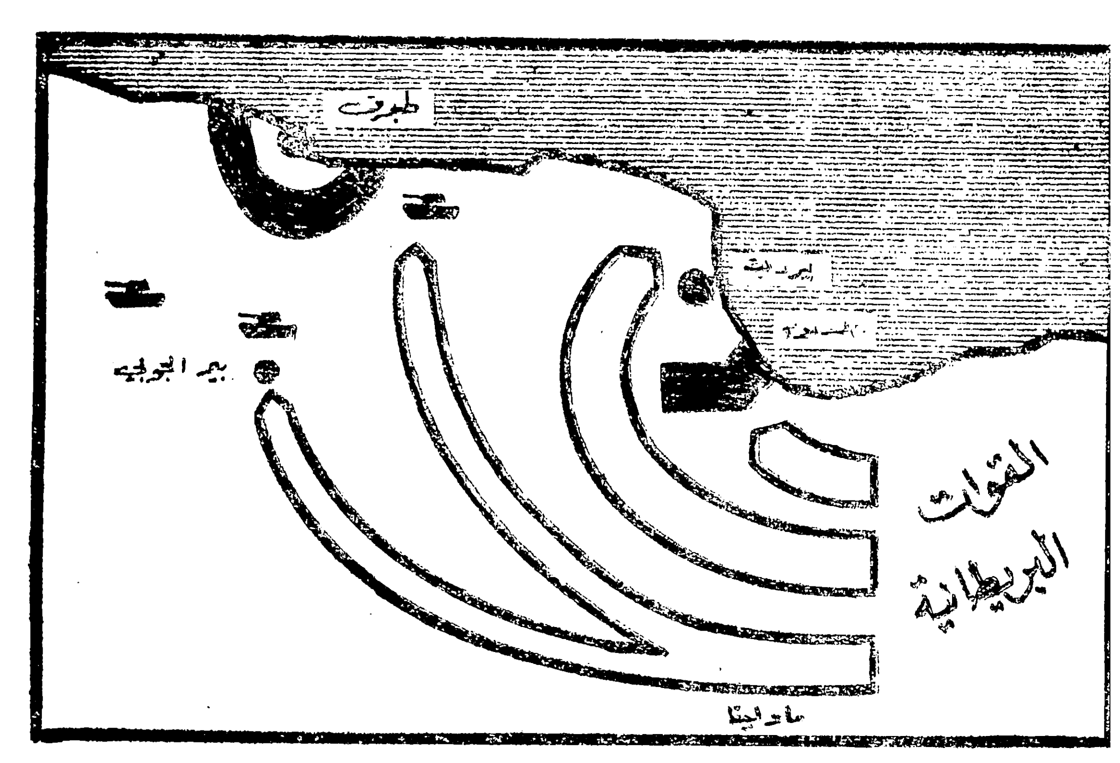
وكان ريتشي يتساءل في غمرة من سحب العجاج المتصاعد السائر ، والضجيج المتعالي الهائل الصاخب بدون جدوى : أين هي قوات رومل بالضبط ؟

وكان بير حكيم نقطة ما في عرض الصحراء ، أطلق عليها هذا الاسم بحكم وجود بئر عربية من عهد تاريخي بعيد .. وكانت نقطة عسيرة الاحتلال والاستيلاء ، وكان يتوجب فتح ثغرات وممرات عبر حقول الالغام العديدة

التي بثها العدو في هذه المنطقة ، وكان العدو مختفيا يتربص في استحكاماته المدورة المشرفة على ميادين رمي واسعة مختارة .

وكانت طائرات شتوكا تهدر ليلا نهارا فوق القلعة الصحراوية ، فتحولها الى بركان يتصاعد من أرجائه اللهب ، ويتطاير من جنباته الحديد الذائب ، والعجاج الخانق .. والمدافع تصب نيرانها وحممها دون انقطاع على هـذا الموضع المنيع ..

واننا لنتساءل بحق : لماذا احتفظت القيادة الانكليزية بمعظم جيوشها وقواتها على جبهة الغزالة أثناء هذه المعارك ؟ ولماذا اقتصرت على اجراء بعض المحاولات بقوات خفيفة سريعة .. لمساعدة ومساندة هذه النقطة المهددة ؟ فهل كانت في جهل بما يدور في بحران هذه المنطقة ، وما كان يتهيأ فيهـــا من الاعمال الحربية ؟



خريطة الهجوم الذي قام به الجنرال اوكلنيك الانكليزي الذي حــل محـل ديفل بعد فشله ، وقد بدأ هذا الهجوم في ١٨ تشرين الثاني ١٩٤١ .

وعلى كل فقد تمكنت القوات الالمانية تباعا من محو شراذم ووحدات مدرعات ريتشي التي كانت تهاجمها فرادى.. وتطويق قوات منها استسلمت مع ٤٠٠٠ أسير ، وعدد كبير من المدرعات الخالية من الوقود ، وكانت غنيمة باردة قوبلت بالترحاب والابتهاج ، واستطاع الفيلق الالماني أن يزيد عـــدد دباباته الى ١١٨ دبابة ..

وفي ٧ حزيران تمكن الالمان من احداث ثغرة أولى في حقول ألغام بير حكيم .. ولكن مقاتلات وقاصفات العدو بدأت منذ هذا الحين بمساندة قوات العدو المرابطة في هذا القطاع ، بحيث أستطاعت الاستمرار في القتال بجلد وعناد ، وكانت أعشاش الرشاشات تدافع عن مواضعها حتى نفـدت آخـر طلقة وضعت تحت تصرفها .. ولم تتمكن القوات الالمانية مـن احتلال القلعة الارضية المحصنة ، الا في الحادي عشر من شهر حزيران .. حيث تمكـن قائدها الشجاع الجريء العقيد كونيغ من الخروج من الحصار المضروب ، في الليلة الفائتة ، والالتحاق بالخطوط الانكليزية .

وعندئذ انطلقت الفرق الثلاثة : الفرقة المدرعة الخامسة عشرة ، والفرقة الخفيفة التسعون ، وفرقة تريستا ، باتجاه الشمال الغربي نحو خط الخضم ـ اكروما ، وكان المفروض العمل بسرعة عظيمة بعد سقوط العماد الجنوبي للدفاع الانكليزي ، وعندئذ أصدر ريتشي امرا مستعجلا الى قواته بوجوب الانسحاب ، وكان ان اصطدمت فرق الفيلق الالماني المتقدمة بالعدو المتراجع .. ووجدت الفرقة الخفيفة التسعون في موضع (العضم) .. عدوا يطلق نيرانه من كل جانب ، وفي كل الاتجاهات ، واغارت جمهرة الاستطلاع الثالثة والثلاثون على الفرقة المدرعة الثانية والعشرين الانكليزية في وسط عاصفة رملية هوجاء ، واثنـاء الليل تمكن الفيلق الالماني مـن مباغتة كتلـة المدرعات الانكليزية ، اثناء تراجعها في (نايتسبريدج) ودمرها تدميرا شاملا ..

حدثت الموقعة الحاسمة في مجرى القتال القائم بعد سقوط قطـــاع بير حكيم ، الذي ساعد على تحقيق الاختراق والتطويق ، اللـــذان تعسر اجرائهما أثناء الفصل الاول من الموقعة .. التي انتهت بأزمة حادة أصابت الفيلق الالماني .. وأصبح الهدف المقرر عندئذ خط اكروما الدفاعي ، وذلـك لقطع قوات العدو التي ما تزال تشغل مواضع الغزالة ..

وبينما كانت حامية هذا الموضع تعمل على نسف مستودعات الذخيرة والمؤن التي جمعت بعناء طويل .. شوهدت بعض وحدات الفرقة الانكليزية الخمسين تخترق قطاع الفيلق الايطالي العاشر ، وتنطلق على طريق « فياباليا»

في حالة مضطربة جدا ، محاولة الوصول الى طبرق ..

وتم احتلال موضع (العضم) بغارة مفاجئة.. كما انتقل الفيلق الواحد والعشرون ايضا الى الهجوم على القوات الالمانية المدرعة .. وتقدم من اكروما حتى الطريق الساحلية على البحر .. وقامت جماعات صغيرة من قوات جنوب افريقيا ، ونجحت في شق طريق لها ، ولكن الباقي أسر على الفور ، واصبحت كافة الاراضي الممتدة حتى البحر في قبضة الالمان ، ووجد الفيلق الالماني نفسه امام الحد الكيلومتري ٣١ المشئوم .. أي أمام طبرق ..

لم تمنع رومل النصف مليون لغم التي بثت بانتظام حول موضع الغزالة لتحميها من كل جانب من تنفيذ هجومه .. كما ضحت القيادة البريطانية بآخر وحداتها المدرعة .. كي تتمكن من تأمين نجاة قسم كبير من وحدات الفرقة الانكليزية الخمسين ، أما ألوية الدبابات فقد كانت متعبة منهوكة ، لدرجة أنها اضطرت للتراجع حتى الحدود المصرية .

وكانت الفرق المدرعة الايطالية تتربص على الطريق التي بنيت حول طبرق ، والمسماة طريق المحور .

تقدم الفيلق العاشر نحو الشرق على طول درب (كابوتزو) ، واحتل قرية الضودا الواقعة جنوب طبرق .. بينما كان الفيلق المدرع الواحد والعشرون ، يخوض معارك عنيفة مع الحرس الانكليزي حول سيدي رزق ، وكانت الطائرات المحلقة على ارتفاعات قليلة تلحق به خسائر جسيمة ..

اين رينتشي ؟ :

ما الذي كان يعمله الجنرال ريتشي في هذه الاثناء ؟

في ليل ١٣ ــ ١٤ ــ حزيران عندما برزت المدرعات الالمانية في الميدان .. كان مقره العام يتمركز في غامبوت وكان عليه ان ينسحب عاجلا ، ولو ظلت فرقه بدون قيادة، كما ان جيش رومل أضاع ايضا في كثير من الاحيان، النظرة العامة للموقعة ذات التقلبات الكثيرة المتبادلة ..

وكانت الصحراء تعجّ بالارتال السائرة وليس في مقدور أحد أن يعرف مسبقا من تكون بالضبط ، واثناء هذا ظل رومل كما كان دوما في الطليعة .. يدفع بقوة ، الفرقة الحادية والعشرين المدرعة ، وفرقة اريتيا التي أرفقت بها ، وكان هدفه منطقة (غامبوت) الواقعة على مقربة من طريق (فيابالبيا)

في منتصف طريق طبرق ــ البردية .

وسبب احتياطه هذا هو اكتفاؤه بتعيين قوة استطلاع واحدة ، لاغلاق اهم طرق تراجع القوات الانكليزية ، فوصل في منتصف صبيحة اليوم السادس عشر من حزيران ، ليضرب الحصار من جديد على طبرق ..

وتمّ احتلال الطرق والخط الحديدي ، الذي بناه البريطانيون في الفرجة القائمة لربط ميناء مرسي مطروح ..

وفي (غامبوت) اقتنص الالمان أربع طائرات من طراز كورتيس كانت على أهبة الاقلاع ، وعلى بعد عشرة كيلومترات تقريبا ، عثر على مستودع وقود هائل . وللمرة الاولى في هذا اليوم اختفت الطائرات البريطانية من الجو ، وسيطرت المقاتلات والقاصفات الالمانية على الجو سيطرة تامة ..

ساعة النصر :

وكذلك أزفت ساعة النصر .. واقتربت عقاربها تبشر رومل ورجاله بقرب احتلال طبرق ..

كانت القيادة البريطانية تتساءل : ترى ماذا يعمل الجنرال رومل ؟ أيتابع طريقه نحر الشرق ، أم يقتحم طبرق ؟

ولشد ما كانت الوضعية غامضة ، عقب الحوادث الاخيرة الجارية .. حتى أنها لم تكن تعرف الى أية نقطة وصلت فرق الغزالة ، وهل نجحت في الالتحاق بملاجيء القلعة أم لا ، ولا في أية حالة أصبحت قواتها ؟

أمر واحد فقط كان غير مجهول لديها ، وهو أن بقايا الجيش الثامن شرعت ترتد الى مصر ، وقد فقدت قدرتها وقوتها المحاربة .. ولطالما تردد (ريتشي) في العمل على ايقاف الهجوم وحده ..

وكان من جراء تطويق وسقوط بير حكيم .. الذي كان من نتائجه المحققة انهيار كل منطقة الدفاع البريطانية المحصنة .. أن راح رومل يرقب هذا التردد بسرور وأمل ، ويحلم بالنهاية المنتظرة .. فطبرق قد حوصرت من جديد .. ولن تظل هذه المرة حاجزا منيعا قائما في طريق قوات المحور..

وبينما كان ريتشي يواجه الواجبات الثقيلة لاقامة جبهة جديدة في مصر .. واعادة تشكيل وتنظيم جيشه من جديد .. تمكن الجيش المدرع الالماني من حل مسألة التموين ولو لمدة قصيرة ، بفضل الغنائم المكدسة

السالمة التي كسبها .. كما وجد الفيلــق الافريقي كل الاستحكامات التي سبق أن بناها ما تزال قائمة ، لاجراء الهجوم على طبرق ..

لم يفكر رومل في التقدم وملاحقة العدو نحـو الشرق ، ما لـم تنتزع قلعة طبرق من قبضته ، فتحرك بقوة الصاعقة وباغت العدو مباغتة كامـلة كما يظهر فيما بعد ..

وفي الخامس عشر من حزيران تقدم الفيلق الالماني ، وفرقة أريتا ليعطي المجال اللازم لإطلاق الهجوم ..

وتم تطهير المنطقة الواقعة بين طبرق وغامبوت في اليوم الثامن عشر .
وكان العدو أثناء ذلك يعيش على الترقب والانتظار .
وقد سبق لبعض عناصر الفيلق الالماني ، التي كانت في طريقها نحـو البردية ، أن توقفت لما وصلت الى مقربة من أسلاك غرازياني الشائكة عـلى الحدود ، وكانت كافة الامارات الظاهرة تدل على قرب حدوث الصدام المتوقع على جبهة مصر ..

بيد أن الوحدات الآلية الالمانية ارتدت الى الغرب بغتة ، قبل الوصول الى غامبوت ، دون أن تكمل طريقها نحو الشرق .. وأجرى فيلق نافاريني الواحد والعشرين الذي اجتاز طريق المحور على جبهة واسعة أمام طبـرق مظاهرة جريئة للوصول الى الخطوط المتقدمة من قلعة طبرق ..

وفي العشرين صباحا .. فتحت مدفعية الفيلق الالماني نيرانها عـلى مواقع استحكامات طبرق ، وعلى القلعة منذرة ببدء الهجوم ..

وظهرت أسراب القاصفات الاولى للسلاح الجوي الالماني في السـاعة الخامسة والدقيقة العشرين .. وكان يختلط هـدير طائرات الـ « شتوكا » بدوي انفجارات القنابل .. التي كانت تقذفها المدافع الالمانية المرافقـة والمدفعية الثقيلة .. وخاضت كافة الاسراب الالمانية العاملة في أفريقيـا الشمالية هذه الموقعة .. وشرعت تهاجم القطاع الجنوبي الشرقي حيث كان يتوجب احداث ثغرة لاختراقه .. ودمرت المواضع الحصينة العتيـدة ، وخاصة شبكات الاسلاك الشائكة .. وأحدثت تأثيرا هائلا على معنويـة ومقاومة اللواء الهندي الحادي عشر ، الذي كان يدافع عن هذا القطـاع دفاعا مستميتا ..

ووراء هذه التغطية التي أقامتها القصوف العنيفة ، شقت القـوات الالمانية ممرات نفوذ وتسلل في حقول الالغام الواسعة .. وتقدمت الفرقـة

المدرعة الخامسة عشرة الاولى متوغلة في المنطقة المحصنة ..

واستعمل في هذا الهجوم الجسور المنصوبة النقالة .. التي جلبت خصيصا لهذا الفرض ، حيث ألقيت على الخنادق ضد المدرعات لتسهيل عبورها ، وسارعت فرق الهندسة لتدعيم فرق المشاة التي أخذت تتسرب من نقاط الاختراق ، ثم انتشرت على الجانب الآخر من حقول الالغام .

ولم تلبث المواضع طويلا حتى أخليت ، وسقطت في حوزة الفيلق الالماني الافريقي .. وفي الساعة السابعة والدقيقة الخامسة والاربعين ، كان رأس الجسر يمتد على عمق كيلو مترين تقريبا ..

وكان ميدان الموقعة مغطى بالسيارات المدمرة والمعطلة ، والمدرعات المحترقة والمدافع المدمرة أو المهجورة ..

كانت ساعة انتصار جنوني للالمان ، هؤلاء الذين وقفوا عدة شهور أمام هذه القلعة المحصنة .. لا يستطيعون الوصول اليها واكتساحها ، وقد دفعوا من أجلها ضريبة باهظة من الدماء الغالية .. أمام خصم عنيد أبدى مقاومة عنيفة يائسة نادرة المثال ..

ولم ينج موضع قدم في هذه الارض .. لم يحمل في طياته شظايا الحديد والفولاذ القاتلة ، وتحت لفحات رياح السموم ، هوجمت هذه المواضع من جهة رأس المدور المشؤوم ، حيث كانوا يتقدمون فيهـا شبرا شبرا .. وينتزعونها قطعة قطعة من جنود الجنرال مورهيد .. لقد غلبوا وغلبوا في آن واحد .. وكم مرة وصلوا وارتدوا من أمامها ..

ولما وصلوا الى ينابيع مياه (أجدابية) الحلوة ، كانت تتطلع اليهم طبرق من بعيد كالسراب الخادع .. وكانت الاشهر العديدة التي قضوها في الحفر والخنادق ، لم تعد في نظرهم سوى ذكريات ذابلة .. تبعث في نفوسهم الخوف والوجل .. ولكنهم احتفظوا في قرارة نفوسهم بسر لم يبوحوا به .. تركز في أعماق أفئدتهم ، يحركهم ويثير أشجانهم . وكان هذا السر هو دافعهم الوحيد لتصفية هذا الحساب القديم مرة واحدة ، وهو أملهم المحبب الذي كان يدغدغ أحلامهم منذ عهد طويل . كانوا بالفعل أمام طبرق وفي وسط تحصينات العدو ومواضعه .. ولطالما اجتاز روميل بنفسه خنادق المدرعات ، مع الطلائع الاولى وهو في عجلته المدرعة وكان ككل جنوده تحدوه وتسوقه فكرة واحدة : التقدم والانطلاق ..

كان يتوجب عليه أن يكتسح الميناء والمدينة بوثبة واحدة ، ثم ينسف

أركان هذه القلعة المشؤومة دفعة واحدة ، وحوالي الظهر تمكن رومل من تدمير خمسين مدرعة ، ووصل الى المفرق الذي يبعد أربعة كيلومترات عن طبرق ، وكان حطام المدرعات الالمانية التي دمرت أثناء هجوم عيد الفصح عام ١٩٤١ ، ما يزال قائما شاهدا فوق ميدان الموقعة .

وكان الفيلق الافريقي ينصب كالشلال الجارف .. على الممرات التي أحدثت عبر حقول الالغام . وقد تسمَّر الفيلق الآلي العشرون ، بعد أن اجتازت مدرعات فرقة أريتيا وتريستا الخنادق الاولى .. وقد توقفت في وثبتها وشلت حركتها ، فأعيدت على الفور بعض وحدات هذا الفيلق الى الخلف ، وعبئت وراء الفرقة المدرعة الخامسة عشر حيث أطلقت في اتجاه الغرب على طريق العظم ..

ولم تستأنف الفرقتان المذكورتان هجومهما الا بعد الظهر .. وعند الظهر فتحت المدفعية عيار ٨٨ مم التي كانت ترافق الوحدات المدرعة نيرانها على الميناء ..

امام طبرق :

ووصل رومل الى السفوح المشرفة والموصلة الى المدينة.. وتابع بنفسه تطور وضعية القتال ، وكان في الميناء عدد من السفن كانت تتهيأ وتتحرك للاقلاع والهرب ، وللمرة الاولى استطاع أن يشاهد عيانا المدينة التي ايقظت في نفسه أصداء الدعاية الرنانة .. ورنين أباطيلها التي كانت تدور في انحاء العالم الخارجي قاطبة ..

لم يبق منها سوى أكوام من الحجارة ، وآثار الخرائب والجدران المحطمة والمنازل المتهدمة .. وكانت القنابل الالمانية تتساقط وتنفجر في أرجائها بدون انقطاع ، وكانت مشاهد التدمير تغمر المدينة وتبسط عليها أستارها الكئيبة ، وتتصاعد سحب النيران من أطرافها ومن المستودعات والمخازن الملتهبة .. وكان المرء يشاهد في كل ناحية هياكل دبابات وسيارات تلتهب وتحترق ، وقد أحمرت جوانبها من شدة اللهب ..

وعندما اعتمد رومل التقدم الى الامام .. تصدت له نار حامية تنطلق من أحدى اعشاش المقاومة ، فأنذر الموضع بوجوب الاستسلام .. ولكن حاميته ردت على الانذار بنار اشد وأقوى ..

وعلى الاثر اندفع العريف هوبرت التابع لمقر القائد الاعلى للجيش .. متقدما مع ثمانية جنود من بطاريات الدفاع الجوي ، وأغار على العش المقاوم .. فأخرس المقاومة ودمر الموضع بالقنابل اليدوية .

وبعد قليل أعلمت قيادة الفيلق الالماني بان حصن (بلاسترينو) المقر العام لحامية الدفاع استسلم بدون قيد أو شرط .. وتبعه سقوط حصن سالار على الفور ..

وفي الساعة ٢١ والدقيقة ٥٥ ، تم الاستيلاء على الميناء والمدينة معا .. وكانت الفرقة المدرعة الواحدة والعشرين ، أي الفرقة الخامسة الخفيفة سابقا ، هي أولى الفرق التي وصلت الى المدينة .. وشرعت أثناء الليل في تطهير ميدان الموقعة .. وفي الغد استأنفت هجومها نحو الغرب ، وسقط ثلثي القلعة في حوزة القوات الالمانية ، وتم احتلال طبرق في يوم واحد ، وفي أقل من أربع وعشرين ساعة ..

ويعزى هذا الظفر الرائع الى فكرة رومل الهجومية المطلقة .. وروح الهجوم المتمكنة في قواته ووحداته ، ومهارة قيادته الحربية التي لا تجارى .. ولقد بدأت الموقعة الكبرى في ٢٦ أيار ، بقوة المانية مؤلفة من ٣٢٣ دبابة ، و ٩ دبابات قيادة ، و ٥٢ سيارة استطلاع تابعة للفيلق الالماني ، و ٢٠٣ مدرعات، و ٧٦ سيارة تابعة للفيلق الآلي الايطالي ..

وكانت الخسائر في الايام الاولى ثقيلة جدا ، بالرغم من اصلاح الدبابات والمدرعات التي أصيبت أثناء قتال الميدان ، يضاف اليها مدرعات ودبابات العدو المقتنصة ، التي أدمجت وأستعملت من قبل الوحدات المدرعة .. فقد أصيبت هذه الوحدات بأضرار وخسائر محسوسة ، ولما انطلقت من مواضع الدفاع تنفيذا للهجوم التالي .. بعد أن تجمعت بطاريات الفيلق من عيار ٨٨ مم لمساندة المدرعات الالمانية .. اظهرت قوات ريتشي الانكليزية عدم استعدادها للتلاقي معها في حلبة الميدان ، ولم تستطع الفرقة المدرعة مجابهة هذه المدافع والتصدي لها . وكانت اغلب مدافع دبابات (غرانت) ذات المرمى البعيد ، معطلة مخربة بفعل نيران هذه المدافع .. كما كانت دبابات (هنيتنك) الباقية طريدة سهلة ولقمة سائغة للمدافع ضد الطائرات .. وبالفعل فقد ظل العدو حتى آخر لحظة في جهل تام بمقاصد ونوايا رومل ..

لم يوفق الجيش الثامن في تفادي التدمير الكامل والوقوع في الاسر .. الذين تعرضت لهما وحداته .. الا لان اجزائه نجت بنفسها طليقة من كل اثقالها ، ومن تجهيزاتها ومعداتها المختلفة .

اما في طبرق فلم ينج احد منهم .. ووقع في الاسر ٢٨٫٠٠٠ مقاتل

و ۰۰۰ر٥ رجل من عمال المصالح الخلفية ، فالحرس البريطاني الذي كان يعتبر أفضل القوات الانكليزية .. أضاع تقريبا كل مدفعيته في نايتسبريدج .. ومزقت قوات جنوب افريقيا في الفزالة ، وقوات الهنود في العضم تمزيقا كاملا .. وغنمت القوات المدعة الالمانية غنائم عظيمة .. كانت على جانب من الاهمية بالنسبة لقوات المحور ، بالرغم من ان العدو كان يسعى لاتلاف كافة المستودعات والمخازن التي كان يضطر الى تركها .. وقد حدث نفس الامر في المعسكر الالماني أثناء الشتاء الماضي .

ومما يذكر في هذا الصدد ، أن أحد المدراء الالمان لم يرض أن يسلم للقوات المتراجعة مواد تموينه .. بداعي أنه سجّل ضبطا باتلاف واحراق المواد الموجودة . ولكن الانكليز أضاعوا الفرصة الملائمة ، واهملوا فوق ذلك أوراق الاتلاف .

وكان كل ما خزنته الامبراطورية وجمعته في طبرق أثناء الشهور الطويلة ، قد وقع بكامله سالما في أيدي القوات الالمانية .. ومنها السيارات والوقود ، والمدافع والدبابات ، وأخيرا الاغذية التي حصل عليها الجيش المدرع ، والتي ساعدته كثيرا على التقدم نحو الحدود المصرية دون انتظار أو توقف ..

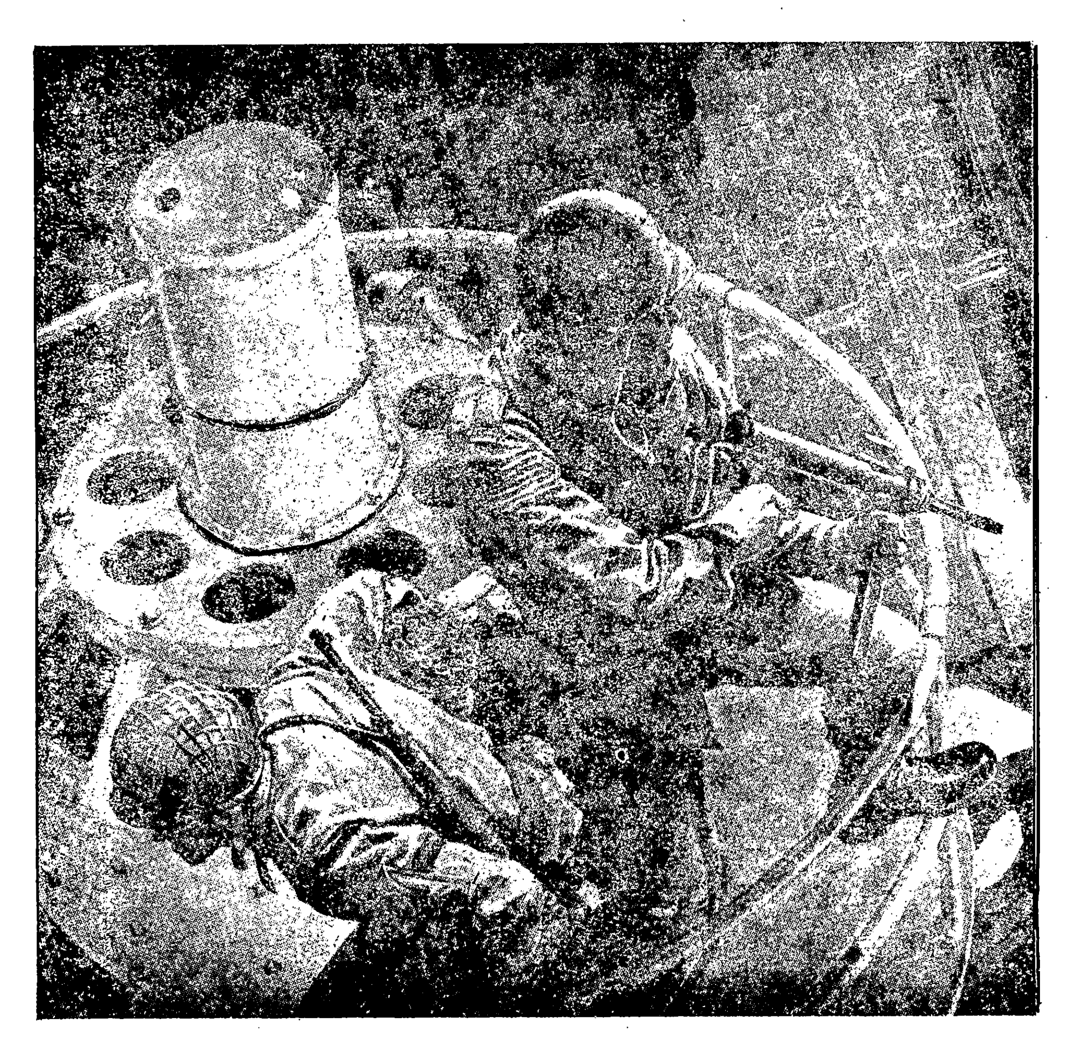
واكتفى رومل عن طلب العون بتقديم المواد الكثيرة الموقوفة قيد الشحن ، عن طريق نابولي والطريق البرية ، لايصالها الى القوات الالمانية المحاربة ، وقد حلت مسألة التموين التي طالما لم تجد حلا الى الان في برلين وروما بفضل الغنائم الانكليزية الوفيرة .. واقتصر اليوم التالي على أعمال التطهير في المنطقة المحصنة .

وفي نهاية صبيحة اليوم كان طريق (فيابالبيا) مفتوحا لعمليات النقل ، وكانت قوافل الاسرى تنصب على المدينة في كل لحظة ، واستسلم الجنرال كلوبر قائد فرقة القوات الافريقية الثانية .. وحاكم القلعة في الساعات الاولى من النهار ، حيث واجه رومل على طريق فيابالبيا .. فأوعز القائد الالماني بوجوب جمع الوحدات ، واعادة النظام والتهيؤ للانطلاق من جديد ، بعد تأمين الذخيرة والوقود والاعاشة اللازمة للجيوش .

ثم عاد الى الميناء مع الجنرال كلوبر الذي كلف بتهيئة وتنظيم توزيع الماء والاعاشة للاسرى الانكليز .

وأثناء معركة الفزالة بلغ عدد أسرى البريطانيين ۰۰۰ر٤٥ رجلا ، بينهم

خمسة جنرالات وظفر الالمان بما يقارب الالف دبابة وسيارة مصفحـــة ..
ودمر أو اقتنص ما ينيف على ٤٠٠ مدفع ، وكسب الالمان في موقعة طبرق
ما يقرب من ٣٠ دبابة انكليزية ، كانت كلها صالحة للاستعمال . وكانت هذه
الغنيمة في نظرهم ذات قيمة كبيرة .



المعارك امـــام القلعـــة

الفصل العاشر

الاستعداد لمعركة الدبابات التي فشل فيها وايفل نقلا عن المصادر الالمانية الرسمية

بقلم بول كاريل
الصحفي الالماني في جيش افريقيا

تشرشل وطبرق :

تجاوز الوقت منتصف الليل ونستون تشرشل قابع في فراشه غارق في تفكير عميق يتأمل بين يديه أسوأ برقية تلقاها في ذلك اليوم من شهر نيسان عام ١٩٤١ .

كانت البرقية تحمل نبأ انهيار وايفل في برقة .. وقد عبّر تشرشل عن قلقه وتأثره في ذلك الوقت ، في مذكراته عندما قال :

« كنا نعيش في المنزل يسيطر علينا رجاء ملح هو تحقيق انتصار حاسم على رومل وسحق جيشه قبل أن تصل الى افريقيا الفرقة المدرعة فيصبح رومل عندئذ قويا جدا » .

أما الفرقة المدرعة المخيفة هذه ، فهي الفرقة الخامسة عشرة التي أعلنت الاستخبارات الانكليزية في المانيا قرب رحيلها الى ليبيا .

ومصير المعركة كان متوقفا على نتيجة السباق في سبيل الامدادات .. فاذا فشل البريطانيون في جلب امداداتهم قبل وصول الفرقة الالمانية المدرعة . فان كل تفكير في شن هجوم مفاجيء يصبح بعيدا . وكان من المؤكد أن لا ينجح البريطانيون في جلب الامدادات اللازمة لشن أي هجوم في الوقت

المناسب اذا اعتمدوا كالعادة طريق الرجاء الصالح حول افريقيا للوصول الى الاسكندرية عبر البحر الاحمر وقناة السويس وذلك خوفا من الغواصات الالمانية وسلاح الطيران الالماني في منطقة المتوسط .

وفي ٢٠ نيسان تلقى تشرشل من الجنرال وايفل نبأ وصول الوحدات الاولى من الفرقة الالمانية المدرعة ، والحقيقة ان الوحدات التي وصلت كانت تتألف من سرية الاستكشاف الثالثة والثلاثين ونسرية الدبابات الثالثة والثلاثين أو الفيلق الخامس عشر السيار وكلها وصلت في آذار ونيسان واشتركت بالعمليات الحربية . وكان وايفل يجهل ذلك ويخشى أن تظهر الفرقة المدرعة بدباباتها الاربعماية على الجبهة في أواخر الشهر فيسوء الموقف وقد يؤدي الى سقوط مصر اذا لم تصل الامدادات بسرعة فائقة .

وأمام هذا الوضع الدقيق قرر تشرشل أن يغامر .

ففي ٢١ نيسان كانت قافلة هامة من البواخر ترسو في جبل طارق وهي محملة بالاسلحة والمعدات الثقيلة وتتجه نحو الكاب في طريقها حول افريقيا الى قناة السويس فالاسكندرية . طلب تشرشل من الاميرالية البريطانية أن تحوّل اتجاه هذه القافلة وتقودها رأسا الى الاسكندرية عبر المتوسط . كانت القافلة مؤلفة من خمس بواخر شحن تحمل ٢٩٥ دبابة و٥٠ طائرة مطاردة وقد وصلت سالمة الى ميناء الاسكندرية بحراسة القطع الحربية الموضوعة تحت أمرة الاميرال « سومرفيل » الا باخرة واحدة اصطدمت بلغم وغرقت وعليها ٥٧ دبابة وعشر طائرات .

وكان لا بد من ايجاد تعبير يصطلح عليه حتى يمكن تبادل البرقيات دون افتضاح الامر ، وكان لا بد أيضا من أن يكون هذا التعبير ذا تأثير خاص على المتشائمين .. ووجده تشرشل في : « عملية النمر » .. وهكذا أصبح بالامكان تسمية الامدادات الهامة من الدبابات الحديثة : « حمولة النمور » .

ولما اطمأن تشرشل وأيقن من النصر أبرق الى وايفل يقول : « اذا وصلك « النمر » سيكون من المناسب القيام بعمل ما . ولقد طلبت من سلاح الجو ان يضع طائرات الهاريكان في مالطة حالما يصبح النمر في وكره . هؤلاء الهون ـ يقصد الالمان ـ سيصبحون أقل خطرا عندما يخسرون المبادرة . افكارنا كلها معك » .

وتنفس تشرشل الصعداء عندما وردته برقية يوم ١٢ أيار تنبئه بوصول « شحنة دبابات النمر » الى الاسكندرية ..

كان بين الامدادات ١٣٥ دبابة جديدة من طراز ماتيلدا ٢ ، تزن ٥و٢٩ طنا ومصفحة بطبقة سماكتها ٧٨ ملليمترا ، ومن طراز ٨٢ مارك ٢ وتزن ١٤ طنا وسماكة تصفيحها تبلغ ٣٠ ملليمترا مزودة بمدفع من عيار ٤٠ ، وكـان يعلق الانكليز على هذه الدبابة اكبر الامال . وأخيرا دبابات من طـراز ٢١ مارك ٦ الخفيفة التي لا يزيد وزنها عن خمسة أطنان ونصف الطن وتبلـغ سماكة تصفيحها ١٤ ملليمترا وتبلغ اقصى سرعتها ٦٠ كلم بالساعة .

وفي ١٥ أيار أبرق وايفل الى تشرشل يقول :

« ان النمر لا ينتظر سوى ظهور مخالبه » وكان وايفل يعني أنه لا بد الان من تدريب الجنود على استخدام الدبابات الجديدة واعدادها نهائيـا للمعركة .

وفي ٢٨ أعلن وايفل أنه أصبح على استعداد لمجابهة رومل ودحـر « الجيش الافريقي » حتى طبرق وفك الحصار عنها .

ومرة اخرى وجد تشرشل أسما لتلك العملية الحربيـة فسماها : « عملية باتليكس » ..

كل الدلائل كانت تشير الى أن معركة الدبابات المقبلة ستكون من المعارك التي لم يسبق للصحراء أن شهدت مثلها . خمسمائة دبابة سوف تتطاحن في سبيل النصر . وكان تشرشل واثقا من أن الانكليز هم الافضل .

وفي فجر يوم ١٥ حزيران ١٩٤١ ، الساعة الرابعة تماما بدأ هجـوم القوات البريطانية وكان الجنرال كريغ يقود الجيش السابع الذي يضـم الفرقة الرابعة المدرعة بدباباتها القوية . كما كان الجنرال « ميسارفي » يقود الجيش الرابع الهندي والفرقة ٢٢ من الحرس . واسندت القيادة العليـا لهذه القوات الى الجنرال « برسفورد ـ بيرس » . أما مجموع القوات التي اشتركت بالهجوم فقد بلغ ٢٥ الف جندي و ٢٠٠ دبابة وأما الهدف فكـان ايقاف زحف قوات رومل وتدمير مدرعاته في قطـاع بردية ـ السلوم ، واحتلال ممر حلفايا ثم اعادة الاتصال البري مع طبرق .

أما في ممر حلفايا فقد كان سلاح الهندسة الالماني يعمل منذ أربعة عشر يوما في إعادة ترميم المراكز والتحصينات التي بذلوا الكثير للإستيلاء عليها. ثم انشأوا تحصينات جديدة اخفوا وراءها مدافع « ٨٨ » الجبارة وكذلك المدافع المضادة للطائرات . والى جانب المدافع الالمانية كانت بطاريات الجنرال باردي الايطالي تتخذ اماكنها استعدادا للطوارىء وقد اظهرت هذه المدفعية

بسالة تستحق الاعجاب كما اتـم الالمان زرع الالغام بطرق فنية لا يمكن معها لاية دبابة ان تمر فيها .

وبينما كان الالمـــان منصرفين الى تعزيز تحصيناتهم في الممر كانت طائرات الاستطلاع البريطانية مـن طراز هاريكان تحـوم فوق المواقع . كمـا كانت المطاردات لا تنقطع عن الهجوم .

معركة جويـــة :

وذات مرة تمتع الجنود الالمان بمشهد نادر عندما نشبت معركة جوية بين طائرات « مسر شميت » والطائرات البريطانية . كان ذلك عندما قامت بضع طائرات من طراز هاريكان بالاغارة على المواقع الالمانية فـي الممر ، فقـد خرجت من الشمس طائرة مسر شميت وسرعان ما انقضت على احـدى الطائرات المغيرة وما هي لحظات حتى هوت الطائرة المعادية بين حلفايـــا وكابوتزو ، وهي تشتعل وقد خرجت منها مظلة تحمل قائدها ظلت الرياح تتقاذفه حتى سقط في البحر حيث التقطته احدى القطع البحرية البريطانية .

وفي نفس الوقت كانت طائرة « المسر شميت » ترتفع ثانية الى السماء لتنقض مرة اخرى على طائرة معادية اخرى وتهوي بها الى الارض وهي تشتعل كسابقتها .

والمعركة الجوية كلها لم تدم اكثر من دقيقة .

وفي المساء أذيع في الجبهة الامامية ان بطـــل المعركة هو الكابتن هونشبرغ .

وتمر ليلة الرابع عشر من حزيران هادئة ولكن العمل كان قائما على قدم وساق يشرف عليه الكابتن باخ . وكان يقول للجنود : « يا اولادي ارجـو ان ينفذ هذا العمل او ذاك .. » ولم يكن يصدر امرا لا يستطيع هو نفســـه تنفيذه . والجميع ينظرون اليه على انه الرجل الكفء في المكان اللائق .

كان الجو في الخطوط الامامية متوترا . الجنود والضبـاط يشعرون بالضيق كانوا يتوقعون شيئا ما ، وكانت الهمسات التي تتناقلها الالسن من هنا وهناك تزيد من توتر الاعصاب ، كانوا يتناقلون نبأ مثيرا عن وصـــول دبابات انكليزية لا تخترقها القنابل بل تصطدم بها وترتد وكأنها حبات مـــن « الحمص .. » ولم يكن احد من الالمان قد رآها ولكن الجميع يتحدثون عنها

وفي نفوسهم شيء من الخوف استحال مع الزمن الى نوع من الكابوس يهدئ الاعصـــاب !..

في مساء ذلك اليوم رنَّ جرس الهاتف في غرفة الملازم فريدل شميت وكان المتكلم الكابتن باح :

«يبدو أن هناك شيئا ما في الجو سيظهر هذا المساء أو غدا صباحا..»
ثم تابع يقول : « أنت محارب كفوء ومخلص وتحت امرتك قوة ذات بأس » .
فرد الملازم : « نعم ، يا سيدي الكابتن .. » وعاد صوت الكاهن باخ يقول : « عندي مهمة خاصة لك ، ستكون مع رجالك قوة الاحتياط لفيلقنا ، فـاذا استطاع البريطانيون احداث أية ثغرة عليك بطردهم خارجا .. » وأجـــاب الملازم : « نعم يا سيدي الكابتن ! » وانتهت المحادثة ..

كان أمرا جازما ولكنه غاية في البساطة .. كما لو كانت المسألة تتعلق بصنع قالب من الحلوى .

وتمر ساعات طوال قبل ان يسمع الحراس الالمان وطلائع الاستكشاف هدير المحركات مع خيوط الفجر الاولى .. فيسرع العريف فلايشمان لابلاغ الخبر ، وما هي الا لحظات حتى يجري النبأ كالبرق من مركز الى مركز .. وهنا زال توتر الليالي الماضية .. لقد اصبح الجميع على بينة من الامر ، وشكروا الله على ازاحة ذلك الكابوس الذي كان يهيمن فوقهم ، وأوجد القلق والضيق عدوا حقيقيا يمكن رؤيته ومقارعته ..

ويزداد هدير المحركات صخبا ويتطلع الضباط الالمان الى الافق البعيد فلا يرون سوى نقاط سوداء تدب تتعالى وراءها سحب من الغبار ..
انهم قادمون .. وفي الطليعة مدرعات الفرقة الرابعة الهندية ..
في تلك الاثناء كان الكابتن باخ يقف قرب مدفع ٨٨ من طراز « فلاك » وهو يفكر بأن هذا السلاح الجبار ستكون له الكلمة الفصل في الساعـــات المقبلة ..

وفجأة تكلم الكابتن باخ فسأل « ريختر » :
ـ على أي مسافة أصبحت هذه المدرعات ؟
ـ اعتقد انها على بعد ٣٨٠٠ متر يا سيدي ..
وصمت لحظة ثم قال :
ـ اذن لا يزال أمامنا متسع من الوقت .. وهم قادمون على كل حال..
وكان الامر الذي صدر لرجال المدفعية ان لا يطلقوا مدافعهم مهما كان

السبب .. يجب أن يتركوا الانكليز يقتربون .. وفعلا كان هؤلاء يقتربون ولكن ببطء . وكلما مرت الدقائق كانت الايدي ترتجف والقلوب تخفق بشدة في جو قاتل من الصمت ..

كانت الدبابات قادمة من الشرق ومن خلفها الشمس .. شمس محرقة تعمي الابصار .. وتستمر الدبابات في زحفها وكأنها وحوش سوداء ..

وشيئا فشيئا تلوح دبابة «مارك ٢» المرعبة وتتبعها دبابات أخرى وعلى مسافة منها تأتي دبابات « ماتيلدا ٢ » الثقيلة وهي تسير ببطء شديد كمشية المشاة ..

معركة الدبابات :

وقبل أن تتجاوز الدبابات الزاحفة بلدة حلفايا كانت الاوامر تصدر الى الجنود الالمان أن يختبئوا .. فقد بدأت قذائف العدو تنهمر بشدة وبدأت معها معركة السلوم ..

ويختلط صفير القنابل بدوي الانفجارات ، وتخرج من الارض باقات لاهبة من الرمال والبارود والدخان ويتعالى في الجو فتات الصخور والحجارة ..

ولكن قذائف البريطانيين كانت تنصب كلها في الفسحة الواقعة بين مراكز الفرقة الثالثة ومواقع المدفعية المضادة للطائرات حيث لم يكن يوجد لا انسان ولا عربة . وتستمر نيران العدو مركزة على هذه المنطقة الخالية دون أن يفطن المهاجمون الى الخطأ . وكانت الاوامر تقضي على الالمان بأن يدعوا العدو يطلق قذائفه على هذا الشكل دون أن يأتوا عملا يؤدي الى تنبيهه، اذ يجب أن يترك العدو وشأنه حتى يعتقد بانه ربح نصف المعركة ..

وتندفع دبابات « مارك ٢ » الواحدة تلو الاخرى نحو مواقع الفرقة الثالثة تتبعها الشاحنات وينزل منها مشاة الفرقة الثانية الهندية ويبدأون بالزحف في تشكيلات منظمة وكأنهم يفعلون ذلك أثناء التمارين ، دون أن تنطلق رصاصة واحدة من الجانب الالماني حتى أيقن الهنود ان الالمان فروا بعيدا فأخذوا يصيحون فرحين . ولقد تحدث بذلك الاسرى الذين سقطوا في أيدي الالمان فيما بعد وهم يصفون زحف الجنود الهنود وهم لا يبالون .

وبقي الالمان صامتين لا يحركون ساكنا وهم يراقبون تدفق الشاحنات وهي تنقل الجنود المشاة وتنزلهم عند خرائب حلفايا ، وكان البريطانيون لا

يعرفون شيئا عن المسافة القريبة التي تفصلهم عن مدافع الالمان ورشاشاتهم وبنادقهم .

وفجاة ينطلق دوي هائل يمزق حجب السماء ويتميز عن أصوات المدافع الانكليزية بوضوح ..

انه المدفع الجبار ٨٨ من طراز فلاك .. الذي اعلن بدء المعركة من جديد ..

وتنهال القذائف على القوات المهاجمة وهي في مرمى جمع انواع الاسلحة . ها هي قبة احدى دبابات « مارك ٢ » تندفع في الفضاء ثم تسقط قرب الدبابة .. ويجزع البريطاييون وتمتليء قلوبهم أسفا .. « حتى دبابة مارك ٢ لا تصمد أمام هذا المدفع ! » ولكن لم تهن منهم العزائم فقد كانوا مصممين على احتلال الممر والطريق الساحلي والاحتفاظ بمرفأ السلوم كمركز للتموين مهما كلف الامر .

كانت المدفعية الايطالية هدفا لنيران الانكليز الا أن رجال الجنرال باردي استمروا في اطلاق مدافعهم وكان الجنرال باردي نفسه يقف بينهم يقودهم كما كان يفعل ذلك أثناء التمارين .

ممر صعب :

استحالت المنطقة بأسرها الى قطعة من جهنم .. وهذه هي الحرب الحديثة انها مجزرة فنية . احدى عشرة دبابة « مارك ٢ » تشتعل فيها النيران أمام مراكز الالمان وتنصرف عنها المدافع لتقذف بنيرانها مجموع المشاة المهاجمين ... وكانت النتيجة مرعبة . لقد أصبح ممر حلفايا بالنسبة الى الانكليز « ممر جهنم » .

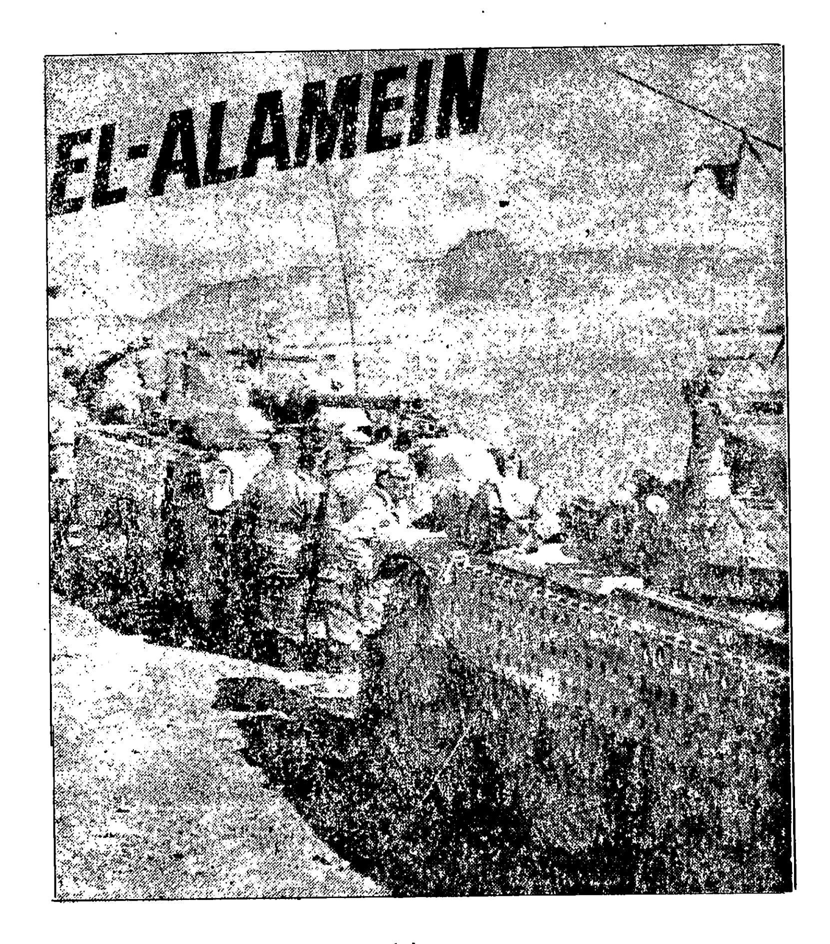
أما في جبهة الفرقة الاولى فلم يكن حظ البريطانيين بأفضل من حظهم أمام مواقع الفرقة الثالثة .

كانت هذه الفرقة تحتل المحور الذي يؤدي الى طريق القمم باتجاه مرتفع السلوم . وكانت الدبابات البريطانية تبدو من أعلى الهضبة وكأنها دمى .. وهي تسرع الزحف نحو حقول الالغام .

ظل الالمان قابعين في مواقعهم لا يبدون حراكا فلما اقتربت دبابات العدو تركزت الانظار على حقول الالغام ترقب النتائج ، وها هي خمس دبابات

« مارك » قادمة نحو خطوط الفرقة الاولى ، انها على بعد أمتار فقـــــط . وفجأة تتصاعد سحب الغبار تلف احداها فتتسمَّر في مكانها ويسمع بعـــد ذلك انفجار مدو وتتابع الدبابات الاخرى سيرها وكأنها لم تشعر بما جرى فتلاقي الثانية والثالثة نفس المصير .. وتقف الرابعة ،وفجأة ينفتح برجها ويخرج منها أحد الجنود ليقفز الى الارض فينفجر لغم آخر يمزق جســـد الرجل اربا اربا .

ويتطلع الكابورال « فولز » الى ما حدث ويقول في نفسه : « يا الهي.. كيف يمكن للمرء ان .. » لقد نسي فولز الحرب ، نسي أنه الرجل الـــذي قتل عدوه ، فاستبد به شعور انساني ثائر .. اذ كيف يمكـــن أن يتصرف



الجندي هكذا .. لقد ثار على هؤلاء الذين « لا يحترمون القواعد .. التي يجب على كل جندي في افريقيا أن يعرفها .. عندما يجد المرء نفسه وسط حقل من الالغام يجب عليه أن يسير برفق يتحسس الارض برجله شبرا فشبرا وهو رافع يديه . لان أحدا من الجنود الاعداء لن يصوّب اليه النار وهو في وضع كهذا » فلماذا تصرف هذا البريطاني بصورة بلهاء وقفز قفزة الموت ؟

لم يعد هناك سوى دبابة واحدة .كان الجنود الالمان يرقبون انفجارها بين لحظة واخرى . ولكنها لم تنفجر .. لقد اجتازت حقل الالغام وأخذت تتقدم نحو الخطوط الالمانية . وباستطاعتها أن تجتازها بسهولة لتصبح الطريق امامها سهلة حتى السلوم .

ولكن ها هي تقف فجأة .. فماذا حدث ؟ لعلها شعرت بالوحدة فخافت ! ثم استدارت متراجعة داخل منطقة الالغام . ويدوي انفجار مريع وتقف الدبابة في مكانها . وترتفع قبعتها ويخرج منها الجنود واحد بعد الآخر وقد احسوا بما جرى وتقدموا نحو الخطوط الالمانية وهم رافعو الايدي يتبعون نفس آثار الدبابة .

بدأت الشمس تميل الى الافق والقنابل لا تزال تنصب على مواقع ممر حلفايا ، بينما يستمر الجنود البريطانيون يندفعون تائهين في الوادي حيث لا يوجد أي جندي ألماني .

مدفعية الجنرال الايطالي باردي وحدها تتحمل ثقل المعركة فتنفجر القنابل بين صفوفها والجنرال نفسه صامد يقوم بالعمل على أحد المدافع . وقد أتى رومل فيما بعد وشدَّ على يد باردي تقديرا لبسالته وبسالة جنوده .

حيث يموت الابناء والآباء :

واخذت قوات المشاة البريطانيين تزحف من جديد مجتازة خرائب بلدة حلفايا وكان في الطليعة الفرقة الهندية الثانية وفرقة الحرس الثانية والعشرون . وكان عليهم أن يندفعوا في أرض منبسطة كأنها المرآة وكل واحد منهم يشعر أن له والدة في وطنه تنتظره بشوق وكل واحد منهم يحب الحياة .. ولكن كل واحد منهم كان يعرف أن أمامه واجبا هو طرد الالمان من أوكار ممر حلفايا !

وفي الجهة المقابلة نجحت قنابل الانكليز في فتح بعض الثغرات بين صفوف الالمان حيث يموت هنا ايضا أبناء وآباء .. ولكن هبوط الليل وضع حدا للمعركة بانتظار اليوم التالي .

سقوط كابوتزو :

وتشرق شمس السادس عشر من حزيران ١٩٤١ ويبدأ مع شروقها اليوم الثاني لمعركة السلوم . كانت درجة الحرارة عند الظهر تتراوح بين ٥٥ و ٦٠ درجة وقد فرغت قرب الجنود من المياه . وبينما كان جنود الفرقة الرابعة المدرعة من الهنود والانكليز يحاولون مرة تلو اخرى اقتحام مواقع الالمان عند مرتفعات الممر ، كان قسما جيش بريسفورد ــ بيرس يندفعان الى اليسار من ممر حلفايا ، وقد اتجه القسم الاول نحو كابوتزو في خط مواز للشاطىء ليواجه الجيش الخامس عشر المدرع الذي يقوده رومل مباشرة من مركز قيادته في البردية ، اما القسم الثاني من جيش بريسفورد ــ بيرس فقد كان يزحف نحو الجنوب محاولا القيام بحركة التفاف واسعة.

ونجحت القوات البريطانية في احداث ثغرة في الوسط وسقطت كابوتزو واندفع الجيش السابع المدرع يهاجم الجيش الخامس عشر الالماني الذي لم يتمكن من كسر شوكة المهاجمين .

وهكذا نجح الانكليز في تحقيق المرحلة الاولى من خطتهم .

وكان نجاحهم الكامل يتوقف على أمرين :

١ ــ احتلال ممر حلفايا ..

٢ ــ نجاح القوات التي اتجهت نحو الجنوب في الالتفاف حول القوات الالمانية .

وكان على القوات الاخيرة أن تحتل موقعا في أقصى الجنوب يدعى المركز ٢٠٨ وهو نقطة ارتكاز بالنسبة للقوات الالمانية . والواقع أن هذا الموقع لا يختلف بمظهره عن بقية الارض المحيطة به والمكسوة بأجمام الشوك وليس هناك ما يشير اليه غير مقبرة قديمة ، قام بعض جنود المشاة والاطفائيلون الايطاليون بتحصينه بالاضافة الى بعض وحدات من قوات الواحات التي ألفها الالمان خصيصا لاحتلال واحات جغبوب وسيوه وكفرا .. وجرى تدريبها تدريبا خاصا ولا تزيد سن الواحد من افرادها على ٢٧ سنة ما عدا الضباط .

وقد أظهرت هذه القوات جدارتها في معارك حلفايا في المركز ٢٠٨ .. و وقد جمعت في فيلق واحد تحت اسم واحد ٣٠٠ . أما المركز ٢٠٨ فيقع على بعد ٣٠ كلم الى الجنوب من كابوتزو ويتألف من مساحة بقياس ٤٠٠ × ٦٠٠ م . وقد قام الايطاليون بحفر خنادق ومواقع للمدفعية بحيث لا يمكن اكتشاف أي مدفع عن بعد عشرين مترا . وقائد الموقع هو الكولونيل بوليفتش وتحت امرته سرية من فيلق الوحدات ووحدة مدفعية مؤلفة من ٣٧ مدفعا مضادا للدبابات وفرقة رشاشات وبطارية ٨٨ فلاك يقودها الملازم « زيمر » .

ولما كان هذا الموقع الحصين عند أقصى الجبهة الالمانية فقد كان لا بد للبريطانيين من انتزاعه حتى ينجحوا في الالتفاف حول القوات الالمانية ..

في الخامس عشر من حزيران لم يحدث شيء .. فقد كان الانكليز منهمكين في ممر حلفايا وفي فتح الثغرة نحو بردية . وفي مساء ذلك اليوم انقطع الاتصال اللاسلكي بين فرقة الموتوسيكلات الالمانية الخامسة عشرة ، وبين المركز ٢٠٨ الذي أصبح معزولا في قلب الصحراء .

وعند فجر ١٦ حزيران أخذت سرية الدبابات السابعة البريطانية التابعة للجيش السابع المشهور ، تقترب من النقطة ٢٠٨ الحصينة .

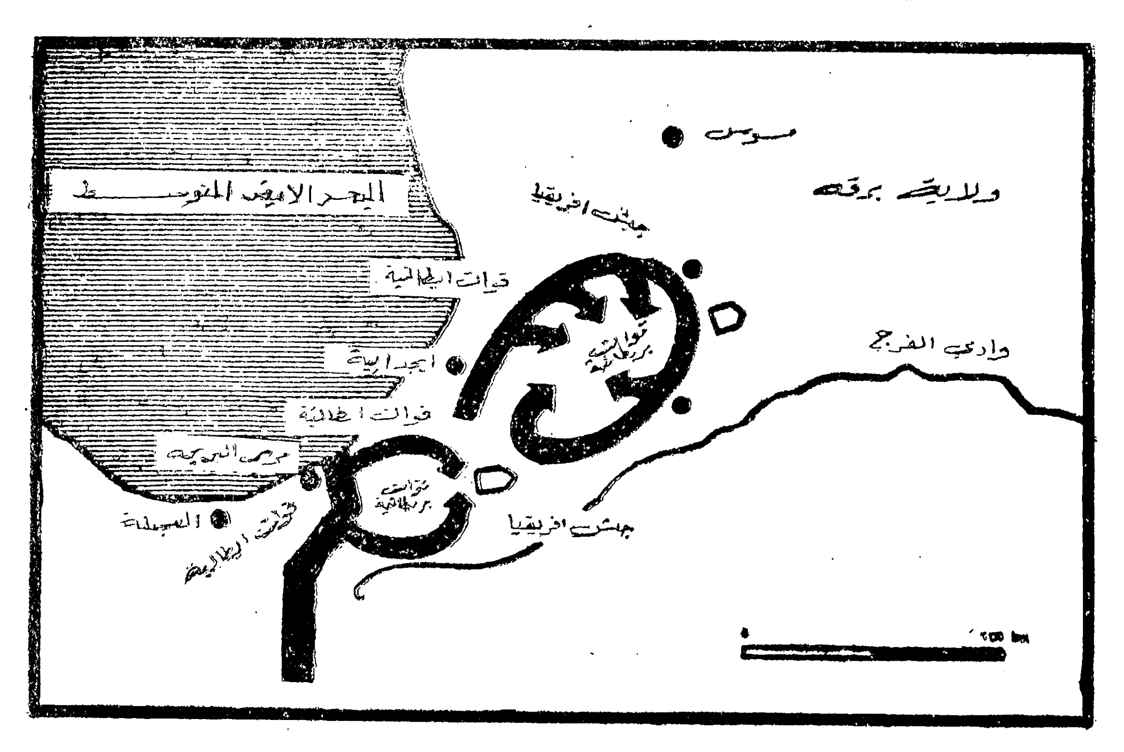
كان الكولونيل بوليفتش قد نهض من فراشه وهو منهمك في حلاقة ذقنه عندما أخبروه باقتراب الانكليز فأسرع الى الخارج وأعطى أوامره قائلا : « اياكم أن تطلقوا النار قبل الاوان .. يجب أن تنتظروا حتى يبدأ المشاة بالهجوم فتصبح الدبابات قريبة جدا » ..

وطلع النهار بسرعة وخيل للالمان أن دبابات البريطانيين الآتية اليهم تكاد تعلو عن الارض تتبعها هبوات من الغبار . وانتقل بوليفتش الى المدفع ٨٨ وكان رجال البطارية قد اكتشفوا ٣٠ دبابة انكليزية . وعاد الكولونيل مرة ثانية لاكمال حلاقة ذقنه بسرعة وكان قلقا بعض الشيء فهو لا يعرف جنوده الا منذ عشرة ايام ولا يعرف بالتالي قوة أعصابهم . كان يخشى أن يفقد أحدهم سيطرته على أعصابه فيطلق النار فتتراجع دبابات الانكليز في الوقت المناسب .. وتقف في مكان تستطيع فيه اطلاق النار وهي بمأمن من نيران المدفعية الالمانية .

وتستمر الدبابات البريطانية وهي من طراز مارك ٢ في التقدم ويعد الملازم « زيمر » منها سبعين ، ثم يلتفت الى رجاله ويقول : « لنبق محتفظين بهدوء أعصابنا يا أولادي » ..

ها هي أول دبابة تخترق نطاق الموقع ويصدر الامر باطلاق النار بالقدر المستطاع .. وفي لحظة بدأ مدفع ٨٨ الشهير يزأر بشدة فيطير في الجو برج الدبابة ومدفعها .. وتتابع الطلقات بعد ذلك وتتوقف الدبابة الثانية والثالثة الخ .. وتشترك المدافع المضادة للدبابات بالقصف وتعوي بشدة بينما تحصد الرشاشات شاحنات الجنود قبل أن يغادروها . فكان لا بد من الانسحاب .. فتراجع الانكليز تاركين وراءهم احدى عشرة دبابة . وعندما سحب الاسرى من داخلها كان بينهم أحد الضباط برتبة كابتن .. وكان يصر على رؤية المدفع ٨٨ .. فلما رآه وقف أمامه وهز رأسه وقال :

ــ لا يبدو عليه أنه فعَّال الى هذا الحد ولكنه مع ذلك كان البلاء الاعظم بالنسبة لدباباتنا من طراز مارك ٢ .



خريطة عسكرية : لحركات التطويق التي قام بها رومل ، وهي تمثل القطعات الانكليزية التي صار تطويقها قبل القضاء عليها ... وقد تم القضاء عليها فعلا .

وبعد الظهر قام البريطانيون بهجوم ثان ولكنه أسفر عن فشل تام وخسروا ١٧ دبابة أخرى وأصبح مجموع الدبابات المحطمة أمام النقطة الالمانية ٢٨ دبابة من أحدث طراز .

وأعادوا الكرة مرة ثالثة بسرعة مدرعة كاملة .. فكان نصيبهم الفشل ايضا .. وثارت أعصاب الانكليز وافلتوا قوات المشاة في هجوم عنيف أخير . وعلى بعد ٣٠٠ متر من الهدف أوقف الهجوم مرة أخرى أمام قوة نيران الرشاشات حتى أصبحت الارض ملأى بجثث القتلى . أما حامية الموقع الالماني فكانت خسارتها جريحان ومدفع مضاد للدبابات .

وهبط الظلام وأخذ يفكر رجال الحامية بالغد لقد نقصت المؤن ولم يعد هناك مياه تكفي .. وكان رجال المدفعية يعدون القنابل الباقية بقلق .. ماذا عساهم فاعلين غدا ؟ ..

فشل العمليـــة :

وتدخل القدر لينقذ الحامية فقد أعيد الاتصال معها في ذلك المساء . وأثارت شجاعتها في صد هجمات الانكليز الاعجاب فأرسل اليها على عجل نجدات من المؤن والذخيرة والمياه .. ولكن الانكليز لم يستأنفوا هجماتهم فقد اكتفوا بما حدث ووجهوا همهم ناحية السلوم ، حيث كانت معركة الدبابات الكبرى تستعر وتسير في طريق تكريس فشل البريطانيين في عملية « باتليكس » .

لقد فشلت عملية باتليكس لان الانكليز فشلوا في احتلال ممر حلفايا ودحر حامية الموقع ٢٠٨ في قلب الصحراء .

وكان انتصارا كبيرا لرومل ولقيادته وجنوده المتفوقين ولجودة أسلحته .

أما معركة السلوم فقد جرت كما يلي :

في اليوم الاول احتلت طلائع الجيش السابع البريطاني المدرع كابوتزو واحدثت ثغرة باتجاه بردية .. وأمام قلعة كابوتزو سارت الامور بسرعة فقد ظهرت أمام المواقع الالمانية فجأة خمسون دبابة انكليزية فصدرت الاوامر للقوات الالمانية بالتراجع ولكن سرعة الدبابات الانكليزية أحالت التراجع الى هزيمة . فسقط كثير من الجنود الفارين صرعى أو جرحى . ولم ينقذ الوضع سوى مدفع واحد من عيار ٨٨ استطاع الملازم « توكي » أن يصحبه

من بردية . وكانت ثلاث طلقات منه كافية لايقاف هجوم الدبابات البريطانية التي أصيب منها ثلاث فتراجعت الاربعون الباقية .

وفي نفس الوقت قام الكابتن « كيوميل » بهجوم معاكس على رأس الفيلق الثامن المدرع المزود بمدافع عيار ٧٥ ، أسفر عن تدمير ١٢ دبابة مارك ٢ والقضاء على كل رغبة للانكليز بمتابعة الهجوم . ومنذ ذلك الوقت سمي الكابتن كيوميل « أسد كابوتزو » ..

بأي ثمن :

أما في ممر حلفايا فقد صمد الكابتن باخ صمودا طيبا عند جناح القوات البريطانية وحال بذلك دون نجاحها في الوصول الى الطريق الساحلية المؤدية الى السلوم والتي يعتبرها البريطانيون هامة جدا لتأمين المؤن في معركة الدبابات في قطاع بردية ـ طبرق . وقد أرسل رومل برقية الى باخ يقول فيها . « كل شيء يتوقف على ممر حلفايا .. احتفظ به بأي ثمن » .. وفهم باخ ماذا يعني رومل .. بل فعل أكثر مما طلب اليه .. لقد أخرج الانكليز من خرائب بلدة حلفايا نفسها .

موقف حرج :

كان موقف قوات رومل في وقت من الاوقات حرجا للغاية ، فقد فشلت في استعادة كابوتزو وفقد الفيلق الثامن المدرع التابع للجيش الخامس عشر معظم دباباته .. فكان لا بد والحالة هذه من ارسال الجيش الخامس المدرع بأسرع وقت ممكن الى ساحة المعركة .. والواقع أن عبقرية رومل تتجلى هنا عندما اتخذ قرارا بسيطا وهاما في نفس الوقت . لقد فتح أمامه صمود النقطة ٢٠٨ مجال التفكير بامكانية تسيير الجيش الخامس اليها ومن ثم مهاجمة جناح الانكليز والالتفاف حول القوات المعادية .

انهيار وهزيمة :

وفعلا .. تحركت مدرعات الجيش الخامس الالماني باتجاه الجنوب نحو سيدي سليمان وسيدي عمر حيث وصلت مساء ١٦ حزيران . واتخذ رومل في هذه اللحظة قرارا خطيرا مليئا بالشجاعة والجرأة .. فقد أصدر أوامره الى القوات المحاربة في جبهة كابوتزو بالانسحاب تحت أنف

البريطانيين ودفع بها الى الجبهة الامامية عند سيدي عمر وسيدي سليمان، أي أمام القوات البريطانية التي تقاتل باتجاه بردية وممر حلفايا . وقد أدت هذه الحركة البارعة الى انهيار البريطانيين فأصدر الجنرال « بريسفورد ـ برس » أمره بالتراجع الذي تحول الى تقهقر فهزيمة !

كان ذلك يوم السابع عشر من جزيران الذي كتب عنه تشرشل في مذكراته يقول :

« في السابع عشر انهار كل شيء .. لان بعض الضباط من جيش افريقيا وعددا من الجنود صمدوا في ممر حلفايا وفي الموقع ٢٠٨ ، وقعت معركة كبرى كاد مصير افريقيا أن يقرر فيها ، معركة هامة ربحوها بفضل شجاعتهم وبفضل القرارات التي اتخذها رومل اعتمادا منه على قوة شكيمتهم » .

والواقع أن الشجاعة وحدها لم تكن كل شيء .. فان هناك الاسلحة الجيدة وعلى الاخص مدفع فلاك ٨٨ الذي فعل العجائب .

دامت « معركة باتليكس » ٧٢ ساعة كان الجنرال ويفل خلالها يأمل في قلب الموقف في افريقيا . ولكن جهوده ذهبت عبثا لان الجنود الالمان والاسلحة الالمانية كانت هي المتفوقة .

ولم يكن التفوق للمدفع ٨٨ بقدر ما كان أيضا للدبابات الالمانية .

لقد فقد الجيش الالماني الخامس عشر كثيرا من الدبابات ولكن تنظيم اجهزة التصليحات أدى الى سحب الدبابات المعطلة واصلاحها ثم استخدامها من جديد .

هذا العمل أدهش البريطانيين وجعل تشرشل يعرب في مذكراته عن اعجابه الشديد بذلك العمل .

ولقد خسر البريطانيون ١٢٢ جنديا و ٢٥٩ مفقودا و٥٨٨ جريحا وأكثر من مئة دبابة . هذا الى جانب عدد كبير من الدبابات المعطلة التي أمكن سحبها أثناء التراجع ، وبذلك فقد جيش ويفل القوة المدرعة .

أما خسائر الالمان فكانت كما يلي :

٩٣ قتيلا و ١٣٥ مفقودا و٣٥٠ جريحا و١٢ دبابة دمرت و ٥٠ اصيبت بأضرار .

انتهت معركة « باتليكس » ولكن الحرب لم تنته والهزائم التي مني بها الانكليز سيفيدون منها في المستقبل . ولكن هل يمكنهم رومل من ذلك ؟

كانت المعركة الاخيرة حاسمة وكادت نتائجها تثبط عزيمة البريطانيين الى الابد . فقد لاحظت القيادة العامة أن معنويات الجنود ليست كما يجب ، وانهم اخذوا يميلون الى الاعتقاد بأن الالمان لا يقهرون . أما في لندن فقد كان الغضب بالغا اشده في نفوس الحكام وخاصة لدى تشرشل الذي نقل السير ارشيبالد وايفل الى الهند ، وسلم القيادة الى رجل عرف بصلابة العزيمة والصبر والعناد هو السير كلود اوكنليك ..

فهل ينجح القائد الجديد في ايقاف رومل عند حده ؟

من المؤكد أن النصر في الحرب يكون دائما الى جانب الفئة التي تملك افضل تكتيك عسكري واشجع جندي وأقوى سلاح . ولكن الواقع هو غير ذلك لان الخيانة هي شيطان « مارس » اله الحرب . فكثيرا ما تحطم أعماله وتفسد عليه خططه العبقرية وتهزأ بشجاعة الابطال وبالاسلحة القوية وبروح التضحية .

وكم من معركة ربحها شيطان الخيانة .. وكم من معركة كذلك ربحتها الشجاعة والقوة . هذا هو شأن الحروب منذ أقدم العصور .

ولكن عزاء الذين وقعوا ضحية الخيانة انها لم تعط دائما النتيجة المطلوبة لان أحدا لم يكن يؤمن بها ..

الفصل الحادي عشر

الهجوم الالماني على طبرق

المقاومة الانكليزية الضارية المثيرة والخيانة

بقلم : بول كاريل
الصحفي الالماني

الاستخبارات :

هناك حادثة غريبة تكتنفها المأساة ولا تزال في نطاق الاحداث الغامضة التي حفل بها تاريخ المعارك الدامية في سبيل الاستيلاء على قلعة طبرق .. هذه المدينة المحصنة تحصينا فنيا رائعا كانت القلعة الرئيسية للامبراطورية البريطانية في أفريقيا الشمالية . وقد صمدت بوجه هجمات رومل المتكررة حتى أوائل خريف عام ١٩٤١ . وكان تشرشل نفسه قد امر القوات البريطانية بأن تحتفظ بها حتى آخر رجل . وقد نجحت هذه القوات في الاحتفاظ بها وكان « جرذان طبرق » يحاربون كالشياطين ، لذلك ظلت مؤخرة قوات رومل وجناحها مهددان في كل وقت . وهذا ما أجبر رومل الى وقف زحفه نحو الاسكندرية والقاهرة فقناة السويس .

من اجل الوصول الى النيل كان لا بد من الاستيلاء على طبرق ، وكان رومل يقول :

« يجب أن تسط » .

وكان قواده يقولون : « يجب أن تسقط » ..

وفي تشرين الثاني ١٩٤١ كان كل شيء قد أعد للبدء بالهجوم الكبير

على طبرق . وفي أوائل الشهر كان رومل يطوف بسيارته المرسيدس المصفحة على الجبهة ، لا يكاد يهدأ في مكانه . وفي المساء كان ينصرف الى التفكير وهو قابع في الاومنيبوس الذي يقضي ليله فيه . كان يفكر بخطته ويعيد التفكير بها .. وهي الخطة التي وضعها بخط يده آخذا بعين الاعتبار جميع التجارب التي مرت به أثناء الهجمات السابقة على القلعة الحصينة . كانت خارطة المعركة بكل تفاصيلها مع مواعيد تحركات مختلف القطعات قبلته ومصلاه بالنسبة لهجومه المرتقب الكبير ونجاحها لم يكن يعني فقط سقوط طبرق فحسب ، وانما بدء الزحف الكبير نحو وادي النيل وقناة السويس .

كان رومل يحلم في الوصول الى سوريا وربما الى خليج العرب ليستولي على الامبراطورية البريطانية وجنة البترول في الشرق الادنى ، ثم احكام الاتصال مع الهند . ولكن يجب أن تسقط طبرق اولا ! ..

كان كل شيء معد للبدء بالهجوم الكبير عندما بدأ الانكليز هجوما مفاجئا .. قيل عنه أن الصدفة هي التي جعلت الانكليز يسبقون الالمان في الهجوم بمدة خمسة أيام فقط .

ولكن الصدفة هذه لم تكن في الحقيقة الا خيانة ..

لقد كان قلم الاستخبارات الانكليزية نشيطا للغاية ليس في افريقيا فقط ... ولكن في قلب روما حيث كان الاميرال الايطالي « موجاري » يطلع القيادة البريطانية بواسطة العملاء والجواسيس على جميع تنقلات بواخر التموين الذاهبة الى شمال افريقيا حاملة المعدات والجنود الى رومل . حتى أن الخسائر كانت تصل الى ٧٥ بالمئة من مجموع حمولة البواخر .

نجح الاميركيون والبريطانيون في اثارة كبار الضباط الايطاليين ضد الالمان والقيادة الالمانية مستغلين نجاح رومل في افريقيا حيث سجلوا هم فشلا كبيرا .. لقد فشل الايطاليون في افريقيا .. ونجح الالمان .. وكان هذا كافيا لاثارة حفيظة الايطاليين على حلفائهم ..

وكان الضباط الايطاليون يشعرون بأن انتصارات الالمان انما هي سهام حادة توجه الى صميم كرامتهم وسمعتهم العسكرية ! .

حظ :

وعندما اطلع « أوكنليك » على خريطة الهجوم الالماني الكبير الذي أعده رومل للوصول الى وادي النيل لم يصدق عينيه ... رغم تأكده من أن الخط خط رومل .

فقال للضابط الذي حمل اليه الخارطة :
ـ من المؤكد انه خط رومل ..
ـ بكل تأكيد يا سيدي ..
ـ ولكن يبدو أن هذا مستحيل ! لا يمكن أن يكون هذا كذلك ..
ـ ولكن هذا هو الواقع يا سيدي .
وصمت أوكنليك لحظة ثم قال وفي صوته رعشة غريبة :
ـ يا للحظ ... قد يكون في ذلك نهاية رومل ونهاية جيشه !

كانت نسخة الخريطة الاصلية تحتوي على كل التفاصيل الا موعد بدء الهجوم فاستعان أوكنليك بدوريات الاستكشاف والطائرات وتقارير قلم الاستخبارات البريطانية في المانيا وايطاليا ليحدد على وجه التقريب موعد الهجوم الالماني المرتقب .

وقرر أوكنليك بعد دراسة طويلة أن يستعد للانقضاض على جناح القوات الالمانية بعد أن تكون قد بدأت هجومها . فقام يحشد كل قواه بسرعة حتى لا يسبقه رومل . وفي ١٤ تشرين الثاني كان أوكنليك وقواته على استعداد لاستقبال الالمان . ولكن الالمان لم يهجموا .. فمر الرابع عشر دون حادث وكذلك اليوم التالي . وكانت لندن والقاهرة تترقبان هجوم رومل وهما على أعصابهما .

الهجوم قسرا :

وفي مساء ١٦ تشرين الثاني بدأت لندن تفقد أعصابها فالقوات البريطانية تتمركز في أماكن انطلاقها منذ ثلاثة أيام ، وكلما مرّ الزمن ازداد الخطر من امكانية اكتشاف الطائرات الالمانية لهذه التجمعات ..

فلما مر السابع عشر من الشهر دون حادث أيضا فقدت لندن السيطرة على أعصابها وأخذت الاتصالات اللاسلكية مع القاهرة تتوالى . كان اوكنليك يريد الانتظار أيضا ، بينما كان تشرشل يعتقد أن الظرف مناسب لضرب رومل استنادا الى قوة الجيش الثامن أولا ثم الى عنصر المفاجأة . وهكذا أصدر تشرشل أمره الى اوكنليك بالهجوم يوم ١٨ :.. ووجه بهذه المناسبة أمرا يوميا الى الجنود قال فيه : « لاول مرة تبدأ قوات بريطانيا والامبراطورية هجوما على القوات الالمانية وهي مجهزة بمعدات هامة ، ان هذه المعركة ستؤثر على مجرى الحرب بأسرها ، لذلك يجب توجيه أقوى ما يمكن توجيهه من

ضربة في سبيل النصر والوطن والحرية ، ان جيش الصحراء سيكتب صفحة جديدة في التاريخ الذي يمكن تشبيهه بتاريخ معركتي بلنهايم ووترلو .. ان انظار العالم مركزة عليكم ، وقلوبنا تخفق مع قلوبكم والله مع الحق . »

وعند فجر ١٨ بدأ اوكنليك هجومه قسرا ، وفي نفس الوقت بدات السماء تمطر بشكل غريب وسرعان ما تحولت الامطار الى سيول وفيضانات عاثت في صفوف الالمان اكثر مما يمكن أن يفعله جيش اوكنليك !

وبينما كان الجنود الالمان في حلفايا وغمبوت يقاومون السيول والاوحال ويتعرضون لانفجار حقول الالغام بتأثير ضغط المياه حتى استحالت ساحة المعركة الى قطعة من جهنم ، كان رومل بعيدا عنهم في روما .

افتضاح الخطة :

وفي ليل ١٧ – ١٨ تشرين الثاني وكان (جرذان طبرق) كما يسمي الاستراليون المدافعون عنها أنفسهم ، ينتظرون الساعة الحاسمة التي تقبل فيها قوات الجيش الثامن لترفع الحصار المضروب عليهم .. منذ الصيف الماضي ..

وكانت القوات المهاجمة تتألف من الف دبابة وسيارة مدرعة بينما لم يكن يملك (رومل) نصف هذا العدد من الدبابات الالمانية والايطالية ..

ولم يكن الالمان على علم بجميع الاستعدادات العظيمة التي قام بها الانكليز ، وكانوا في صباح يوم ١٨ يقومون باصلاح الاستحكامات التي خربتها السيول في الليل ، وحوالي الظهر قبضت دورية المانية مصفحة على سيارة تابعة لاركان حرب الفرقة الهندية الرابعة يقودها ملازم أقتيد الى (البردية) حيث استنطقه الجنرال بايرلاين الالماني ، فكشف النقاب عن خريطة هجوم اوكنليك وذكر أن البريطانيين يملكون نسخة طبق الاصل عن الخطة التي أعدّها رومل للهجوم بعد خمسة أيام ..

كان وقع افادة الملازم الهندي كالصاعقة في نفس الجنرال بايرلاين الذي أسرع بالاتصال بمركز قيادة رومل في غمبوت .. ولكن ضباط قيادة رومل لم يصدقوا النبأ حتى رومل نفسه اعتقد لاول وهلة أن الخريطة التي يحملها الملازم الهندي ليست الا خدعة ، وهنا لا بد من القول أن وقوع خريطة هجوم اوكنليك الكبير بيد رومل في بدء المعركة لا يقل أهمية عن وقوع

خطة رومل للهجوم على طبرق في يد اوكنليك . فخيانة طبرق قابلتها هفوة غير مقصودة من الانكليز مع فارق وحيد هو أن رومل لم يؤمن بصـــــدق المستند الذي أمامه الا متأخرا جدا ..

استطاعت الفرقة المدرعة السابعة البريطانية ومن ضمنها الفيلـــق الحادي عشر المشهور ، استطاعت أن تخرق جبهة الدفاع الالمانية وتصل الى سيدي رزق عند أطراف الجبل المشرف على طبرق .. وصادفت الفرقــة المذكورة مقاومة ضارية من القوات الالمانية التي تمكنت من تدمير عدد غيــر قليل من الدبابات كما أنها احتلت مركزا صالحا للقيام بهجوم من الخلف ضد الوحدات البريطانية التي توغلت في الخطوط الالمانية .

وقد اضطر تفوق البريطانيين العددي رومل لاتباع خطة الهجمـــات المتوالية على مختلف وحدات العدو المهاجمة ابتغــاء تحطيم القوات المندفعة نحو طبرق .

فهل يخطيء الجنرال البريطاني كويننفهام فيدفع الى المعركة بوحداته المدرعة الواحدة بعد الاخرى ؟

الواقع أن ما فعله كويننفهام لم يخرج عن نطاق الاخطاء السابقة فأفسح المجال أمام رومل لتنفيذ خططه في القضاء على الوحدات البريطانية واحدة بعد الاخرى مضيعا بذلك فرصة استغلال تفوقه العددي !

انتقال الى الهجوم :

انتقل جيش افريقيا الى الهجوم صباح الواحد والعشرين من تشرين الثاني منطلقا من القطاع الواقع الى الغرب من مركز (سيدي عمر) ليصل الى مؤخرة الفرقة المدرعة السابعة . وكان البريطانيون في اول المعركة يملكون مائتي دبابة وعددا كبيرا من المدافع المضادة للدبابات الى جانب بطارية قوية. وبالرغم من هذا كله فقد تمكن جيش افريقيا من صد الانكليز ، ونجح فـــي الاستيلاء على المرتفعات الواقعة قرب كابوتزو وانتقل للقيام بعمليات دفاعية متحركة .

في ليل ٢٠ ـ ٢١ قامت حامية طبرق بمحاولة لخرق الحصار ولكنها فشلت .. وفي محاولتها الثانية صادفت بعض النجاح بفضل قــوة مدرعــة تتألف من خمسين دبابة ، وكذلك نجحت في (أبولونيا) وتجاوزت مــــراكز المدفعية الايطالية وافنت فيلقين من الجنود الايطاليين .. ودمرت ٣٥ مدفعا

كبيرا ، فأسرعت فرقة الاستكشاف الالمانية الثالثة لسد الثغرة ولكن الوضع ظل خطيرا .

وفي الثاني والعشرين أصدر روميل أوامره الى قواته بالهجوم . وأثناء الليل استطاع الجنرال « كرويل » أن يقود الفرقة المصفحة الخامسة عشرة باتجاه الشرق فاتخذت مراكزها بمواجهة جناح القوات البريطانية الاكثر بعدا، بينما قامت الفرقة المصفحة الواحدة والعشرين ـ سابقا الخامسة الخفيفة ـ بمهاجمة مطار سيدي رزق وقذفت بالعدو الى الجنوب .. أما الجنرال نيومان ـ سيلكو فقد كان على رأس الفرقة المدرعة الخامسة فهاجم قسما من مؤخرة العدو ، وأفنى الفرقة الرابعة المدرعة البريطانية وهي من أقوى الوحدات الهجومية وأكثرها فعالية ، وقد سقط في الاسر جنرال بريطاني و ١٧ ضابطا كبيرا و ١٥٠ صف ضابط ، وقد قام بعملية التطريق الفيلق الثامن بقيادة الماجور « فانسكي » الذي قتل في اليوم التالي من انتصاره .

وفي اليوم التالي لم يقم العدو بأي هجوم بمواجهة طبرق ، ولكن الانكليز توغلوا كثيرا ليهاجموا جبهة السلوم وممر حلفايا من الخلف فصمدت جميع المراكز التي هاجموها ما عدا قلعة « كابوتزو » التي احتلها النيوزيلنديون .

وأمام هذا الوضع قرر روميل اتباع الخطة التالية :

أولا ـ العمل على تحطيم قوة العدو الرئيسية المهاجمة امام طبرق وذلك بواسطة هجوم مركز تقوم به جميع القوات المتحركة الالمانية والايطالية .

ثانيا ـ القيام بهجوم سريع نحو الشرق لتحرير جبهة السلوم .

وكان يوم الاحد في ٢٣ موعدا للبدء بتنفيذ الخطة وكان أبرز أيام هذه المعركة ، وقد سمي « أحد الاموات » .. كان روميل بعيدا فلم يكن باستطاعته اعطاء أوامره شفهيا لذلك أرسل برقية مطولة الى الجنرال كرويل الذي كان يقود جيش افريقيا ، وقد رأى كرويل منذ البدء أن فك رموز البرقية يتطلب وقتا طويلا فهل ينتظر حتى تحل رموزها وبذلك يخسر وقتا ثمينا ؟

يقول « بايرلاين » :

ـ ولما كان عندنا نظرة عامة صحيحة عن وضع العدو فاننا لم ننتظر حل رموز البرقية ، وانما غادرنا في الساعة الخامسة والنصف مركز القيادة العامة لنتوجه الى الفرقة المدرعة الخامسة عشرة ، وكان معنا السيارة

« ماموث » اتي غنمناها من الانكليز وسيارتين أخريين من سيارات القيادة ، وما تبقى خلفناه وراءنا ..

وهذا مما يؤسف له لانه بعد مرور نصف ساعة على رحيلنا هوجم مركز القيادة ورئيس الشعبة الثانية الكونت بوديسان وسقط في الاسر هو ومن معه من ضباط أركان القيادة . أما أنا والجنرال كرويل فقد نجونا من الاسر ولم يكن بيننا وبينه سوى القليل .. »

خطة تطويق العـــدو :

وفي صباح يوم ٢٣ تشرين الثاني كانت القوات الالمانية ـ الايطالية على أتم استعداد لبدء القتال جنوبي طبرق وكانت الفرقـــة المدرعـة الواحـدة والعشرون تلتزم خطة الدفاع في سيدي رزق . أما الفرقتان الايطاليتـــان المدرعتان « ارياتا » و « تريستا » ، فقد تجمعتا فـي قطاع بيـر الجوبي . وكانت خطة الجنرال كرويل تقضي بأن يهاجم العدو من الخلف على ان يتم الاتصال مع الفرقة الايطالية « ارياتا » القادمة من بير الجوبي بشكل يجعل جميع المدرعات تشترك في القتال ، وهكذا بدأت الفرقـــة الخامسة عشرة بالسير في الساعة السابعة والنصف باتجاه جنوبي ـ غربي لتحقيق الهدف المطلوب ، وتلقت جميع الوحدات التابعة لها الفرقة أمراً صارما : « يجب أن يهزم العدو اليوم بصورة نهائية » ... ونجحت القوات الالمانية في القضـاء على بعض الوحدات الانكليزية المدرعة مما دفع الجنرال كرويل الى توسيـع خطة التطويق التي يعتزم القيام بها .

كانت الفرقة الواحدة والعشرون مشتبكة في معركة قاسية ضد الفرقة المدرعة السابعة البريطانية التي كانت تواصل مهاجمة سيدي رزق ..وعند الظهر قامت وحدة مشاة من حامية طبرق تساندها ستون دبابة بمحاولـــة للاتصال مع القوات البريطانية القادمة لنجدتها ولكن صمود الفرقة الايطالية حال دون نجاح الحامية بالخروج بعيدا ولكن العدو استطاع رغم ذلك الاستيلاء على بعض المراكز الهامة .

نجاح صغير :

بعد الظهر تمكنت قوات الجنرال كرويل من الوصول الى نقطة تقــع خلف القوات البريطانية . وكانت الفرقة الايطالية « ارياتا » مع ١٢٠ دبابة قد انضمت اليه . فنظم كرويل قواته الالمانية ـ الايطالية على شكل نصف

دائرة تمهيدا لبدء الهجوم . غير ان القوات الافريقية الجنوبية استطاعت بسرعة مدهشة أن تنظم مدافعها المضادة للدبابات لمواجهة الهجوم . وهكذا وجدت الدبابات الالمانية امامها ستارا كثيفا من نيران المدفعية . ونشبت معركة ضارية سقط فيها عدد غير قليل من الجنود الالمان وقواد الدبابات ، واضطرت القوات المهاجمة لحشد جميع بطاريات المدفعية التي تملكها حتى تمكنت من تحطيم المدافع العدوة واحدا بعد الآخر .

وهكذا نجحت القوات الالمانية في فتح عدة ثغرات قبيل المغرب فعادت الدبابات الى الهجوم من جديد واستطاعت بعد أن استنفدت جميع الحيل والخدع محاصرة القوات العدوة في نطاق ضيق .

ورأى الانكليز أنفسهم بين أمرين اما الاستسلام واما الفناء فاختاروا الاستسلام !.. خصوصا وان الهجوم الذي قامت بهحامية طبرقلم يسفر عن أية نتيجة حاسمة . وهكذا وقع في الاسر الف رجل بين ضابط وجندي .

وفي نفس الوقت كان الجنرال كرويل في سيارة « ماموث » مع الكولونيل « بايرلاين » عندما وجدا نفسيهما فجأة محاطين بالدبابات البريطانية . وكان شعار القوات الالمانية غير واضح على السيارة لذلك لم يتعرّض البريطانيون لهما .

ويروى « بايرلاين » هذه الحادثة فيقول :

« كانت سيارتنا مغلقة فلم يتبين البريطانيون من بداخلها . فخرج بعض الجنود من دباباتهم وجاءوا الينا .. ثم تقدم أحدهم وقرع على النافذة المغلقة ففتح له كرويل ولشد ما كانت دهشته عظيمة عندما وجد نفسه وجها لوجه أمام جنرال الماني .. وكان واضحا أن مصيرنا أصبح معروفا .. ولكن فجأة .. سمعنا دوي مدفع من عيار ٢٠ المضاد للطائرات فانبطحنا في أرض السيارة بينما قفز الجنود الانكليز الى دباباتهم اتقاء للنيران وفروا مسرعين باتجاه الجنوب . وهكذا نجت هيئة أركان حرب جيش افريقيا من مأزق غاية في الحراجة » ..

« كرويل » يقلب خطط العدو :

أما القطاع الكبير جنوبي سيدي رزق فقد تحوّل الى بحر من الغبار والدخان حتى ساءت الرؤية وتمكن عدد كبير من الدبابات البريطانية بسبب ذلك ، أن يفلت من الحصار دون أن تتمكن المدافع الالمانية من ايقافها ..

وكان لا يزال في ساحة المعركة مئات من السيارات والدبابات والمدافع المحترقة .. تضيء ميدان معركة « أحد الاموات » .. كما لم يكن بالمستطاع تكوين فكرة واضحة عن نتائج المعركة الا بعد منتصف الليل .

واحدى هذه النتائج كانت ابعاد الخطر المحدق بالقوات المحاصرة لطبرق . ثم القضاء على عدد هام من القوات المدرعة الانكليزية ، فسجل « كرويل » فوزا معنويا كبيرا اذ قلب خطط العدو رأسا على عقب وهي الخطط التي بذل الانكليز كثيرا في اعدادها واحكامها .

وفي صباح اليوم التالي قدم كرويل تقريرا مفصلا الى رومل عن نتائج المعركة والنجاح الكبير الذي سجلته القوات الالمانية في سيدي رزق حيث قضى على العدو قضاء تاما ما عدا بعض الوحدات القليلة . وكان انتصارا مدهشا غير منتظر اذا أخذنا بعين الاعتبار حظ الانكليز في النجاح قبيل المعركة . هذا بالاضافة الى تفوقهم العددي الكبير .
وهنا تبدو عبقرية رومل وشجاعته ودهاؤه حين قرر اغتنام الصدمة التي أصيب بها الانكليز للقضاء على القوات النيوزيلندية والهندية قبل أن تتمكن من الاتصال بالقسم الاكبر من القوات البريطانية التي خسرت المعركة. وفي نفس الوقت فكر رومل في الاستيلاء على مركزي حباته ومدالينا البعيدين في الصحراء لقطع خطوط التموين عن القوات البريطانية المتقدمة. وقال رومل : « يجب أن نستغل تأثير الصدمة والسير باتجاه سيدي عمر بكامل قواتنا المدرعة » .

رومل يصر ..

وبالرغم من اعتراض الكولونيل « وستفال » فقد أصر رومل على خطته التي كان يرى فيها فرصة كبيرة للقضاء على مقاومة العدو وفتح أبواب مصر أمام القوات الالمانية .

لم يترك عند طبرق سوى قسم صغير من القوات الالمانية بقيادة الماجور جنرال « بوتشر » قائد المدفعية في جيش افريقيا . وبذلك وضع أمر حصار طبرق بأيدي قوات غير مدرعة . وقد علق المراسل الحربي البريطاني فيما بعد ، على ذلك بقوله : « ان قرار رومل هذا يعتبر بكل تأكيد غاية في الشجاعة والجراة اذ بينما كانت الدبابات مشتبكة في معركة دامية من أشد معارك الصحراء عنفا وضراوة ، قرر أن يقوم بعملية غاية في العبقرية ، وجريئة حتى الجنون » .

ولكن خطة رومل كانت ترتكز على افتراض أن القوات البريطانية الرئيسية قد انهزمت أمام طبرق وانها تتقهقر بسرعة . فهل تخلت القيادة البريطانية عن خططها ؟

لقد عبر الجنرال البريطاني كويننفهام قائد المعركة عن ذلك بمرارة ويأس عندما صرح أمام ضباط هيئة أركان حربه قائلا : « لا سبيل للاقتراب من الالمان الشياطين » ..

وكان كويننفهام يأمل أن يحرر طبرق ويحطم قوات المحور بين فكي كلابة ركائزها سيدي عمر والسلوم وطبرق بهجوم قوي أعده في ضوء خطة الزحف التي كان رومل يعتزم تطبيقها . فماذا حدث !

حدث ان جيش كويننفهام هو الذي تحطم !

وتابع كويننفهام يقول : « يجب علينا التخلي عن المعركة ، يجب أن نتراجع حتى مصر وانقاذ ما يمكن انقاذه لمحاولة تنظيم سد دفاعي أخير أمام النيل » .

وتساءل رئيس هيئة أركان حرب الجنرال كويننفهام بصوت ملؤه الشك : « انشاء سد » ؟

بينما نظر الضباط الاخرون الى قائدهم متشائمين ..

لماذا نخسر دائما ؟

أما صغار الضباط فقد كانوا يوجهون النقد الى قيادتهم منذ زمن طويل بسبب بطئها ، وكانوا يقولون : « لدينا ضعف ما لديهم من دبابات ومدافع وسبعة أضعاف ما لديهم من السيارات المصفحة ، وسلاحنا الجوي متفوق عليهم ، وأسطولنا عند الشاطيء،ونحن اكثر عددا ومع ذلك فاننا نخسر دائما، فلماذا نخسر ؟

لاننا نحارب بمجموعات صغيرة .. ولاننا لا نغامر بشيء بينما يغامر رومل بكل شيء ، وعندما كانت الفرقة السابعة وجنود جنوبي افريقيا يخوضون المعركة لم تتحرك فرقة الحرس ولا الفرقة النيوزيلندية لنجدتهم، وعندما خاض النيوزيلنديون المعركة لم يخف الهنود لمساندتهم . هذا شأننا دائما وهذا ما حدث منذ معركة العجيلة » .

ولم تمض ساعة قليلة على تصريحات كويننفهام اليائسة حتى حطت طائرة قادمة رأسا من القاهرة ونزل منها القائد العام السير كلود اوكنليك ،

وقامت مشادة بين القائدين ورفض اوكنليك جميع الاعتبارات والادلة التي قدمها كوينهام وقال : « هذه المعركة يجب أن لا تنتهي الى هزيمة لان معنى ذلك نهايتنا في افريقيا الشمالية ومعناه فشلنا على ضفاف النيل » ..

واوكنليك الهادىء الجاف كانت تتأجج في نفسه تلك النار التي لا تظهر الا في الازمات الكبرى في التاريخ البريطاني . لقد تخلى القائد البريطاني عن كل حذر واستيقظت في نفسه روح القرصنة البريطانية وحب المغامرات فقال : « في هذا الوقت أراني مصمما على التضحية بآخر رجل واخر مدفع لتفادي الهزيمة ، فاما أن ينجح الجيش الثامن أو لا يعود » . وكان وقع هذه الكلمات كبيرا في نفوس الضباط الذين كانت عيونهم مركزة على شفتي اوكنليك . أما كوينهام فقد كان مطوقا في الارض بخضوع مسلما بالامر الواقع ...

ريتشي مكان كوينغهام :

أبدل كوينغهام بالجنرال ريتشي وهو أحد القادة البريطانيين الذين عرفوا ببراعتهم في الستراتيجية ..

وهكذا استطاع اوكنليك أن يوقف تيار الذعر بين صفوف الفرقة السابعة المدرعة وهدد الضباط الذين يفكرون بالتراجع والفرار . وعمد الى القيام بعمليات جريئة غير مضمونة لرفع معنويات الجنود والضباط ، ثم للحد من روح الالمان الهجومية وكسب بعض الوقت لاعادة تنظيم الوحدات البريطانية .

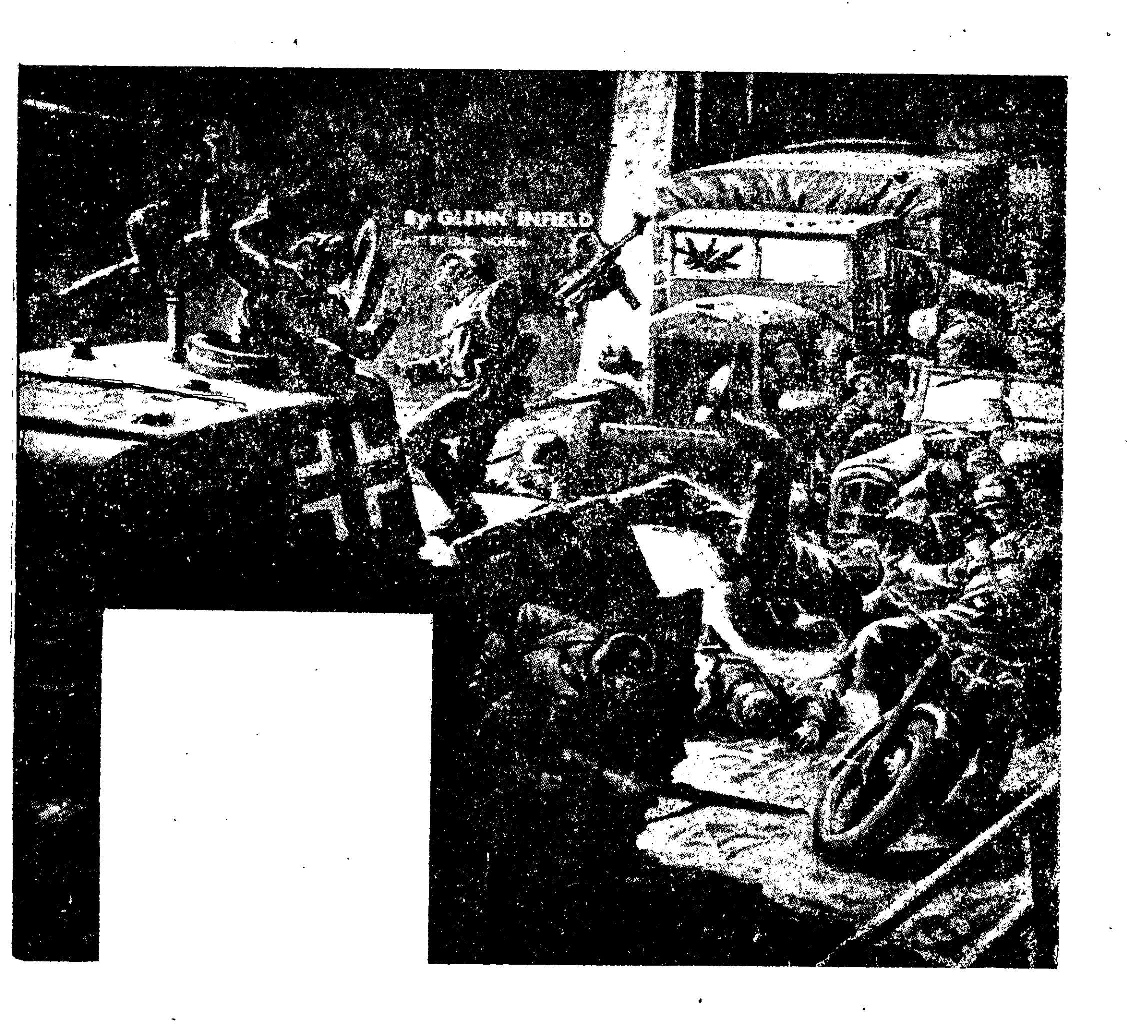
ومن أجل الحصول على هذه الاهداف قام ريتشي واوكنليك بانشاء وحدات من الكومندوس التي كان يطلق عليها اسم « وحدات جوك » نسبة الى قائدها البريغادير جنرال جوك كامبل .

وكتب المراسل الحربي البريطاني الآن مورهيد حول هذه الوحدات الخاصة قائلا : « كانت الاوامر الصادرة الى هذه الوحدات تقول دائما : الى الامام ! اضربوا مؤخرة العدو ! حطموا كل ما تصادفونه ... وهكذا نشبت حرب الانصار في الصحراء . وبسرعة فائقة استطاع اوكنليك أن يعزز الوحدات المحاربة وأن يحدد لها مراكزها ويعين مهماتها .

وخلال عدة أيام أصبح هناك اكثر من عشرين وحدة تحارب وراء الخطوط الالمانية ، كانت تحطم كل ما تصادفه وتشعل النيران وتنهب .. وتطلق النيران وتهاجم المعسكرات الالمانية والايطالية وقوافل التموين

والمطارات وتجمع المعلومات، وكان واضحا أن هذه العمليات لم تكن الا مجرد وسيلة يائسة لمساندة الجيش الثامن الذي كان يعمل على اعادة تنظيمه ومع ذلك فقد نتج عن ذلك أمور هامة وسريعة » .

ولكن الالمان من ناحيتهم كان لديهم جنود « البراندنبورجير » المماثلين لوحدات « جوك كامبل » وفرقته « لونغ رانج ويزرت غروب » ، وكانـــوا يردون على الغارات بغارات مماثلة ، وقد وصلوا في غاراتهم حتى القاهرة .



رومل يخطيء :

وكانت معركة طبرق في ذلك الوقت قد بدأت ، تلك المعركة التي اعتقد رومل أنه ربحها فترك مركز القيادة وانطلق في غاراته الجريئة لقطع خطوط تموين البريطانيين عند حباته ومدالينا ، فلما أنبأه « كرويل » في صباح يوم ٢٤ تشرين الثاني بانتصارات « أحد الاموات » ، قفز رومل الى سيارته وصرخ قائلا للكولونيل وستفال : « أنا ذاهب الى سيدي عمر لقيادة الفرقة ٢١ المدرعة في ممر حلفايا » .. وحاول وستفال أن يعترض لعلمه ، استنادا الى المعلومات الواردة اليه من طائرات الاستكشاف بأن البريطانيين يحشدون قواتهم في بير الجوبي ، ولكن رومل لم يستمع الى وستفال ، فقد اصطحب معه رئيس اركان حربه الجنرال « غاوز » وانطلق بسيارته باتجاه جنوبي بأقصى سرعة عبر الوحدات العدوة المتقهقرة باتجاه جنوبي شرقي نحو الحدود المصرية ، وكان في نيته مباغتة الفرقة الثانية المدرعة النيوزيلندية والفرقة الرابعة الهندية اللتين تعملان في قطاع السلوم وذلك قبل أن تتمكنا من الاتصال بالقوات المتقهقرة ، وكان يسعى أيضا الى اجتياز قطاع الحدود المصرية والوصول الى حباته ومدالينا حيث يدمر مركز القيادة البريطانية ومراكز التموين الكبرى التابعة للقوات البريطانية ، وبكلمة أخرى كان يود قطع الاتصال بين الجيش البريطاني الثامن ومراكز تموينه تمهيدا للانقضاض عليه وتحطيمه بصورة نهائية .

انطلق رومل على رأس الفرقة الواحدة والعشرين باتجاه سيدي عمر وقد تراءت أمامه مصر وكأنها عزلاء ومن ورائها النيل وقناة السويس .. والنصر الكبير . ولم يكن يعلم أن اوكنليك نجح في تنظيم قواته أمام طبرق وقضى على روح الانهزام التي كانت تهدد الجيش البريطاني بالانحلال .

كان رومل يسير بسرعة ٨٠ كيلو متر في الساعة تتبعه وحدات الاتصال اللاسلكي ولكن لم تلبث سيارات الاجهزة اللاسلكية حتى تأخرت عن اللحاق به وظل هو مندفعا الى الامام دون هوادة ، وفي المساء وصل الى سيدي عمر ، وصعقت القيادة البريطانية ! كيف ظهر الالمان ؟ ومن أين أتوا ؟ والى أين هم ذاهبون ؟.

وجه رومل فورا قواته نحو سيدي سليمان ليحمي جبهة حلفايا من الشرق ، وكان يقود الفرقة ٢١ بنفسه عبر شبكة الاسلاك الشائكة قرب قصر العبيد عند الحدود المصرية مارا في الثغرة التي فتحها البريطانيون لهجومهم، وأمر رومل قواته بأن تطرد العدو من سيدي عمر مهما كلف الامر .

الا أن الامور لم تجر كما كان يتوقع رومــل فان الفرقة الرابعة الهندية انتقلت الى سيدي عمر قبل وصول القوات الالمانية بقليل وتمركزت حولها .. كانت قوات رومل ضعيفة بينما كانت تقديراته جريئة جـدا ففشلت خطتـه وتكبدت القوات الالمانية خسـائر فادحة وفقد الفيلق الخامس قائد هالكولونيل « ستيفان » .

ولما هبط الظلام كانت الدبابات المشتعلة ترسل أنوارها الكئيبة بينمـا كانت جثث القتلى متناثرة هنا وهناك لا فرق بين صديق وعدو ..

وفي نفس الوقت الذي كانت فيه المعركة دائرة حول سيدي عمر كـان رومل يتابع زحفه نحو الشمال لمناغتة النيوزيلنديين الذين كانـوا يهاجمون مواقع الالمان في قطاع السلوم .. وفي حال النجاح كان على الفرقة الواحدة والعشرين بقيادة الماجور جنرال « رافنشتاين » أن تتوغل داخل مصر ، أمـا رومل فقد قفل عائدا الى سيدي عمـــر حيث كانت الفرقـة الـ ١٥ تحاول مجددا الاستيلاء على الموقع الحصين ، ولكن سيارته تعطلت فـــي الطريق ووجد القائد الكبير نفسـه وحيدا اثناء الليل مع رئيس اركان حربـه الجنرال غاوز في ميدان شاسع لمعركة لا يعرف مصيرها .. فلـم يكن يتبين مكـان الوحدات العدوة من الوحدات الصديقة .

والصدفة وحدها هي التي جعلت سيارة الجنرال كرويل وهـو برفقة (بايرلاين) تمر في تلك النقطة الضائعة فـي خضم الصحراء الكبرى لتلتقي بسيارة رومل .. الذي قال ضاحكا لكرويل :

– خذنـا معك ...

وكذلك وجدت القيادة العامة لقوات المحور فـــي أفريقيا نفسها تائهة لا تعرف مصيرها ، تسير بها سيارة (كرويل) في أرض لا يدري المـرء اذا كانت مزروعة بالالغام أم لا ..

ولكنهم بدلا من الالغام وجدوا أنفسهم فجأة أمام دبابات الفرقة الهندية الرابعة ، وقد ظن الهنود أن السيارة ماموث وهي من طراز بريطاني – وكان الالمان قد غنموها في بدء الهجوم الكبير – ظنـــوا أنهـــا تضم بعض القواد البريطانيين فتركوها لشأنها ، ولم يتعرضوا لها ..

وفي الوقت الذي كان فيه (رومل) تائها في الصحراء ، أخذت القوات الانكليزية بتأثير اوكنليك وتدخله تهاجم الجبهة التي أخلاها الالمان حـــول طبـرق ..

وقامت حامية طبرق من ناحية أخرى بغارات متتابعة فنجحت في الاتصال بالقوات الانكليزية القادمة من الشرق ، وهكذا تحطم الطوق الالماني المحكم حول طبرق ، واصبحت قوات (بوتشر) الالمانية القليلة هدفا لنيران شديدة حطمت مقاومتها .

أمام هذا الوضع الخطير حاول وستفال الاتصال برومل ولكن بدون جدوى عندئذ قرر العمل منفردا . فدعا جميع قوات جيش افريقيا بواسطة الراديو للتوجه حالا الى قطاع طبرق . واسرع ضابط الاتصال اللاسلكي كارل دورن الى قائد الفرقة الحادية والعشرين المدرعة الجنرال «رافنشتاين» حاملا اليه البرقية الخطيرة . وبسرعة انتقل رافنشتاين الى العمل فسار على رأس قواته المدرعة باتجاه طبرق عبر الدبابات النيوزيلندية وتمكن من الوصول الى القطاع الذي ساءت فيه الحالة .

وهكذا فشلت نبوءة رومل عندما قال لاركان حربه : « اليوم تستطيعون وضع حد لهذه الحملة » .. يقصد نهاية حملة جيش افريقيا !

وعندما علم رومل في صباح اليوم التالي ، وبعد طوافه في الصحراء طوال الليل ، بالامر الصادر الى الفرقة الحادية والعشرين ثار غضبا بادىء الامر لانه ظن ان في الامر خدعة من قبل سلاح المخابرات البريطانية . ولكنه هدأ بعد ذلك وظل صامتا عندما رأى حقيقة الوضع على خارطة المعركة في مركز قيادته .. وآوى الى فراشه لينام وفي اليوم التالي اعلن موافقته على الامر الذي أصدره وستفال . وفهم ان رئيس الشعبة الاولى في جيش افريقيا انما أصدر أمره بالانكفاء ووقف المغامرة الجريئة التي يقوم بها قائده بسبب حراجة الموقف وخطورته . ولو كان رومل مكانه لفعل مثله . ولكن رومل لم يفصح عن رأيه الصريح ولم يتمكن أحد من النفاذ الى سريرته حول هذا الموضوع .

وركب رومل سيارته وأخذ يطوف على وحدات جيشه ليذلل بنفسه العقبات الكثيرة المتزايدة وتجاوز خطوط العدو ووجده نفسه أمام مطار بريطاني وقبل أن يقع في قبضة الجنود البريطانيين فر هاربا ولكن الرصاص كان ينهمر على السيارة دون ان يصاب بأذى . وقد انطبق عليه قول فردريك الكبير : « حتى ينتصر القائد يجب أن لا يكون كفوءا وجسب ، وانما يجب ان يلازمه الحظ » ! ورومل من هذه الناحية كان محظوظا الى أبعد حد ...

مفاجأة اخرى ..

وبسرعة فائقة تسلقت سيارته تلة من الرمال وفجأة اكتشف مستشفى

نيوزيلنديا ولم يكن بالامكان الفرار . فأمر سائقه ومرافقه أن يدخلا الى المستشفى ويتفقدا الخيام ثم ينتظرا قدومه . وبعد قليل لحق بهما ودخل وهو أشد ما يكون هدوءا فمثل دور المنتصر بحيث جعل المسؤولين في المستشفى يشعرون أنهم أصبحوا أسرى وان المنطقة المحيطة بهم سقطت في قبضة الالمان . وقد حيا الضباط الانكليز والاطباء مازحا وسألهم عما اذا كان ينقصهم شيء ووعدهم بأن يرسل اليهم ما يحتاجونه من أدوية في القريب العاجل . ثم انصرف على أهون سبيل وبعد عشر دقائق مرت سيارة نقل بريطانية فعلم النيوزيلنديون أنهم راحوا ضحية خدعة بارعة من « ثعلب الصحراء » ! ..

ولكن ماذا تنفع شجاعة القادة والضباط والجنود ، أن طالع معركة تشرين الثاني سيء ولا بد للقدر أن يملي ارادته .

كان رومل يرفض الاعتراف بأن انتصار « أحد الاموات » سينقلب الى فشل وأن انسحاب القوات الالمانية من جبهة طبرق أعطى اوكنليك فرصة نادرة للهجوم .

والفريقان المتخاصمان كانا يستميتان في القتال .. كان الانكليز يرون أن خسارة المعركة تعني خسارة افريقيا الشمالية بأسرها . وكان الالمان يرون أن هزيمتهم تجردهم من جميع المكاسب التي ربحوها بعد عام طويل من الدم والعرق . لم يعد هناك جبهة بمعناها المعروف . فقد أرسل رومل الى جبهة طبرق جميع القوات التي سبق له أن وجهها الى جبهة السلوم . وبقي رجال الماجورباخ يحاربون في ممر حلفايا حربا لا أمل فيها ولكنهم يحاربون مع ذلك .

وبينما كان الالمان يحشدون قواتهم لسد الثغرات في جبهة طبرق كان الجنرال « فرايبرغ » وجنوده النيوزيلنديون يشقون طريقهم الى طبرق بعناد .. يشقون طريقهم بالسلاح الابيض رغم نيران المدفعية وهجمات الدبابات المعادية .. وحتى تمكنوا من أسر قائد الفرقة الحادية والعشرين الالمانية الجنرال رافنشتاين .

كيف وقع رافنشتاين في الاسر ..

ولقد روى كثيرون قصصا متعددة متنوعة عن قصة أسر رافنشتاين . ولكنني اسرد هنا القصة التي أخبرني بها القائد الكبير نفسه :

خريطة ترسم تحركات الجيش الانكليزي وهو يتقدم في الصحراء

« في ليل الثامن والعشرين من تشرين الثاني وصل رافنشتاين الى سيارة رئيس أركان الحرب الجنرال كرويل وانبأه بأن الفرقة الحادية والعشرين هي في الطريق الى طبرق . وعندما وجد كرويل أن لديه فرقتين مدرعتين أراد اغتنام الفرصة فأصدر أوامره بشن هجوم مركز على القوات البريطانية في سيدي رزق يوم ٢٩ تشرين الثاني . وبنتيجة الهجوم طرأ تحسن ملموس على الجبهة الالمانية جنوبي غربي طبرق . وقبل أن ينتقل الجنرال رافنشتاين الى مركز قيادة الفرقة الحادية والعشرين كان عليه ان يتوجه الى مركز قيادة الفرقة الخامسة عشرة للاجتماع ببقية القادة لمراجعة الاوامر الصادرة الى مختلف الوحدات والتأكد من أنها مطابقة بعضها لبعض: ركب رافنشتاين سيارته وتوجه مسرعا الى النقطة التي حددها له الجنرال بايرلاين على الخارطة وهي نقطة تبعد ١٦ كيلو مترا ، والذي حصل أن الكابورال هانز كرانز ومساعده الجندي بليتل اخطئا في الاتجاه . وعند الفجر راى رافنشتاين عند الافق اشباحا لسيارات ظنهـا تابعة للفرقة الخامسة عشرة ولكنه لم يلبث أن سمع دوي الرصاص المنهمر على السيارة فتوقفت وشبت فيها النيران وقفز منها الجميع وانبطحوا على الارض بينما أصيب السائق بجراح . وما لبثوا أن وجدوا أنفسهم في وسط مركز نيوزيلندي متستر .

كان الجنرال فرايبرغ يتناول طعام الافطار عندما تلقى النبأ السار .. نبأ وقوع الجنرال رافنشتاين قائد الفرقة الحادية والعشرين أسيرا بين يديه.
في الثاني من كانون أول ١٩٤١ بعث رومل بالبرقية التالية الى مقر قيادة الفوهرر في راشنبورغ :

« خلال المعارك المستمرة التي جرت بين ١٨ تشرين ثاني واول كانون اول دمر للعدو ٨١٤ دبابة وسيارة مصفحة واسقطت ١٢٧ طائرة ، ولم نتمكن حتى الآن من تقدير مكاسبنا الكبيرة من الاسلحة والذخائر والعربات وقد وقع في الاسر ما يزيد عن تسعة آلاف جندي وضابط بينهم ثلاثة قادة برتبة جنرال » .

غير ان المأساة لم تصل الى النهاية . فقد كان رومل وأوكنليك يتصارعان صدرا الى صدر وكأنهما من مصارعي الرومان القدماء ، في سبيل طبرق مفتاح مصر ..

كانت وحدات الاستكشاف تنقل الى رومل انباء استقدام الانكليز لقوات جديدة باستمرار اذ كان أوكنليك يحشد قواته عند بئر الجوبي ليحطم

بصورة نهائيــة الطوق الالماني المضروب حول طبرق . لم يكن امام رومل الا ان يرد على ذلــك بالهجــوم .

هذه الارقام توضح مدى اهمية المعركة التي جرت في شمالي افريقيا خلال الايام الرهيبة بيــن ١٨ تشرين ثاني واول كانون اول .

ففي ليل ٤ ــ ٥ كانون اول كانت قوات جيش افريقيا تسير نحــو الغرب . وكان مقررا ان توجه الهجوم الاول ضد فوج الحرس ثم ضدالفرقة السابعــة المدرعة التي أعيد تنظيمها وكان رومل يظنها قد دمرت نهائيا .. وهذا دليل على نجاح الانكليز في استقدام المؤن وتأميــن خطــوط مواصلاتهم .

وبينما كان الالمان منهمكين في معركة بئر الجوبي كانت فرقة المشــاة السبعيــن البريطانيــة تخرج من طبرق لتهاجم من الخلف القوات الالمانية ــ الايطاليــة التــي تحاصر طبــرق .

وسقط احد المراكز الهامة بأيدي الالمان ولكــن رومل شعر انه لا يملك القوات الكافيــة لصــد العدو . ومع ذلك ظل يقاوم محاولا تعديل الوضــع مطالبــا ضباطه وجنوده بان يبذلوا مجهودا خارقا .

وفي السادس من كانون الاول قام الالمان بشن هجوم جديد وكان عليهم اما سحق العدو او لقاء المصيــر المحتــوم .

واشترك الجنرال كرويل بالقتال على رأس الفرقتين الخامسة عشرة والحادية والعشرين المدرعتين ، ولكــن الفرقتين الايطاليتين « أريتيــا »و « تريستا » ظلتــا بعيدتين عن ميدان المعركة ، وقد بعث الضباط الايطاليــون بتقاريــر تقول بان وحداتهم لم تعــد صالحة للقتال ، مع ان مجرد اثبــات الوجود من قبل الايطاليين كان حريا بتغيير وجهالمعركة خصوصا وان الانكليز بطول يضعفون عند بير الجوبي على اثر الضربات اليائسة التي وجهها الالمان .

وسنحت فرصــة ذهبيــة لتطويقهم غير ان القوات الالمانية كانت غير كافيــة ولو حضر الايطاليــون وتمركزوا عند جناحي القوات الالمانية دون ان يقاتلوا لكــان بالامكــان القيام بعمليــة تطويق ناجحة .

رأى كرويل هذه الفرصة الكبيرة وربما الاخيرة السانحة فأخذ يرسل النداء تلو النداء داعيــا الجنرال غامبارا قائد القوات الايطالية الى المجيء . وكانت جميع اجهزة الارسال ترسل النداء التالي : اين غامبارا ؟ اين غامبارا ؟ . ولكــن غامبارا لــم يحضر ولم تحضر ايــة قوة ايطاليــة . واكفهرت وجــوه الضبــاط الالمان واصبح من الصعب على اي ضابط ايطالي ان يحتمل نظرات الضبــاط الالمان القاسيــة !

وفي يوم السابع من شهر كانون اول كان الوضع قد ازداد سوءا بالنسبة للالمان واصبحوا يخشون التعرض لخطر التطويق من قبل القوات الانكليزية المتفوقة في العدد .

لقد ظلت دباباتهم جاثمة فوق الرمال الواحدة قرب الاخرى تحطمها نيران المدافع وهي لا تستطيع سيرا لافتقارها الى الوقود .

وخسرت القوات الالمانية قائدا كبيرا هو الجنرال « نيومان ــ سيلكو » قائد الفرقة الخامسة عشرة الذي قتل وهو في برج دبابته . وكان قائدا شجاعا يحترمه الجنود ويكنون له الحب والتقدير .

ان النجاح في الانكفاء امام العدو المتفوق هو الميزة الضرورية الثانية بعد الشجاعة ، وكان رومل يعرف هذا .. لذلك رأيناه يتصرف وفقا لهذه القاعدة وهذا هو السبب الذي لم يجعل انتصار اوكنليك انهيارا تاما لقوات المحور في افريقيا . وفيما بعد وعندما بدأ الفوهرر يعطي اوامره بالصمود او الموت ، حتى حرب الصحراء ، كان كل شيء انتهى . اما الآن فأن شجاعة رومل وهو يقود الانسحاب هي التي انقذت جيش افريقيا .

ابرق رومل يوم ١٥ كانون الاول الى القيادة العامة للقوات الالمانية يشرح الوضع كما يلي :

« ... بعد معارك مستمرة دامت اربعة اسابيع ، وبالرغم من اعمال فردية نادرة ، ظهرت بوادر الوهن على مقدرة الجيش على القتال ،وبالاخص فيما يتعلق بالتموين والذخائر والمؤن . لذلك قررنا ان نحتفظ بقطاع غزالة يوم ١٦ .. ولكن لا بد من الانسحاب من قطاع مشيلي ــ درنة يوم ١٧ على ابعد تقدير حتى نتفادى التطويق والفناء امام عدو متفوق بالعدد والعدة » .

وفي العاشر من كانون الثاني وزع الكابتن نيكسيروس قائد حامية السلوم على جنوده وجبة الطعام الاخيرة وكانت عبارة عن ٢٠ غراما من الخبز وقبضة من الارز ومعلقة واحدة من العنب المجفف .. لقد هبطت معنويات الجنود حتى الصفر .. وكانوا يتهامسون ويقولون « لا بد من نهاية » .. وفي صباح اليوم التالي شن البريطانيون هجوما جديدا فرد الجنود الالمان الذين كانوا بالامس يطلبون النهاية المحتومة ، ردوا بعنف شديد وتمكنوا من صد وحدة كاملة من الاعداء اخترقت صفوفهم وتوغلت بعض الشيء .. وتم لهم الاحتفاظ بالموقع الحصين بعد ان اسروا عددا من الجنود المهاجمين .

البريطانيون يواصلون الهجمات

وأعاد البريطانيون الكرة صباح ١٢ كانون الثاني وبدأت بطارياتهم تقذف الحمم على مواقع الالمان ، ويقول الكابتن نيكسيروس في تقريره ما يلي :

« المنازل التي سبق ان اصيبت وتضررت لم يبق منها حجر ، رد الانكليز على اعقابهم في الهجوم الاول وبعد قليل شنوا هجوما آخر ، ولم يعد يوجد في جعبتنا سوى الصواريخ المضيئة فلما اطلقنا الاخير منها امرت احد الجنود برفع العلم الابيض ، واصدرت امرا آخر بتدمير الاسلحة قبل الاستسلام » .

وكان الفوج الكامل الذي يدافع عن السلوم قد تضاءل حتى بلغ ٧٠ ضابطا وجنديا ..

ولكن ما الذي حدث في ممر حلفايا أهم نقطة على الطريق الى وادي النيل ؟

يروي بعض الجنود ممن كانوا في ممر حلفايا يقاتلون تحت امرة الماجور باخ قصة الايام اخيرة فيقولون : « كانت المياه تقل يوميا بعد يوم . فبعد ان سقطت السلوم وما حولها فقدنا آخر بئر مياه للشرب ، وكان لا بد من القتال في سبيل الحصول على المياه ، ولقد نجح اللازم « ايشولز » في طرد البريطانيين من مراكزهم قرب البئر طيلة المدة التي استلزمتها تعبئة « السيترن » ولما انسحبنا كان الكابورال « يونغ » منهمكا بتعبئة قارورة مياه فتأخر عن اللحاق بنا وكدنا نفقده ،فكان لا بد لانقاذه من ارسال موتوسيكل استطاعت ان تنقله وتعود به كل ذلك من اجل قارورة ماء !

لم يكن البريطانيون يعلمون بمدى الحالةالسيئة التي يعيش فيها الجنود الالمان المدافعون عن ممر حلفايا ، ولكن بعد هزائمهم المدامية قرروا اللجوء الى سلاح آخر لقهر مقاومة المدافعين .. هو سلاح الجوع .

وفي أواسط كانون الثاني وصل بضع مئات من الجنود الايطاليين من فرقة سافونا تحت قيادة الجنرال دي جيورجيس قادمين من مواقعهم غربي الممر للانضمام الينا بناء على اوامر روميل .

ولا شك ان وصولهم كان من الممكن ان يكون فعالا في مواصلة القتال ولكنهم زادوا ازمة الطعام حدة .

وبعد مرور اسبوع انتهى كل شيء ..

الاستسلام وآخر خدعة

وصل الكابتن « فوغت » الى خطوط القوات الافريقية الجنوبية لعرض الاستسلام ، وبعد التمهيد انتقل الماجور باخ والملازم شميدت لمفاوضة قائد القوات البريطانية نهائيا . وكان تصرف القوات الافريقية الجنوبية لائقا جدا . وعندما وقع باخ على وثيقة الاستسلام اشار الملازم شميدت الى السائق اشارة خاصة فنقل العلم الابيض من الجهة اليمنى الى الجهة اليسرى ، وكانت آخر خدعة يقوم بها رجال باخ كاهن مانهايم .

وتفصيل ذلك أن باخ بعد توقيعه وثيقة الاستسلام لم يعد من حقه اصدار اي امر لتدمير المعدات والاسلحة لذلك وضع ضباطه هذه الخطة، وقبل ان يذهب باخ للمفاوضة اصدر امره قائلا :

« يتوجب على أول موقع الماني يرى العلم الابيض الى يسار السيارة ان يبلغ ذلك الى مركز قيادة الفوج » وكان هذا يعني الامر بنسف جميع المعدات والمدافع والسيارات والذخائر ، حتى لا تقع في ايدي العدو ، ولو أن المفاوضات فشلت لبقي العلم الابيض الى يمين السيارة وهذا يعني ان تترك المدافع والذخائر كما هي لمواصلة القتال !

ونجحت الخدعة وخاب ظن قائد الفرقة الافريقية الجنوبية في الحصول على مدفع واحد من طراز ٨٨ سليما ..

وفي ١٧ كانون الثاني كان الجنود الالمان يفدون من كل ناحية للتجمع في الساحة التي حددت بموجب اتفاقية الاستسلام ، ولما اكتمل العدد وزعت عليهم المآكل والمياه ، ونقل الجرحى للمعالجة . وفجأة دوت المدافع وتساقطت القنابل بين الاسرى الالمان وبصورة خاصة بين افراد السرية الاولى التي يقودها الكابتن « كهرينغ » واستولى الخوف على الجنودولكنهم ما لبثوا ان عادت اليهم رباطة جأشهم واخذوا يصرخون قائلن : « يا لهم من كلاب ! .. يالهم من كلاب !..»

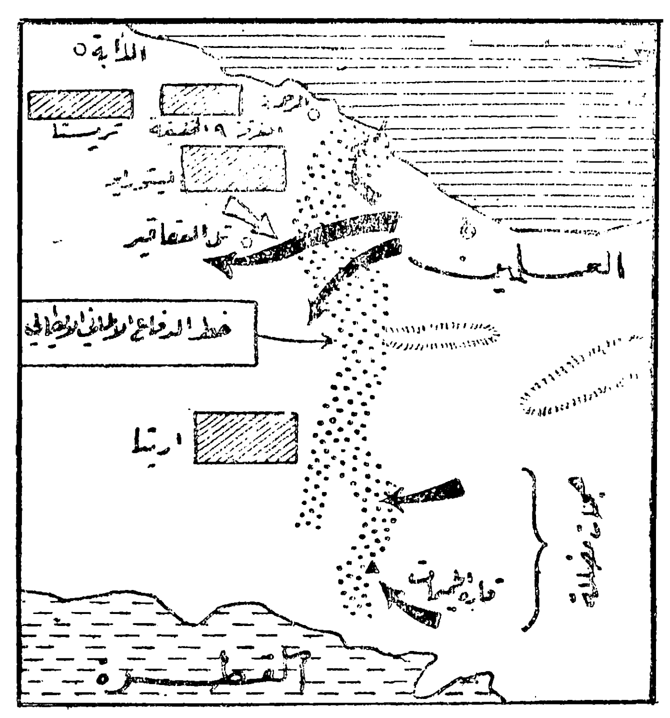
وكان الماجور باخ واقفا قبالة قائد القوات المنتصرة وقد علا وجيهيهما الشحوب والاشمزاز ، وكان الجنود الافريقيون الجنوبيون قد انبطحوا ارضا لتفادي شظايا القنابل .. ويفكرون فيما عسى ان يفعله الالمان .. فهل ينتقمون وهل يحاولون التمرد والثورة ؟ .

وفجأة توقف اطلاق النار وبعد دقائق كان احد ضباط الاتصال الانكليز يهرع الى الضابط الجنوبي ــ الافريقي ويسر في اذنه بعض الكلمات فيتقدم هذا من الماجور باخ ويخبره بواسطة الترجمان بان الفرنسيين

الاحرار من قوات الجنرال ديغول ، فتحـوا النار على الاسرى الالمان خلافـا لاوامر القيادة البريطانيــة وظل الماجور باخ صامتـا لا ينبس ببنت شفة .

وسار الجميع الى المؤخرة .. لقد انتهت الحرب بالنسبة لهم ، امابلاغ القيــادة العامة الالمانيــة فقد اعلــن انهم قاتلــوا حتى آخــر طلقة ، وكــان هذا القول داعيــا للفخــر والاعتزاز ولكنه لــم يكــن صحيحا .. ذلــك ان الجنــود الالمان كــان لديهم ذخيرة وسلاح ولكن الجوع والعطش هما اللذان حطمــا مقاومتهــم الباسلــة .

لقــد كان الماجور (باخ كاهن مانهايم) من أشد جنود افريقيا شجاعة ، وكان يعرف ايضــا القول المأثور : « الاستسلام للاقوى هو الميزة الثانيــة للشجاعــة » .



المعركة الفاصلة : تمثل هذه الخريطة دورا من ادوار معركة (العلمين) الحاسمة ومواقع الجيشين ، ومراكز الهجوم ... الذي لم يسفر عــن نتيجة حاسمة ، والذي اضطر بعده رومل الى التراجع ، بعــد ان وجــد أن القوات العدوة تفوقه أضعافا ..

الفصل الثاني عشر

عبقرية الزحف والهجوم في معركة الصحراء رومل وخططه العسكرية في شمالي افريقيا

درس لشخصية القائد البارع رومل

الى الامام

لقد انتهت المعركة بانتصار رومل .. وتراجع الجيوش الانكليزية للمرة الثانية ، عبر الاراضي التي كانوا قد تقدموا فيها في هجومهم الاخير ..

وكان على (رومل) ان لا يترك للعدو فرصة تساعده على اقامة جبهة جديدة ، ولهذا اصدر امرا يوميا الى جنوده جاء فيه :

« يجب علينا تدمير قوات العدو تدميرا تاما نهائيا ، ولهذا أرى من واجبي أن أطالبكم بمجهود جديد في الايام المقبلة ، للوصول الى هذه الغاية » .

وفي صباح الثاني والعشرين من حزيران كان رومل في (البردية) .. حيث اصدر أوامره باستئناف الزحف والهجوم ..

وفي الافق الشرقي من هذا المكان كان المرء يشاهد سحب الدخان العالية التي كانت تنبعث من حرائق المستودعات الانكليزية تتصاعد في الجو .. وثبت من الوثائق التي عثر عليها مع الاسرى الانكليز على أنه لم يعد

في جبهـة السلوم سوى الطلائع الخلفيـة لقوات الجنرال (ريتشي) ..
وكان أن وصلت القوات الالمانيـة الزاحفـة الـى السلوم الاعلـى ، والسلوم الادنى ، ومضيق حلفايا وسيدي عمر ، واستولت على كـل المراكز التي كـان يحتلهـا القائد (باخ) حتى منتصف كانون الثاني ..

وكانت (سيدي براني) التي دمرت بكاملها ، تضم العدد العديد مـن مستودعات المحروقات الانكليزيـة التـي ظلت سالمة عند استيلاء القوات الالمانيـة عليهـا ..
وتابع الفيلق الافريقي الالماني تقدمه ، في ظل الفيلق الآلي متأخرا ـ وكان (رومل) قد انعم عليه مؤخـرا بلقب المارشالية ـ وكان لهـذا التأخر عواقـب مؤسفـة ..

فقد طلب احد الضبـاط الايطاليين من رومل بصورة سريـة ، ان يرجو القيـادة الايطاليـة العامة لتزوده بالنجدات الضرورية التي يحتاج اليهـا فيلقـه هذا ، فرفض طلبـه ..

ولما سأل (رومل) هـذا الضابط فيمـا اذا كـان باستطاعة وحدتـه هـذا الهجـوم ام لا .. أشـار الى وضعيـة قواته ، وكيف انها لا تملـك السلاح والذخيرة اللازمـة .. وأنه لا يزيـد ما يملكه من الدبابات عن عشر، ومن المدافع عن خمسة عشر ، وكذلك الحال مع بقية قواته ،مما أقنع (رومل) بأن القوات الالمانية سوف تتحمل وحدها عبء الهجوم ، وهي التي لم تعرف الراحـة منذ شهـر ونصف شهـر ..

ومنذ ابتدات المعارك الهجومية الجديدة ، كانت ابدا على اتصال بقوات العدو ليـلا ونهارا ، وكانت اكثر المعارك تدور في وسط الصحراء ووسـط الزوابع الرملية ، وكـان الجنـود يعيشون ضمـن سحب لا تنقطع من الغبار الذي يعمي الابصار والبصائر ..

ولكن القوات الالمانيـة مضت في سبيلها .. وكلمـا تقدمت نحـو الحدود المصرية ، اخذت غارات الطائـرات الانكليزيـة تزداد عليها ، فيما لم يكـن رومل يستطيع شيئا كثيرا لصد هذه الغارات لبعد قواعده عن الجبهة ، وقرب القواعد الانكليزيـة منها .

ولما وصل الفيلق الالماني الى الكيلومتر ٤٥ الواقع غربي مرسى مطروح، تلقى رسالة من موسوليني يطلب فيهـا منه ان يكـون هدف الحملة قنـاة السويس ، وبـور سعيـد واحتلالهمـا باسرع ما يمكـن ..

ثم احتلال القاهــرة بالقــوة ..
والاهتمــام بجبهـــة الاسكندريـــة والتيقظ لها ، واخيرا ضرورة تمثيل القــوات الالمانيـــة الايطاليـــة لدى وصولهـــا الى قناة السويس ..

المقاومـــة

ولما وصلت القوات الالمانية في السابع والعشرين من شهر حزيـــران سنـــة ١٩٤٢ ، الى نقطـــة (مرسى مطروح) تقدمت الفرقة التسعون الخفيفة نحـــو الساحل لقطع الطريق الساحلية ، واسرعت الفرقـــة المدرعة الانكليزية السابعـــة لنجـــدة الحاميـــة البريطانيـــة فيهـــا .. وظهرت ارتالهـــا عنـــد سفـــح الجبـــل ..

وعند المساء دمرت ١٨ مدرعـــة انكليزية واجبرت الفرقة المذكورة على التراجـــع ..

وكانت القوات النيوزيلاندية ترابط في مرسى مطروح ، وهي مؤلفة من المحاربيـــن القدمـــاء الذيـــن شهـــدوا وقائع طبرق .. وكانت قوات مختارة قويـــة التصميم ، وقد حاولت اختـــراق الخط الالماني ليـــلا .

وقامت الطائرات الانكليزية تقصف بدون تمييز وحداتها بالذات ، بحيث لم يعد احد يعرف ماذا يجري في هذا القطاع ..

وعند الفجـــر تصاعدت النيران من مرسى مطـــروح.. وتحقـــق ان مصيرهـــا اقترب او كـــاد ، وكان عدد الاسرى يتزايـــد بـــدون انقطاع .. وتمكنت سيارات عديدة مـــن النفاذ بين القوات الالمانية المتقدمة والقـــوات الايطاليـــة المتأخـــرة حتى وصلت قوات الاستطلاع الالمانيـــة التـــي سدت طريـــق المرور ..

وفي ٢٩ حزيران اجتازت قوات المحور الخنادق ضد الدبابات وخطوط الدفـــاع الانكليزية ، واحتلت المدينـــة في الساعة العاشرة تماما ، فوجـــدت عدة طائـــرات سالمة ومستودعات وخزانات وقود عديدة .. وحظيرة ورشات هندسيـــة هامة ومعدات وفيرة وخاصة الماء ، اسر ما يزيـــد عن الفـــي نيوزيلاندي وهندي .. وامست مرسى مطروح مجموعة مـــن حطام تنبعث منهـــا الحرائق وتتفجـــر فيها الذخائر المنسوفة ..

استؤنف التقدم من جديد في الساعة الحادية عشر .. وكان رومل

يحاول الوصول الى العلمين قبل الانكليز او على الاقل ان لا يترك للجنرال ريتشي أي وقت يمكنه من التجمع وينظم قواته .. فاجتاز منطقة الضبعة اثناء الليل ، وكانت الانفجارات تتصاعد من هذه المحلة فتسمع اصداؤها الى مسافات بعيدة ..

وكانت فرقة (ليتوريا) تتبع الفرقة التسعين ، وقد اعلن عنها بغتة في اليوم التالي بأنها تفرقت وتبعثرت من قبل العدو ، وانه لم يبق لديها ولا دبابة واحدة لانها نسفتها جميعها . وكانت الفرقة المدرعة الخامسة عشرة تقاتل بأستمرار ، فتربح الارض وتكسب المغانم الجديدة ، من مدافع وسيارات وخلافها ..

وقد تميز هذا اليوم بهجومين جويين متعاقبين شنتهما القاصفات الالمانية .. وامتلأ الجو بعد الظهر بالطائرات الالمانية القاصفة والمقاتلة معا ... وتوقف على الاثر نشاط العدو واسراب طائراته الجوية وسدت رياح السموم منافذ الرؤيا وأظلمت الآفاق ..

وفي اليوم الاول من تموز استعدت الجيوش لمهاجمة العلمين ، وقد اجتازت منذ احتلال طبرق في الواحد والعشرين من شهر حزيران الى اليوم، مسافة ٦٠٠ كيلومتر ..

وكانت حركة فريدة من نوعها بل أسطورية تقريبا ،لان ما حدث وجرى في هذه الاسابيع ، وحتى في هذه الاشهر منذ ابتداء الحملة الاخيرة .. كان يخالف تماما كافة التقاليد والنظم التي تتميز بها أسس الحرب، وكان اسم المارشال رومل يدور على جميع الالسنة ويجول في جميع الاذهان ويملأ الصدور والافئدة في معسكر الاصدقاء والاعداء على السواء ...

لقد رفعه التقدير والاعتبار الى مصاف القادة العظام في هذه الحرب العالمية الثانية ، واصبح رمزا لا يفترق عن حرب الصحراء ،وعندما كان يذكر اسمه كان الفكر يتجه توا الى الفيلق الالماني الافريقي ، وعندما يتردد اسمه كان الناس يتذكرون على الفور (ليبيا) ومعاركها ومواقعها التاريخية .. بحيث اصبح هذا اسم حديث الناس ليس في المانيا وايطاليا فحسب بل في بلاد العالم قاطبة ..

وقد كتب في هذا الصد احد المعلقين الاميركين ما نصه :

« أخرجت حرب افريقيا جنودا لا مثيل لهم في التاريخ وقادة من ذوي

القيمة الحربية السامية ، واذا ذكرت هذه الفاجعة الكبرى بطلا عبقريا فذا فهو في نظري روميل وحده دون ريب .. لقد وضعه الجيش الثامن في مصاف الآلهة . وكان معجبا به عندما يغلب على امره .. وكان يعجب ويذهل عندما يقهر مثل هذا القائد الماهر ، وطالما حاولت الدعاية البريطانية في كثير من الاحيان أن تنتقص من قيمة روميل ، ولكن الجيش الثامن لم يخضع لهذه الدعاية ولا آمن بها .. »

ولكن هذه الشعبية المثيرة التي نالها هذا القائد لم ترض بعض الاوساط في برلين .. حتى ان بعض هذه الاوساط كانت تحاول في كثير من الاحايين التهوين من براعته ومقدرته .. التي أصبحت من الخوارق والاساطير ..

لقد بدأ روميل حملته في افريقيا قبل عام من هذا التاريخ ، وهو لا يملك سوى فرقتين ، ولم تتعد قواته الاربع فرق مدى كل المعارك التي خاضها ، وهو يواجه عدوا يزيده عددا وعدة .

واعجب من هذا أنه كان يحارب في أرض يجهلها ولا يعرف عنها شيئا، وحرب الصحراء ، غير الحرب في أراض اخرى ، ولكنه ما لبث بعبقريته المبدعة ان تفهم الوضع الذي امامه ، فتغلب على كل عقبات الصحراء ، وسيطر على الموقف ..

روميل

لقد قاد روميل فرقة مدرعة في معركة فرنسا ، فما لبث اسمه ان وصل الى السماء ، وتألق كالنجم اللامع ، وأسر الملايين من الناس ..

وكانت سرعته في القتال ومرونته في الحركة وجرأته في الاختراق، وضرباته المحكمة ، تهيء لقواته ووحداته شهرة ذائعة ..

وكان شجاعا مقداما الى حد التطرف ، وبعبارة أخرى كان رجل حرب الصاعقة الأوحد .. ورفيق الحظ المؤاتي ونديم الآلهة المقرب .. آلهة الحرب والمواقع والمعارك ، للآلهة السمراء الخاطئة التي لم تر فيه سوى آلة صماء لا يعمل الا برأيها وتوجيهها ، والتي قادت الامة الالمانية الى ابشع الهزائم واشنع الجرائم سخرية وهزءا ..

ولم تتأخر آلهة الصحراء ايضا عن منحه التفاتها وعنايتها .. أن

السرعة والجراة وحدهما لا تكفيان في حرب الصحراء .. فروميل لم يكن يعمل وحده في ارجائها ، فالعدو ايضا كان يملك قادة مهرة في شؤون الحرب وتصريفها .. يقودون جنودا شجعان بواسل مجهزين بأفضل التجهيزات والمعدات والوسائل الوفيرة ..

كانوا يعرفون الصحراء واجوائها ومسالكها وجوانبها وكل قواعدها معرفة تامة ، وكانوا يستطيعون عدها بسهولة على الاصابع .. وكانت مقدرة رومل وحظه يتوقفان ايضا على القدرة التي كان يتمتع بها في حسن التصرف والتدبير في كل لحظة .. والتوقع والتنبأ الحسي بنوايا العدو وتصرفاته ..

وكان جريئا .. ولكن في حدود عملياته القائمة على أساس استحالة القيام بمهماته مقتصرا على العمليات الدفاعية .. وما كان ليغيب نظره مطلقا عن الحقائق ، وكان يتحاشى كل ما هو غير مدروس او جانح الى المغامرة ..

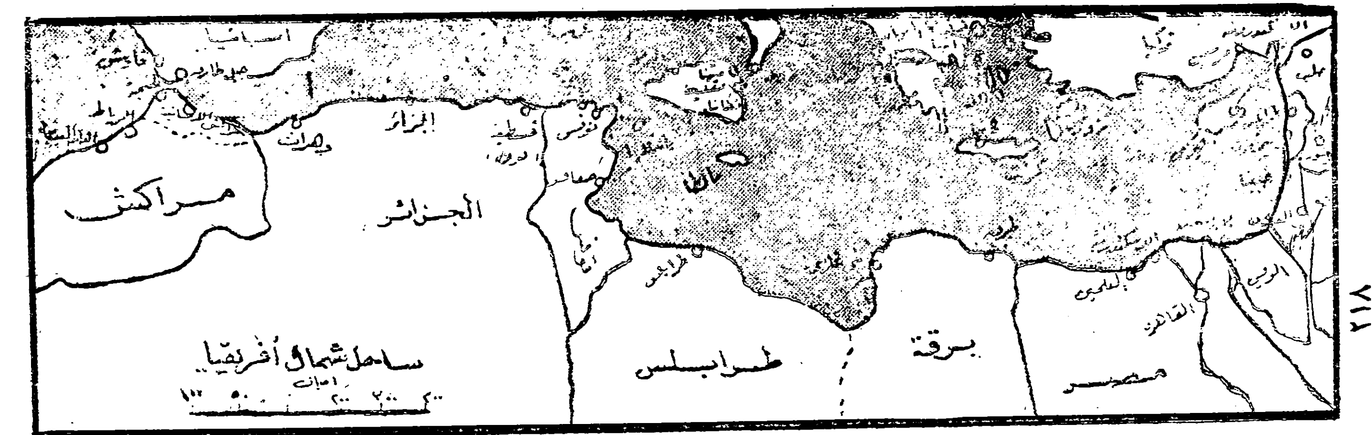
لم يكن مطلقا لعوبا ، ولا من هواة الصدف .. بل كان حاسبا دقيقا يحمل رأسا ثقيلا متزنا عاقلا حكيما متينا قويا .. وكان كما اسلفنا ــ سابقا ــ مديرا للكلية العسكرية .. وتمرن على الحرب وهو ضابط صغير اثناء الحرب العالمية الاولى ، وقد استفاد منها وتفتحت آفاقه فيها كثيرا ..

وكان يستنتج دروسه من الاخطاء الواقعة في معسكره وفي معسكر العدو في كل موقعة او معركة يخوض غمارها ..

ومن الخطأ ان ينظر الى (رومل) كقائد في العمليات الهجومية والحرب السائرة فحسب .. بل لقد برهن بصورة قاطعة على تفوقه ايضا في قيادة حروب المواضع التي قام بها مرة اثناء حصار طبرق واحتلالها ..

لم يكن قائد مدرعات ولا مشعوذ .. بل كان ضابط مشاة وصاحب روح واقعية تمرنت في مدرسة الخبرة والحرب .. حيث قاد فيها سريته بحنكة ومرونة ، وكان في اثنائها يزور المواقع ويفحصها بدقة وامعان ..

كان يريد ان يعرف ماذا يجري امامه ويرى ويستطلع ويرقب ويدرس كل شبر من الارض .. ويتعمق في معرفة تفاصيل الاتجاهات المقابلة ،



ساحة المعارك في شمالي افريقيا وهي تمتد من حدود مصر الى طرابلس الي تونس الى الجزائر ومراكش

ويتعرف على كافة الامكانيات القائمة وكان يقول :

« ان المواقع الجيدة توفر الدماء وتقدم للمحارب والجندي شعور الامن والسلامة ، وهي صعبة الاحتلال بل مستحيلة السقوط اذا احسن تحكيمها واستخدامها ، ويتوجب لاحتلال المواضع الدفاعية الجيدة التحكيم والموزعة على الجبهة ، القيام باستعدادات مدفعية هائلة » .

هذا ما كتبه رومل في عام ١٩١٧ .

وقد وجد نفسه امام حصار طبرق واستحكاماتها ازاء طبيعة جديدة لا يعرفها .. لم تكن لتتجاوب تماما مع دراساته السابقة المتعلقة بدفاعات الاعماق .. ولم يتأخر عندئذ عن تبني نظام جديد للدفاع والمدافعة، وأبدع منظمة جديدة للدفاع ونظاما مستحدثا للهجوم على المراكز المعادية ، واستبدل استدراكاته القديمة بتعاليم جديدة اعتمدها وقررها وفق طريقته الخاصة ، وكانت هذه الطريقة تتلخص باقامة شبكة من نقاط الاستناد المنفردة تتجانب وتتجاوب فيما بينها بالرؤية والنار.. وتشغلها قوى محدودة المدد قوية السلاح .. وأوجب ان تكون نقاط الاستناد هذه محصنة قوية موزعة على الارض بدون انتظام .. ولكن طبق خطة مدروسة تماما .

وكان رومل يسهر بنفسه على اختيارها وشكل تحصينها ودعمها بالأسلحة الثقيلة .. ويعتني بتعين مراكزها بنفسه ، ويشرف على اختيار ساحات مراميها بدقة متحاشيا الاماكن التي من طبيعتها استدراج نيران العدو المستمرة عليها .

كان يعمل على انشاء نقاط استناد ومواضع دفاعية كاذبة لخداع العدو وايهامه .

وفي الاماكن التي كان يشك بها المحاربون من عدم امكانية رفع رؤوسهم اثناء القتال ، يوصيهم باقامة اشباح تمويهية متقنة ، ليدفع نظر العدو اليها وتشويشه ..

وقد نجحت هذه الطريقة نجاحا باهرا ، وطالما اقام في الجبهة كثيرا من هذه التمويهات بصورة بارعة بهرت انظار العدو وحملته خسائر جسيمة في الذخائر ..وأوعز أيضا باجراء تنقلات مستمرة للمدرعات والسيارات الثقيلة تدور حولها لاثارة سحب الغبار والعجاج في الارجاء . وكان يوعز باجرائها لتضليل العدو وخاصة عندما تكون الرياح متحركة باتجاه

جبهة العدو .. دون ان تكون هـذه التدابير سببا لانهـاك قواتـه بـدون جدوى ، وكـان يرمي من وراء هذه المحاولات كلهـا الى وضع العدو في حالة يقظـة دائمـة لاثارته وانهاك أعصابه كمـا لو كـان في الحرب الباردة .

القائـد العبقـري

وهكذا كان رومل سيـدا في هذه الامور يملك موارد لا ينضب معينها .. هـي نتاج الخبرة الواسعـة التي اكتسبها اثناء احترافه العسكـري الطويـل ..

وكان واسع التأملات ، غزير الابتكارات ، مستعدا دومـا الى اللجوء الى الحيل الحربية البارعة والخدعة العجيبة .. وهو الذي فكر فـي انشاء طريق المحور التي يبلغ طولها ٨٥ كيلومتر حول طبرق .

وكانت أجوبته مقتصرة جافة ، مشفوعـة بالصراحة والبساطة شأن اغلب سكـان مقاطعـة فورتنبورغ ، وكان حديثه مع رؤسائه ومرؤوسيه معا مشبعا بالعـزم والقـوة وروح الحـزم ..

وكان من أهم صفاته البارزة الظاهرة ، احساسه السريع في التوجيـه والتسيير ، وكانت لـه حاسة طبيعيـة لا تضعف مطلقـا في معرفة الاشياء واستدراكهـا وتبنيهـا قبل وقوعهـا والاحتياط لهـا وتحاشيها .. كمـا يـرى وكما تفرض الظروف القائمـة ..

وكثيرا ما كـان يذهب مع رجاله في الليالي الحالكة يتنقل بين مخافر القتال ، وكان يعرف مواقعهـا ومراكزهـا بصورة عجيبة ..

وكان يجـد هدفه حـالا في اصقـاع واراض ليس فيها اي نقطة او أشارة بارزة للاستدلال ، بينمـا كان رفاقه يتقدمـون بتردد مفكرين فـي تحاشي حقـول الالغام والاسلاك الشائكـة والمواضع المتقاطعة .. بينمـا كـان هـو يتقدم في ارجائهـا دومـا بجـراة وثقـة في ظلمـات الليالـي الدامسة ، كمـا يفعل في أيـام هبـوب رياح السموم .. وكم من مرة ، وفي احـوال مظلمـة حيث كـان يصعب على اخبث ثعالب الصحراء البشريـة العثـور على اهدافهـا ، كنت تـراه يصل الى هدفه بأسرع ما يكون واصدق ما يكـون ..

كان رومل معتدا بنفسه فتراه تارة يوعـز بالسير مستقيما ، وطـورا متعرجا .. الى ان يظهـر امـام عجلته الجندي الدليل المكلف بالاشارة الى الطريـق بيـن حقـول الالغـام أو جنـدي ارتبـاط آمـر القطاع اوالرقيب

المعين لمصلحة استعلامات الفوج.

وطالما تميز رومل بغريزة فطرية خفيفة او قل بحاسة سادسة ذات بصيرة حادة الذكاء غريبة الحال ، تستدرك وتلمح الاخطار والمفاجآت قبل حدوثها .. أو تستكشفها قبل وقوعها ، فيحتاط لها مسبقا .. هذه الحاسة السحرية التي كانت تجعل من رومل الرجل الخفي الساحر في نظر العدو .. وما كان قط رجلا خفيا ولا ساحرا ..

وكثيرا ما لوحظ من رومل مثل هذه الظواهر الغريبة التي تثير العجب والاستغراب ، وحدث ذلك مرة اثر عملية اختراق قام بها في فرنسا ، وكان على رأس فرقته المدرعة .. حيث كان يتقدم بدون انقطاع مع قواته .. وكان على موعد ليلي مقرر في نقطة ما في الجبهة .. يتوجب عليه ان يكون فيها في الوقت المعين .. وبغتة امر بالوقوف فورا .. واستدعى فصائل الهندسة لاستطلاع واستكشاف الطريق ، وعلى بعد مائتي متر من النقطة التي وصلت اليها الطلائع الامامية .. عثر على حقول الغام مبثوثة على جانبي الطريق .. فرفعت الالغام في الحال ونظفت الطريق ثم استأنفت الفرقة سيرها في اتجاهها المطلوب .

فهذه المعرفة والاستدلال العجيبين تكررا غير مرة في ميادين القتال الافريقية ..

وحدث ان كان رومل يوما يتنقل في سيارة شحن مكشوفة فأوعزالى السائق بالوقوف دون اي سابق انذار .. ورفع راسه كأنه يستمع وينصت، وفي هذه اللحظة بالضبط ، بدأت القنابل الانكليزية تتساقط على مقربة من السيارة .. وفي وسط هذا القصف صرخ رومل في وجه السائق :

« تقدم الى الامام بسرعة » .

وما كادت السيارة تتقدم قليلا حتى انقطعت النيران ونجت السيارة وافرادها من الهلاك .

وطالما هوجمت سيارة رومل المدرعة (ماموث) التي اقتنصت فيما سبق من العدو في (المخيلي) .. والتي كان يفضلها على غيرها من السيارات خصوصا في المسير والقتال اثناء المعارك .. ولم يصب مطلقا بالرغم من انه كان يخرج رأسه من السيارة دائما للاستطلاع والمراقبة ..

وطالما كان يمر بها امام انظار العدو وانوفهم أو يشق طريقه عبر تشكيلاتهم ،وكثيرا ما كان يتركها في مكانها عند الضرورة ليستقل

سيارة المانيــة سريعــة اخرى كانت ترافقه في غالب الاحيان . وكان الهدوء لا يفارقــه مطلقــا ، وكــان الناظـر اليه في مختلف الحالات الخطيرة يظن ان الرجل تعاهـد أو تعاقـد مع الموت الا يمسهبأذى .. والا يقترب منه ..

ومن خاصته الغريبة أنه كــان يعرف مــا تحت اوراق اللعب بصورة لا يمكـن تصورهــا وشرحها ، ولا ريب انه كــان دومــا بمثابة عامل أمــن واطمئنــان لمــن يعيش معه وحوله او يعمل معه قريبا او بعيدا ، وكان اركانه وضبــاطه جميعــا يشعــرون بالطمأنينة التامة تحت قيادته واشرافه .. وكــان البعض يظـن ان روميل لا يؤثر فيه الرصاص والقذائف . .الى هـذه الدرجـة ذهب بهم الاعتقــاد والايمــان بهذا القائد ، واي جيش يشعر بمثل هذا الشعـور بقائـده الفذ ، ولا يمضي معه الى الظفـر والانتصـــار دائمــا وأبــدا ..

وكان رومل يطلب اقصى ما في استطاعة ضبــاطه وجنوده ، وكــان بالفعل من هذه الناحيــة قاسيــا شديدا ، ولكنه كــان دومــا مستعدا لاعطاء المثل بنفسه في احتمــال هذه الطاقــة القصــوى التي يطلبهــا منهم ، وفي الاسابيــع الاخيـرة من القتال ، تعرض الى متاعب ومشاق ليس في امكان اي جندي من جنوده احتمالهــا والمثابـرة عليهــا ، فرومل شخصيا لـم تكن له طلبات ولا حاجات .. وكــان زهده واكتفاؤه وتقتيره على نفسه كثيرا ما يزعج رفاقه واركانه ، وكــان لا يدخــن ولا يتعاطى الخمرة ، ولم يفكر يومــا في تحسين معيشته ، بالرغم مــن الاعاشــة المتنوعــة الغزيرة التــي كــان يقتنصهــا مــن العـدو في بعض الاحيــان ..

وكان له هواية كبيرة في الصيد والقنص ، ويعد فــي طليعة الصيادين البارعيــن بلا منازع ، وكــان ولوعــا بصيد الغزلان ومصورا ماهرا ، وكان لا يفتأ يأخذ صورا شمسية عن العدو اثناء اشد المعارك، احتدامــا وضراوة، وكــان يقتنص الوقت اللازم لاخــراج هـذه الصور التي كان يسر بها كثيرا .

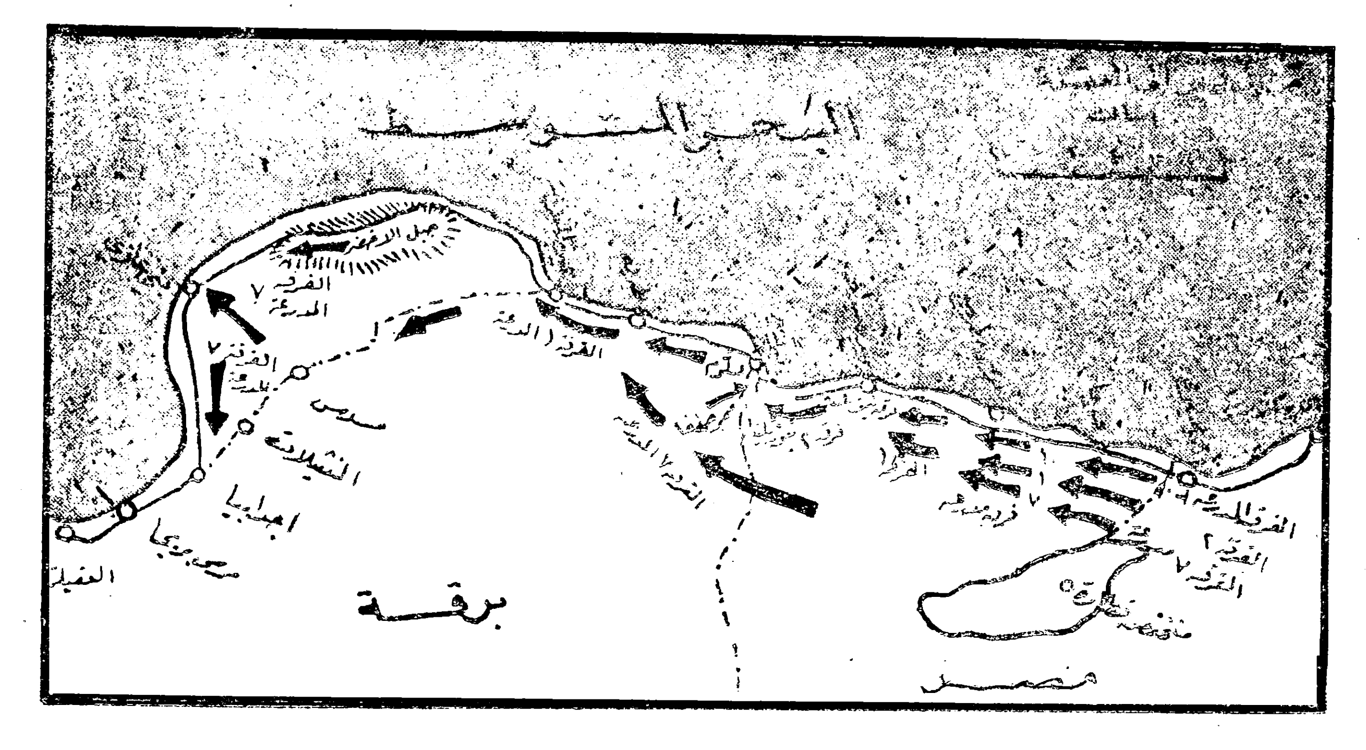
وكـــان فيمــا سبق يحب الجنائن والعمل فيها ، فيحـرث ويـزرع ويعشب كالفلاحيــن المتمرنين على الزراعة ، وكثيــرا مــا كان يحفر بنفسه الارض ليوارى ويدفــن خيمته في الرمــال ، ويشغل نفسه باجراء حفريات في الآثار الرومانيــة القديمــة الواقعــة في الاماكــن التي ينزل فيهــا ، ليكشف بعض الآثار ، وكان لديه الكثير منها ، وقد وقف قسما من حياتــه اليوميــة على تعاطي الرياضة المنوعــة فكان يعني جدا برياضته البدنيــة الخاصة العنيفــة مولعــا بترويض جسمه ، وتعويده على كافة الاحتمــالات

والامتحانات القاسيـة ، وكان دائمـا شديد القساوة على نفسه ..

وكانت الحرب في نظره فاجعـة وبلاء ، وليست حرفـة او صنعة ، ولكنهـا فـن وعلم يتوجب معرفتهمـا معرفة تامة ..

وكانت ساعاته الطويلـة الصامتة الهادئة ، تبعث في نفوس رفاقـه وجنوده شتى الشكوك والتأويلات في نفسه وشخصيته ، وكان يحب الجبال حيث يسرح في ارجائهـا بتأملاته العميقـة الواسعة ، وكـان موضع تعجب جنوده ، اذ يشاهدونه فجأة في الساعات الممكنـة وغير الممكنة ، في النهـار كمـا في الليـل ،وفي ساعات الهجير كمـا في ساعات الغسق ..

وفي ايـام حزيران الاخيرة ، كـان رومـل دومـا علـى رأس قواتـه ووحداته وبيـن ضباطه وجنوده يأمرهم بالتقدم الى الامـام دون تـوقف ولا تأخـر .. وكانت قواته منهوكـة القوى متعبة الاجسام ، ولكنها كانـت كالخيل العربيـة المسومة ، مـا يكـاد يركلهـا فارسها بمهارة حتى تنطلق كالسهام الطائـرة .. فلا المعارك المستمرة ، ولا الحر المخيف ، ولا السيـر المرهق الذي لا ينتهي كل هذه العوامل المبيدة القاتلة لـم تستوقفـه لحظـة عن التطلع والنظـر الى المستقبل الذي كـان واثقـا من انه سيقرر مصيـر افريقيـا في معركـة العلميـن .



خريطة عسكرية تمثل تقدم الانكليز بعد معارك العلمين من العلمين الى العقيلة

الفصل الثالث عشر

رومل لا ينام ويبدأ هجوما جديدا

دهشة الانكليز لهذا الهجوم وذهول برلين

نقلا عن المصادر الالمانية

ثعالب الصحراء :

(بول كاريل) اسم مستعار كما يبدو للصحفي الالماني الذي وضع كتاب (ثعالب الصحراء) الذي نأخذ عنه بعض تفاصيل المعارك التي وقعت في افريقيا .

وكان المؤلف يعمل بوزارة الخارجية الالمانية في عهد هتلر، وفي أثناء الحرب نراه يعمل في المخابرات الالمانية ، وقد نشر كتابه هذا عام ١٩٥٨ بالالمانية ، وفي سنة ١٩٦٠ ترجم الى الانكليزية ..

ولقب « ثعلب الصحراء » لقب أطلقه ونستون تشرشل على المارشال روميل ، فأطلقه الكاتب الالماني على كتابه والجنود الذين يكتب عنهم .. ويخرج المرء من قراءة هذا الكتاب بأن رومل قد خسر المعركة لافتقاره الى المعدات والجنود والمؤن والذخائر ، وأن لا سبب غير هذا .. ولو انه كان يملك من هذه نصف ما كانت تملكه قوات خصمه في صورة متواصلة لما غلبوه ولا قهروه ..

ولقد وصفنا فيما سبق من فصول انتصارات الجيش الثامن ، وقد أثارت هذه الانتصارات في القاهرة عاصفة من الحماسة والفرح ، وكان الجو بديعا فالشمس تشيع الدفء في كل مكان وكل شيء يبدو تحت أشعتها زاهيا مفرحا .

رومل لا ينام :

علب الليل والبارات القاهرية كانت مليئة بالجنود وفي كل يوم تظهر علب جديدة وأندية جديدة حتى أن واحدة انشئت في باخرة على ضفاف النيل .

ونظام التقنين لم يكن ساري المفعول في القاهرة ، وبالطبع كانت الاسعار ترتفع باستمرار ، ولكن الجنود البريطانيين كانوا يملكون كثيرا من المال فأين يصرفون هذا المال اذا لم يكن في القاهرة ؟

كان وجه العاصمة ضاحكا وهي تعيش في جو من الاطمئنان ..

ويوم أعلن في اواخر كانون الثاني نبأ استسلام قوات رومل في السلوم وحلفايا .. ويوم نشرت الصحف صورة الماجور باخ وهو في الاسر ، يومها لم تجد آمال هيئة أركان حرب القوات البريطانية حدودا تقف عندها ، فقريبا ستندفع مئات المدرعات في زحفها نحو طرابلس الغرب ، دون توقف هذه المرة ، لتسجل نهاية هؤلاء الالمان الشياطين وقائدهم رومل .

الرجال متوفرون ولا ينقصهم سوى بضع مئات من الدبابات والطائرات والمدافع ، هذا ما كان يردده الجميع في القاهرة .

ووصلت المعدات : طائرات اميركية ودبابات أميركية .

وفي تلك الاثناء كان القائد العام « اوكنليك » يتنزه في حديقة مقر قيادته بالقاهرة وهو يفكر بخطط جديدة للقضاء على رومل ومن وقت لآخر كان يتوقف لتلتقط له بعض الصور ..

أما رومل فانه لم يكن قابعا في فيللا جميلة حولها حديقة يانعة الازهار .. لقد استقر منذ العاشر من كانون الثاني في مركز قيادته السابق في العجيلة وأخذ هو والكولونيل « وستفال » الذي يمثل رئيس أركان حربه يقومان بفحص المراكز الجديدة التي تمركزت فيها القوات الالمانية بانتظار وصول المدد الذي لم يتاخر .. فقد وصلت عدة بواخر تحمل الجنود والمعدات والدبابات بحراسة طائرات الجنرال « كسرلينغ » المنطلقة من جنوبي ايطاليا .

واقترح « وستفال » أن تقوم القوات الالمانية بهجوم معاكس سريع قبل أن يتمكن البريطانيون من تنظيم صفوفهم لمواصلة الزحف خصوصا بعد أن طالت طرق مواصلاتهم .

وطوال الليل كان رومل يبقى ساهرا في خيمته يفكر ويضع الخطط ويتلقى التقارير عن تحركات العدو والمكالمات اللاسلكية التي تتبادلها مختلف الوحدات الانكليزية مع القيادة العليا ، فاذا يلفت الساعة الرابعة والنصف

صباحا أطفأ رومل المصباح وارتمى على فراشه قائلا : « أيقظوني في الساعة ٣٠ر٥ » ..

كان يوم ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٢ قد بدأ عندما ظهر رومل في اجتماع الصباح مع ضباطه الذين لاحظوا أن لديه شيئا ما على جانب من الاهمية .

ولما حياهم كان في تحيته نبرة خاصة غير عادية .. ولكنه عندما جلس اليهم قال لهم : « سنهاجم » ..

جمدوا في اماكنهم كأن على رؤوسهم الطير !..

هل يعقل أن ينتقلوا الى الهجوم وهم الذين قاسوا الامرين حتى تمكنوا من الوصول الى مراكز جديدة اكثر ملائمة للدفاع ؟ وهل يعقل أن يهاجم الالمان بعد أن أصبحت الوحدة تتألف من ثلاثين رجلا على الاكثر ؟

وهل يعقل أن يهاجم الالمان وقد تحطمت دباباتهم ودمرت ذخائرهم اثناء التراجع ؟

كذلك كان يفكر كل واحد من ضباط أركان الحرب وقواد الوحدات . وكلهم يعرف تمام المعرفة ان الانكليز ينظمون وحدات الجيش الثامن للهجوم الاخير !.. وكلهم كان يحمد الله كلما تأخر انكليز في شن هجومهم الاخير هذا حتى يجدوا مزيدا من الوقت لتقوية خط الدفاع الاخير عند طرابلس الغرب .

لم يفاجأ :

وستفال وحده لم يفاجأ بتصريح رومل ، كان يبتسم وهو يستمع الى قائده .. لقد أمضى الايام الاخيرة معه في وضع خطط الهجوم .

وقال رومل لضباطه : « اذا تركنا الانكليز يواصلون استعداداتهم حتى شباط أمكنهم اجبارنا على الانسحاب والتقهقر ولن يقف شيء عندئذ في وجه الجيش الثامن حق ولو أصبحت مواصلاتنا مضمونة أكثر مما هي الان، بفضل طائرات الجنرال « كسرلينغ »، ذلك أننا لن نحصل على الاعداد اللازمة من المعدات الثقيلة لايقاف انكليز ! .. »

كان رومل يردد هذه الاقوال بين الحين والاخر ، وهو يشرح لضباطه خطة الهجوم المعاكس ، وكان في كل مرة يستطرد قائلا : « لذلك يجب أن نحطم خطط الانكليز » .. وكان في اصراره شيء من المرارة .

والهدف الحقيقي وراء الهجوم الالماني المعاكس كان عرقلة تقدم البريطانيين وتأخير قيامهم بالهجوم الكبير مع امكانية التوسع في الخطة وفقا لتطورات القتال . ولم يكن أمام رومل الا القيام بهذا العمل اليائس ،

ولكي يتفادى اندحار قواته اندحارا تاما كان لا بد من انتزاع المبادرة من أيدي الانكليز .

وقبل أن تبدأ القوات الالمانية بالهجوم أمر رومل رجال الاستخبارات الالمانية أن يطلقوا الاشاعات عن اخلاء مركز البريغا .. وقد انتشر النبأ كالبرق !..

وسمع الايطاليون الاشاعة وصدقوها لان رومل حرص على كتمان الحقيقة عن الجميع ما عدا مساعده وستفال وقاموا يخطرون روما ... ويدعونها للقيام بمسعى لدى القائد الالماني من أجل البقاء في مراكزه وعدم التراجع لان في ذلك احراجا لحكومة الدوتشي .. وروما كما لا يخفى كانت مركزا للتجسس الانكلو - اميركي ، فما يذاع خبر ، مهما كانت خطورته حتى يصل الى آذان عملاء الانكليز فينقلونه الى لندن ومن ثم الى القاهرة ..

« رومل لن يستطيع الصمود .. رومل ينوي التراجع حتى طرابلس».

وانعقدت هيئة أركان حرب القوات الايطالية في روما وناقشت الوضع الراهن وقررت بادىء الامر استجواب رومل ، ولكنها عدلت عن ذلك في آخر الامر ..

وفي القاهرة كانت جميع التقارير الواردة من الجبهة وروما ولندن تؤكد للقائد العام اوكنليك أن رومل يستعد للتقهقر من جديد .

وقال اوكنليك لضباطه :«حذار .. حذار من هذا الثعلب فاننا لا نعرف أين نحن من خططه .. »

وأمر القائد البريطاني بتعزيز الدوريات فكانت التقارير كلها تؤكد سابقاتها ... حتى طائرات الاستكشاف لم تتمكن من ملاحظة أي شيء غير عادي على طول الجبهة ، فقد كان رومل يوالي استعداداته أثناء الليل .

ولكي يتأكد اوكنليك من حقيقة نيات رومل طلب الاطلاع على التقارير الواردة من العملاء البريطانيين في برلين فجاء الجواب بأن هيئة القيادة العامة للقوات الالمانية ليست على علم بشيء بالنسبة لخطط رومل النهائية ولكنها ، على كل حال ، لا تتوقع منه اية حركة هجومية .

وتهب عاصفة رملية يوم ٢٩ تشرين الثاني فتستحيل الرؤية وتتوقف أعمال الدوريات البريطانية . وفي مساء اليوم التالي اندلعت النيران في بعض منازل موقع مرسي البريغا بينما توالت الانفجارات في البواخر الراسية في المرفأ ، وظن جواسيس الانكليز أن الالمان يدمرون مستودعات التموين وينسفون البواخر التي لا تستطيع الابحار ، فطيروا البرقيات الى القاهرة يعلنون النبأ السار : « رومل يستعد للتقهقر » ..

والواقع أن المنازل التي التهمتها النيران لم تكن سوى منازل فارغة والبواخر التي دمرت في المرفأ ليست سوى بقايا بواخر لا تصلح لشيء ..

الفصل الاخير لم يبدأ :

وخطب اوكنليك في ضباطه قائلا : ان الفصل الاخير في معركة افريقيا بدأ .. وها هو رومل يتقهقر ولا يستطيع الا الانسحاب حتى طرابلس .. فاستعدوا لسير طويل ونظموا المواصلات بأسرع ما يمكن ولا تتركوا للالمان اي مجال للراحة ، ان عدونا لم يعد يسمى رومل ، انه الطريق والرمال والغبار .. والحجارة .. وعدونا يسمى أيضا الكسل .. الكسل الذي يخيم على تفريغ المؤن في قناة السويس .. فاذا استطعنا التغلب على هؤلاء الاعداء ضمنا الفوز لان رومل انهار !..

وفي القاهرة لم تكن تجد غير وجوه مشرقة .

وقد انقضى ليل ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٢ والآمال تغمر القلوب والناس يتبادلون الانخاب بانتظار الانباء السارة .

وفي صباح اليوم التالي ، بينما كانت الراقصة حكمت فهمي تقذف بكأس الشمبانيا على أرض الكباريه العائمة في النيل قائلة « الى النصر !» .. وكانت الساعة الثامنة ، وفي نفس اللحظة كان محمد علي ، وهو في الحقيقة احد أفراد فرقة الاستخبارات الانكليزية التابعة لضباط الاستخبارات الكولونيل « هازلدن » يقف في احدى نواحي ولاية طرابلس امام منزل ريفي قديم وقد فتح عينيه وأنصت بانتباه ..

وفي اللحظة نفسها كان أحد رجال الشرطة العسكرية الالمان يعلق على الجدار بيانا صادرا عن القائد العام أروين رومل . وتجمهر حول الشرطي بعض الجنود وكان الذين يقفون في المؤخرة يدعون رفاقهم الذين يقفون قريبا من الشرطي لقراءة البيان بصوت عال . واقترب محمد علي قليلا وأرهف السمع فراعه ما سمع .. بل لقد أبى عقله أن يقبل هذا الذي سمع الجنود يتلفظون به ! .

فبالامس بعث الى القاهرة ببرقية يقول أن جنود رومل كانوا يتحدثون أمامه ، وهم يظنونه اعرابيا لا يفهم حرفا واحدا من اللغة الالمانية ، عن قرب انسحاب القوات الالمانية الى طرابلس والاستعدادات القائمة من اجل استقبالها .

والواقع ان الدهشة التي أصيب بها « محمد علي » ، أصيبت بها كذلك طلائع القوات البريطانية امام « مرسي البريغا » عندما سمعوا هدير

الدبابات الالمانية وفتحوا غيونهم وهم غير مصدقين أنها قادمة اليهم ؟!

لقد كانت المفاجأة تامة ونجحت الخطة نجاحا كبيرا ومن حسن حظ روميل أن الاستعدادات الاخيرة التي سبقت الهجوم احاطتها عاصفة رملية بستار كثيف من الغبار . وزيادة في الحرص فانه لم يتسلم رؤساء الوحدات المختلفة خطة الهجوم الا في الدقيقة الاخيرة ، حتى أن القيادتين الالمانية والايطالية في برلين وروما لم تعلما عن خطة رومل أي شيء ، فقد كان « ثعلب الصحراء » يعرف أن الاجهزة السرية ترتكب أحيانا أخطاء صغيرة بحد ذاتها ، ولكنها هامة بنتائجها ومنها امكانية تسرب أنباء الهجوم الى العدو، وبالتالي فساد الخطة برمتها وفقدان المفاجأة .

وكان غامبارا الايطالي الوحيد الذي أبلغه رومل نبأ الهجوم ولكن بشكل غامض جدا فقد قال له انها « عملية صغيرة » لذلك فان غامبارا رئيس هيئة أركان حرب القوات البريطانية لم يتحدث الى رئيسه بشيء عن الهجوم ..

الهجوم الجديد :

كانت خطة الهجوم الجديد ترتكز على الخطوط التالية :

١ — تتجه بعض الوحدات بقيادة الكولونيل ورنر ماركس نحو الطريق الساحلي « فيابالبيا » للهجوم على مواقع فرقة الحرس البريطاني باتجاه ايجدابية .

٢ — يقوم فوج من القوات الايطالية ووحدات غير مدرعة من الفرقة التسعين الخفيفة الالمانية باللحاق بالقوات الاولى وهذا كله يشكل الفك الشمالي للكلابة .

٣ — أما « جيش افريقيا » فانه يؤلف الفك الجنوبي وكان عليه اجتياز الصحراء والاتجاه من ثمَّ نحو الشمال الشرقي على محاذاة وادي الفرج ، والاطباق مع الفك الشمالي على القوات البريطانية المنسحبة الى مراكز انطلاقها . وقد احتفظ رومل بحق اتخاذ القرار اللازم بالنسبة لمستقبل الهجوم وفقا لنتائج المعركة الاولى .

وفي صباح اليوم الذي بدأت فيه القوات الالمانية زحفها تلقى رومل برقيتين من الفوهرر صادرتين من مقر قيادته في راستنبورغ . الاولى تنبئه باطلاق اسم « جيش افريقيا المدرع » على القوات المدرعة التابعة له والثانية تزف اليه نبأ منحه وسام الصليب الحديدي ذو السعف والسيف من رتبة فارس .

ومنذ الساعات الاولى للهجوم أخذت الانتصارات تتوالى على جميع

الجبهات وشاعت الفوضى بين القوات الانكليزية ولعل أصدق وصف لتلك الحالة هي الذي قدمه المعلق الحربي الشهير « آل مورهيد » اذ قال :

« منذ اللحظة الاولى فقدت مختلف الوحدات البريطانية كل تعاون فيما بينها ، وبدت هيئات أركان الحرب التابعة للقيادة العامة وكأنها أصيبت بضربة قاصمة ، فقد انقطع كل مدد على الخطوط الامامية حيث يقف المشاة بينما بقيت قوات الاحتياط مجمدة في المؤخرة ، واذا تحركت في بعض النواحي الى الامام فانها كانت تصادف عدوا يهاجمها بعنف . ومن ثم اندفع الالمان في طوابير صغيرة ... داخل الخطوط الانكليزية لتنتشر في طوابير صغيرة أخرى وتعيد نفس المسرحية فالقوات الانكليزية المعزولة أفنيت الواحدة تلو الاخرى ، وخلال يومين قضي تماما على القوة الهجومية البريطالية » .

التقدم :

وسقطت المدن والقرى أمام الزحف الخاطف وتلاشت الوحدات الانكليزية المصفحة التي كانت تستعد لمتابعة الهجوم على طرابلس .

واستولت القوات المهاجمة على مخازن التموين الضخمة التي كانت معدة لامداد القوات البريطانية أثناء زحفها نحو الغرب .

وفي بنغازي نجحت قوات الكومندوس الهندية التابعة لحامية المدينة الهندية في احراق كميات كبرى من الاغذية فكانت ألسنة اللهب تضيء الكاتدرائية البيضاء فتحيلها الى شبح عملاق ، وبالقرب منها كانت سبعة ملايين سيغارة تشتعل وفي المخازن العديدة كان مائمة ألف كيلو غرام من أفخر أنواع اللحم المعلب تحترق ومع ذلك فقد وجد الالمان كميات كبيرة سالمة .

وكانت قوات الكولونيل ماركس أسبق الجميع في أسر الطوابير الاولى من الجنود الانكليز الذين حاولوا الفرار من بنغازي ، وكان رومل يشدد الضغط للاستيلاء على المدينة عندما سمع في الراديو خطابا للدوتشي يرجوه فيه احتلال بنغازي حالما تسنح الفرصة دون أن تتأثر المراكز الايطالية في المؤخرة عند ايجدابية ومرسي البريغا ..

سمع ضباط هيئة أركان حرب رومل الخطاب فعلت الابتسامة وجوههم! أما جواب رومل فكان حاسما « لقد حصل ! » ففي الساعة الثانية عشرة من يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٢ دخل رومل على رأس القوات الالمانية مدينة بنغازي عاصمة برقة ، فخرج سكانها الى الشوارع يحيون القائد المظفر وهم يحملون الاعلام ويلوِّحون بأيديهم .

وفي المساء كان اوكنليك يقف امام خرائطه منهار القوى يائسا وحوله ضباطه فقال لهم : « هذه هي نهاية معركة الشتاء التي كنا نأمل أن توصلنا الى ابواب طرابلس .. » .



الجنرال مونتغمري

قائد الجيش الثامن
في معركة العلمين

ثم وزع عليهم المهمات الجديدة فأرسل كلا منهم الى ناحية من الجبهة لاعادة تنظيم القوات المدحورة ، ولكن ما عسى أن يفعله هؤلاء وفي أي نقطة يمكن ان تقف القوات الانكليزية المتقهقرة ؟ كانوا يتساءلون : ما هي القوات التي يستند اليها رومل ؟ وما هي خططه ؟ ألا يوجد طريقة لايقاف « ثعلب الصحراء » عند حد والصمود في وجهه ؟ لقد استعاد رومل خلال سبعة عشر يوما جميع الاراضي والمواقع التي خسرها في خمسة اسابيع من المعارك الضارية ، ولكن قواته كانت غير كافية لضرب الحصار من جديد حول طبرق .

وهكذا تركزت آمال الانكليز مرة أخرى على هذه القلعة ، ولكن هل تستطيع الصمود كما صمدت في صيف عام ١٩٤١ وتكون باب مصر الموصد في وجه « جيش افريقيا » ؟

كان الانكليز يتطلعون صوب طبرق !

ماذا سيحل بقلعة الصحراء .. هل سوف تسقط أخيرا ؟

لقد كافح رومل كثيرا لاسقاطها .. لانها كانت مفتاح الطريق الى الشرق ..

وكانت المعارك الماضية التي دارت حول طبرق من أعنف المعارك التي وقعت في تاريخ افريقيا ..

ولم يتورع (رومل) عن استعمال الحيلة في صراع خصومه ، حتى لا يصلوا الى اسراره ، فقد أعلن منذ بدء هذا الهجوم الجديد أنه سكتفي بحصار طبرق كما فعل في السنة الماضية ، فوجه قواته المدرعة في طريق بعيدة عن المدينة بينما دفع بقوات المشاة لمهاجمة القلعة من ناحية الغرب ..

وفي نفس الوقت كان رومل على رأس الفرقة التسعين المدرعة التي وصلت الى (البردية) يوم ١٩ حزيران فأرسل أوامره بواسطة الراديو الى مختلف الوحدات لتنفيذ خطة : « هيملبيت » فظن الانكليز أنها عملية تتناول قطاع البردية فقط ، والتقطت أجهزة الراديو الالمانية الخاصة ، برقيات متبادلة بين قوات الاستكشاف البريطانية ومركز القيادة البريطانية تفيد أن الانكليز يعتقدون بأن رومل يسير على رأس قوة مدرعة نحو الحدود المصرية.

وكان هذا في الواقع كل ما يريده رومل .. وعندها قفل راجعا الى القطاع الجنوبي الغربي من طبرق لقيادة طلائع « جيش افريقيا » واللواء العشرين الايطالي المصفح . وكانت هذه القوات قد توقفت عن سيرها وعادت أدراجها قريبا من طبرق .

وفي فجر العشرين من حزيران انتقل رومل وهيئة أركان حربه الى الخطوط الامامية واستقر في مركز قيادته استعدادا للمعركة ، وبعد أن ألقى نظرة على الخرائط أخذ يشرح لضباطه خطط المعركة ثم تناول منظاره الحربي وأخذ يراقب الافق البعيد .. حيث تقع طبرق . وفجأة سمع هديرا خفيفا وكانت الساعة تشير الى الخامسة والثلث تماما ، وما لبث أن ظهرت في السماء نقط سوداء سرعان ما تحولت الى طائرات من طراز « شتوكا » وقاذفات قنابل وطائرات مطاردة ..

لقد توجهت جميع الطائرات الالمانية والايطالية الموجودة في شمالي

افريقيا للاغارة على طبرق وما هي غير لحظات حتى بدأت أصوات الانفجارات تسمع من بعيد واستحالت حصون طبرق الى جحيم ، اذ تركز الضرب على الحصون الجنوبية الشرقية والاسلاك الشائكة المحيطة بأول خط دفاعي عن المدينة .

سقوط طبرق

ولما انتهت الطائرات من مهمتها اندفعت المصفحات تشق طريقها الى قلب المدينة في وجه مقاومة عنيفة ضارية .

وعادت طائرات الشتوكا مرة ثانية تمهد الطريق أمام القوات الزاحفة وبلغ عملها هذه المرة في نسف أوكار المقاومة المنتشرة حول المدينة حد الكمال .

وتحركت الدبابات والمصفحات وهي تولد سحبا من الدخان كي تحدد للطائرات نقطة الزحف لتتمكن من القاء قنابلها على الخطوط المعادية المواجهة لطلائع القوات الزاحفة .

وعندما انتهت الطائرات من مهمتها تابعت المدرعات زحفها وتمكنت الفرقة الخامسة عشرة المصفحة من اجتياز الخنادق العريضة المعدة خصوصا لمواجهة الدبابات ، وكانت الساعة تشير الى الثامنة والنصف ، وكان رومل يطوف على الجنود يحثهم على الاسراع قائلا : « هيا يا أبنائي أسرعوا .. يجب أن نسرع ! » .

وكان رجال المدفعية المراقبون يغيرون على أعشاش المدافع الرشاشة ويخرجون منها غالبا وبرفقتهم بعض الاسرى ، وقد تمكن الكابورال فريتز هوفمان من أسر جندي ضخم الجثة من جنوبي افريقيا أثار دهشة الجميع .. فقد كان يخشى أن يعدم رميا بالرصاص وكان يتمتم بصلوات مبهمة ، ولكن عندما عدم له الكابورال سيفارة انفرجت أساريره واطمأن على حياته !.

نفذت جميع الخطط كما رسمها رومل بدقة متناهية الا في منطقة الفيلق العشرين الايطالي المدرع فقد بقي أمام الخطوط الاولى لا يتقدم خطوة مما أدى الى تعريض جناح الفرقة الالمانية الخامسة عشرة المدرعة الى نيران المدفعية الانكليزية .

وقد حاولت الدبابات البريطانية القيام بهجوم معاكس وانطلقت بصورة عمودية لمهاجمة المدرعات الالمانية ، وهنا ارتكب البريطانيون نفس الخطأ الذي كانوا يرتكبونه قبلا ، ذلك أن اتجاههم العامودي هذا كان يعرض جناحهم لنيران المدفعية المضادة للدبابات ، وخطأ آخر كان الانكليز يرتكبونه أيضا هو

رفع علم صغير فوق الدبابة التي تحمل القائد ، فقد كان من السهل عند اصابة هذه الدبابة وتعطيلها أن يقضي على بقية الدبابات .

ولما انتصف النهار وجد الجنرال « كلوبر » قائد الحامية نفسه محصورا داخل تحصينات المدينة يائسا لا يستطيع توجيه أي أمر ، فقد اضطر الى تبديل مركز قيادته أكثر من مرة أثناء الهجوم ، أي في أشد الاوقات حرجا .

في تلك الاثناء كان ريتشي يطير الى القاهرة ليعطي القيادة العامة بيانا مفصلا عن حقيقة الوضع . وبعد ساعات تلقى من « كلوبر » برقية تقول : « أصبح الوضع يائسا ، سأحاول اختراق الخطوط باتجاه الغرب » .

وفي القاهرة كان الناس يترقبون بينما كانت الحمى ترتفع في لندن !

وتصل برقية أخرى الى ريتشي من « كلوبر » المحاصر يقول فيها : فاتت الفرصة ، لقد دمرت وسائل النقل ولم يعد باستطاعتنا القيام بأية محاولة ، سأواصل المقاومة حتى يتم تدمير المعدات الكبيرة » .

وفي صباح يوم ٢١ حزيران عند الساعة الخامسة دخل رومل الى قلب مدينة طبرق على رأس « جيش افريقيا » ، وكان يسير بين صفين من الخرائب اذ كانت الابنية التي تزال قائمة قليلة جدا ومن بينها المسجد الكبير الذي أصيب بأضرار طفيفة ، وفي حوض المرفأ كان لا يظهر من السفن الغارقة سوى السواري والمداخن .

وفي الساعة ٩،٤٠ تلقى رومل طلب استسلام الجنرال « كلوبر » ، وكان رومل قد شاهد سيارات النقل البريطانية وقد أضرمت فيها النيران من قبل رجال الكومندوس البريطانيين وكذلك مستودعات الاغذية فقال للجنرال المستسلم بغضب : « اذا دمرتم وسائل النقل فسيضطر جنودكم للسير مشيا على الاقدام عبر الصحراء ، واذا دمرتم المؤن والاغذية فان جنودكم لن يجدوا شيئا يقتاتون به » .

فرد عليه « كلوبر » ببرود : « انني أنفذ الاوامر الصادرة الي يا سيدي الجنرال » ، ثم أردف بصوت خفيض : « لم أعط الاوامر بتدمير مستودعات الاغذية » .

وطلب رومل وبايرلاين الى كلوبر أن يصحبهما الى داخل المدينة ضمن قافلتهما المدرعة ، ولما وصلوا الى مكان التجمع كان هناك ٣٣ الف جندي أسير .

ولقد كتب المعلق البريطاني آل مورهيد يقول :

« كانت هزيمة منكرة ، بل هزيمة كاملة ، لقد استولى العدو على أكبر كمية من المعدات والمؤن عرفتها الصحراء ، كما أصبحت طريق مصر مفتوحة، وروميل الذي احتل طبرق في يوم واحد تماما مصمم على الزحف نحومصر».

والواقع أن روميل كان مصمما على مواصلة الزحف نحو الحدود المصرية فهل يصل قريبا الى النيل ؟ وهل يحقق ضباطه حلمهم القديم بتناول الويسكي في بار فندق « شبرد » ؟ .

كل شيء كان يدل على أن هذه اهداف قريبة التحقيق وروميل لم يخف ثقته بالمستقبل عندما أصدر الامر اليومي عقب احتلال طبرق .

« يا جنود (جيش افريقيا) المدرع .. يجب علينا أن نمحق العدو نهائيا ، وفي الايام المقبلة سأطلب منكم أيضا بذل أقصى جهودكم حتى نتمكن من الوصول الى هدفنا » ، وهذا الهدف لم يكن سوى النيل ، وانتصار طبرق ليس الا نقطة الانطلاق للوصول اليه .

كان روميل قد وصل الى قمة مجده بوصفه قائدا عسكريا ، فقد وردته من (راستنبورغ) مقر قيادة الفوهرر برقية تنبئه بترفيعه الى رتبة فيلدمارشال ، وكذلك رفع (والترنهرنغ) الرجل الذي تحمل مسؤولية أقسى معارك الصحراء ، الى رتبة جنرال وتسلم قيادة الجيش المدرع فأعطاه روميل نجومه القديمة ، ومنح موسوليني الجنرال كافاليرو وزميله باستيكو رتبة مارشال أيضا .

وقد كانت هذه الترقيات مناسبة احتفل بها الجنود في طبرق احتفالات كبيرة ..

الجاسوسية في مصر :

كانت الحياة في مربع « الكيت ــ كات » بالقاهرة تبدأ بعد منتصف الليل ، عندما يهب نسيم النيل العليل فتهتز أغصان النخيل وترسل حفيفا صامتا ..

وفي المساء كانت السماء القاتمة الموشاة بآلاف النجوم تنعكس صورتها الرائعة على بلاط حلبة الرقص الرخامية ، بينما يمتد المشرب على شكل نصف دائرة حول المسرح والحلبة ويعج بطائفة من رواد المربع .

كان يحيط بأجمل مرابع القاهرة سور مرتفع يحول دون رؤية ما يجري في الداخل .

أما البواب بباسه الرسمي المزخرف فقد كان دائم الانحناء للزبائن القادمين ، وهم غالبا من الرجال الاثرياء الذين يملكون الكثير من المال ، ويصطحبون أجمل النساء ..

كانت مصر تقف على الحياد بالرغم من أنها قاعدة من أهم القواعد العسكرية في حرب أفريقيا الشمالية . وبالرغم من أن القاهرة هي مقر القيادة العامة للقوات البريطانية ، وكان فاروق وحكومته يعلقان أهمية كبرى على اظهار البلاد بمظهر حيادي .. حتى في ظل المفوض السامي البريطاني .

وهكذا كان الحرب والسلام يخيمان على القاهرة معا ، ولم يكن الناس ينظرون الى الحرب الا من ناحية الاعمال.. كان الضباط الانكليز واصدقاؤهم بلباسهم المدني يسعون ليلا وراء ملذاتهم ، فكنت ترى البارات مليئة بالشبان وأبناء الباشوات والذوات ، واصحاب الاطيان وتجار السوق السوداء ، جميعهم يأتون ليبعثروا أموالهم في مباهج الليل العابرة .

وبرنامج الليلة كان يشتمل على وصلات من الرقص الشرقي من الراقصة حكمت فهمي .. فحيث ترقص حكمت كانت تتعالى عواصف التصفيق وكلمات الاعجاب وباقات الزهور ، وحيثما تسير كان يتبعها حاشية من المعجبين ..

اما هي ، فكان اعجابها موجها لشاب مصري ظهر منذ مدة في مجتمع القاهرة يدعى حسين جعفر ، كان واسع الثراء شديد الحيوية بارع النكتة ، حاد الذكاء ، يقضي معظم أوقاته في اللهو ، وكلها صفات هامة جدا للسيطرة على قلب راقصة لعوب تمتاز بالجمال كما تمتاز بالشهرة ..

جميع الناس كانوا يعتقدون أنه رجل ثري عاطل عن العمل ، أما هو في الواقع فقد كان جاسوسا لمانيا اسمه الحقيقي « هانس أبلر » ، وقد اتخذ من القاهرة مقرا لنشاطه برفقة زميل له يدعى « جيرد ساتستيد » .

وكان هذا الاخير يتظاهر بأنه صديق أمريكي للشاب المصري حسين جعفر ، غريب الطباع ايرلندي المولد ، استخدم جواز سفر أمريكي ليهرب من الحرب الانكليزية ، واسمه المستعار في جواز السفر « بيتر مونكاستر » ، أما لقبه فهو ساندي .

الضباط الاحرار :

كان مربع « الكيت ــ كات » يعج عبثا ، والراقصون يتدافعون في حلبة الرقص على أنغام احدث الاغنيات الفرنسية : « الشمس على موعد مع القمر » ، ولكن القمر ليس هنا .. وعندما دخل حسين جعفر وأخذ يجول بنظره في أرجاء المربع كمن يبحث عن شيء .. توقفت نظراته لحظات عند الطاولة الكبرى قرب المشرب حيث جلس اليها حوالي اثني عشر ضابطا مصريا بلباسهم المدني بينهم اثنان من اعداء الاحتلال ..

لقد كانا من ألد أعداء الانكليز ، ينتظران ساعة الصفر للثورة .. وكانا ينتميان الى احدى الخلايا السرية العديدة التي تناضل في سبيل تحرير مصر من الانكليز ، ويتآمران ضد فاروق والباشوات من أنصار بريطانيا .. وكانت الشائعات تقول أنهما يهيئان ثورة ولكن معظم المصريين كانوا يكتفون بالصمت لدى سماعهم هذه الشائعات ..

ويتبادل حسين جعفر واحد الضباط المصريين نظرات سريعة وكأنها تعني : « أنت هنا ؟ » ولكنها نظرات وحسب ، ولا شيء غير ذلك ..

كانت الموسيقى تعزف الحانا راقصة حالمة والحلبة تعج بالراقصين من كل نوع عندما اضطرب الناس فجأة وأخذوا يتناقلون أنباء يبدو أنها مثيرة. لقد دخل الزبائن الآخرون وبأيديهم ملاحق الصحف وهم يتحدثون بانفعال.. انهم يرددون كلمة طبرق » .. وتستقر احدى الصحف على الطاولة ويأخذ أحدهم بالقراءة بصوت مرتفع . أما الاجانب فكانوا يسألون خدم البار عن الخبر ... فلا يتردد أحدهم في اعلان النبأ الصاعق امام الطاولات التي يجلس اليها الانكليز بالكلمات التالية : « استولى رومل على طبرق في مدى يوم واحد ، والالمان يطاردون الجيش الثامن عبر الاسلاك الشائكة عند الحدود وسوف يأتون الى القاهرة » .

ويتابع الخادم بشيء من عدم المبالاة وهو يرفع حاجبيه : « وربماوصل الالمان الى هنا بعد غد ، فيتناول رومل باشا قدحا من الويسكي مع ضباطه هنا على هذه الطاولة » .

كان الخدم وهم ينقلون هذه الاخبار يشع من أعينهم بريق الفرح لما يلمسونه من غضب الانكليز وخوفهم .

نبأ سيء :

« يا للشياطين ! » يتمتم بها الرجل الرصين الشائب الذي جلس الى طاولة حسين جعفر وساندي منذ لحظات بعد أن استأذنهما بالجلوس . واعتذر منهما للكلمة التي أطلقها والتي لا يجوز لرجل مهذب أن يتلفظ بها . فيتطلع اليه حسين جعفر ويهز برأسه وكأنه يعبر بذلك عن تفهمه للموقف ثم يقول : « انه نبأ سيء » ..

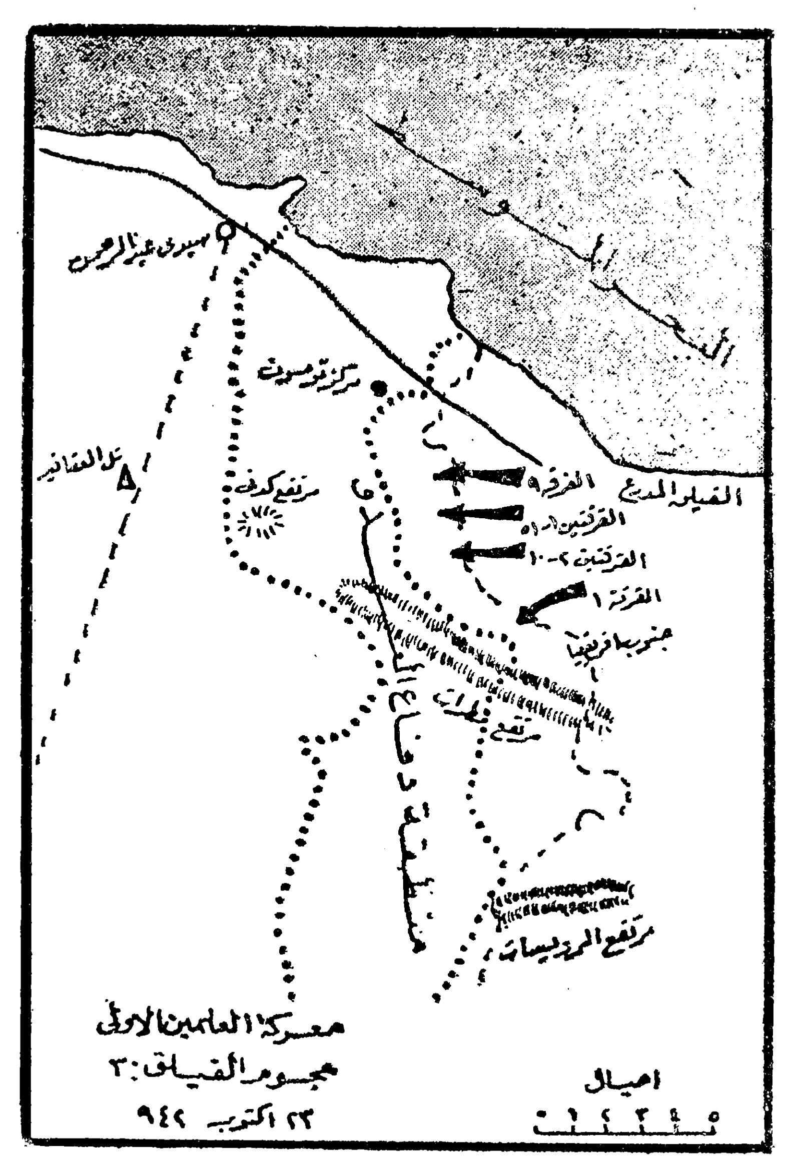
ويردد الرجل الرصين : « أجل انه سيء جدا ولا يصدق » وهو ليس في الواقع سوى الماجور دانستان رئيس قلم الاستخبارات البريطانية في القاهرة وهو بهذه الصفة مجبر على عدم الافصاح عما في نفسه ..

وعاد حسين جعفر يقول : « اجل ، يا له من قائد لعين ! » ويعجب ساندي للنبرة الحزينة الصادقة التي يتحدث بها حسين جعفر .. والتي أثرت في نفس الماجور دانستان فاعتقد أنه أمام شاب مصري صديق للانكليز لذلك طفق يتحدث اليه من القلب الى القلب : « انه شيطان لعين .. والله وحده يعرف كيف نجح في ضربته . ان طبرق صمدت ثمانية أشهر في العام الماضي وهي الان تسقط في يوم واحد ؟ » .

ورد حسين وفي صوته نبرات عاطفية صادقة : « ولكن الجيش الثامن لا يزال سليما . صحيح اننا خسرنا ٣٠ ألف جندي في طبرق ولكن مصر مليئة بالجنود الانكليز ! وهناك أيضا الجيش العاشر فماذا يفعل في سوريا ؟ لا بد أن يأتي لنجدتنا . يجب أن لا تتركوا الالمان يحتلون القاهرة » قال حسين جملته الاخيرة بصوت خفيض زيادة في الحذر ..

وبدا على الماجور دانستان لاول وهلة أنه غير مطمئن لجليسه ، ولكنه عندما رأى الحماس في عيني حسين لم يتمالك من أن يقول له بلهجة الواثق : « تأكد يا سيدي ان الجيش العاشر لن ينتظر في سوريا حتى يصل رومل الينا هنا » .

وعلت الابتسامة على وجه ساندي الذي هز رأسه قائلا : « يا له من نبأ سار ! » ثم تابع حسين كلامه : « أجل ، وبالاضافة الى ذلك فان لدينا جيشا مصريا يمكن الاستعانة به » . أخرج الماجور علبة السجاير ونظر الى حسين وقال : «تتحدث عن جيش مصري ؟ أرجو المعذرة فأنا لا احب المساس بمشاعرك ولكن اتظن ان المصريين يشعرون معنا بسقوط



خريطة المعارك الاولى : هذه الخريطة تمثل مراكـــز الجيش الانكليزي قبل ابتداء المعركة في العلمين ..
وهي من الخرائط التي وضعها الايرل الكسندر قائد الجيش البريطاني لكتابه عن حرب الصحراء وغيرها .

طبرق ؟ » واشار الماجور دانستان الى الطاولة التـــي يجلس اليها الضباط المصريون ..

وهمَّ ساندي بالكلام ولكن حسين شد على يده قائلا :

« ها هي حكمت فهمي » .

وفي نفس اللحظة دوى التصفيق ترحيبا بها . وعندمــــا توسطت المسرح قال الماجور :

« انها رائعة كحدائق سميراميس » والواقع أن هذه المرأة كانت رائعة الحسن ذات جمال عربي أصيل . انها ليست كالفتيات الاميركيات ذوات السيقان الطويلة ، وانما هي فتاة مغربية كاملة التقاطيع حركاتها خفيفة تشبه حركات القطة . هذا الى جانب عينيها الرائعتين . ثم يا لفنها الرفيع فـي الرقص ! ومن المؤكد ان المرء لا يجد لها مثيلا لا في « الونترغارتن » ولا فـي « سكالا دوبرلين » أو في « الفولي ــ برجير » أو في « الكافيه دوباري » أو في « البيكاديللي سيركس » في لندن .

ولكن ما من أحد في مربع الكيت كات ، عدا القلائل كان يعرف أن هذه المرأة انما هي مصدر رئيسي للمعلومات في خدمة دوائــــر الاستخبارات الالمانية .

وعندما انهت حكمت فهمي رقصتها دوت القـــاعة بالتصفيق وعلت صيحات الاستحسان وقذفها بعض المعجبين بباقات الزهور . وفجأة حدث أمر غير عادي لقد صاح أحد المصريين بأعلى صوته : « يا حكمت هيا ارقصي لنا رقصة طبرق ! » قالها بالعربية ولكن أكثر الانكليز الحاضرين فهموا كلمته ولكنهم سكتوا على مضض. فقد انفجرت القاعة مرة أخرى بالهتاف وصيحات الاستحسان يتبادلها الحاضرون .

ان المشكلة تبرز فجاة بأجلى مظاهرها كأنما اضاءها بريق خاطف .. انها مشكلة شعب يرزح تحت نير الاستعمار ، أما البريق الخاطف فــكان يدعى رومل ! ولقد اضاء القاهرة بأسرها فكان باعة الصحف ينادون عــلى الملاحق الخاصة التي تحمل آخر أنباء الانتصارات الالمانية ، وكانت الهتافات والاناشيد تختلط عند النيل بينما كانت جماعة من الطـــلاب تسير في الشوارع وهي تهتف بأعلى صوتها :

« الى الامام يـا رومل ! » .

* * *

وعلى بعد اثني عشر الف كيلو مترا كان ــ المرحوم ــ ونستون تشرشل يجلس وجها لوجه مع روزفلت في احدى قاعات البيت الابيض بواشنطـــن

يتدارسان الموقف العام . فأوروبا ، من الحدود الاسبانية حتى « نارفيك » كانت في قبضة الالمان . وفي آسيا كان اليابانيون يوالون زحفهم فيستولون على سنغافورة القلعة البريطانية القديمة . وكانت غواصات هتــــلر تجوب البحار وتغرق الالاف من الاطنان ، أما في روسيا فقد كان الالمان يتوغـــلون باتجاه الفولغا فيطالب ستالين حلفاءه بسرعة فتح الجبهة الثانية ، ولكــن كيف تستطيع أميركا أو انكلترا أن تهاجما هتلر ؟ كان الزعيمان الحليفــــان سعيدين لانهما يستطيعان الدفاع عن بلادهما . ولكن الامر الذي كان يشغلهما في ذلك الحين هو معرفة ما اذا كان رومل يستطيع مرة أخرى تطويق طبرق، كانا يتناقشان في الامر عندما دخل عليهما أحد الضباط . .

رفع الضابط يده بالتحية ، ودون ان ينبس ببنت شفة قــــدم الى روزفلت برقية عاجلة ، ففضها الرئيس وقرأها مرة ومرتين وتسمر وجهــه وتوقفت المحادثات بين الرجلين . كان يبدو أن البرقية تتضمن نبأ صاعقا ، واخيرا دفعها الى تشرشل الذي قراها بدوره وعلا الشحوب وجهه فمــاذا كانت تتضمن ؟

والواقع أن ما من أحد يستطيع وصف تلك اللحظات الدراماتيكيــــة وصفا مثيرا أكثر مما فعله تشرشل نفسه في مذكراته حيث قال : « قرأت : سقطت طبرق . وقع في الاسر ٢٥ ألف جندي . لقد جاء هذا النبأ بشــكل مفاجيء فلم اتقبله باديء الامر . فطلبت من اللورد ايزمان أن يتصل هاتفيا بلندن لمعرفة الحقيقة . وبعد دقائق عاد اللورد وهو يحمل لي تقريرا عــــن الوضع تلقاه من الاميرال هاروود يقول التقرير : سقطت طبرق وساء الوضع الى حد أصبح من المتوقع معه أن تستهدف الاسكندرية لغارات جوية عنيفة ، وبسبب سطوع القمر في هذه الفترة أمرت وحدات الاسطول أن تتجه الى جنوبي قناة السويس وأن تنتظر تطور الاحداث .

وتابع تشرشل يقول في مذكراته : « كان ذلك من أشد الضربات التي تلقيناها اثناء الحرب لا بسبب نتائجها العسكرية ، بــل لانهــا اصابت شرف بريطانيا العسكري. ففي سنغافورة استسلم ٨٥ الف رجل الى اليابانيين . . . والان يستسلم ٢٥ ألف جندي مدربين أحسن تدريب لعدو ليس لديه نصف قوتهم . لم أحاول اخفاء يأسي أمام الرئيس، فالظرف خطير وقاس . . ان الهزيمة شيء والعار شيء آخر » . . قال روزفلت : ماذا نستطيع لمساعدتكم؟ . ودون تردد أجبته : « أعطونا كل ما تستطيعون الاستغناء عنــه من دبــابــات شيرمن وأرسلوها بسرعة الى الشرق الادنى » .

امـــل غامض :

في تلك الفترة العصيبة من عام ١٩٤٢ كان روزفلت وتشرشل يتعلقان بأمل غامض فيه الكثير من المغامرة . هذا الامل كان يحمل اسما مصطلحا عليه هو : « ثوب الوي » وكان يعني القنبلة الذرية .

كان الاميركان والانكليز قد خطوا خطوات هامة في طريق معرفة سر تحطيم الذرة وتطبيقه في صنع قنبلة قابلة للانفجار .

وجهل روزفلت وتشرشل بما يمكن أن يكون قد وصل اليه العلماء الالمان في هذا المجال دفع بهما الى اصدار الامر بالتعجيل في انجاز مشروع « ثوب الوي » واستخدام جميع الامكانيات المتوفرة .

وهكذا قرر رجلا الدولة صنع أول قنبلة ذرية . فكان الخوف مـــن رومل هو المسيطر على تلك الفترة الهامة في تاريخ البشرية ، ولقد ولـد عصر الذرة في ظل انتصار الالمان في طبرق .

ولكن هل يتم صنع القنبلة الذرية في الوقت المناسب ؟ الا تكون مصر قد فقدت نهائيا منذ زمن بعيد ؟ ان رومل يندفع منذ الحادي والعشرين نحو الحدود المصرية عبر مرسى مطروح ليستولي على الاسكندرية وقناة السويس والقاهرة . بضع مئات من الكيلومترات تفصله عن قلب العالم العربي فقط فمن يستطيع الوقوف في وجهه ؟

كل الدلائل كانت تشير الى أن مصير القاعـــدة البريطانية في مصر اصبح في مهب الاحداث .

ليسوا وحدهم :

ان الالمان ليسوا وحدهم الذين يهددون قوة بريطانيا في الشرق الادنى . ففي قلب القاهرة القديمة كما في حاميات مدن الريف ، كان هناك جماعات تريد تحرير مصر من الانكليز . لم تكن هذه المنظمات سوى خلايـــا صغيرة ومنظمات سياسية وعسكرية ودينية لا يربط بينها أي رابط سوى كرههـــا لبريطانيا وآمالها في تحرير مصر ، ولكنها كانت تستطيع في كل يـــوم أن تتحد في منظمة واحدة لتشكيل قوة خطيرة . .

كان الالمان يعتقدون انهم لو استمالوا المتآمرين على بريطانيا لاصبح في

امكانهم استخدام الضباط الاحرار الذين يعملون ضـد بريطانيا .. بالاضافة الى الضباط من اصدقاء عزيز المصري باشا ، ورفاق لهم آخرين .. لتأليف قوة معادية للانكليز منهم .

لقد بحث هذا الامر بصورة جدية في هيئات اركان حرب القـوات الالمانية منذ عام ١٩٤٠ .

ففي ذلك التاريخ فكر احد كبار الضباط الالمان التابعين لدوائـر الاستخبارات في خطة جريئة . فلقد تعرف في ربيع سنة ١٩٤٠ بالكابتن « لازلوفون المازي » في بودابست . وكان هذا خبيرا في شؤون الصحراء وعمل طوال سنوات مساحا في دائرة المساحة المصرية ، وطار بحكم عملـه فوق المناطق الصحراوية وعرفها جيدا ثم انه على علاقة ود وصداقة بعـدد كبير من اهالي القاهرة .

استمالة عزيز المصري

وانضم « المازي » الى الجاسوسية الالمانية وعين ضابطا فـي سـلاح الطيران برتبة كابتن . وكان أول اقتراح تقدم به في عملـه الجديد هـو السعي لاستمالة عزيز المصري باشا رئيس اركان حرب الجيش المصري الذي اقاله الانكليز .

وكان المصري باشا عدوا للبريطانيين ، يعطف علـى صغـار الضباط الاحرار الناقمين ، ويتمنـى انتصار الالمـان علـى انكلترا لانـه كان يأمل ان يتحقق بذلك تحرير مصر من الانكليز .

ان هذا الرجل يمكنه ان يؤدي دورا فعالا في تنفيذ خطط الالمان .

ويوم اقترح الماجور « نيكولاوس ريتر » ضابط الاستخبارات الالمانيـة استقدام الجنرال عزيز المصري باشا الى ألمانيا لم يفاجأ الاميرال « كناريس »، ولكنه اعتبر أن محاولة خطف الجنرال مغامرة جنونية ... ثـم غير رأيـه واقتنع بان نجاحها ليس أمرا مستحيلا . فامر « نيكولاوس ريتر » أن ينفـذ الخطة ويخبره بالنتيجة بعد أربعة أسابيع .

وأسرع « ريتر » يجمع فرقة من الجنود المدربين الاقوياء انتقاهم مـن الفيلق العاشر التابع لسلاح الجو . ثم اتصل بالمبعوث المجري فـي القاهرة الذي كان موجودا في بودابست . وطبعا لم يطلعه على حقيقة الامر ، وانمـا كلفه الاتصال بالمصري باشا لتأمين وضع جهاز لاسلكي في مكان سري فـي

القاهرة لاعطاء اخبار « جوية » عن تقلبات الطقس الهامة ! وقد وافق الرجل الدبلوماسي المجري على تنفيذ المهمة وتقديم كل مساعدة ممكنة .

تحت قباب سانت تيريز

أنهى « ريتر » تأليف فرقته المكونة من حوالي اثني عشر شخصا فكانوا جميعا ينتمون الى دائرة الاستخبارات ومدربين تدريبا خاصا ويجيدون عدة لغـــات .

ووضع الدبلوماسي المجري جهاز الراديو في حقيبته السياسية وحمله الى القاهرة دون أي حادث . ولكنه لـــم يضعه في السفارة المجرية وانمـــا سلمه الى أحد رجال الدين النمساويين الذي كان يعمل في سفارة المجر ... فوضع الجهاز تحت مذبح كنيسة سانت ـ تيريز التي تقع في حي شبرا .

وأصبح الرجلان ، الدبلوماسي والكاهن يأتيان الى الكنيسة كل يـــوم دون ان يثيرا الشك والريبة . ولكنهما كانا لا يستطيعان البث وارسال انباء تقلبات الطقس الا اثناء القداس .. ففي الوقت الذي كانت فيـــه الصلوات والحان الارغن تتجاوب في قباب كنيسة سانت ـ تيريز كـــان جهاز الراديو السري يؤمن الاتصال مع مركز مكافحة الجاسوسية الالماني فـــي (درنــه) لينقل اليه نتيجة المساعي مع الجنرال عزيز المصري وقـــد اقترح الجنرال باديء الامر ان تأتي غواصة الى جون « بيرللود » في دلتا النيل لاخذه وكان هذا الاقتراح غير عملي فتم الاتفاق على أن تأتي طائرة الى منطقة معينة مـــن صحراء القاهرة .

وقد وضع تحت تصرف الماجور ريتر ، عقب احتلال جزيرة « كريت » طائرتان من طراز هنكل ٣ خصيصا لتنفيذ عملية النقل هذه .

واختار الكابتن المازي الذي يعرف الصحراء تمام المعرفة نقطـة الالتقاء فكانت تقع قرب الجبل الاصفر على طريق الواحات فيستطيع الباشا أن يصل بالسيارة الى المكان المعين خلال عدة ساعات . وقد تم الاتفاق علـى أن يصل قبل ساعة واحدة من غروب الشمس ليضع اشارة تسترشد بهـــا احـدى الطائرتين للهبوط بينما تبقى الطائرة الاخرى في الجو للحماية .

وفي السابع من حزيران ١٩٤١ ـ وكان يـــوم سبت ـ تمت جميـع الاستعدادات لتنفيذ العملية . واقلعت الطائرتان مـــن مطار درنة في تمـام الساعة الثالثة بعد الظهر . كان المازي يمتطي الطائرة المولجة بالهبوط لحمل الباشا ، بينما امتطى الماجور ريتر الطائرة الثانية المكلفة بحراسة العمليـــة وكانت الطائرتان تحملان شارة شعبة الاستكشاف الالمانية .

وفي الساعة السادسة تماما وصلت الطائرتان الى المكان المقصود . وهبط الكابتن المازي بطائرته الى ارتفاع بسيط وبدأ يحوم حول المكان المتفق عليه ، ولكنه لم ير اثرا للباشا ثم اتجه نحو القاهرة وهو يراقب الطريق الصحراوي لعل الباشا يكون في الطريق ، ولكن بدون جدوى وبعد مضي ربع ساعة قفل راجعا وقد بدت أمامه مآذن القاهرة وهي تلمع تحت أشعة الشمس الوردية .

ماذا حدث ؟

ولكن أين المصري باشا ؟ وهل في الامر خيانة ؟ وفي صباح اليوم التالي أبلغ جهاز اللاسلكي في كنيسة سانت تيريز مركز مكافحة الجاسوسية في درنة سبب فشل العملية بالكلمات التالية : « ربما يكون الباشا قد اوقف . نخشى أن يكون جهازنا في خطر . انتهى » .

والواقع أن أحدا لم يعرف في ذلك الوقت الاسباب التي أدت الى تخلف الباشا عن الحضور في الموعد المعين سابقا . ولم أتمكن من معرفة الحقيقة الا بعد الحرب بفترة طويلة وبعد أن بذلت كثيرا من الجهد في الحصول على جميع المعلومات .

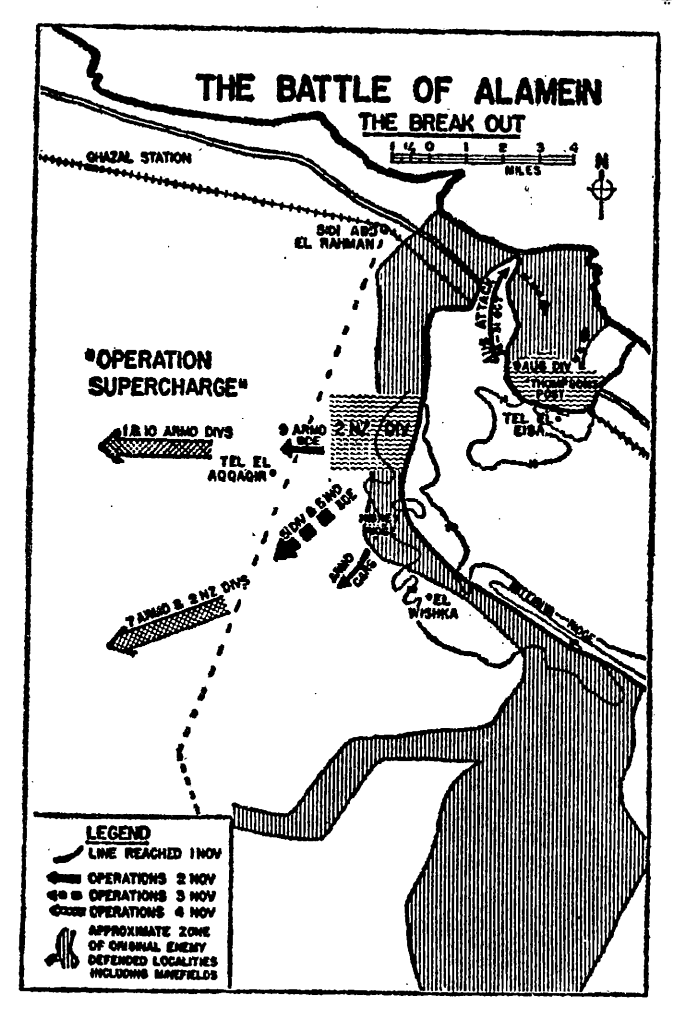
الصدفة تسبب الفشل ..

فقد احب الباشا أن ينتقل الى المكان المعين بالطائرة بدلا من السيارة ، وأسرَّ بالامر الى قائد الجناح حسين ذو الفقار الذي عين موعد اقلاع الطائرة في اليوم الذي يكون فيه موجودا في مطار هليوبوليس . وفي الوقت المعين وبينما كانت الطائرة تزود بالمحروقات ذهب الطيار الى برج المراقبة ليبلغ عن قرب اقلاعه وصادفه ضابط الاتصال البريطاني واخذ يلقي عليه بعض الاسئلة ... ويبدو انه شك في أمره ، لذلك فما أن ارتفعت الطائرة في الجو وعليها المصري باشا حتى لحقت بها طائرة بريطانية واجبرتها على العودة ، وفقد الطيار أعصابه ولم يعد يعرف ماذا يفعل فاضطر الى الهبوط في مكان غير صالح بعد أن قطع رؤوس عدد من الاشجار وعلقت طائرته في شجرة زيتون . وقد استطاع الطيار أن يفر بينما التقط الجنرال من قبل دورية مصرية رئيسها أحد الضباط الاحرار . وكان هذا من حسن حظ الجنرال .

وصدرت الاوامر هاتفيا من ضابط المراقبة البريطاني بالقاء القبض على الجنرال ، ونفذت الاوامر ولكن بدلا من أن يكون السجين الجنرال نفسه ، كان

ضابطا مسنا من الضباط الاحرار تقدم مختارا ليوهم الانكليز بأنـه هو عزيز المصري باشا عدوهم اللدود .

وفر الجنرال الى جهة مجهولة ولم يكتشف الانكليز الخدعة الا بعـد اشهر ثلاثة وعندها عهدوا به الى فرقة الحرس المصري ، ولكن اي مصري لم يكن ليغمض عينيه عندما يطيل الجنـرال نزهاته بعض الشيء ... أو ينسى العودة في المساء الى المعسكر ..



معركة العلمين : كما وصفتها القيادة الانكليزية ، وقد آثرنا نشرها بالانكليزيـة

الفصل الرابع عشر

الجولة الخارقة المبدعة ...

هجوم رومل كما يصفه البريغادير ديسموند يونغ

الكاتب العسكري الانكليزي الشهير

شيء مثير

اذا كان هناك من مزية خارقة عند (رومل) فهي قدرته على النهوض بسرعة مذهلة ..

لقد تركه الجيش الثامن بعد انتصارات هذا الجيش الاخيرة يمسح جراحه خلف العقيلة .. وذلك في ١١ كانون الثاني سنة ١٩٤٢ ..

وفي اليوم نفسه استولى جنود جنوبي افريقيا على السلوم .. وسبق ذلك سقوط (البردية) في أول الشهر ، وفي ١٧ كانون الثاني استسلمت حامية حلفايا ، بعد أن قطعت عنها المياه ، ولم تعد تملك شيئا من الاغذية وآلة الحرب ، كما سقطت كل المعاقل والمراكز العسكرية التي كانت بيد الالمان ،وكان هذا امرا منتظرا بعد ان اضطر (رومل) الى التراجع ، وترك كل هذه المراكز لمصيرها ..

لقد أبيد ثلثا قوات المحور ، ولم يبق من رجال الفيلق الافريقي سوى ما يقارب النصف ، فيما ذهب الباقون بين قتيل واسير ، وجريح لا قبل

له بالحرب ، ولم تعد معنويات الباقين ،كما كانت في أوجها ، وانهارت معنويات الايطاليين وهبطت روح الكفاح في فرق المشاة الى الصفر اثناء تراجعهم الطويل من طبرق .. وانسحبت الفرقتان المدرعتان ، او ما تبقى من هاتين الفرقتين من المعركة لتعيدا تنظيم آلتهما الحربية وتجهيزها .. ولم يبق من دبابات رومل الاربعمائة سوى القليل .. بعد ان احترق منها ٣٨٦ دبابة وتناثر حطامها الاسود القاتم في ساحات القتال ، كما أسقطت ٨٠٠ من طائراته الـ ١٠٠٠ ، وعطب اكثرها في المطارات .. ولم يعد بالامكان توقع ارسال تشكيلات المانية جديدة الى امد ما ..

وبدا ان كل امل لرومل هو ان يقف عندالعقيلة الى أن يطرده الجيش الثامن منها ، او ترغمه صعوبات التموين على الانسحاب .. وقدرالجنرال اوكنليك انه ليسن بوسعه التغلب على المشاكل الادارية ، وتركيز قوة كافية لمعاودة الهجوم قبل منتصف شباط ، ولكن رومل شن هجومه في ٢١ كانون الثاني .. وهكذا وقع ما لم يكن يحتمل وقوعه او يتوقع انيكون.. واخذت قوات المحور تتقدم بدون سابق انذار ..

وكما حدث في ٣١ آذار ١٩٤١ ، فقد لا يكون رومل يرغب في أكثر من القيام بعملية استطلاع على نطاق واسع ، ولكن هذه العملية ذاتها كانت تتطلب رجلا شديدا صلبا من الناحية الفكرية والجسمية ليفكر بالقيام بها في تلك الايام ، لان رومل كان كقادتنا ، قد مضى عليه شهران في قتال مستمر لم ينقطع ، وكان ينام في سيارته او بالقرب منها ، ولم يكن يغفو اكثر من ساعة او ساعتين ، وكان يأكل ما يتيسر له حين تتاح له الفرصة ليأكل . ولقد عانى البرد القارس وتعرض للامطار والعواصف الرملية التي تعمي الابصار شأنه فيكل ذلك شأن قادتنا الانكليز ..

ولكن رومل فاق قادتنا جميعا من حيث انه كان يمضي ليله ونهاره متنقلا بسرعة على طول ساحة القتال ، ولم يكن رومل يشعر طيلةتراجعه بحماسة المطاردة ، او كان يرقب النصر لتنسيه هذه المشاعر متاعبه المرهقة فقد كان في الواقع مضني مرهقا لدى وصوله العقيلة .. ولكنه مع هذا لم يعين لرجال الفيلق الافريقي هدفا محدودا ،بل طلب اليهم ان يحملوا مقدارا من الزاد يكفيهم ثلاثة ايام ، وان يجهدوا انفسهم في متابعته الى أبعد حد مستطاع ، وبالسرعة التي يستطيعونها ..

وقد سار رومل على رأس ثلاثة ارتال بعد ان عززها بما لا يزيد عن المائة دبابة بعضها خفيفة .. ولم يكن لديه عمليا اي ستار من

المقاتلات ، وقد تمكن من تنظيف الجو مـن الستار الضعيف والمبعثر من قـواتنـا الجويـة ..

وقد قال الجنـرال اوكنليك في ذلـك :

« ان رومل كعادته انتزع اقصى مـا يمكن انتزاعه من نجاحه الابتدائي بسرعة ومهـارة فائقـة » . فقـد تحولت عمليـة الاستطلاع فجـاة الـى هجـوم ، وساعده ، ان الفرقـة المدرعـة الانكلزيـة الاولى ، قد حلت قبيل هجومه بقليل محل « جرذان الصحراء » التابعين للفرقة السابعة ، وكانت حرب الصحراء جديدة بالنسبة لتلك الفرقـة ، وليس لجنودها خبرة بفنونها، ممـا كبدهـا خسارة ١٠٠ دبابة من أصل ١٥٠ دبابة الى جانب عدد كبيـر من المدافع ، وبذلك اختل توازن الجيش الثامـن بينما لـم يتكلف رومل بهذه العمليـة سـوى ٣٠ دبابـة .

***

لقد أبدى رومل في ذلك جرأة وبراعـة فائقتين في فن قيادة الجيوش.

وكان الجـو في كل مكـان مليئـا بالقلق والتوتر .. فقـد اكتسح اليابانيـون بسرعـة ادغال الملايـو المستعصيـة .

وأوشكت « قلعـة سنغافورة المنيعة » ان تهاجم من الجهة التي كـان يتعذر ان تهاجم منها .. وفي بورمـا كانت هناك فرقتان ضعيفتان ترتقبان الانسحاب عبـر الحقول ، لو كـان الى ذلك سبيل..

وفي منطقة الشرق الاوسط ، ادركت قيـادة المحور العليـا اخيرا .. أهميـة مالطـة والبحر الابيض المتوسط الستراتيجيـة فكانت الجزيـرة تقذف بالهجوم الجوي اثر الهجوم بصورة مستمرة ، ونتج عن هذا ان (رومل) لـم يفقد طنا واحـدا من امداداته في شهـر كانون الثاني .. كمـا اغلقت الطائـرات والفواصات حوض البحر المتوسط المركزي في وجه قوافلنا ، وكبد الاسطـول البريطاني خسائر فادحـة ، ولم يبق لدى الاميرال كويننفهـام سوى ثلاث بوارج وبعض المدمرات ، كمـا غرقت سفينـة الاميرالية فـي مينـاء الاسكندريـة .

وقد حالت كل هذه الحوادث ، دون الجنرال اوكنليك وتقويـة جيشه بسبـب رغبة القيادة العليـا في تعزيز الشرق الاقصى ، وقـد سبـق ان ارسلت الفرقـة الثامنـة عشرة من الشرق الاوسط الى الملايـو ، قبل ان يطـرد رومل من مواقعه في الغزالـة ..ونزلت هذه الفرقة في سنغافورة قبـل الاستسلام بقليل ، وذهب لواءان منها توا الى معسكرات الاعتقـال

اليابانيـة ،قبـل ان يتمكـن رجالهمـا من اطلاق طلقة واحـدة .. كمـا اوقف في الوقت نفسه ارسال الفرقـة الهندية السابعـة عشرة الـىشمالي افريقيـا ، وكـان ان ذهب كثيـر مـن الدبابات والمقاتلات والمدافع هدرا .

ولمـا بدا انه لا مناص من سقـوط مالطة ما لم تؤمن المطارات فـي برقـة الغربية ، وتغطي الجزيرة وقوافل النجدة بستار جوي ، الحتالحكومة بوجوب شـن هجوم بأسرع وقت ممكـن ..

ولكن الجنرال اوكنليك رأى انه لا يمكـن شن الهجوم ، ما لـم تتـح فرصـة مؤاتيـة لنجاحه ، اذ ان هجوما سابقـا لاوانه قد يؤدي الى ابادة القوى المدرعة الجديدة االتـي كـان يحاول انشاءها بحيث تضمحل شيئـا فشيئا ، وهكذا يكـون قد اضـاع مصر والشرق الاوسط برمته بمحاولـة انقـاذ مالطـة ..

وتم الاتفاق حينئذ على تأجيل الهجوم الـى منتصف نيسان ، وقد تلقى (روملِ) اثناء ذلك كثيـرا مـن الدبابات ،حتى أصبح مـن المشكوك فيه اننا سنحـرزعليه تفوقـا في العدد ، حتى في التاريخ المحدد للهجوم .. ولكـن وزارة الحرب أصرت على انه يجب انقاذ مالطـة حتى ولو ادى الامر الـى ضياع مصر ، وقـد أمـر الجنـرال اوكنليك بشن هجومـه قبـل منتصف حزيـران ، ولكـن روملِ سبـقه الى شن هجومه فـي ١٧ ايار بدبابـات تساوي دباباتنا عدا تقريبـا .. ولكنهـا تتفوق عليها كثيـرا من حيـث الجودة ، هذا مـع ان دباباتنا كانت جديـدة مـن طـراز « جنرال غرانت » الاميركيـة .

لم نستطع الاستيلاء على مطارات برقة الغربية ، ولكن مالطـة لم تسقط، ونحـن مدينـون بهذا لحماقـة هتلـر الذي اجل هجوم القوات جوا عليها .. ولكننـا كدنـا نفقـد مصر ..

كانت كوارث حزيران ١٩٤٢ ، بمثابة ضربة قاصمة للرأي العـام البريطاني . .ولم يهزه شيء بقدر مـا هزه سقوط طبرق ، التي لـم نكـن في الواقع ننوي الاحتفاظ بهـا اذا ساءت الامور ..

ولقد روع جنوبي افريقيـا لاستسلام جنوده .. واهتزت استراليـا لتداعي فرقتهـا ، وحتى الجيش الثامـن الذي استشعر النصر في الايـام الاولـى . .لم يـدر كيف افلت الزمـام من يده ..

وهكذا لـم يتصور احد كيف ان روملِ كان على شفـا جرف هار من الهزيمـة ، ومن الاستسلام ، ثم تمكـن من الوقوف على قدميه ..

لقد صرح الجنرال (بايرلان) الالماني قائلا لـي :

« لقد حسم كل شيء عند نقطة ارتكاز اللواء الـ ١٥٠ في (غوط الحالب) .. أذ لم يسبق الى علمنا أنه موجود هناك ، وهكذا اخفقت هجماتنا الاولى عليه ، ولو أننا لم نستول عليه في ١ حزيران .. لاستطعتم أن تأسروا الفيلق الافريقي بأسره ، فقد حوصرنا في مساء اليوم الثالث وكاد ينفد ما عندنا من البنزين .. وكانت معجزة حقا ان نتمكن من جلب الأمدادات عبر حقل الإلغام في الوقت المناسب » .

كان موضع (الغزالة) عبارة عن حقول الغام بالدرجة الاولى .. تمتد من الغزالة على الساحل الى بير حكيم ، على مسافة ٤٠ ميلا في صميم الصحراء ، ولكن حقول الالغام وحدها لا تستطيع ايقاف الدبابات ، اذ من السهولة بمكان شق طرق خلالها ، ولهذا كان لا بد ان يقوم وراءها شيء آخر ..

وكان يستحيل حفر جهاز من الخنادق الدائمة وتزويدها بالرجال ، على غرار خنادق حرب ١٩١٤ ـ ١٩١٨ .. زد على ذلك ان جهازا كهذا لا بد ان يكون عديم النفع ، اذمهما امتد ، فلا بد ان يبقى جناحه الايسر في الهواء ، لهذا ابتكر الجنرالان اوكنليك وريتشي سلسلة من المعاقل ونقاط الارتكاز كان اولها في الغزالة ، وآخرها في بير حكيم ، وقد احيطت هذه المعاقل بالاسلاك الشائكة ، ووزعت حولها الالغام واعدت للدفاع عنها من كل جانب ، فكانت بالنتيجة كالقلاع المسورة ، وقد أمدت حاميتها بالمؤن لتصمد فيما اذا حوصرت ، كما زودت بمدفعية خاصة ...

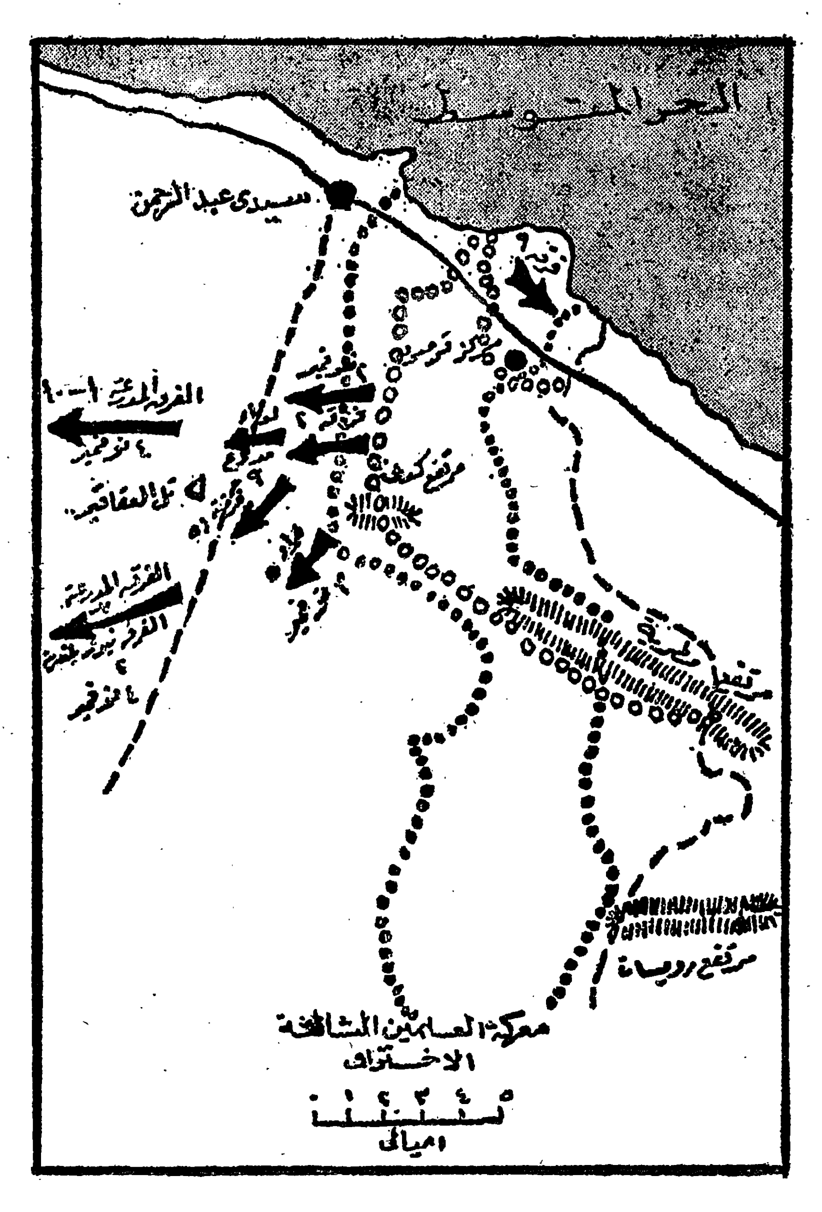
وكان من واجب هذه الحصون ، ان تحرس هذه الالغام ، وتمنع العدو من شق طريقه في وسطها ، او خلالها ، كما انها في الوقت نفسه كانت نقاط مقاومة ، على العدو الفطن ان يلين قناتها ليأمن شرها ، قبل ان يتركها خلفه .. لان حاميتها سوف تخرج من معاقلها وتهاجم مؤخرته او تنهك مواصلاته ..

غرض رومل

ولا بد ان غرض رومل من هجومه كان (طبرق) ! فقد كان عليه ان يقتحمها ويستولي عليها قبل ان يتقدم نحو مصر ..

ولكي يهاجم طبرق كان عليه ان يختار احد امرين :

اما ان يشق طريقه بين حقول الالغام والحصون ، ويتقدم توا في خط مستقيم الى مصر .. او ان يتقدم على حدود موقع الغزالة ، ويدور



معركة حاسمة : وصف للهجوم الانكليزي على القوات الالمانية وارقام الفرق المدرعة التي قامت بالهجوم ..

حـول (بير حكيم) مـن الليلة الاولى اذا امكنه ذلك ..

وكان عليه حتمـا انينطلق رأسا الى البحر ، وكان القصد من ذلـك في الواقع هـو الاستيلاء على طبرق في اليوم الثالث ، بعد أن يكـون في اثناء ذلك قد هزم المدرعات البريطانيـة .. كمـا كـان على الفرق الايطالية ان تتبسـط في الجبهـة وتحول بيننا وبيـن الانتشار غربا من موقع الغزالة، وقد عهـد الى فرقة (تريستا) بشق ثغرة في حقل الالغام حيث يمتد طريق العبد .. وكان هـذا من قبيل الاحتياط ، لتقصيـر خط التموين الالمانـي فيمـا لو تأخـر سقـوط بير حكيم ، وقد كانت نقطة ارتكـاز اللواء ١٥٠ تقع خلف حقل الالغـام هـذا ..

وقد قال لي الجنرال بايرلاين ما يلي :

« لم ارتح لهذه الخطـة قط ، وقد اخبرت رومل بذلك مرارا ، بوصفي رئيس اركـان الفيلق الافريقي . .وقد بدا لـي انهـا مجازفة شديدة ان نمضي قدمـا دون ان نكيل لبير حكيم ضربة قاصمـة ..

ولقد سألني رومل قبل ستة اسابيع قائلا :

« مـاذا تضنع بمدرعاتك لو كنت محل الجنرال ريتشي ؟ » .

فأجبتـه :

« انني كنت احتفظ بها بعيدا الى الشرق بمكان مـا حـول العضـم ، واستنكف عن القتال في البدء ثم اضرب جناح القوات الالمانيـة متى اصبحت هذه داخل موقـع الغزالـة » .

فأجابني رومل قائلا : « أنت مختل العقل ، انهم لا يصنعون هذا قط !» .. رغم ان هذا مـا كان يفعله هـو بالضبط لو كان محلهم . وفي الحقيقة كانت ترتيبات الجنرال ريتشي ممتازة ، كما ان دبابات « الجنرال غرانت » بمدافعها من عيـار ٧٥ مم ، كانت مباغتة شديدة الخطب لنا ، فخسرت فرقة (البانزر) الخامسة عشرة ، مـائة دبابة في اليوم الاول ..

« ولقـد سقطت طائرة الجنـرال كرويل قائد الفيلـق الافريقـي .. وارغم على الهبوط في معقل اللواء ١٥٠ ثم اخذا اسيرا ، وجـرح الجنرال غوزي ، رئيس اركان رومل وتسلم الجنرال نهرينغ قيادة الفيلق الافريقي .. واسندت لي رئاسة الاركان بـدل غوزي ، ولمـا اخفقنا فـي الاستيلاء على بير حكيم ، وفشلنا في شق طريق فـي حقل الالغـام ، توسلنا كلانـا الـى (رومل) ان يكف عن القتال ، ولكنه لم يصغ لقولنـا ، وكـان هـذا على مـا اعتقـد مساء ٣١ أيـار ..كـان موقفنـا حرجا جـدا ، فظهورنـا الى حقل الالغام ، ولا اقـوات ولا مـاء ولا بنزين عندنـا ، ولم يبق لدينـا سوى قليل

من الذخيرة ، وليس لقوافلنا سبيل الينا في حقل الالغام ، وبير حكيم ما تزال صامدة كالطود الراسخ،فحالت بذلك بيننا وبين الحصول على الامدادات من الجنوب ،وكنا سنضطر بعد اربع وعشرين ساعة الى القاء اسلحتنا » .

وهذا يؤكد بالضبط قصة سمعتها في معتقل برقة بعد عدة ايام من هذه الحوادث ، ففي اليوم الاول من الهجوم توغل الالمان في مواقع اللواء الآلي الثالث الهندي ، وقد دمرت دبابة ضابط صديق لي بعد ذلك بقليل ووجد نفسه بين الاسرى الهنود قرب مقر قيادة رومل شرق حقول الالغام ، وقد نصب (رومل) حوله حلقة من مدافع ٨٨ مم ، ليبعد عنه مدرعاتنا ، وكان يقوم بمحاولات يائسة للاستيلاء على معقل اللواء الـ ١٥٠ ،كي يحصل على امداداته من خلاله ، وكان الاسرى الهنود يموتون ظمأ ويقتتلون على قطرات الماء القليلة التي كانت تقدم للجرحى ..

عندئذ تقدم المقدم (آشرسي) ، وهو شخص ذو مهابة ، وطلب ان يرى رومل ، وشد ما كانت دهشته حين اقتادوه اليه ، وكان يتكلم الالمانية بالقدر الذي يسمح له برفع احتجاجه ، فاذا لم يكن باستطاعة الالمان ان يقدموا للاسرى الطعام والماء فلا حق لهم عندئذ بالاحتفاظ بهم ، وعليهم ان يعيدوهم الى الخطوط البريطانية ، وقد اظهر رومل حصافة وعطفا حين أجابه بقوله :

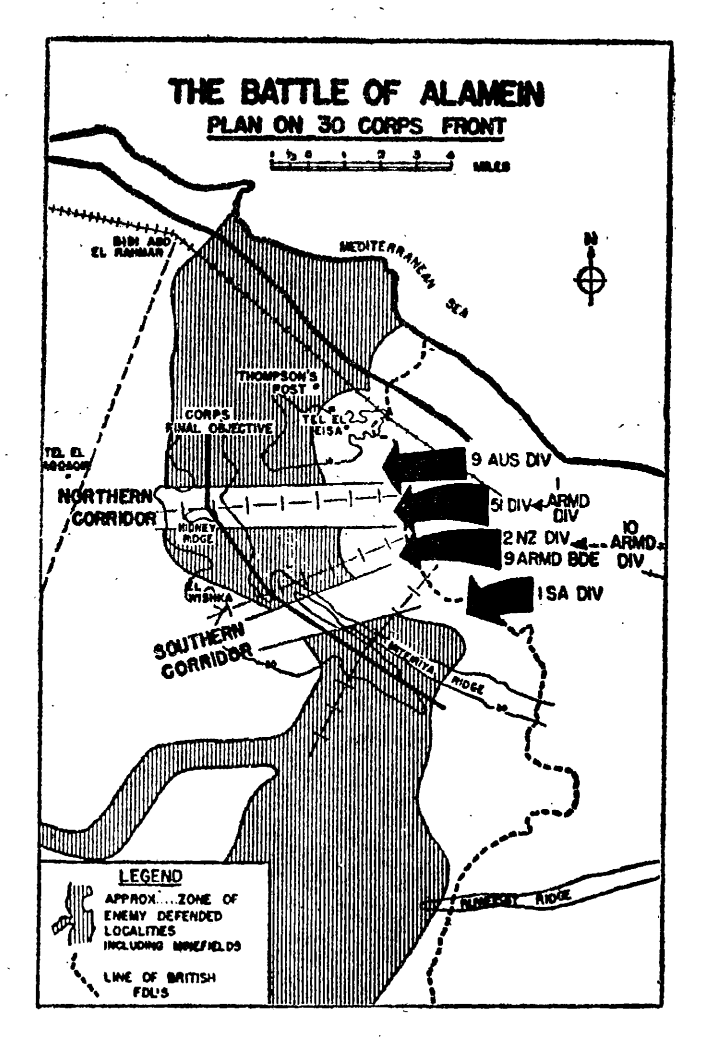
« انك تأخذ من الماء بقدر ما يأخذ رجال الفيلق الافريقي، وبقدر نصيبي أنا منه تماما ، وانا أقرك على أنه من المستحيل ان نستمر على هذه الحال ، واذا لم تصل الينا قافلة في هذه الليلة ، فسوف اطلب الى الجنرال ريتشي شروط الاستسلام ..

كان يبدو ان هذا وشيك الوقوع ، رغم انه من الصعب تصور رومل . .وهو يقدم نفسه بوداعة وطيب خاطر الى الاسر .

ولكن الجنراه اوكنليك رأى ، بعد ان اعاد الى القاهرة ، ما لم يره الجنرال ريتشي من نتائج الاستيلاء على معقل اللواء الـ ١٥٠ .. وكيف انه بدل كل شيء وقد كتب في الثالث من شهر حزيران الى الجنرال ريتشي يقول :

« انه ليسرني ان تعتقد ان الموقف ما زال حسنا بالنسبة لنا ،ولكني ارى ان ابادة اللواء الـ ١٥٠ ودق اسفين عريض وعميق وسط موقعنا . كل هذا ينذر بالشر المستطير ، وانا اشعر انه اذا تمكن رومل من تثبيت اقدامه ، فلسوف يتعذر علينا في النهاية الدفاع عن موقع (الغزالة)

بمـا فيهـا (بير حكيم) .. حتى ولو لم يجـدد هجومه ، فهو في وضعـه هـذا يستطيـع ان يستعيـد زمـام المبادرة ، الذي انتزعته أنت منه فـي قتـال الاسبـوع الفائت » ..



معركة العلمين : كما وصفتها القيادة الانكليزية ، وقد آثرنا نشرها بالانكليزيـة وكيف تمكن الانكليز من فتح ثغرة في الخطوط الالمانية ، فتم لهم النصر بعـد ذلك بواسطة ما كانوا ينعمون به من عدد وعدة ...

الفصل الخامس عشر

رومل يسرع نحو النيل ويجتاز الحدود المصريـــة

المصادر الالمانيـــة والهجوم الجديد

الهجـــوم

في الثاني والعشرين من حزيران بدأت وحدات رومل المدرعـــة زحفها نحو الشرق ، وفي اليوم التالي كان رومل نفسه يجتاز الحدود المصرية ، في الوقت الذي كانت فيه الفرقة التسعون الخفيفة متوغلة عميقا فـــي الاراضي المصريـــة ..

ووقعت في أيدي طلائع القوات الالمانية وثائق تشير الــــى أن الجيش الثامن سيتخذ مراكز جديدة في (مرسى مطروح) ، وأفادت أجهزة دوائـــر الاستخبارات الالمانية التي التقطت مخابرات لاسلكية متبادلة بيـــن مختلف قيادات الوحدات الانكليزية ما يؤكد أن البريطانيين سيحاولون الدفاع عـــن مرسى مطروح ، لذلك أسرع رومل بتوجيه قوات هامة نحـــو قطاع مرسى مطروح ، وفي نيته تجميد الوحدات المدرعة البريطانية وتطويق المشاة ، وفي السباق الكبير نحو الشرق كان لا يفصل أحيانا بين طلائع القوات الزاحفـــة والقوات الهاربة سوى نصف كيلو متر !.

طوابير لا نهاية لها تتجه نحو الشرق وكأنها في سباق مع الزمن ..

وفي ٢٦ و٢٧ حزيران وصلت القوات الالمانية أمـــام مرسى مطروح ، وقامت الفرقتان الالمانيتان الخامسة عشرة والواحـــدة والعشرون بتحطيـــم

القوات المدعة البريطانية المتجمعة في جنوبي مرسى مطروح .

ونشبت معارك عنيفة ضد الفرقة الثانية النيوزيلندية التي كان رومل يعتقد خطأ أنها في مرسى مطروح ولا تزال تحت قيادة الجنرال « فرايبرغ » .. وقد وقع في هذا الخطأ عدد كبير من المؤرخين الالمان الذين كتبوا عن معارك جيش افريقيا .

والواقع أن الجنرال « فرايبرغ » الذي أصيب بجرح في رأسه ، نقل الى قيادة فرقة أخرى من الجنود النيوزيلنديين ، واشترك بمعارك وحشية ضد القوات الالمانية التي كانت تضرب نطاقا حول بعض الوحدات البريطانية جنوبي (مرسى مطروح) ..

وقد تمكن البريطانيون من خرق النطاق الالماني ، المضروب حول مرسى مطروح ، في أكثر من مكان بسبب ضعف القوات الالمانية المرابطة هناك .

ولكن مرسى مطروح التي كان يدافع عنها بضراوة حوالي ثمانية آلاف جندي من جنوبي افريقيا بالاضافة الى الفرقة الهندية ، سقطت في أيدي الالمان في الساعات الاولى من يوم ٢٩ حزيران ، أثر الهجوم الذي شنته القوات الالمانية ، في الساعة الخامسة من مساء اليوم الفائت .

وكانت حصيلة المعركة تدمير ٤٠ دبابة بريطانية وسقوط ستة آلاف أسير ..

وهكذا سقط آخر حصن على الطريق الساحلي قبل الاسكندرية .

غير أن النصر النهائي لم يتحقق بعد ولم يتمكن رومل من تحقيق أهدافه في أسر معظم قوات المشاة داخل مرسى مطروح والحيلولة بذلك دون تمركز هذه القوات عند خط دفاعي آخر قبل الاسكندرية . فلقد استطاعت القيادة البريطانية حشد جميع قوات المشاة عند خط العلمين ، وركزت عليه كل آمالها ، في صد الزحف الالماني وانقاذ وادي النيل !

المفاجأة

كان جنود الكابتن « بريال » منهمكين في جمع زجاجات البيرة وعلب الكونسروة والسكاير من عنابر (مرسى مطروح) تمهيدا لقضاء فترة من الراحة تدوم عدة أيام ، عندما فاجأهم الامر بمتابعة الزحف .

وكان رومل يوجه الى الكابتن « بريال » ، الاوامر مباشرة ويعين له النقاط التي يجب احتلالها خلال فترات معينة ، فكان « بريال » يصل في كل

مرة الى الهدف قبل مضي الوقت المحدد ! وكان هـــذا داعيـا لمنحه وسام الصليب الالماني المذهب ، الذي انشىء خصيصا لحرب افريقيا .

وكان آخر أمر تلقاه من روملٍ يقول : « توقف عن الزحف فقط عندمـا تصل الى ضواحي الاسكندرية » .

زحف مجنون قام به الجنود الالمان بقيادة الكابتن « بريال » ، لـم يكن بامكان قوة ما أن تقف في وجهه ، واذا صدف أن احدي المجموعات الانكليزية المقاتلة تحاول الصمود فانها كانت تطوق وتترك جانبا ، بينما يتابـــع الجنود سباقهم نحو الاسكندرية ، اما مصير الجنود الاعداء المطوقين فكان اما الفناء او الفرار ..

ولم يكن « بريال » يعلم عن محطة العلمين سوى أنها بلدة صغيرة ربمـا يكون الانكليز محتشدين فيها ..

لم يكن « بريال » وغيره من الجنود الالمان يعلمون أن هناك خطا دفاعيا متينا يواجههم .. وان هناك حقلا من الالغام العديدة يحيط بالبلدة ، ولـم يكونوا يعلمون ان الانكليز قد استخدموا الاسرى الطليان فـي وضع الالغام واحكام اخفائها بشكل رائع ، جنوبي العلمين عند منحدرات الرويسات وحتى نهاية وادي منحدر القطارة .

لم يكن في ذلك الوقت يدافع عن هـذه المراكـز سوى الفرقة الاولـى الجنوبية ـ الافريقية التي وصلت منذ اسبوع فقط ، ثم أضيف اليها بعـد ذلك الفرقتان النيوزيلندية السادسة والهندية الثامنة عشر ..

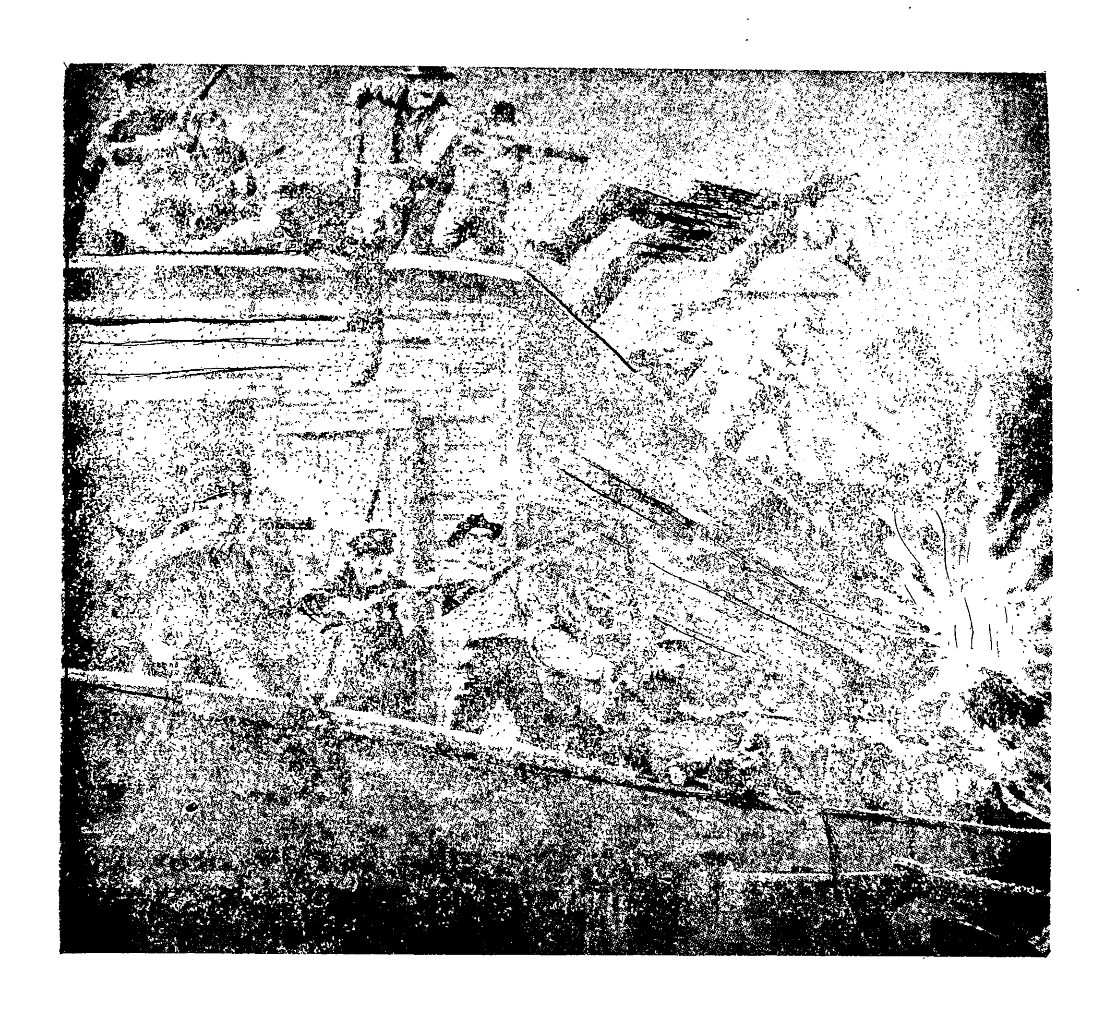
ولو أن روملٍ لم يفسح المجال أمام الفرق البريطانية المنهزمة بالتمركـز في تحصينات العلمين ، لما أمكن للانكليز الصمود في وجه قواته الزاحفة ..

تولى الكابتن « كايزر » حماية الطريق الساحلي بينما بدأ « بريال » في صباح اليوم التالي اعادة تنظيم قواته استعدادا للزحف الاخير ..

وقامت وحدات الاستكشاف بالتوغل حتى بلدة العلمين فلم تلاقي أيـة مقاومة ، ومرت بالقرب من المسجد الابيض الشهير ووصلت حتـى محطـة سكة الحديد حيث كان لا يزال هناك بعض العربات الفارغة ، ولا غير ذلك .. فتمادت في التوغل حتى وصلت الى حقل الالغام وهنـاك واجهتها مقاومـة عنيفة ونار قوية فقفلت راجعة بينما استطاع « بريال » بواسطـة منظاره أن يرى قوافل السيارات البريطانية وهي آتية من الشرق تحمل الى الجبهة كل ما يمكن حمله ..

ووقف جنود « بريال » يتحدثون فيما بينهم ..

ـ على أية مسافة تقع الاسكندرية ؟
ـ بيننا وبينها ٨٥ كيلومترا .
ـ اذن سنترك الامر الى الغد . .
وضحك الجنود بانتظار الغد !



هذه هي الحرب : بيوت تدمرها القنابل ، واسلاك تمزقها المدافع ، ودمار بين هذا وذاك . . .

ظهور الطائرات البريطانية

وفي صباح اليوم التالي ٣٠ حزيران ، حاولت القوات الالمانية الاندفاع نحو الشرق عبر الخطوط الانكليزية ، ولكنها قوبلت بمقاومة ضارية وظهرت في الجو المقاتلات البريطانية التي أخذت تغير على القوات الزاحفة على طول الجبهة .

وقد اضطر رومل نفسه الى تغيير مركز قيادته عدة مرات هربا من الطائرات البريطانية .

وكان تشرشل قد أمر سلاح الطيران الملكي أن يضرب بعنف وشدة ، دون مبالاة بالخسائر ، بغية ايقاف قوات رومل وتحطيم هجماتها .

في ذلك اليوم الاخير من شهر حزيران ١٩٤٢ كان يبدو أن الحرب بلغت ذروتها في افريقيا الشمالية ، فهل تصل الدبابات الالمانية الى ضفاف النيل ؟

وهل ترى انكلترا نفسها وقد خسرت مكانتها الدولية ؟ كان على نتيجة هذه المعركة يتوقف مصير الستراتيجية الالمانية : فسوريا والعراق وايران في متناول أيديهم .. وتركيا ستضطر حتما الى السير في ركابهم عندما ترى نفسها محاطة من كل جانب .. وسيصبح جناح روسيا مهددا تهديدا خطيرا ، كل هذه الاهداف كان يبدو صباح ٣٠ حزيران أنها في متناول يد الالمان .

وكان رومل يرى بينه وبين أهدافه الكبار جيشا انكليزيا مهزوما ، ولكنه يستعد في العلمين للمعركة الاخيرة ، غير أن هذه المقاومة كان لا بد أن تحطم لتحقيق الاهداف الكبار !.

دعا الفيلد مرشال قواده لاجتماع عقد بعد الظهر وتقرر فيه البدء بالهجوم في اليوم التالي . وعندما لفت « باير لاين » نظر رفاقه الى حالة الجنود الذين أنهكهم الزحف الطويل ، قال له رئيس هيئة أركان حرب الجيش المدرع :

« ان الجنود يستطيعون تحمل المزيد من المشاق ، ولكن يجب الاسراع لنمنع البريطانيين من نسف الجسر الكبير في القاهرة » .

أجل هكذا كان التفاؤل يعم أركان القيادة الالمانية في ذلك الحين ..

في تلك الاثناء كان « بريال » وجنوده عند مشارف العلمين يأمرهم بقصف المراكز البريطانية في البلدة .

وبعد دقائق كان الملازم الانكليزي « بلانتون » الملحق بالفرقة الثالثة الجنوب ـ افريقية يتجه بسيارته عبر الطريق الساحلي نحو الاسكندرية ليحمل الخبر المذهل : الالمان يهاجمون العلمين .. لقد ظن أن « جيش افريقيا » هو الذي يقصف البلدة !

ويسري النبأ الخطير في الاسكندرية سريان الكهرباء : « رومل على ابوابنا » .. قالها الاسكندرانيون كما قالها الرومان القدماء يوم كانت جحافل (هنيبعل) تدق أبواب روما ..

الاستعداد للانسحاب

ويتلقى الاسطول البريطاني المرابط في المرفأ أمرا بالتوجه الى بورسعيد وحيفا للاحتماء من خطر الغارات الجوية التي يمكن أن تقوم بها الطائرات الالمانية .

وكان المصريون في ذلك الحين يترقبون المستقبل ويهزأون بالبريطانيين علنا بينما كان هؤلاء يسيرون في الشارع ورؤوسهم في الارض ..

ولم يكن أحد من الالمان يستطيع وصف حقيقة الوضع السائد في القاهرة والاسكندرية .. « الن مور هيد » المعلق الحربي البريطاني المشهور كان وحده يستطيع ذلك . قال « مور هيد » في مذكراته :

« كانت الامبراطورية البريطانية ترسل نحو الشرق الاوسط طوال ثلاث سنوات ، كل ما تملكه من قوى وجنود ومدافع ودبابات .. ففي الشرق الاوسط كان الانكليز يواجهون الالمان في جبهة حقيقية ، ولكنها تبدو وكأنها على شفير الهاوية .. ان خسارة مصر كانت وشيكة وهي لا بد ستجلب معها نكبات لا توصف ، بور سعيد ، بيروت ، طرابلس الشام ، كلها لن تستطيع الصمود اذا سقطت الاسكندرية .. أما فلسطين وسوريا فلا أمل لهما بالمقاومة ، واذا وصل الالمان الى القدس ودمشق فان آبار البترول تصبح في متناول أيديهم وتصبح تركيا عمليا مطوقة » .

والواقع أن « مورهيد » لم يكن يبالغ في شيء .

اخلاء الاسكندرية

بعد خروج قطع الاسطول البريطاني من مرفأ الاسكندرية استعدت فرق « الكومندوس » لنسف المنشآت الهامة .. وفي نفس الوقت كان

معظم الحامية البريطانية قد غادرت المدينـــة .. واستعدت الاسكندريـة لاستقبال رومل بين ساعة واخرى .

أما في القاهرة فقد كانت الشوارع تزدحم بالسيارات القادمة مــن الاسكندرية والمناطق الريفية المجاورة .

واعلنت حالة الطوارىء فـــي العاصمة المصرية وأخذ الاقبال علـى القطارات الذاهبة الى فلسطين يتزايد ، ولكن البوليس الحربي البريطاني كان يؤمن الافضلية للرعايا البريطانيين .

والذي يحاول تهدئة الخواطر في ذلك الوقت كان ينصح بالذهاب الى مركز القيادة العامة البريطانية حيث يرى بأم عينيه كيف تحـــرق الاوراق والمستندات السرية فترتفع أعمدة الدخان من حدائق المبنى .. أمـــا بقيـة حوائج مركز القيادة العامة فكانت معبأة في شاحنات تتجه بها نحو فلسطين.

وأخذ الضباط الاميركيون الملحقـون بالسفارة وبالقيـادة العامــة ، ينسحبون نحو الصومال هربا من رومل ..

وأما خارج القاهرة ، قرب الاهرامات ، فقـــد كانت طوابير الجنـود المتقهقرة عائدة من الجبهة ومئات الشاحنات تحمل الجرحى ، وقـــد قـدر « مورهيد » طول الطوابير بحوالي مائة ميل ، وقال : « اننا كنا نتساءل فيما اذا كان الجيش البريطاني بأجمعه هو الذي يتقهقر على هذا الشكل ! »

وضع رومل خطته لاحتلال العلمين وضرب القـوات البريطانية مـــن الخلف استنادا الى التجارب الماضية التي أدت الى احتلال مرسى مطروح ..

كان على الجيش الالماني ، أن يتجه نحو الجنوب الى (منحدر القطارة)، كما لو كان يريد اختراق جبهة العلمين في الجنوب ثم يعود تحت جنح الظلام فيتجه نحو الشمال الشرقي ويشق طريقه بعرض عشرين كيلومتر الى محطة القطار الحديدي ، ثم يتابع السير لاختراق الجبهـــة الانكليزية بين مركزي العلمين ودير الابيض ، لتوجيه الضربة الحاسمة من الخلف .

أما الفرقة التسعون فقد كان عليها ، كما حدث في مرسى مطروح ، أن تطوق العلمين من الجنوب لتصل بعد ذلك الى الطريق الساحلي « فياباليبا » فتقطعها وتحكم الطوق بذلك حول العلمين .

وقال رومل يشرح لقواده النتائج : « عندما يتم تطويق العلمين وتصبح مدرعاتنا وراء القوات الانكليزية المتمركزة في الجنوب ، سينهار العدو كمـا انهار في مرسى مطروح » .

كان كل شيء ، في الواقع يدل على أن نجاح خطة رومل أمــــر محتمل جدا ، ولكن فجأة ينقلب الحظ الذي واتى رومل حتى الآن .. فيتعذر بعــد التاسع والعشرين من حزيران ، فهم البرقيات التي كان يرسلها يوميا الملحق العسكري الاميركي من القاهرة الى واشنطن والتي كان رجال الاستخبارات الالمانية في « سنترال برلين » يحلون رموزها وفقـــا لطريقــة « بــراون » السابقة وبذلك انقطعت عن رومل ، أنباء العدو انقطاعا تاما ..

مصدر هام للانباء يزول ..

كانت البرقية الاخيرة التي التقطها « سنترال برلين » تقول مـــا يلي : « اعلنت شخصية ايطالية كبيرة لاحد المخبرين الذيـــن لا يرقى الشك الــى صدق أخبارهم أن جميع البرقيات السرية التي يبعث بهـــا الينـــا الملحق العسكري في القاهرة يعرف مضمونها في روما وبرلين ، لذلك اقترح تغيير الشيفرة » ..

وبذلك خسرت قوات رومل مصدرا هاما من مصادر الانباء عن تحركات العدو ، ولكن المصيبة لا تأتي بمفردها .. ففي أول تموز ، وخـــلال المعارك الضارية الاولى التي وقعت عند العلمين ، سقط الكابتن « سيبوم » رئيـــس وحدة الاستخبارات رقم ٦٢١ ، وفقدت الوحدة معظـم رجالها ومعداتها .. وكان رومل يعتبرها أذنه التي تنقل اليه كل مـــا يدور داخل مراكز القيادات البريطانية على الجبهة ..

تفـاوت القـوى

جميع المعارك التي جرت طوال شهر تموز عند جبهة العلمين كانت غير كافية لترجيح كفة أحد الفريقين المتصارعين .

والواقع أن قوات رومل كانت منهوكة القوى والموقف بالنسبة اليه اكثر من خطير، لقد كان يواجه قوات بريطانية تتلقى باستمرار الامداذات الجديدة. وبينما كانت خطوط مواصلات القوات الانكليزية تتراوح بين مائــة ومائتــي كيلومترا ، كانت الخطوط الالمانية لا تقل عن ٥٧٤ كيلومترا ابتداء من طبرق .. هذا عندما كان يصل شيء الى طبرق ! ذلك أن الايطاليين كانــوا يفضلون ارسال بواخرهم الى طرابلس تفاديا للاخطار ، ومن طرابلس حتى الجبهة كانت المسافة لا تقل عن ألفي كيلومتر !

واذا كان جيش افريقيا قد نجح في تخطي أزمة شهر تمـوز ، فبفضل الجندي الالماني ، وبفضل جمود البريطانيين الذين كانوا يعتقدون بـأن الالمان ما يزالون من القوة ، بحيث يستطيعون تطويقهم بهجوم واحد مركز ..

وقد اعترف الكولونيل « ميللينتين » بالموقف الخطير عندما قال : « لم يكن لدينا ادنى شك في عجزنا عن الصمود في وجه أي هجوم كبيـــر يشنه الجيش الثامن » .

وفي مساء يوم ١٧ تموز ، وبعد معارك طاحنة شتتت خلالهـا الفرقتان الايطاليتان « تريستا » و « تورتنو » ، اضطر رومل على عجل لارسال قوات من هنا وهناك لسد الثغرات ، جاء كسرلينغ ورئيس أركان الحـرب الايطالي كافاليرو لزيارة رومل ، فقال لهما : « اذا لم تحل مشكلة التموين حلا جذريا ، فاننا على وشك الهزيمة .. » وكان رومل على حق ..

ولعل كسرلينغ شعر بشيء من الاعتزاز ، عندما سمع الفيلـد مارشال يقول هذا الكلام الذي قاله هو بطريقة أخرى قبل ذلك بزمن طويل .. فقـد كان من رأيه أن يتم احتلال جزيرة مالطه بعد احتلال طبرق مباشرة وقبـــل البدء بالهجوم الكبير على وادي النيل .. ولكن رومل كان أشـــد المعارضين لهذه الخطة ..

الالغام في معارك الصحراء

ومن أغرب الحوادث فيمعارك الصحراء ، ملايين الالغام، التي بثها الالمان والانكليز والايطاليون والفرنسيون في أرض الصحراء ، ونصبوها فخاخا للعدو فيما اذا حاول اقتحام مراكزهم ..

ولقد انتهت الحرب العالمية هذه ، ومضى على انتهائها سنوات لا تقـل عن العشرين ، ومع هذا فلا تزال ملايين الالغام مدفونة فـي قلب الصحراء ، يذهب ضحيتها الف شخص من البدو العرب كل عام ، عـدا الآلاف الذيـن قتلوا قبلا ..

لقد انتهت الحرب العالمية الثانية منذ ٢١ عاما ، ولكـــن أثارها المدمرة ما زالت باقية في بطن الصحراء الغربية ، بجوار قبور القتلى فـــي منطقـة العلمين وفي منطقة السلوم .. ولا يزال يوجد تحت الرمال ١١ ١/٢ مليون من الالغام الانكليزية والالمانية والفرنسية والايطالية !

١١٤٠ حقلا من الفخاخ القاتلة منتشرة تحت سطح الارض بقليل مـــا

زالت حية لم تنل منها عوامل الجو في الصحراء بعد ٢١ عاما من انقضاء الحرب .

ويقول الكولونيل « جريفين » المشرف على مقابر الانكليز في العلمين أن الالغام لا تندثر أبدا الا بعد فترات طويلة جدا .

٨٠ كيلومترا مربعا من محطة العلمين الى أبو دويس جنوبا .. ومن محطة العميد الى جامع سيدي عبد الرحمن في محاذاة الساحل بذرت كلها بالالغام .. تجد اللغم الايطالي الخشبي بجانب اللغم الالماني « تلر » .. وهي الغام ليست مقصورة على تدمير الدبابات والمجركات فحسب ولكن تعدتها الى الاشخاص أيضا .

***

وكما ذهب مونتغمري بقواته خلف رومل وتركوا هذه الحقول بدون خرائط ولا مفاتيح .. ضائعة المعالم ، حتى الاسلاك التي كانت تحددها نزعها تجار الخردة .. فبدت اليوم كغابة كثيفة يبدو الموت منها في كل خطوة وعلى كل متر ..

والغام الحرب العالمية الثانية دلت عليها تقارير خبراء المفرقعات في شركات التنقيب عن البترول والشركات الايطالية التي كانت تطهر المدن الآهلة بالسكان في محافظة مرسى مطروح .. بأنها تمتاز بدقة الصنع وحساسيتها المرهفة ، وقد يتأثر بعضها من ضغط يقل عن الخمسة كيلوات ومنها ما يعمل بالشد أو بالطوق أو بالاحتكاك أو بالعبث .. ومنها الزمنية أو التي تنفجر بشعيرات صغيرة مدهونة بلون أخضر كالنبات ..

وفي أيام القحط وأشهر الجفاف ، يتوغل البدو بأغنامهم في مناطق الالغام المليئة بنباتات الرعي ، ويذهبون في مسالك وعرة شديدة الخطر وخاصة في الظلام ..

ومشروعات التعمير الضخمة بالصحراء كمشروع منخفض القطارة ، ومشروع المفاعل الذري ، لتحويل مياه البحر الى مياه عذبة للري .. والبحث عن البترول والتنقيب عن المعادن والآبار والخزانات المليئة بالمياه الجوفية .. طالب المسؤولون على تنفيذ هذه المشروعات الصناعية والزراعية والكهربائية والسياحية بتطهير مناطق الالغام ليجد الذين سيعملون على تنفيذها الامان لحياتهم ..

الفصل السادس عشر

قبـــل المعركة الفاصلة
وصف مثير للايام التي سبقت العلمين

الوصول :

عندما وصل روميل الى الصحراء الغربية .. قال الحلفاء : انه يجهل طبيعة الحرب في الصحراء .. وبعد اسابيع غيروا رأيهم وقالوا : انه ثعلب الصحراء .. ولم يلبثوا شهورا حتى قالوا : انه قائد فرقة الاشباح ! .. واصبحت كلمة « روميل قادم » تعني القدر المحتوم ! واصبح روميل اسطورة ضد الموت حتى قيل عنه انه لم تخلق حتى الان الرصاصـــة التي يمكن ان تصيب روميل !

فقد أحس بالخطر وهو في عربة القيادة فغادرها .. وبعد ثوان انفجرت السيارة .. ومرة اخرى ذهب الى احد المواقع فوجد الرجال راقدين في رمل الصحراء من شدة النيران عليهم فقال لهم وهو يقف في وسط الموقع : ما لكم أيها الرجال كلما حمي الوطيس ترتمون على بطونكم .. ومرة ثالثة كان يتجول مع رئيس اركانه وستفال على ارتفاع منخفض فوقع تحت تأثير المدفعيـــة البريطانية المضادة التي حولت طائرته الى «غربال» .. وجلس روميل بجانب قائد الطائرة يوجهه ليعود الى القيادة .. وفي عودته يقع مــرة ثانيــة تحت تأثير المدفعية البريطانية ولكنه يتخلص منها .. ثم تلتقي بهم اثنتـــا عشرة طائرة هاركين بريطانية ولكنها تترك الطائرة الصغيرة التي ينبعث الدخان من كل جزء منها .. ويستمر روميل في توجيه قائد الطائرة حتى يصل به الى اقرب موقع الماني .. كذلك فشلت خطة خطفه .

ويعلق على ذلك الكاتب البريطاني ليدل هارت اكبر كتاب الاستراتيجية في العالم الان فيقول :

كان اكثر من اسطورة للبريطانيين أدى الاعجاب به الى شبه محبة لشخصه وذلك يرجع الى استخدامه السرعة والمفاجأة في عملياته وزاد على ذلك الاسلوب الذي اتبعه في الحرب في افريقيا ، محافظته على تقاليد الحرب العسكرية الشريفة المهذبة وسلوكه مسلك الفرسان نحو الكثير من الاسرى الذين قابلهم شخصيا وبذلك أصبح بطلا في نظر جنود الجيش الثامن لدرجة أنهم كلما ارادوا أن يصفوا عملا مجيدا قالوا انه مثل روميل .

وتحولت الاسطورة الى القيادة ذاتها التي اعتبرت كلمة روميل في حد ذاتها خطرا نفسيا على نفوس الجنود وصدرت التعليمات بأن يحذفوا اسم روميل من أوامرهم وان يقولوا للجنود انهم يحاربون المحور أو المانيا وليس روميل ولم تكتف القيادة بهذا بل اصدرت أغرب امر صدر في تاريخ الحروب اصدره أوكلنك قائد قوات الحلفاء .. وهو :

فعندما وصل مونتغمري قرر ان يكسر اسنان الثعلب .. والقى كلمة التقهقر من قاموس الحرب في الصحراء الغربية وكان يريد أي نصر بأي ثمن ليعيد الثقة الى جنوده .. وتم له ما اراد ..

ولا نستطيع ان نقول ان مونتغمري نفسه يقول .. لن يهزم روميل هزيمة فاصلة واحدة بل لقد اضطر للانسحاب ولم يكن ذلك بسبب هزيمة فاصلة .

ولكن الظروف الكثيرة التي تكالبت على روميل والامدادات الكثيرة التي اندفعت على مونتغمري كانت من أهم الاسباب .

وتخيل ان هذا الثعلب أبو الثعالب الرجل الاسطورة .. لم يجد مكانا يختبيء فيه أثناء انسحابه من مطاردة الطائرات البريطانية له .. سوى جحر ثعلب .

وصحيح انه لم تخلق الرصاصة التي يمكن أن تطلق على روميل .. فالرجل الذي حاز كل انواع الاوسمة والنياشين من النازي .. عصا المرشالية واوراق البلوط والصليب الحديدي وصليب الفرسان .. كل هذا .. لم يجد هتلر ما يكافيء به روميل في نهاية حياته سوى جرعة من السم القاتل .. ارسلها اليه بعد ان ذكر اسمه في التحقيق في ثورة الجنرالات .. وامره هتلر ان يجترع السم أو يحاكم وتنزع نياشينه ويخسر مجده العسكري ..

وقبل روميل الذي كان يؤيد ثورة الجنرالات ويطالب بالاتفاق مع

الحلفاء ضد روسيا خوفا من الشيوعية .. ان يشرب السم وقبل اولاده وزوجته وخرج الى المستشفى تحت حراسة جنود الفوهرر وبعد ساعة اعلن موت روميل الرجل الاسطورة .

ويقول ليدل هارت الذي حصل على مذكرات روميل من زوجته واولاده .. « لقد أحدث روميل تأثيرا كبيرا في العالم سبقه وزاد من عمق هـذا التأثير بلاغة قلمه .. ولقد ولد روميل ليكون كاتبا بالاضافة الى انه مقاتل بطبيعته فكان يجيد التعبير عما يجيش في نفسه على الورق وكان جمال أسلوبه سببا في معرفة هتلر له عندما قدم كتاب تكتيكات المشاة ..

قال روميل ان الحرب الحديثة تستلزم القيادة الشخصية باللاسلكي لا بالمؤتمرات .. وكان يقود معركته على دبابة كفرسان العصور الوسطى وكان استاذ المعاصرين في المرونة حتى قيل عنه أنه في كل مكان في وقت واحد ..

ولكن عيبه انه كان يكرر تكتيكاته فكشف نفسه لمونتغمري .. الذي أعاد تأسيس الجيش الثامن على أسس ثلاثة القيادة والعتاد والتدريب .. والذي حول الجيوش الى جيش واحد .. بري وبحري وجوي . ونجح في التنسيق بينهـا .

عبقرية روميـل :

.. وقد كان روميل رجلا انسانيا بجانب طاقته العظيمة وعبقريته العسكرية الا انه مثـل قادة الجنس البشري .. كان يتصرف تصرفات صبيانية أثناء فترة انتصاراته العظيمة وقد ظهر من رسائله أنه كان ينظر للحرب على انها لعبة كبرى درب نفسه عليها ليخدم بها وطنه بكل جوارحه واخلاصه ، ولم يكن من السهل على روميل أن يحول الاراء المخالفة لرأيه وخاصة من يقاتلون معه .. شأنه في ذلك شأن العسكريين الذين يتمتعون بشخصية قوية .. وقد أثر مرضه أثناء المرحلة الاخيرة للحرب في ضيق خلقه واختلال ارائه ولكنه لم يكن خبيثا وكان على استعداد لتغيير احكامه..

وهناك نوعان من العبقرية العسكرية كما يقول الكاتب ليدل هارت .. عبقرية فكرية وعبقرية تنفيذية وفيما يختص بروميل جمع بين العبقريتين وبالرغم من ان اسلوب الحرب الخاطفة وضع في انكلترا .. فان المام رومل السريع بهذه النظرية وتطويرها كشف من ورائه العقلية الضخمة وأصبح روميل الرجل الثاني لجودريان في تطبيقه لهذه النظرية بنجاح يثير الدهشة ومن الصعب ايجاد شبيه في التاريخ لروميل سوى جودريان استاذ الحرب الخاطفة ..

واخيرا فانه يتميز بقدرته العقلية على القيادة .. وهذا هو اساس السيادة الحربية ولن يعوض اي مهارة أخرى اذا فقد قدرته العقلية على القيادة ..

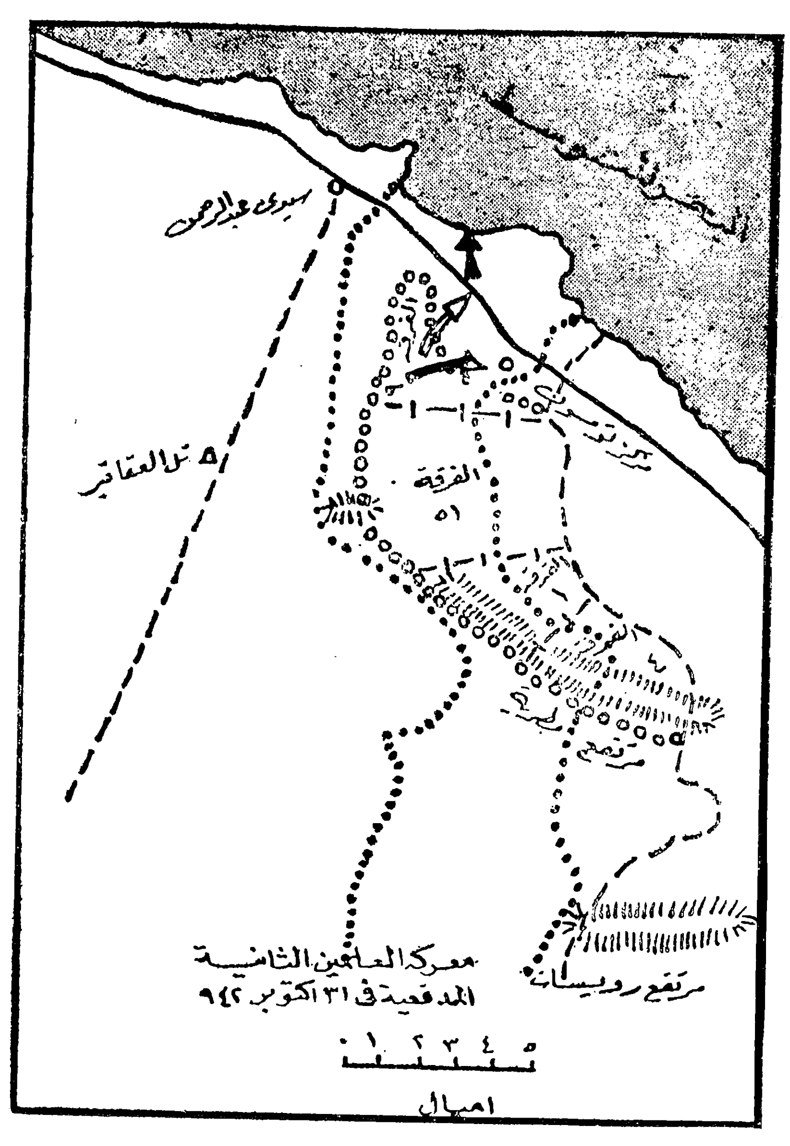
وكان روميل في تنفيذه لفلسفته في حرب الصحراء يتبع اسلوب التثبت والالتفاف .. والهجوم بفرقة كاملة بدلا من القيام بألوية وهذا ما فعله مونتغمري بعد وصوله . وكان يجيد التمويه واستعمال الخدع التي توقع العدو في الشراك بسهولة .. وكان يقول ان الحرب في الصحراء كالحرب في البحر فيها متسع كبير لمفاجأة النقطة القوية الحاكمة فيؤدي الى الاستيلاء عليها الى انهيار الموقع كله ومن أشهر قصص خداع روميل عملية جسر الفرسان .. فقد عمل فخا للدبابات البريطانية وأوقعهم في منطقة تجمعت حولها مدفعية الميدان والمدفعية الثقيلة وكانت السرعة التي عمل فيها روميل هذا الفخ والتي نفذه فيها قد أذهلت كل من معه فكيف امكن اخفاء هذه الاسلحة العتيدة فلم ترها أعين الطيران البريطاني بسبب التمويه الدقيق . وقال مصدر الماني أن روميل قد اخلى موقع جسر الفرسان واحرق بعض معداته ونقلت شبكات الجاسوسية ذلك الى قيادة بريطانيا التي اندفعت بقواتها داخل الفخ وابيدت عن اخرها واعترف تشرشل في مذكراته انه فقد في هذه المعركة ٢٥٠ دبابة .

***

عندما تكون رائحة الموت قريبة يحب الانسان ان يستمتع بالراحة تحت الخنادق الصغيرة وكان الجنود يلعبون لعبة غريبة تحت الخنادق فقد وضعوا السلاحف والبعض يضحك من الحرباء ومهارتها في خطف الذباب بلسانها الطويل وكان الجنود يضعون هذه المخلوقات الغريبة الرشيقة على الرمال ثم على المناديل البيضاء او الحمراء ويصيحون مهللين عندما تغير لونها .

ثم يأتي سباق للسلاحف وكان كل ما يحتاج اليه هذا السباق لوح من الخشب لمنع المتسابقين من الخروج عن خط السير . وكانت السلحفاة التي يراهن عليها جنود الوحدة ١١٥ المهرة في هذا السباق تربح دائما .. ولذا اصبحوا من كبار المتراهنين وكان الرهان على السلاحف يجري في العادة على ١٠ سجاير جولد فلاك على السلحفاة نابليون و ١٥ سيجارة بلايرز على اوكنليك و ٢٠ سيجارة سيورسيرنس على السلحفاة اولهلم وكانت هذه السجاير هي افضل ما في الغنائم وكان ولهلم يكسب دائما .

وبجانب سباق السلاحف كانت هناك اغنية ليلى مرلين تعيش تحت



تبادل النار : خريطة عسكرية تصور الموقف العسكري في ٣١ تشرين الاول من سنة ١٩٤٢ بين القوات الالمانية والانكليزية ، وكيف كانا يتبادلان ضرب المدافع من الجبهتين .

الخنادق يسمعها الفرنسيون والهولنديون والالمان والنرويج والانكليز كانوا يجلسون حالمين بصوت امرأة شابة تغني لكي تذكرهم بأوطانهم وتحرك فيهم المشاعر العاطفية النبيلة وتبعدهم عن حقيقة الحرب .

وكتب الن مورهيد الكاتب الالماني يقول عن هذه الاغنية .. لم يطرب هذا اللحن الجندي الالماني فقط بل اطرب البريطانيين . وكان من القوة بحيث اضطر القادة البريطانيون الى اصدار اوامرهم بمنع الجنود من الاستماع الى هذه الاغنية او الصفير بلحنها .

وكانت الاغنية قطعة من تاريخ الحرب وكانت تذكرهم بالبيت والاسرة والاولاد .

وانا اذكر لك هذه الحكايات لأؤكد لك ان صناع الحروب ليسوا في الميدان دائما في مخابئهم وتحت الارض دائما . وان هؤلاء الجنود ما هم الا وقود اللاعبين بالنار .

ندخل في الحرب .. التي دامت اكثر من ثمانية عشر شهرا في شمال افريقيا .. ونكتفي هنا بذكرى معركة التحول من النصر الدائم .. الى الدفاع .. الى الانسحاب .

نبدأ بمعركة علم حلف او ستالنجراد الصحراء . لما في المعركتين من تشابه في الدفاع وفي التوقيت .

***

جلس رومل في عربة قيادية محمر العينين ملتهب الانف ومريضا بتضخم في الكبد ينظر الى الخرائط والصور ويقول .. عندما تقدمنا الى العلمين في اول تموز دون تعقل ورغم ارهاق قواتنا كنت أرغب في منع البريطانيين من احضار معدات جديدة وتدعيم قواتهم امام الاسكندرية وكنت اريد ان امنع الحرب ان تكون حربا ثابتة ذات خط مواجهة ثابت .. فقد تدربت القوات البريطانية سواء الضباط او الجنود على مثل هذا النوع وفي هذه الحالة فان عناد البريطانيين يؤتي اكله .

وكانت بالفعل لندن وواشنطن تتوقع ظهور الدبابات الالمانية امام الاسكندرية خاصة بعد ان صرح رومل في مؤتمر صحفي له في المانيا قائلا وهو يمسك بأكرة باب قاعة المؤتمر .. ان يدي الان على اكرة مدينة الاسكندرية ..

قال رومل لضباطه .. ان انتصارات جيش البانزر قد نشرت الكآبة والفزع في كل من لندن وواشنطن .. ومن الواضح ان ذلك سيجعل الحلفاء يبذلون مجهودا كبيرا لتفادي فقد الدلتا والنيل والشرق الاوسط .

وحدث ما كان يخاف منه رومل ، ووصلت شحنات الاسلحة من حول الكاب الى البحر الاحمر .. ووصلت فرق من سوريا والهند والعراق ، اما ما وصله هو ففرقة واحدة ولواء مظلات وكان ينتظر وصول ۲۰۰۰ عربة و ۱۰۰ مدفع و ۱۰۰۰ لوري و ۲۲۰ دبابة ، ولكنها لم تصل .. واصبحت نسبة تفوق جنود مونتغمري على رومل بنسبة ۱ ـ ۳ لصالح الحلفاء ... وفي الطيران ۱ ـ ٥ لصالحهم ايضا .

وجلس رومل في عربة قيادته يفكر ـ وعلى الطرف الاخر ـ كان تشرشل يزمجر في القاهرة : « يجب عمل شيء » .. وعين هارولد الكسندر صاحب اكبر عقلية استراتيجية في الامبراطورية لقيادة قوات الشرق الاوسط .. وعمل تحت قيادته مونتغمري لقيادة الجيش الثامن .. وكان اول امر له .. هو الاشتباك بكل قواته مجتمعة «لقد انتهينا من تجزئة وتفتيت قواتنا ، فهذا هو ما مكن رومل من احراز انتصاراته » وابلغ مجلس الوزراء انه سيحتفظ بالعلمين حتى تصل كل احتياجاته ..

وفكر رومل في الانسحاب جنوبا الى موقع اكثر امانا ، يعطيه حرية حركة عن العلمين ، ولكن آراء هتلر وموسوليني السياسية كانت ضد التفكير العسكري لرومل ، وكان لا بد من المقامرة بكل شيء على ورقة واحدة ولا بد من الثبات او التقدم .. ولم يكن امام رومل سوى ان يختار بينهما .. وينفذ اوامر القائد السياسي البعيد جدا عن مسرح العمليات .

وجهز رومل خطة الهجوم ، ولكن الخطة وصلت بالتفصيل لمونتغمري .. ومرة ثانية كان رومل يعتمد على خرائط مونتغمري الذي دفع له بعض الخرائط المزورة في حقل الغام .

لماذا خسر رومل

ويدور السؤال اذن : لماذا خسر رومل هذه الجولة في الوصول الى النيل ؟ ..

الجواب : النقص في الوقود .. او بمعنى آخر خيانة البحرية الايطالية .. وقد كان من الجائز ان يكسب رومل الجولة لو ان وقوده اكثر بالرغم من معرفة مونتغمري لخطة رومل . هكذا يؤكد كتاب الفيلق الافريقي الذي يعبر عن وجهة النظر الالمانية .

وهكذا انتهت معركة علم حلفا او ستالنغراد الصحراء .. او اول عملية دفاع ناجحة امام رومل ، وانتهت بذلك المرحلة من الحرب الافريقية التي ظهرت فيها شجاعة ودهاء واقدام القائد الالماني ورجاله ..

ومن الان فصاعدا ، فسيكسب مونتغمري الاحداث ويذيق القوات

الالمانية المرهقة طعم الهزيمة بكل مرارتها ، وعلاوة على خسائرهم الفادحة ، فقد اخذت ثقة الالمان بالنصر تتزعزع ، ولم يكن من قبيل المصادفة ان نقطة التحول في علم حلفا كانت معاصرة لهزيمة « ستالنغراد » ، وكان هذا هو السبب في ان علم حلفا سميت (ستالنغراد الصحراء الغربية) .

حدائق الشيطان

كانت جبهة العلمين صحراء صخرية في الشمال ، وفي الجنوب منخفض القطارة ، بينهما ٤٠ ميلا . وكان الجيشان يواجهان بعضهما البعض، وكلاهما مرهق من المعارك الدامية المريرة التي خاضها خلال الاشهر السابقة، وقد استطاعت فرقة زرع الالغام الصحراوية بقيادة هيكر من تطوير فن زرع الالغام .. ونتيجة لذلك فقد شهدت العلمين ذروة حرب الالغام ، فلم تزرع مثل هذه الكميات الهائلة من الالغام في أي مسرح اخر من مسارح الحرب الثانية .. وكان المهندسون لهم اهمية بالغة لانهم في الواقع اعضاء في اهم سلاح لدى رومل .. وعلى كل واحد هنا ان يحذر من ان ينسفه لغم ..

حفرت فرق رومل خنادقها على طول الاربعين كيلومترا ، وحفر جيش مونتغمري في مواجهتها ، بفرقه الاحدى عشرة ، وبقي كلا الجيشين – ربع مليون جندي – في انتظار من يقوم بالحركة التالية . وبهذا اجبر ثعلب الصحراء على قبول خط المواجهة الثابت مع الجنود البريطانيين الذي كان يعمل حسابه دائما ..

وكان جنود رومل يعلمون بتفوق جيش مونتغمري ، الذي كانت تصله امدادات من انكلترا وامريكا في الوقت الذي كانت فيه القيادة الالمانية مهتمة بجبهتي القوقاز وستالنفراد ..

واستغاث رومل طالبا النجدة باللاسلكي وهدد ، واستغاث بالدويتش وبالقيادة الالمانية ، ووعده الجميع بالمساعدة ، ولكن لم ينفذ احد وعده ..

وقد كانت جبهة العلمين بالنسبة للطرفين المكان الوحيد الذي يصلح للدفاع ، ولاقامة خط دفاعي لا يمكن تطويقه او الالتفاف حوله ، ففي الجنوب ملاحات منخفض القطارة ، وفي الشمال البحر . وكل محاولة لاختراق خط الدفاع لا بد ان تكون بالمواجهة .. كان على رومل ان يعمل ما في وسعه لاحباط هذا الهجوم ، كما كان يعلم ان البريطانيين مسلحون بأسلحة تصلح للقتال الثابت والهجوم بالمواجهة اكثر من صلاحيتها للدخول في معركة مفتوحة ..

ولهذا كانت خطتنا هي الاحتفاظ بالجبهة بأي ثمن ، وان يقابل اي اختراق بهجمات مضادة . وقد ابتكر رومل اسلوبا دفاعيا لم يتفق مع طبيعته

عرف باسم (حدائق الشيطان) ..

اجتمع رومل مع المهندسين وقال لهم : عليكم ان تزرعوا (حدائق الشيطان) بحيث لا يتمكن اي جندي بريطاني من اختراقها ، ولا يمكن لاية وحدة رفع الغام ان تزيلها .. وشرح المهندسون لرومل بعض الخدع التي استعملوها في اوروبا واعجب بها جدا .. وامر بتنفيذها ، مثل : وضع اعمدة التلفراف على الارض ، فعندما ينزل سائقو السيارات لرفعها تنفجر فيهم ، وبهذا يفقد الخصم الثقة في نفسه ، وتهتز اعصابه . وكان المهندسون يشقون كل يوم طرقا جديدة يشنون بها حربهم النفسية ضد الانكليز . كانت السيمفونات مثلا مرتبطة بمتفجرات والادراج كذلك مزودة بألغام ..

وتمت زراعة حدائق الشيطان ، وكانت عبارة عن اربعة حقول الغام لوقاية الجبهة الشمالية ، كل منها على شكل صندوق قاعدته من ٢ الى ٣ اميال ، واجنابه من ٢ الى ٤ اميال ... ومن الطبيعي ان يفتح كل صندوق منها للعدو حتى يدخل المصيدة ..

ووزعت الالغام المضادة للدبابات على طريقة جدوة الحصان بين كل منها عشر ياردات ، واستعملت الغام طراز × زرعها المهندسون على طبقتين ، اذا رفعت الاولى انفجرت الثانية ، واذا رفعت الثانية بحرص انفجرت الثالثة .. زرع المهندسون بذلك نصف مليون لغم امام العلمين .

مونتغمري يهاجم ورومل مريض في المانيا

عندما جاء خريف ١٩٤٢ ، كان رومل قد قضى ١٨ شهرا في الصحراء دون اية راحة ، واخذ القلق يبدو على وجه طبيبه الذي كان يكتشف يوما بعد يوم زيادة تضخم كبده وحلقه الدائم الالتهاب اثناء معركة علم حلفا ، ووصلت اخبار مرض رومل الى هتلر ، الذي ارسل اليه الجنرال (ستتم) ليحل مكانه ، وغادر رومل افريقيا في اجازة هو في اشد الحاجة اليها . وفي الطريق هبط في روما ليزور ميسوليني في مقره الصيفي ، والتقى هناك بكافاليرو قائد القوات الايطالية الذي قال له : هل يمكن ان نعتمد عليك لو بدا مونتغمري في الهجوم ؟.. فاستدار رومل الى قائد طائرته قائلا : كم يكفينا للعودة الى الصحراء ؟ فقال الطيار : ثماني ساعات عشر ساعات عن طريق روما . فنظر رومل لكافاليرو قائلا : هل يكفي هذا ؟ رد كافاليرو : يكفي وشكرا ..

ولكن مونتغمري وجه ضربته الكبرى ، في الجناح الشمالي ، وانزل بقية دباباته بعد ان عاد رومل الى المعركة ..

وعندما هبط ظلام يوم اول تشرين الثاني ، كانت معركة العلمين قد

دخلت يومها التاسع ، وكانت كل حقول حدائق الشيطان في ايدي الانكليز ..
كانت هجمات مونتغمري في تلك الليلة تتم علـــى اساس سليـم ، اذ كانت المدفعية تطلق من ٤٠٠ الى ٥٠٠ مدفع بريطاني على المواقع الالمانية لمدة ثلاث ساعات بخلاف ضرب الطيران ثم يتبعها تقدم المشاة مع الدبابات ..

وبذلك تفتحت جبهات في اكثر من مكان ، وتدفقت قــوات مونتغمري خلف خطوط رومل ، ولكن رومل امر بالتحضير لهجوم مضاد وحشد كل ما تبقى من المدرعات الالمانية والآلات والمدافـع المضادة ومجموعات المهندسين ، وبدأت معركة دبابات تل العقاقير التـــي كانت واحدة مـــن اقسى معارك المدرعات في تاريخ الحرب الافريقية ، وقامت قوات الطيران بضرب كميـــات لا حصر لها من الذخيرة ، وكان لديهـــا معين لا ينضب ، علـــى العكس مـــن ذخيرة رومل ووقوده ، وكانت بالنسبة للمحور ، علـــى حـــد تعبير النقاد العسكريين « معركة الرجل الفقير » .

كانت هذه هي نفس القصة التي تتكرر على طول القطاع الشمالي فـــي جبهة العلمين .

وهنا اتخذ رومل قراره بالانسحاب .. الـــى مرسى البريجة القديم او الى طرابلس ، وارسل ياوره الكابتن اينجمار مستشار الدعاية والذي يعرفه هتلر جيدا وقال له : اوضح للفوهرر موقفنا ، واعلمه عن احتمال فقد مسرح الحرب في افريقيا ، وعن حالة فرقنا المدرعة .. وبعد ساعات وصلت برقية من هتلر وتسلمها وستفال وقال : انه يطلب افناء الجيش .. لقد جنوا تماما هناك ... وجاء رومل وقرأ الرسالة ونظر اليه ضباطه فشاهـــدوا عضلات وجهه تختلج اثناء قراءتها والقى بها علـــى منضدة ليقرأها الضباط .. كانت تقـــول :

من الفوهرر الى رومل ...

انا زعيمك ، وكذلك الشعب الالماني ، عندنا ثقة تامـــة فـــي شخصك كقائد ، وفي شجاعة القوات الالمانية والايطالية التي تقاتـــل معركة دفاعيـــة بطولية تحت قيادتك في مصر ، وليس لدينا اي قـــرار الا ان تقف بحـــزم وصلابة وتلقي بكل قدة ورجل الى المعركة ، وبالرغم مـــن تفوق العـــدو ، فسيأتي الوقت الذي يضعف فيه ، ولن تكون هذه هي اول مـــرة في التاريخ تنتصر فيها العزيمة الاقوى على كتائب العدو المتفوقة ... ولا يوجد امامك سوى النصر او الموت .

وناقش وستفال رومل في امر الرسالة .. وقال له أن هذا يعني افناء الجيش .. فقال رومل :

ـ انا جندي ولا بد من تنفيذ الاوامر ..

وارسل الى الفوهرر يقول : ان جبهتنا قد تحطمت ، والعدو يتدفق الى مؤخرتنا ، واصبح امر الفوهرر لا معنى له .. سنتراجع الى موقع فوكه وننقذ ما يمكن انقاذه ...

وصمم رومل على الا يطيع اوامر قائده الاعلى وقرر ان يتخذ هذه الخطوة على مسؤوليته الشخصية ..

وعاد رومل الى مقر القيادة ، ليجد الفوهرر قد وافق على الانسحاب ... ولكن كيف حدث ذلك ؟.. ان وراء ذلك قصة ..

سر الانقلاب

ما هي قصة هذه البرقية التي لولاها لتغيرت نتائج العلمين ، وكان يمكن ان تغير مجرى التاريخ ؟ ..

المكان : راستبرج ـ قيادة الفوهرر .

الزمان : الساعة ٢ ظهر ٣ تشرين الثاني .

الفوهرر يصيح في جودل رئيس الاركان حينما سلمه تقرير رومل عن ٢ تشرين الثاني .. لماذا لم يسلم لي هذا التقرير الا الآن فقط ؟.. وكان في امكان جودل ان يقول له : لانك ترقد في الفراش الى وقت متأخر يا زعيمي .. ولكنه سكت ..

وامسك هتلر بتقرير رومل وصاح : لماذا لم اوقظ ؟ فصاح جودل اخيرا : ان ذلك بسبب الضابط الحارس الذي رفض ان يوقظك ..

وصاح هتلر ليحاكم هذا الضابط عسكريا ، وحوكم فعلا في مساء نفس اليوم ، وعزل الى رتبة عسكري ونقل الى كتائب العمل .

ويعلق الكونت شيانو وزير خارجية ايطاليا في مذكراته على معركة العلمين قائلا : « للنصر آباء كثيرون ، ولكن الهزيمة يتيمة » .. ولو طبقنا ذلك على حرب افريقيا فانه اذا كانت كل هذه الانتصارات من مرسى البريجة الى سيدي عبد الرحمن ، هي انتصارات رومل فان هزيمة العلمين كانت ايضا هزيمته .. ولكن من المحقق تماما انه لا يوجد قائد جيش في العالم يمكن ان يحرز نصرا على جيش مونتغمري الثامن بالقوات التي كانت لدى رومل .. فقد كانت القوات بعيدة كل البعد عن التماثل ، وما قامت به وحدات رومل خلال ٢٢ يوما لما يدهش حقا ..

ويقسم المحللون العسكريون معركة العلمين الى ثلاث مراحل :

الاولى : مرحلة اختراق الموقع الدفاعي للمحور وتثبيت اقدام القوات المهاجمة داخل هذا الموقع من ٢٣ الى ٢٤ تشرين الاول .

والثانية : مرحلة القتال المتلاحم التي تتضمن القيام بعدة عمليات

هجومية متتابعة داخل الموقع الدفاعي للعدو في اتجاهات مختلفة لتحطيم هذه الدفاعات . وهي من ٢٤ تشرين الاول الى او تشرين الثاني .

والثالثة : وهي مرحلة الانطلاق الى الارض المفتوحة حتى يمكن دفع القوة المدرعة الى مناطق العدو الخلفية من ٢ الى ٤ تشرين الاول .

وقد قال الكسندر قائد عام قوات الشرق الاوسط : انه صاحب خطة العلمين .. ولكن مونتغمري يقول في مذكراته ... ايضا :

« بلغني انه قد اذيع ان صاحب خطة العلمين هو الكسندر .. والخبر لا صحة له ، فانني كنت أصمم خططي فيما يختص بالعلمين بنفسي ، الا انني اطلع عليها الكسندر فيوافق عليها ، بل يدع لي ولاركاني المسؤولية في ذلك ، للثقة العظيمة التي يشعر بها نحونا » ..



الجاسوسية في كل مكان

محمد أبو ريف الكويتي

الفصل السابع عشر
امـــام العلمين
تفـوق الحلفاء بكـل انـواع السلاح
وفشل البراعة العسكرية امام التفوق العددي الحربي

الموقف :

كانت وحدات الفيلق الافريقي تقف في سنة ١٩٤٢ ، عنـــد أبواب القاهرة ، ولكن حالتها العسكرية كانت تدعو الى الشفقة .. فقد كان الجنود في حالة يرثى لها من التعب والاعياء ، حطمتهم معـــارك الصحراء والرمال والحر والذباب والديزانتريا ..

وأما المارشال رومل ، فكان يجلس في سيارة القيادة الكبيرة ، يدرس التقارير الواردة اليه ، ويعيد النظر في الخطط التي وضعها للهجوم الاخير..

وكان في هذه اللحظات الحاسمة ، من تاريخ المعارك الافريقية مصابـا بالخانوق ، عيناه جاحظتان شديدتا الاحمرار ، كما كان يشكو من تضخم الكبد ..

وكان يقول لضباطه :

ــ في أوائل تموز ، وعندما كنا نزحف باتجاه العلمين ، كنت أريـــد منع الانكليز من التمركز أمام الاسكندرية ، رغم الاجهاد الذي كنا نشعر بـه ، وكان غرضي من وراء ذلك ، تفادي جلب معدات جديدة وتحويل الحـــرب السريعة الخاطفة ، الى حرب خنادق ومراكز حصينة ثابتة .. لان الضبـاط والجنود الانكليز مهيئون لحرب كهذه اكثر من غيرهم ..

ولكن رومل لم يتمكن من تحقيق هدفه بخرق جبهة العلمين ، وبقي في مراكزه لا يستطيع التقدم . حدث ذلك في أوائل تموز ، وفي مساء الثالث منه على وجه التحديد .. ومنذ ذلك وقوات رومل تقف أمام الاسكندرية ..

بين ٢٥ أيار ١٩٤٢ و ٣٠ تموز ، وقع في الاسر ٦٠ الف جنـدي ، بين انكليزي وجنوب افريقي وهندي ونيوزيلندي وفرنسي واوسترالي . وخسر البريطانيون الفي دبابة ومدرعة .. وكان جيش رومل يتزود طيلة أسابيع من الغنائم البريطانية ، حتى وصلت نسبة الاليات الانكليزية والاميركيـة ، التي يستخدمها الى ٨٥ بالمائة من مجموع الاليات التي يملكها .

أما خسائر رومل في نفس الفترة فكانت فادحة أيضا ، اذ قتل ٢٣٠٠ ضابط وجندي ، وجرح ٧٥٠٠ وأسر ٢٧٠٠ .. وكان عـدد جنود جيش افريقيا في آب من ذلك العام ٣٤ الف رجل . أما خسائر الايطاليين فقـد بلغت الف قتيل و ١٠ الاف جريح وخمسة الاف أسير .

رغم كل هذه الخسائر لم يتمكن جيش افريقيا من الوصول الى القاهرة، وها هو يقف في العلمين امام الخطر الذي كان رومل يريد تفاديه ..

كان الانكليز يزدادون قوة يوما بعد يوم وخطوط مواصلاتهم تتراوح بين ٩٠ و ٢٠٠ كيلو مترا ، والبواخر الانكلو ـ أميركية تأتي بالمؤن والمعدات ، وبكل شيء يمكن نقله عن طريق راس الرجاء الصالح ، هذا فضلا عن النجـدات الكبيرة ، التي كانوا يستقدمونها باستمرار من سوريا والعراق .

بينما لم يتلق رومل من نجدات سوى الفرقة ١٩٤ وفيلـق المظليين « رامسك » . وقد وصل هؤلاء الرجال وليس لديهم وسائل نقل .. أمـا المؤن القادمة من المانيا وايطاليا عبر المتوسط فلم يكن يصل منها الى الجبهة أكثر من الثلث ، فقد كان لا بد من نقلها من طبرق وبنغازي ، وأحيانا مـن طرابلس عبر طرقات طويلة كانت تتعرض دائما لغارات سلاح الجو الملكي .

وفي وقت من الاوقات كان هناك الفا مدرعة ومائة مدفع تنتظر نقلها من ايطاليا الى الجبهة ، بينما كان في المانيا ألف مدرعة و ١٢٠ دبابة تنتظر أيضا نقلها الى شمالي افريقيا ، ولكن رومل لم يتسلم منها شيئا ! فقد كان الاسطول الايطالي عاجزا عن نقلها عبر المتوسط ..

وفي منتصف أيلول كان رومل يعلن ، وفقا لاحصائيات أركان حـرب جيش افريقيا ، ان الانكليز كانوا متفوقين في البر بنسبة ٣ الى ١ وفي الجو بنسبة ٥ الى ١ ، كان الالمان يملكون ٢٢٩ دبابة المانية و ٢٣٤ دبابة ايطالية رديئة .

بينما كان الانكليز يملكون ٧٠٠ دبابة جديدة ومدفعيتهم متفوقة بشكل ظاهر والذخيرة متوفرة لديهم بكثرة .. أما المحروقات التي تنقص جيش رومل المدرع ، والتي لم تكن تسمح للمصفحات الالمانية بقطع أكثر من ١٥٠ كيلومترا ، فقد كان الانكليز يسبحون فيها !

تشرشل في القاهرة :

وفي أوائل آب وصل تشرشل الى القاهرة وهو في طريقه الى موسكو للاجتماع بستالين ، الذي كان قلقا من هجوم الصيف الذي بدأته القوات الالمانية في القوقاز والدون وستالينغراد .

كان تشرشل يردد في القاهرة ، أنه لا بد من حدوث شيء جديد ، وتبين أن هذا الشيء هو تعيين الجنرال السير هارولد الكسندر أشهر قادة الامبراطورية في التخطيط الحربي ، قائدا أعلى في الشرق الاوسط ، كما عين قائد جديد على رأس الجيش الثامن هو الجنرال « غوث » ، بالرغم من معارضة مستشاري تشرشل لهذا التدبير .. والواقع أن « غوث » كان في الماضي قائدا شديد المراس عنيفا ، ولكنه بعد سلسلة من الهزائم فقد كل رغبة في الحرب ، وراح يعيش مستسلما للقدر ..

وكان واضحا أنه ليس الخصم المنشود الذي يستطيع الوقوف في وجه « ثعلب الصحراء » ..

كان تشرشل يصر على تعيينه ، ويرفض جميع المحاولات التي كان يقوم بها مساعدوه لتعيين الجنرال مونتغمري قائدا للجيش الثامن . كان تشرشل يكره « مونتي » الهادىء الاعصاب الذي لم يكن يبدي اعجابه بلمعات تشرشل العبقرية .

ثم ما لبث تشرشل ان وافق على تعيينه ، وسلمه قيادة الجيش الثامن ليواجه رومل في افريقيا ويعمل المستحيل للتغلب عليه بعد أن وعده بكل ما يريد من الرجال والسلاح والذخيرة .. واعلن مونتغمري أول ما أعلن عن سياسته العسكرية الجديدة فقال :

« لن أهاجم قبل أن تتم جميع الاستعدادات وسأحتفظ بالعلمين حتى تتم هذه الاستعدادات » .

وعرف رومل بنوايا مونتغمري ، ولكن ماذا عساه يفعل ؟

قال الجنرال نهرينغ :

ـ هل كان على رومل ان ينتظر بدء هذا الهجوم البريطاني الذي لا بد أن يكون مستندا ، الى تفوق كبير بالوسائل والمعدات ؟

أم كان عليه أن يستبق الحوادث ، وينكفيء الى مراكز دفاعية ملائمة ، كتلك التي تمركز فيها عام ١٩٤١ عند الحدود المصرية ـ الليبية ؟

من الواجب القول أن الارتداد الى مراكز جديدة وضمان وسائل أفضل للتموين ، ربما كان الحل الافضل ، ولكن هذا كان يعني التقهقر .. وبرلين وروما كانتا ترفضان كل فكرة بالتراجع لاعتبارات سياسية ، مع العلم أن

قرارا كهذا ، كان من الممكن لجيش رومل أن يعتمده بنجاح ، نظرا لامكانياته وتفوقه في المناورة »

والذي حدث فيما بعد ، أن رومل تلقى أوامر صارمة من هتلر وموسوليني والقيادة العامة للقوات الالمانية المسلحة ، للصمود مهما كلف الامر، فلم يجد القائد الكبير امامه سوى حل واحد : الهجوم !

يقول الجنرال « ألن بروك » رئيس هيئة أركان الامبراطورية في مذكراته حول الزيارة التي قام بها للجيش الثامن في النصف الثاني من شهر آب ١٩٤٢ ما يلي :

« كان مونتغمري على علم تام بالهجوم الالماني وموعده في الجنوب وأنه كان يشمل القيام بحركة التفاف نحو الشمال .

هذا بالرغم من أنه لم يمض على تسلمه منصبه في قيادة الجيش الثامن أكثر من عدة أيام . وقد أخذ يشرح لنا كيف ان مدفعيته ستحطم هذا الهجوم . وكان يتحدث وهو واثق جدا لدرجة أن رئيس الوزارة المستر تشرشل اعتبر العملية ناجحة بالتأكيد » .

ويقول الجنرال « هورروكس » قائد القطاع الذي كان الالمان يعتزمون توجيه الضربة الرئيسية اليه ما يلي :

« لم يكن رئيس اركان حربي ورئيس الاستخبارات يشكان لحظة في ما كان رومل يعتزم القيام به أثناء الهجوم .. فقد صرحا لي قائلين : « أن رومل سيهاجم الفرقة ١٣ في نقطة تقع بين منطقة الفرقة النيوزيلندية وقرية الحميمات . فاذا تمكن من خرق جبهة الفرقة السابعة المدرعة فانه يقوم اما بحركة التفاف واسعة وراء « علم حلفا » ، أو يقوم بحركة التفاف محدود فيصل الى مواقع « علم حلفا » من الخلف » .

ولكن القادة البريطانيين لم يتحدثوا في مذكراتهم عن اية خيانة مكنتهم من الاطلاع على خطة الهجوم الالماني . كما أن رومل نفسه لم يتحدث في مذكراته اليومية بشيء عما تلقاه من معلومات حول هذا الموضوع من قبل دوائر الاستخبارات في جيش افريقيا .

أما مونتغمري وقواده فكانوا يصرحون بأنهم علموا بخطة رومل استنادا الى معلوماتهم الخاصة العادية ودراستهم لاسلوب رومل وعقلية الالمان . ثم استنادا الى رحلات الاستكشاف العادية التي قامت بها الطائرات البريطانية.

الهجوم :

وفي مساء يوم ٣٠ آب وفي الساعة الثامنة تماما بدأت المصفحات

الالمانية زحفها في القطاع الجنوبي من جبهة العلمين . وكان القمر ساطعا تلتمع تحت ضوئه كتل الفولاذ الزاحفة .

كانت المفاجئة الاولى عندما نزل رجال القنابل اليدوية من سياراتهم استعدادا للعمل فاذا بهم يقعون على حقل من الالغام أخذت تنفجر هنا وهناك حتى قضت على سرية بكاملها .. وتبع ذلك نيران حامية من الرشاشات الانكليزية مما جعل الضباط الالمان يسرعون في أعادة تنظيم وحداتهم التي شتتها النيران ووقع المفاجأة ..

أما المفاجئة الثانية فكانت عندما حلقت طائرات سلاح الجو الملكي وأخذت تلقي الصواريخ المضيئة التي أطلق عليها الجنود إسم « أشجار الميلاد » فاستحال الليل الى نهار ..

وقد استخدم الطيارون الانكليز طريقة جديدة لكشف مواقع العدو المهاجم ، فكانوا يلقون مشاعل من (المانيازيوم) لا تشتعل الا اذا وصلت الى الارض ، فاذا اشتعلت فليس من السهل اطفاءها ..

قتل الماجور – جنرال جورج فون بيسمارك قائد الفرقة ٢١ المدرعة ، أثناء خرق حقول الالغام الانكليزية وفي نفس الوقت سقط الماجور جنرال كليمان جريحا .

وتجاوزت عقارب الساعة منتصف ليل ٣٠ – ٣١ آب ، والمعركة لا تزال على أشدها في حقول الالغام البريطانية الواسعة ، التي كان الجنود يدافعون عندها بضراوة ، وفي نفس الوقت كانت السماء تمطر قنابل من العيار الثقيل ..

وفجأة تنقض طائرة بريطانية باتجاه مصفحة الجنرال نهرينغ فتنطلق صوبها نيران الرشاشات والمدافع المضادة ولكن الطيار البريطاني يواصل هجومه فيلقي قنبلته ويرتفع في السماء وتنفجر القنبلة قرب السيارة فتتحطم ويصاب الجنرال نهرينغ بجراح بالغة ويغمى عليه .

وهكذا خسر الجيش الالماني ثلاثة من قواده الاربعة والمعركة ما تزال في ساعاتها الاولى .

وفي فجر اليوم التالي أي في الواحد والثلاثين من آب كانت مقاومة البريطانيين قد خارت وتمكنت طلائع جيش أفريقيا من الوصول الى نقطة يتراوح بعدها بين ١٢ و ١٥ كيلومترا عن حقول الالغام الالمانية . ولكن رومل فشل في الوصول الى هدفه . اذ كان يريد أن تقطع القوات المدرعة مسافة ٥٠ كيلو مترا باتجاه الشرق فالشمال . وسبب الفشل يعود الى المقاومة الضارية غير المنتظرة من قبل البريطانيين وكذلك بسبب الصعوبات الطبيعية

التي واجهتهم والتي لم تكن ظاهرة على الخريطة « المزيفة » .. فحيث كان متوقعا ان تصادف القوات الزاحفة سهولا كانت تفاجأ بمرتفعات من الرمال وحيث كان متوقعا ان يكون هناك تلال لا يمكن اجتيازها كان البريطانيون يكمنون في مواقع صغيرة حصينة .

زوال المفاجأة :

عقد رومل وبايرلاين اجتماعا بحثا فيه الموقف ووجدا ان الهجوم فقد عنصر المفاجأة ولم يعد هناك مجال للقيام بحركة التفاف واسعة لتطويق الجيش الثامن برمته . وقرر القائدان متابعة الهجوم والاكتفاء بحركة الالتفاف الصغرى ، والوصول الى « علم حلفا » والاستيلاء على المرتفع رقم ١٣٢ الهام .

وقد اكتشف الالمان ان « علم حلفا » كانت محصنة تحصينا قويا . ولكنهم لم يعلموا ان فرقة المشاة البريطانية ٤٤ القادمة حديثا من بريطانيا موجودة داخل التحصينات ولديها الاوامر بأن لا تتراجع مهما كلف الامر . وفضلا عن ذلك فقد كان هناك مجموعة من الدبابات الحديثة على اتم الاستعداد للخروج من مكانها والقيام بهجمات قوية .

وفي مساء ٣١ آب وبعد معارك طاحنة تبين ان احتياطي المحروقات نقص كثيرا ، بينما لم تصل المحروقات التي وعد بها كافاليرو ابدا. لان ناقلتي البترول « بوتشي فاسيو » و « ايروزي » أغرقتا قرب درنة . كما اغرقت ناقلة ثالثة كان كافاليرو قد أرسلها في اعقاب الناقلتين السابقتين تحسبا للطواريء ..

وكذلك أرسلت باخرة ثانية اسمها « ترجستاري » وهي تحمل براميل ملأى بالبنزين ولكنها أغرقت هي الاخرى امام طبرق وقيل انها دخلت المرفأ وتجاوزت منطقة الخطر ولكنها تلقت أمرا بمغادرته تفاديا لغارة جوية وشيكة الوقوع على طبرق . فكان أن اغرقتها غواصة بريطانية عند مدخل المرفأ . أما الامر الصادر الى الباخرة فلم يعثر له على أثر .

وقيل ان الباخرة المذكورة تلقت أمرا من احدى القطع الحربية الايطالية لتخفيف السرعة من ١٤ الى ١٥ في الساعة تفاديا للالغام المغنطة ..

وفي أول أيلول هاجمت الفرقة الالمانية المدرعة الخامسة عشر بقيادة الكولونيل كراسمان مواقع جبل حلفا .. وتمكنت بعد معارك طاحنة من الاقتراب من حصن ١٣٢ . وما تحمله الجنود الالمان في تلك المعارك شيء لا يوصف . لقد كان عليهم أن يشقوا طريقهم تحت وابل من قنابل الطائرات

وعبر ستائر كثيفة من نيران العدو . تضاف الى ذلك كله الهجمات الجانبية العنيفة التي كانت تقوم بها وحدات مدرعة تابعة للفرقة السابعة .

كان رومل يريد معارضة القدر والوصول الى البحر مهما كلف الامر ليصبح خلف الخطوط البريطانية . لقد شق الفوج الثامن المدرع طريقه باتجاه البحر ولكنه حتى المساء كان لا يزال على بعد ١٨ كيلومترا من الشاطيء. وطوال النهار كانت طائرات سلاح الجو الملكي تكيل ضربات شديدة للمصفحات وعربات التموين . وفي نفس الوقت كانت مهمة تموين الوحدات المتقدمة من القوات الالمانية تزداد صعوبة ساعة بعد ساعة .

بدء التراجع :

وفي مساء أول أيلول قرر الفيلدمارشال صرف النظر عن الهجوم والتراجع الى نقطة البداية ، عند وادي القطارة .. واستمرت عملية التراجع ثلاثة أيام تخللها معارك ضارية ..

فلماذا خسر رومل هذه المعركة الحاسمة ؟ في كل مرة كان يطرح فيها هذا السؤال ، كان يعزى السبب الى نقص كميات المحروقات ..

ولكن الجنرال « فون فايرست » ، كان يشدد على القول بأن سبب الهزيمة ، يعود الى ضعف القوات الالمانية ، وفي الوقت نفسه كان القائد البريطاني الجديد مونتغمري ، يملك أصدق معلومات عن وضع القوات المعادية ، بينما كان ماضيا في تعزيز مدفعيته ودباباته .

وكان من الجائز ، أن يؤدي توفر الكميات اللازمة من المحروقات الى قيام الجيش الالماني بتحركات سريعة تفسد على الانكليز خططهم وتخرق دفاعهم المركز .

كل ذلك كان يذكره الخبراء والنقاد الحربيون ، ولكن أحدا لم يذكر تفوق سلاح الجو الملكي ، على انه سبب رئيسي في فشل الهجوم الالماني ..

لقد كانت معركة « علم حلفا » خاتمة هذا الفصل في حرب أفريقيا ، التي تميزت بشجاعة القائد الالماني وخداعه وذكائه .

لقد خسر رومل المعركة أمام عدو متفوق ماديا ، متفوق في الجو ومتفوق بمدفعيته الثقيلة ..

ولكنه خسر قبل كل شيء ، أمام قائد جديد يعتنق فكرة جديدة ، ويثق بالنصر ، ويثق بمعداته المتفوقة ، خسر رومل أمام قائد عرف كيف يطبع حرب افريقيا بطابعه المميز ... وهذا القائد هو مونتغمري ..

ومنذ ذلك اليوم بدأ (مونتغمري) يملي تاريخ الاحداث ، وبدأ الجيش الالماني الذي طلب منه أكثر مما يستطيع ، يشعر بالهزيمة التي لا مفر منها ..

فبالاضافة الى الخسائر القاسية التي مني بها الالمان .. كان هناك واقع مؤلم هو فقدان الثقة بالفوز فقدانا تاما ..

وليس من الصدفة في شيء أن تكون هزيمة « علم حلفا » ، قد سبقت وربما جلبت ، اذا صح هذا التعبير هزيمة ستالينغراد .

لذلك يمكن اعتبار « علم حلفا » ، ستالينغراد الصحراء ..

الموقف أمام العلمين :

يقول الجنرال فون ايزبيك الالماني :

« كان الطريق الذي يؤدي الى وادي النيل يحاذي ساحل البحر المتوسط ، وسهل ليبيا الصحراوي ، والاودية العديدة التي تملأه ، وأما العلمين فكانت تتركز في أضيق نقطة من هذا الطريق ..

وان باستطاعة المسافر قطعا أن يقطع المسافة الواقعة بين العلمين والاسكندرية في ساعتين اذا سار على الدرب الرسمي المزفت ..

وكان هذا المركز قد خرج على نظام الطبيعة وطبيعة الصحراء ، لان المضيق الوحيد فيه يشكل حاجزا طبيعيا محصنا تحصينا قويا بالاسلاك الشائكة والالغام والمراكز الصغيرة المقامة بالاسمنت المسلح ، تتخللها الملاجيء المنيعة ضد القنابل والمدافع ، وأعشاش الرشاشات المموهة الخفيفة ، والمدفعية المختارة المركزة بعناية فائقة على نقاط المراقبة البديعة التي تستطيع الرؤيا بالعين المجردة ..

هذه القلعة المحصنة المؤلفة من مرتفعات العلمين ، وقف الجيش الثامن الانكليزي يتمركز فيها ، ويحاول منع الالمان من اجتيازها ..

وكذلك لم يبق أمام الجنرال ريتشي الانكليزي بعد أن ردّه رومل عن كل الارض الليبية ، الا أن يتمركز في هذا المكان ، وأن يعمل المستحيل للمحافظة على ما تبقى من الجيش الثامن ، وقواته المختلفة من الاستراليين والنيوزيلانديين والهنود .. وقوات أخرى من جنوب أفريقيا ..

ولما كان مركز العلمين قويا كما قدمت، فقد كان بامكان الجنرال ويتشي أن يعتبر الموقف حسنا ، وأن يطمئن الى ان باستطاعته ايقاف رومل عنده ، وبعد أن أجهد قواته كثيرا حتى وصل الى هذا المكان ..

وفي الوقت نفسه أخذ الانكليز يعززون قواتهم بالامدادات التي كانت تردهم برا وبحرا وجوا ، بينما لم يكن يصل الى (رومل) من المؤن والذخائر والجند الا أقلها ، حتى أن كثيرا من الانكليز قد اعترفوا بصراحة بأنه اذا كان رومل قد فشل في الوصول الى مصر فلقلة قواته وضعفها ، كما اعترفوا بأنه في اليوم الاول من شهر تموز ١٩٤٢ ، لم يكن لدى الفيلق الافريقي الالماني

من الدبابات سوى ١٢ دبابة ، مستعدة للقتال ، لان أكثر دباباته كان قد تعطل وفسد في أثناء الزحف المرهق والمعارك المتتابعة ، فأعجب بعـــد هذا كيف يستطيع (روميل) الظفر في معركته هذه وهو في مثل هذا الوضع اليائس الضعيف ..

ومع هذا لم يلق (روميل) بالا لهذا كله ولم يفكر في مسائل التمويـــن هذه اعتقادا منه بأن هذا من واجب القيادة الالمانية العليا ، التي يجب عليها أن تمد جنودها بالاسباب اللازمة للظفر والنجاح ..

حتى الانكليز لم يتورعوا عن تخطئته والقول بأنه كان عليه أن يحسب حسابا لنقص جنوده وضعف ذخائره وسلاحه وأن لا يحاول الهجوم دائمــا وأبدا معتمدا في الحصول على ما يريده على الاسلاب التي سوف يربحها من عدوه بعد كسره ، وهي خطة قد نجح فيها أكثر من مرة ، ولكنها لم تكـن خطة حكيمة يستطاع الاعتماد عليها دائما وأبدا ..

الهجـــوم :

ولقد بدأ (روميل) هجومه على مواقع العلمين في الساعات الاولى من اليوم الاول من شهر تموز ١٩٤٢ .

وبدأ الفيلق الالماني والفرقة التسعون الهجوم ، فصبت عليهما الطائرات الانكليزية قنابلها ، وأخذت المدفعية الالمانية تقذف قنابلها على مواقع العدو ، وشارك سلاح الطيران الالماني في المعركة ، ولكن مواقع العدو لم تسقط ، فقد كان الانكليز يدافعون بعناد عن كل شبر من الارض ..

استؤنف الهجوم مجددا أثناء الليل ، وظل الانكليز رغم هذا الهجـوم محتفظين بمراكزهم ، يدافعون عنها بضراوة ، وهاجم النيوزيلنديون الفرقـة الايطالية فمزقوها ، فولت هاربة ، وأسرعت الدبابات الانكليزية التي وصلت حديثا لمساعدة النيوزيلنديين ، فاضطرت المدرعات الالمانية الى الوقوف في وجهها وردهــا ..

وفي لحظات معدودات تمكنت من تدمير أكثر من مائة دبابة بفضـــل المدافع عيار ٨٨ مم ، ومدافع الدبابات التي كانت تمطرها بقنابلها كالمطـر الجارف ..

وبهذا أوقف الهجوم الانكليزي ، وأبعد الخطر عن الجبهة الالمانية ، وكان على الالمان في الوقت نفسه وقف هجومهم الذي بدأوه ، كما اضطر رومـــل الى ارسال بعض قواته لتحل محل القوات الايطالية التي ولت الادبار .. وانسحبت ..

ومن الغريب ان اكثر ذخيرة المدافع المضادة للدبابات كانت قد استعملت

واستهلكت ، ولو عرف العدو بهذا لافاد من حاجة الالمان الى الذخيــــــرة الحربية ، وشدد الضغط عليهم ، وفي المساء بدأت قوافل الذخيرة تصل من طبرق الى الميدان ، ولكن النقص كان لا يزال واضحا بارزا ، وكان الالمان قــد خسروا نصف قواتهم تقريبا ، وخسر العدو أكثر من ذلك ..

وأدرك رومل أن النجاح في المعركة ، اصبح معلقا بمسألة التموين ، وان الفريق الذي يحصل على أكبر كمية من الدبابات والذخائر هو الذي سيربح المعركة بالتأكيد ..

لقد تفوق الجيش الالماني في معارك الصحراء ببراعة قيادته وتضحيات جنوده ، ولكن براعة القيادة وتضحيات الجنود لا تكفيان للوصول الى النصر ، وقد يستطيع رومل أن يهاجم مواقع الانكليز في العلمين وقد يتمكن مــــن اختراق هذه المواقع ، ولكن ما الذي يستطيع أن يفعله بعد هذا ، اذا كان سيخسر اكثر جنوده وذخائره ؟

وما الفائدة من وصوله على رأس حفنة صغيرة من الجنود الى غاياته ؟

وهناك شيء آخر .. ما الذي سوف يفيده اذا ظل في مكانه مخندقا على نفسه هو وجنوده بانتظار الذخائر والمؤن التي كانت تصل اليه متقطعة ، لا تكفي لمعركة طويلة ولا لهجوم صاعق ؟

ولهذا كان رومل في حالة حرجة ..

فهم يريدون منه الاستيلاء على مصر ، ثم لا يمدونه بالاسباب التــــي تمكنه من الوصول اليها ..

واذا جثم في مكانه بانتظار المؤن والذخائر فيما تصل هذه الذخائـــــر والمؤن الى عدوه باستمرار ، فانه سيصبح بعد وقت قصير أعجز مــــن أن يناجز عدوه أو يقف في وجهه .. بعد أن يحصل هذا على كل ما يلزمه مـــــن الدبابات والطائرات والمدافع ..

لقد كان دائما ينظر بقلق متطلعا الى البحر .. ينتظر وصول القوات والنجدات والذخائر التي طلبها .. ليستطيع تتويج الانتصارات التي حققها حتى الان ، بنصر حاسم تنتهي معه حرب الصحراء ، وتنتهي معه معركــــــة افريقيا ..

ولكن شيئا من هذا لم يصل بالقدر الذي يمكنه من القيام بالهجـــــوم المطلوب ..

واذا كان الامر كذلك ، فلماذا احتل الالمان جزيرة (كريت) والجـــــزر القريبة منها ..؟

لقد كلفهم هذا غاليا ، وفرقة واحدة من المظليين ممن هبطوا على كريت

كانت كافية لو أرسلت خلف مراكز الجيش الانكليزي لتدمره وتزرع الرعب في صفوفه ، وتبث الفوضى والاضطراب في جميع اسبابه ووسائله ..

بل لو ارسلت فرقة منها الى الاسكندرية لتمكنت من احتلالها وأنهت معركة العلمين ..

لقد كانت القيادة الالمانية العليا تعرف خطورة مسألة التموين ، وكم وعدت رومل بسدّ هذه الثغرة ، وارسال كل ما يريده ويحتاجه ..

نعم لقد ارسلوا بعض القوات ولكنها لم تكن كافية ولا كانت لتسد النقص الذي كان يقع باستمرار ، ما استمرت المعارك والهجمات ..

نقص في كل وجه :

واما القيادة الانكليزية العليا ، فقد أدركت الموقف أكثر من ادراك القيادة الالمانية العليا له ، وقررت أن ترسل للجيش الانكليزي في مصر كل حاجاته ، بينما كانت القيادة الالمانية لاهية بمعركة روسيا ، التي أخذت تستنزف ذخائرها وأسلحتها ورجالها ..

ولا بد أن القيادة الانكليزية قد فطنت الى الوضع الشائك للفيلق الالماني ، أمام العلمين ، فأخذت الغارات الجوية تنهال عليه ، وأخذت المدافع تلقي بقنابلها على مراكزه ، حتى بلغ عدد القنابل التي أطلقت في السادس من تموز ، على مراكز احد الكتائب المدرعة الالمانية ، ما يقارب ٣٦٠٠ قنبلة ، وطبعا لم يكن كل هذه القنابل عديم التأثير ..

واذا أضيف الى هذا كله ، النقص الذي دبّ في القوات الالمانية ، خصوصا في عدد الجنود والدبابات ، كان الموقف أبعد ما يكون عن الامل او التفاؤل ..

لم يكن في الثامن من تموز ، ورغم الامدادات التي وصلت خلال الاسبوع الفائت ، لدى الفرقتين المدرعتين الخامسة عشرة والحادية والعشرين سوى خمسين دبابة لكل منهما ، وكتيبة رماة يبلغ عددها ثلاثمائة جندي وعشرة مدافع ضد الدبابات ، وكتيبة مدفعية تملك ٢٨ مدفعا ، ولم يبق لدى الفرقة التسعين المؤلفة من أربع كتائب سوى ١٥٠٠ جندي و٣٠ مدفع ضد الدبابات وبطاريتين تملك كل منهما أربعة مدافع ..

وكان فوجا الاستطلاع يعدان معا ١٥ سيارة استطلاع مدرعة ، و ٢٠ سيارة مدرعة لنقل المدفعية ، وكانت مدفعية الجيش تملك ٤ بطاريات خفيفة ، و ١١ بطارية ثقيلة ، وفرقة المدفعية ضد الطائرات تتألف من ٢٦ مدفع من عيار ٨٨ مم و ٥ مدفع من عيار ٢٠ مم .

وكانت بقية الفرق على مثال ما قدمنا نقصا ، وضعفا في الرجال

والمعدات ، ومع هذا فلم تكن معنويات الجيش الالماني متداعية ولا ضعيفة ، بل لقد قام برد هجوما قامت به الفرقة الخامسة الهندية مع قوات اخرى يسانده السلاح الجوي البريطاني القوي ، ودحرها وردها على اعقابها ..

وفي هذه الايام القليلة الماضية، وبالرغم من هجمات الطيران البريطاني، والقصوف الجوية المستمرة ، والغارات العديدة التي حاولت فتح الثغرات في الجبهة ، فقد تمَّ في ٩ تموز تجمع قوات الجيش المدرع الالماني استعدادا لهجوم جديد ..

لقد أخذت الارض تهتز من جراء القصف الجوي الذي كان يقوم به الجانبان ..

وتقدمت القوات الالمانية فاستولت في جبهة العلمين الجنوبية على موقع (قبر العبد) بعد أن انسحبت منه القوات الانكليزية بصورة مفاجئة تبعث على الاستغراب لان الموقع كان محصنا وفيه ملاجيء قوية من الاسمنت وخنادق ممتازة لاطلاق النار والدفاع ..

ولما قال الجنرال ريتشي بهجومه في صباح الغد تبعثرت الفرقة الايطالية أمامه ، واستسلم عدد كبير منها ، وانفتحت ثغرة في الخطوط الالمانية سدَّها رومل حالا ..

وفي الحادي عشر من تموز أطلق (رومل) هجوما معاكسا ردَّ به القوات الاسترالية .. وأزالها من مواقعها ..

ولحظ رومل في الايام القليلة الماضية أن العدو كان يوجه هجماته على المراكز الايطالية ، فيدمرها ويبعثرها لثقته أن الايطاليين ، لن يقفوا في وجه جنوده ، وأن باستطاعته فتح ثغرة أو ثغرات في خطوطهم .. كما أحسَّ رومل ، ان ما يفقده من قواته لا يستطيع تعويضه ، بينما العدو يعوِّض ما يخسره أضعافا ..

وكان أن وصل في هذه الاثناء الى مقر قيادته المارشال كسرلينغ الالماني والجنرال كافاليرو الايطالي ، وبعد أن درسا الموقف وعداه بالمساعدة وارسال النجدات والذخائر والاغذية ، ولكن الوعد شيء ، والتنفيذ شيء آخر ..

ومع هذا فقد عمل رومل جهده للافادة من القوات والذخائر القليلة التي كانت معه ، فكان ينتقل في الجبهة وسط الحر الشديد الخانق يهاجم هنا ويدافع هناك ..

وقد استطاع أن يردَّ هجومين واسعين انكليزيين بخسارة لا تذكر ، كما

دمر في الثالث والعشرين من تموز ١٤٦ دبابة انكليزية واسر حوالي ١٤٠٠ جندي ولكن هذا كله لم يكن ليحسم الموقف ، اذا لم تصل الامدادات بسرعة، واذا لم تعوَّض الخسائر في الرجال والعتاد حالا ..

ولما أحس رومل بأن ما يفقده في ساحات القتال لا يعوضونه عليه قال بمرارة :

ـ لست ادري بعد هذا الوقوف الطويل أمام العلمين ، اذا كانت خسارة الحرب في أفريقيا ، قد أصبحت مؤكدة لا شك فيها ..

وكان واثقا من أن وقوفه موقف الدفاع سوف تكون له نتيجة واحدة ، وهي خسارة المعركة ، بعد أن شاهد النجدات تتوالى على عدوه ، والاسلحة تتدفق عليه ..

أمام هذه الحالة الخطيرة اضطر رومل بعد أن قام ببعض الهجمات ، ونجح في التقدم الى مناطق خطوط الدفاع الانكليزية ، الى وقف هجماته هذه والارتداد الى مواقعه الاولى أمام العلمين ، بعد أن قلَّت الوقود عند قواته المدرعة ، وبعد أن اشتدت غارات الطائرات البريطانية على خطوطه، ولم تعد تسطيع الطائرات الالمانية ردها ، لان طائرات العدو كانت أكثر عددا أضعافا مضاعفة ، كما لم يعد بالامكان الوقوف أمام هذا القصف الجوي الذي أصبح لا يطاق ..

وانه لما يثير العجب حقا ، أن يستطيع رومل الثبات بقواته الصغيرة ، أمام قوات العدو المتفوقة ، وأن يكلفها من الخسائر ، أضعاف ما يتكبده ويلحق به ...

ولكن هذا النجاح لن يكون له كبير شأن ، اذا لم تحل مشاكل التموين بسرعة .. بعد أن أصبح من المستحيل القيام بهجوم جديد .. كما قد يتبدل الموقف فيصبح في صالح العدو ، التي كانت امداداته تتوالى وتتلاحق .. بين ساعة وأخرى .

وقد أنذر رومل القيادة الالمانية العليا ، بأنه اذا توقف هو عن الهجوم فان الانكليز سيهاجمونه ، بعد أن أصبحوا يفوقونه جنودا وسلاحا ..

وقد عين رومل موعد هذا الهجوم العتيد وتنبأ بأنه قد يبدأ في تشرين الاول من سنة ١٩٤٢ .

الفصل الثامــن عشر

الساعات الاخيرة أمام العلمين

رومل مريض وكيف قابل هتلر في المانيا

أريد كثيرا من الدبابات والبنزين والجنود للوصول الى الاسكندرية

متـــاعب :

لم يعد باستطاعة رومل أن يتقدم الى الاسكندرية كما كان يتوقــع ان يفعل .. بعد أن وصل الى العلمين .. وشاهد خط الدفاع المنيع الــذي تمركز فيه الجيش الثامن البريطاني ، والذي استند جناحـــه الايمن الى البحر ، وامتد جناحه الايسر في الجنوب الى حوالي ٧٠ كيلومترا ، وارتكـز أخيرا على (منخفض القطارة) وهي أرض واسعة منخفضة عن سطح البحر ، من الصعب اجتيازها ..

ومع هذا كله فلم يكن الجيش الثامن في مركز دفاعي لا يستطيـــع الالمان اجتيازه لو كانوا يملكون الرجال والاسلحة ، بعد أن هزم وارتد عـــلى أعقابه ليقبع في العلمين ..

لقد كان الموقف حرجا بالتأكيد لولا الامداذات الهائلة التي كانت ترد الى الجيش الثامن ، والانكليز أنفسهم لـم يكونوا على ثقة مــن استطاعتهم وقف التقدم الالماني ، كما اخذوا يحسبون الف حساب لاسوا الاحتمالات ، فاحرقوا كثيرا من الاوراق الرسمية في القاهرة ، وامروا بترحيل كثير مــن المدنيين الانكليز من رجال ونساء ، وغادر الاسطول الانكليزي مرفأ الاسكندرية حتى لا يتعرض لهجمات الطائرات الالمانية وهو جاثم فيها ..

كما بدات الاستعدادات للدفاع عن الدلتا في حال نجاح الالمان في اختراق خطوط العلمين .. ووضعت الخطط للقتال أثناء الانسحاب الى فلسطين والعراق ، في حال استيلاء الالمان على الدلتا ، كما كانت هناك خطوط في الماضي لمتابعة الحرب من كندا فيما لو اجبرت الحكومة الانكليزية على مغادرة انكلترا ..

ولكن الجنرال أوكينلك لم يكن أكثر رغبة في التخلي عن العلمين ، من المستر تشرشل في التخلي عن لندن ، بل كان الجيش الثامن يهاجم الالمان طيلة شهر تموز لاستعادة زمام المبادرة منه ، أو سحقه اذا أمكن ، فشن الهجوم الاول في ٢ تموز بعد أن أخفق رومل في احداث ثغرة في مركز العلمين في أول تموز ..

ولقد بقي الطرفان في صراع ومعارك عدة أيام ، يتقدم الانكليز تارة ، فيردهم الالمان ، ويتقدم الالمان فيردهم الانكليز ، وتقول المصادر الانكليزية :
أنه في ٢١ تموز فيما كان الاستراليون يهاجمون في الشمال ، قامت الفرقة النيوزيلاندية بهجوم في الوسط تدعمها المدرعات لشطر مواقع العدو الى شطرين ، ولكن المدرعات الانكليزية هزمت وأخفقت المحاولة .. رغم أننا ربحنا أرضا ذات قيمة ..

وفي ٢٦ تموز شن آخر هجوم رئيسي في الشمال من منطقة (تل العيسى) فأخفق أيضا في وجه هجمات المانية معاكسة ، حتى انتهم الجنرال أوكنليك في ٣٠ تموز الى الاعتقاد باستحالة القيام بعمليات هجومية أخرى في الوقت الحاضر على الاقل ، على أن يعاود هجماته في منتصف أيلول عندما تصله الامدادات اللازمة ..

وعند ئذ تكون الفرقة ٤٤ التي وصلت مؤخرا من انكلترا والتي كانت تدرب الان في الصحراء ، قد أصبحت مستعدة للمشاركة في المعارك ..

كما كانت الفرقة المدرعة الثانية التي وصلت أيضا تسلح في الوقت الحاضر بدبابات اميركية وتدرّب على استعمالها ..

كما يكون قد انتهى تدريب الفرقة المدرعة العاشرة وأعيد تجهيزها ..

وقد اتفق الجنرالان الكسندر ومونتغمري الذي تسلم القيادة في ٢٥ آب سنة ١٩٤٢ ، على تأجيل الهجوم مدة شهر ريثما تصبح كل هذه الفرق جاهزة للعمل ..

بينما رومل نفسه لم يكن يحصل على شي من هذه الامدادات ، حتى ولا على البنزين الذي يكفي لتحريك دباباته ومدرعاته .. وكانت القيادة الالمانية العليا لا تزال تخادعه ، وتمنيه بارسال الامدادات ثم لا تفعل شيئا ، واذا

العمليات في العقيلة
١٣-١٦ ديسمبر ٩٤٢

الفرقة النيوزيلندية الثانية

اميال
٤٠ ٣٠ ٢٠ ١٠

تقدم القوات الانكليزية في شمالي افريقيا

ارسلت مددا ... كان صغيرا لا يكفي للدفاع فكيف للهجوم ..

هذا الى ان سلاح الطيران الانكليزي كان سيد الموقف ، في هـذه الايام بالذات ، مما أقنع رومل أن لا فائدة ترجى من متابعة المعركة في العلمين ، واخذ على الاثر ينسحب في الثالث من ايلول ليستقر في مراكز أقوى وافضل .. واحفظ لجنوده ..

مريض :

بعد مضي ثلاثة أسابيع اضطر رومل للمرة الاولى في حياته ان يقـدم تقريرا يعلن فيه عن مرضه ، ويطير الى المانيا للمعالجة ..

وقبل ان يدخل المستشفى قابل هتلر في مقر قيادته ، وأخـبره ان مجموعة البانزر الافريقية تقف أمام أبواب الاسكندرية ، ولكن يستحيل عليها أن تدفع الباب اذا لم تعزز بالامدادات اللازمة المتتابعة ، كما أنها لا تستطيع أن تفعل شيئا دون وقود ولا بنزين ..

ذلك أن الامدادات التي كانت تصله أو أكثرها كان يفرقه الاسطـول الانكليزي في البحر المتوسط قبل وصوله .. ولكن هتلر طمأن رومل الى انه سيمده بما يطلبه وقال له :

« لا تقلق اني عازم على تقديم المساعدة اللازمة لجيش افريقيا ،وستقع الاسكندرية في أيدينا قريبا » .

ثم أخبره ان الالمان يصنعون بواخر صغيرة تشبه قوارب الانزال وهي مخصصة لافريقيا ، وأن مائتين منها ستكون جاهزة قريبا جدا ، وهي مسلحة بمدافع من عيار ٨٨ مم .. وستكون هدفا صعب المنال اذا ما قورنت بناقلات البترول ، كما تستطيع التسلل في الليل ، وبهذه الوسيلة تحل قضيـة البنزين .. »

ولكن شيئا من هذا لم يقع ..

وعقب هذه المقابلة اخذ هتلر رومل وأراه دبابة النمر ، ومدفع الهـاون المركب الهائل الذي واجهه الانكليز في ايطاليا بعد ذلك ، وقال له :

ــ ان هذين السلاحين ينتجان الآن بالجملة ، وستكون الاولية لافريقيا ، وأن كميات من هذه المدافع سترسل حالا الى قواتك ، وسوف نستخدم مـا لدينا من النقل الجوي لهذه الغاية .. كما أن هناك سلاحا سريا جديدا ذا قوة مخيفة ، بحيث أن ريحه اللافح يلقي بالرجل من فوق جواده الى مسافة ميلين ..

ضحك رومل لهذا الوصف الجميل ، ولكن هتلر في الواقع لم يكـن بعيدا عن الحقيقة في حديثه هذا ، ففي تجربة القنبلة الذرية في نيو مكسيكو،

تحركت احدى البنايات مسافة قدمين عن قواعدها الصلبة وكانت تبعد أربعة أميال عن مركز الريح اللافح ..

ولقد نظر رومل نظرة جدية الى وعود هتلر الاخرى ، وان شك في مسألة القنبلة الذرية ، بعد أن رأى دبابات النمر والاسلحة الاخرى ، راجيا أن تكون القيادة العليا عند وعدها وأن ترسل له الاسلحة التي وعدته بها ..

ولكن الجنرال فون توما ، الذي شاهد رومل قبل سفره الى المانيا يقول :

« ان رومل لم يعد واثقا من موقف قواته ، وان كان يتظاهر بذلك حتى يظل جنوده على ايمانهم بالنصر القريب .. »

ولم تساور (رومل) الشكوك الا بعد مضي أسبوعين على هذه المقابلة ، وقد أسرَّ بشكوكه الى زوجته قائلا :

– اني لاعجب اذا كانت غايته من هذا الحديث ادخال الطمأنينة الى نفسي فحسب ..

ويقول من أرخوا له أنه أخذت تساوره منذ ذلك الوقت ريبة غامضة في هتلر ..

وقد تقرر أثناء هذه المقابلة أن لا يعود رومل الى افريقيا ، ولما خرج من المستشفى كان الاتجاه السائد أنه سيتسلم قيادة مجموعة جيوش في أوكرانيا الجنوبية ، وأن الجنرال شتوما سيخلفه في قيادة الفيلق الافريقي..

وقد أبدى هتلر عناية خاصة بصحة رومل ، وقال له : أن تغيير المناخ سيفيده ..

ولعله أراد أن لا يكتشف خيبة أمله اذا عاد الى افريقيا ، ووجد أن ما وعده هتلر به من المعونات لم يتحقق ..

وكان رومل لا يزال في مستشفى (زيمرينغ) حين اتصل به هتلر بالهاتف في ظهيرة ٢٤ تشرين الاول قائلا :

« لقد أتتنا أخبار سيئة من أفريقيا يا رومل ، فالجو هناك شديد الاكفهرار والحلكة ، ولا يدري أحد ما حدث للجنرال (شتوما) هل تشعر بتحسن بحيث تستطيع العودة الى افريقيا ، وهل ترغب في ذلك ؟

ولم يكن قد مضى على معالجة (رومل) في المستشفى غير ثلاثة أسابيع ، وكان لا يزال مريضا جدا ، لا يستطيع العودة الى الصحراءللاشتراك في معركة يائسة ، ولكنه لم يفكر بالرفض ابدا .. فقد ترك قلبه مع الفيلق الافريقي .. ولهذا غادر المستشفى في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي بطريق الجو ، وتوقف في ايطاليا للبحث في قضية الامدادات التي

كان في أشد الحاجة اليها ، ثم هبط في جزيرة كريت ، وفي الساعة الثامنة صباحاً كان في مقر قيادته في شمال افريقيا ..

معركة خاسرة

لما وصل روميل الى افريقيا .. كان الالمان قد خسروا معركة العلمين .. بل لقد كانت المعركة خاسرة قبل ان تبدأ ، لان الالمان لم يكونوا يملكون من البنزين ما يستطيعون معه الحركة ..

ولقد علق الجنرال (بايرلاين) ، الذي كان في اجازة وعاد بعد يومين على الموقف ، فقال :

ـ لم يستطع روميل ان يفعل شيئا فقد تسلم زمام المعركة وهو لا يملك شيئا من الاحتياطي .. بعد ان زج كله في المعركة .. كما لم يكن هناك سبيل الى تغير مجرى الحوادث التي تتابعت بعد ذلك ..

وكانت مصلحة الاستخبارات الالمانية تعتقد انه ليس بوسع الانكليز القيام بهجوم في شهر تشرين الاول ..

وذهب ضابط من مقر القيادة الالمانية العليا ، الى افريقيا ، لينقل هذا الخبر الى قيادة الفيلق الافريقي ، ولكن الانكليز بدأوا هجومهم بعد أربعة وعشرين ساعة من وصوله ، وكان ان لقى الجنرال شتوما الذي حل محل روميل ، وهو في اجازته حتفه ، فمات بالسكتة القلبية ..

وكان روميل قبل سفره بالاجازة ، قد وضع خطة للدفاع ، اذ شطر دباباته فوضع فرقة (البانزر) الخامسة عشرة في اقصى الشمال ، والحادية والعشرين في الجنوب ، وكانتا خلف الخطوط مباشرة ، مما يؤكد عدم ثقته بالايطاليين الذين كانوا يحاربون معه ..

وقد تأيد سوء ظنه هذا .. اذ انهم اخذوا يتراجعون عند ابتداء الهجوم الانكليزي ، خصوصا امام القصف البريطاني الجوي .. ولولا المشاة والمظليون الالمان الذين وزعوا بينهم ، لما وقفوا ابدا ..

وكان الجنرال مونتغمري في هذه المرحلة من الحرب يتفوق بالعدد ، وبصورة هائلة بالدبابات والمدافع والعتاد ، وكانت العلمين معركة عتاد ومواد ، وقد تبعتها خطة حاذقة في ستر حركات الجيش الانكليزي ، كما اوحى الى الالمان ، أن الهجوم سيكون من الجنوب ، بينما احاط بالتكتم الشديد الاستعدادات للهجوم الحقيقي في الشمال ..

وقد وضعت مئات السيارات المزيفة فوق هياكل الدبابات في مناطق

التجميع ،كما وضعت سيارات النقل المزيفة في مواقع الدفاع ، بحيث يؤتي بالمدافع الى هذه المواقع ليلا ، وتخبأ تحت هذه السيارات المزيفة ، كما استبدلت المدافع والدبابات الحقيقية التي نقلت الى لمناطق الامامية بحذر ، بكثير من الدبابات والمدافع المزيفة التي صفت في مناطق القتال الموهومة ..
واسرع ببناء المستودعات المزيفة في المنطقة الجنوبية وكانت تبني ببطء شديد ، كما اخذت تعمل هناك شبكة لاسلكية مزيفة ، ومدت انابيب بترولية مزيفة ايضا مع محطات بترول ومستودعات مزيفة في اتجاهات مموهة ، وعمد الى عدم انجازها ، وروقبت حركات السيارات بحيث لا تترك اثرا في الرمل ينم عليها ، كل هذا بالاضافة الى ان سلاح الجو الملكي لم يترك لسلاح الجو الالماني سبيلا للاستطلاع الجوي الذي يمكنه من معرفة الحقيقة والاستعدادات القائمة ..

كانت الخدعة ناجحة جدا بحيث ان تاريخ الهجوم ووجهته الرئيسية ، ومكان وجود المدرعات الخفيفة ، كل هذا كان بالنسبة للالمان لغزا وطلسما يضاف الى هذا ايضا اخفاء فرقتين اضافيتين ،و١٤٠ مدفعا ، و١٥٠دبابة في منطقة الفيلق الثالث عشر في الشمال ناهيك عن وجود مخزون من البنزين لا يقل عن ٧٥٠٠ طن ..
وقد كتب الفيلد مارشال الكسندر يقول في هذه المناسبة :
ـ لم يتمكن العدو من تركيز موارده ضد هجومنا الحقيقي الا بعد ثلاثة ايام من شن هذا الهجوم ..
اي في ٢٦ تشرين الاول ، حين تسلم رومل القيادة بعد قدومه من المانيا ، ولعل من المفيد ان نتساءل ، هل كانت ستنطلي الخدعة ، بهذا القدر على رومل ، لو انه كان فيشمالي افريقيا ، اذ لا يحتمل ابدا ان يركن (رومل) الى تقارير الاستخبارات الالمانية التي كان يسيء الظن فيها كثيرا ..

خسارة المعركة

لقد بدات الجولة الحاسمة في معركة العلمين في غياب (رومل) ..
وبدات والالمان لا يملكون من السلاح والعتاد الا قليلا ، لا يتناسب في حال من الاحوال مع ما يملكه العدو منها..
ولما وصل (رومل) الى مقر قيادته وشاهد الموقف ادرك انه امام معركة خاسرة ..
وكانت فرقة (البانزر) ال ١٥ في الشمال مضرجة بدمائها ، بعد ان القى

بها اشتاتا ضد تجمعات الفيلق المدرع العاشر الانكليزي ، وقام (رومل) يجمع مـا تبقى منها ، واتى بفرقة البانزر الـ ٢١ من الجنوب ، وامر الفرقة الخفيفـة الـ ٩٠ بالتقدم الى المناطق الامامية ووضع خطة هجوم معاكس ، ولم يكن قد مضى على وصوله سوى ساعات ، وكان الهجوم المعاكس هذا يستهدف النقطة الشماليـة حيث توغل البريطانيون في الخطوط الالمانية ..

لقد كان رومل قبل يوميـن في سريره بالمستشفى ، وكان موليا ظهـره شطر الشمس بعد الظهيرة ، يقـود في مخيلته هجومـا كثيفا مـن الدبابات مع فرقتيه المخلصتين اللتين كانتا اطوع له من بنانه ..

لقد كان يعرف الارض ، واتيح لـه الوقت الكافي ليتأمل خططه ، وهـو في طريقـه بالطائـرة الى الصحراء ، ورغم كل هـذا فقـد برهـن بعمله هذا على سرعـة في التقديـر والتقرير ، وبسالة في الجهود ، واوقف الهجوم قبل ان يتراجع فيه ، بتأثير نار المدفعية العدوة وقنابل الجو ، ولكن عدوه ما لبث ان جدد هجومـه في اليوم التالي ، فارتد الالمان امـام النار الهائلـة التي كانت توجه اليهـم ، واعقب هـذا قتال وحشي مستميت ، عندما اندفع الاستراليون باتجـاه الشمال مرة ثانيـة ليقارعـوا القوات الالمانية المتبقية ..

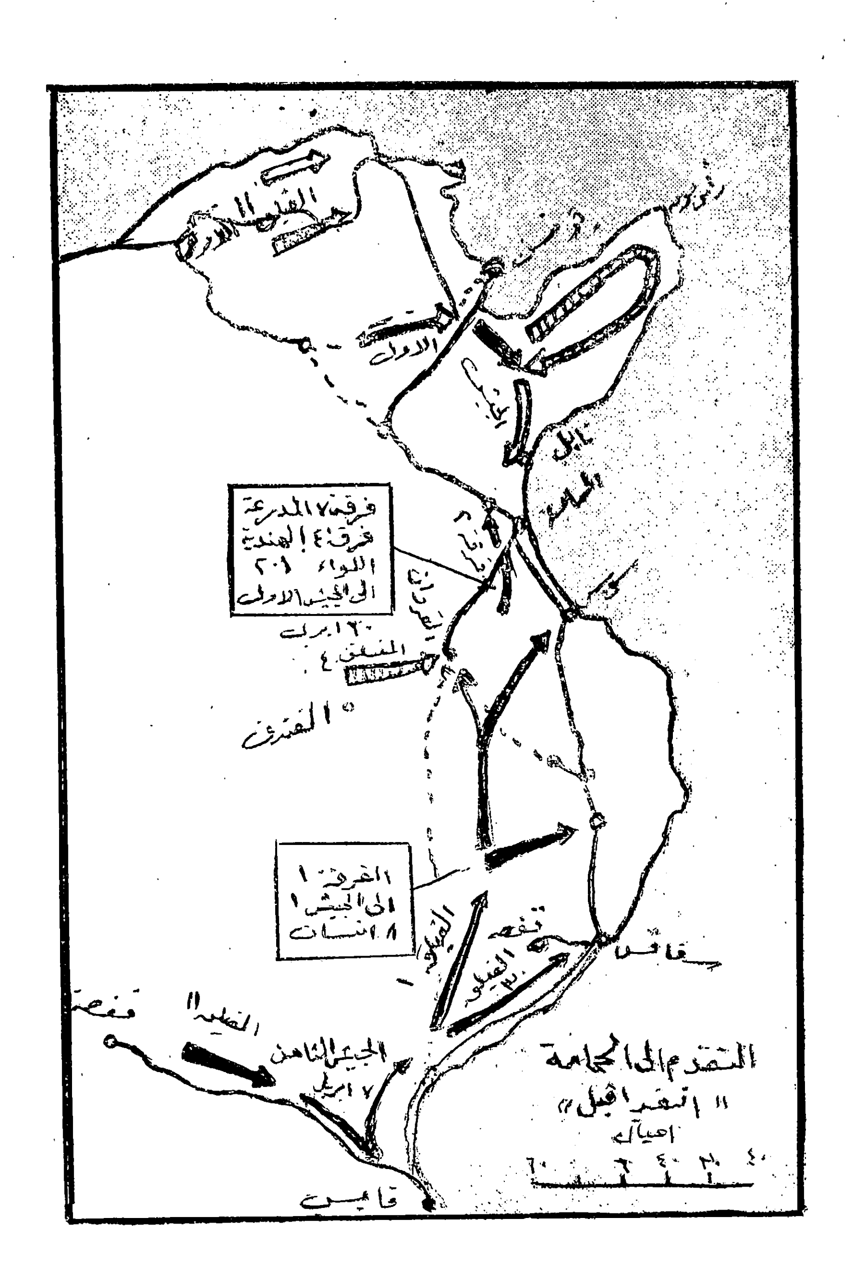
وكان ان حول الجنرال مونتغمري وجهة هجومه في الساعات الاولـى لليوم التالي من تشريـن الثاني واندفع الى الجنـوب حيث نقطـة الاتصـال بين الالمان والايطاليين ،وفتحت المشاة ثغرة على جبهة عرضها ثلاثة كيلومترات وشـق بذلك طريقا للمدرعات ، ولكنه لم يكـن بالطريق السهل اذ خسر اللواء المدرع التاسع ٨٧ دبابـة امام النار الذي اعتاد (رومل) نصبها من المدافـع المضادة للدبابات ، وحين حاولت الفرقـــة الانكليزية المدرعة الاولى اقتحام الثغـرة المذكورة ، انقضت عليهـا فرقـة البانزر ٢١ الالمانية ..

كان العدو يقاتل وهو واثق ان المعركـة معركـة حياة او مـوت ..وان على مصيرهـا يتوقف مصيره في افريقيـا ..

لهذا كان يبذل قادته كل ما اكسبتهم تجارب الحرب المدرعـة مـن مهارة وخبرة ، وقتئذ قرر رومل الانسحاب ، فقـد كان العدو يفوقه اضعافا مضاعفة ، ولن تغنيـه مهارته ولا عبقريته امـام هذه النار العاتية ، التـي لا يستطيع امامها رجاله صمـودا ولا وقوفا ..

وفي هذه اللحظات الحاسمة ، اتاه أمر من هتلر بالثبات في معركـة العلميـن حتـى النهايـة ..

حار رومل ماذا يفعل . .لم يكـن بامكانه مخالفة هذا الامر ، كمـا لـم يكـن بامكانـه تنفيذه ..


فرقة ٧ المدرعة
فرقة ٤ الهندية
اللواء ٢٠١
الى الجيش الاول
الفرقة ١
الى الجيش ١
٨ ابريل
الجيش الثامن
٧ ابريل
قابس
قفصة
التقدم الى الحمامة
اميال

أيريدون منه الثبات في مكانه وهو لا يملك رجالا ولا سلاحا للمقاومة والثبات ..

حتى الجنرال (فون توما) صرح بمخالفته لهذاالامر ، وقررالانسحاب وكان آمر الفيلق الافريقي ..

وانسحب (فون توما) ليلا .. وسكت (رومل)عنه ..ولم يعاقبه..

وكانت القوات الانكليزية قد اجتازت أرض المعركة ، واصبحت غربي الالمان ،ولما ذهب (بايرلاين) يبحث عن فون توما وجده واقفا امامدبابته المحترقة وقبل ان يصل اليه اخذته بعض الدبابات الانكليزية اسيرا .. فارتد بايرلاين الى مقر القيادة ، واصبح آمر الفيلق ، ولكن هذا الفيلق أصبح لا وجود له ،بعد ان دمرت قواتهالمعارك الاخيرة ..

ازداد مرض (رومل) امام الفشل الذي تعرضت له قواته ..

وان كان مرد هذا الفشل ضعفها وقوةعدوها،ولكنه قام بمعلية الانسحاب بمهارة عظيمة بعد ان استحال عليه مهاجمة عدوه ، بعد أن اصبح لديه ٨٠ دبابة يقابلها عند العدو ستمائة دبابة .. فكان عليه والحالة هذه ان ينقذ ما يستطيع انقاذه ، وسيكون حظه عظيما اذا نجح في ذلك ..

وعندئذ حدثت المعجزة .. وهطلت امطار غزيرة في ليل ٦ تشرين الثاني احالت الصحراء الى مستنقع ، فأفاد (رومل) من هذه الحالة وسحب البقية الباقية من قواته بنظام .. اجمع المراقبون على انه كان آية في البراعة وبعد النظر ، وحسن التخطيط ..

ولولا تدخل هتلر ، لامكنه انقاذ كل قواته ، ولما مني الالمان بكلهذه الخسائر امام عدو يفوقهم فيكل شيء .. اضعافا مضاعفة ..

وفي اللحظات التي كان يتراجع فيها رومل ، كانت الامداداتوالذخائر الالمانية والايطالية تتدفق على تونس ، لنجدة رومل ، او لارسالها الى الجبهة لمساعدته .. ولكن بعد فوات الفرصة ..

وان من أمر ما تجرع رومل من غصص .. رؤية ما تستطيع القيادة الالمانية العليا عمله حيال قضية خاسرة ، اذا ما قورن عملها هذا بما كان ينبغي ان تفعله حيال قضية ناجحة ..

خصم رومل

لما بدأ مونتغمري معركة العلمين لم تكن معه آلهة الحرب فقط ، بل كان معه التفوق في السلاح ، والامكانيات البشرية ، والتصميم على الحصول على اي نصر .. باي ثمن !

والذين درسوا تاريخ الحرب العالمية الثانية .. يعلمون انها مرت بعدة مراحل فاصلة .. عندها يصبح اي شيء اقل من النصر ، هو .. هزيمة !

ولقد استطاع ثعلب الصحراء الالماني روميل ان يخلق احد هذه المواقف امام الحلفاء في سنة ١٩٤٢ .

ان تشرشل قال عن روميل في مذكراته : (أن امامنا خصما جريئا بارعا بل ان لدي الجرأة لاقول : اننا نواجه قائدا عظيما خليقا بكل تقدير .. امامنا عقلية عسكرية نادرة) !

مرة اخرى تجد وليام شيلر يقول في كتاب (ارتفاع وسقوط الرايخ الثالث : (ان روميل وصل في زحفه الجريء الى العلمين ولديه ١٣ دبابة فقط صالحة للعمل) !

وكان هذا الموقف العسكري النادر هو الذي دفع تشرشل الى ان يكتب بعد ذلك : (ان روميل نزع اكاليل الغار عن رأسنا ومرغ بها الرمال)!

وفي اوائل سنة ١٩٤٣ كان مع تشرشل في مكتبه احد مساعديه . وفوجىء برئيس الوزراء يذرع الغرفة ذهابا وايابا ثم يصيح فجأة :(روميل؟ .. روميل ؟.. أهناك امر يهمنا سوى ان نهزمه ؟!)

●●●

الى هذه الدرجة وصل الموقف الذي خلقه روميل بانتصاراته في شمال افريقيا وعندما وصل روميل الى العلمين كان الموقف قد وصل الى الذروة . واصبح اي شيء اقل من النصر بالنسبة للحلفاء هو هزيمة لهم .

وبسبب هذا الموقف اجرى تشرشل تعديلات جذرية في القيادات العسكرية بالشرق الاوسط كله . واختار الكسندر : لقوات الشرق الاوسط ومونتغمري قائدا للجيش الثامن المواجه لرومل في الصحراء الغربية . وكانت هذه هي فرصة مونتغومري .

وعن مونتغومري يتحدث مؤلف الكتاب (الجنرالات في الحرب) . والذي يتناول بالتحليل عددا من القواد العسكريين في الحرب العالمية الثانية . وهو فعلا يفعل ذلك . فهو يتكلم عن ايزنهاور واوكلينيك وويفل ... ومونتغومري .ولكن نصف الكتاب مخصص تقريبا لمونتغومري . لان المؤلف نفسه ــ وهو فرانسيس دي جوينجاند ــ كان يعمل رئيسا لاركان حرب بمونتغومري في الحرب العالمية الثانية ابتداء من معركة العلمين .

●●●

لقد تولى مونتغومري قيادة الجيش الثامن في ١٣ آب سنة ١٩٤٢ .

وقبل هذا التاريخ كان المسئول عن الجيش الثامن هو اوكلينيك . وكان المؤلف يعمل رئيس اركان حرب الجيش معه . ويقول المؤلف : لقد كنت اعمل في تلك الفترة مديرا للمخابرات العسكرية البريطانية في الشرق الاوسط من شباط ١٩٤٢ . وقرر القائد العام اوكلينيك ان يأخذ بنفسه قيادة الجيش الثامن المواجه لروميل. وتبعت ذلك ايام مثيرة وعصيبة ، ايام ركزنا فيها على استخدام كل ما نملكه لنوقف رومل حول العلمين .

كان الموقف مائعا جدا . لم يكن احدنا يعرف ما الذي سيحدث في اللحظة التالية . عندما كنا نسمع ضجيج الدبابات في الجبهة كنا نخشى دائما عن انها قد تكون دبابات الجيش الافريقي (جيش رومل)!

وفي آب ١٩٤٢ عين قائد جديد للجيش الثامن ضمن تغييرات واسعة في المناصب الكبرى وعندما جاء مونتغومري ليستلم قيادة الجيش الثامن قابلته لاول مرة خارج الاسكندرية . وركبت معه الى مقر القيادة الامامية للجيش . وفي الطريق كنت اشرح له الموقف العام وحالة الجيش الذي سيصبح تحت قيادته . وقلت له اشياء كثيرة من بينها الخطط المتعددة التي تم وضعها قبل وصوله . ولكن رد الفعل عند مونتغومري كان قاطعا . قال لي مونتغومري : احرقها جميعا ! من الان فصاعدا هناك خطة واحدة : كل جندي يبقى في مكانه ، يحارب في مكانه .. وفي حالة الضرورة ـ يموت في مكانه !

●●●

ثم يقول المؤلف : في اليوم التالي استدعاني مونتغومري . قال لي :

اسمع يافريدى .. ارجو الا يضايقك الكلام الذي سأقوله لك ، ولكني اشعر بان من واجبي ان اخبرك ان لدي ضابط اركان حرب في انكلترا. لقد دربته بنفسي ويعرف اسلوبي جيدا . وقبل ان اغادر انكلترا اخبرته بأنني قد استدعيه الى العمل هنا ليوفر علي متاعب كثيرة. فاذا حدث ذلك ارجو الا تقلق لان هذا ليس له علاقة بك شخصيا .. ولكني بالتأكيد سأعمل على نقلك الى اي مكان تختاره !

ثم يقول المؤلف : انني كنت اتوقع ذلك . ولكن هذا النقل لم يتم . والفضل في ذلك الى رومل ! فلقد عام رومل بهجوم رئيسي بعد ثلاثة او اربعة ايام ولكن الهجوم فشل لانه حدث بالاسلوب الذي توقعه مونتغومري . وكانت معركة قاسية انتهت بانتصارنا . وبعدها لم اسمع من مونتغومري موضوع نقلي مرة اخرى . ولذلك فانني دائما اشعر بامتنان كبير للفيلد مارشال رومل ، الذي اعتبره جنديا عظيما وفقا لجميع المقاييس .

انتهى الكتاب

فهرست

الفصل	الصفحة	
	٥	قصة بطل
١	١٢	الحرب في الصحراء
٢	٢٨	ستراتيجية الحرب الانكليزية
٣	٤٣	معارك الصحراء
٤	٥٧	العبقرية العسكرية العظيمة عند رومل
٥	٩٢	القائد البارع في المعركة
٦	١٠٦	وصف المعارك العنيفة في ليبيا
٧	١١٨	الموقف في شمالي افريقيا
٨	١٣١	الساعات المثيرة الحاسمة في معارك افريقيا
٩	١٥١	رومل يهاجم من جديد
١٠	١٧٣	الاستعداد لمعركة الدبابات
١٢	٢١٢	عبقرية الزحف والهجوم في معركة الصحراء
١٣	٢٢٥	رومل لا ينام ويبدأ هجوما جديدا
١٤	٢٤٨	الجولة الخارقة المبدعة
١٥	٢٥٧	رومل يسرع نحو النيل
١٦	٢٦٧	قبل المعركة الفاصلة
١٧	٢٧٩	تفوق الانكليز بكل انواع السلاح
١٨	٢٩٢	الساعات الاخيرة امام العلمين

مطابع دار الغد ـ تلفون ٢٣٠٥١٢

المجموعة العسكرية الستراتيجية

يكتبها كبار القواد العسكريين



رومل

الثمن ٥٠٠ ق. ل. او ما يعادلها